AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY
3 8534 01213 4668

AC
10
.B
19

FROM THE
LIBRARY OF
THE
AMERICAN UNIVERSITY
IN
CAIRO

من مكتبة
الجامعة الامريكية بالقاهرة

IMP - LIBRARY

ocm 166325938

AMERICAN UNIVERSITY LIBRARY CAIRO

السنابل

AC
106
B8
1927

بقلم

الخوري بطرس البستاني

وهي بعض ما نشره المؤلف في المجلات والصحف السيارة

باسمه او باسم مستعار

في مواضيع شتّى من اجتماعية وخُلقية وادبية وعمرانية
نظماً ونثراً

وذلك من سنة ١٩٠٨ — ١٩٢٧

بيروت

طبع بمطبعة « مكتبة » صادر في بيروت سنة ١٩٢٧

892.74
B96S

٨١٤,٦
ب ج . س

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

21270

بسم الله المنشئ المبدع

اما بعد فقد طالما الحّ علينا فريق من اصدقائنا الأوفياء وخرّيجينا الادباء ان نجمع في سفر واحد ما دبّجه يراعنا من المقالات في مواضيع شتّى من ادبيّة وخُلُقية واجتماعية وعمرانية من يوم نزلنا الى ميدان الانشاء حتى هذا العهد . وكنا كلّما هممنا بان نجيبهم الى هذه الأمنيّة يعترضنا من المشاغل ما يُلجئنا الى التسويف والإرجاء . ولم نفتأ على هذه الحال حتى جاد علينا الدهر في هذه الايام ببعض ساعات فراغ فلم نتمالك عن ان ننتهز هذه النهزة السانحة قبل فواتها ، وشرعنا نجيل النظر في ما نشرناه من المقالات في المجلّات والصحف السيّارة ولا سيما التي تولّينا انشاءها وتحريرها زهاء عشرين سنة ، من النصير ، الى الروضة ، الى الإخاء ، الى صديق العائلة ، حتى اجتمع بين يدينا ما يُنيف على ثلاثمائة مقالة ، انتقينا منها ما اثبتناه في هذه المجموعة تذكاراً لايام الصبا وهو من اعذب التذكارات . ورأينا ان نضم اليه نحواً من ثلاثين مقالة عقدناها في هذا الحول رغبةً في ان نؤدّي الى ناشئتنا الوطنية الخدمة التي نتوخّاها

وكل من يتصفّح هذه المجموعة بعين النزاهة والتجرّد يراها من اغنى المجاميع بالمواضيع الرائقة المبتكرة التي لم يسبق للكتّاب ان ينسجوا على منوالها ولم يسلف للمنشئين ان يخوضوا حومات ميدانها . وانما اطلقنا لليراع فيها العنان واكثرنا من ايراد المترادفات وتمثيل المعنى الواحد بصور متعددة ووجوه مختلفة قصد ان يتدرّب المتخرجون على اساليب الكتابة ويقفوا على افانين الكلام ومذاهب التعبير فتكون الفائدة أوفى لهم وأجدى . هذا هو الغرض الذي رمينا اليه في ما جرينا عليه ونظنّنا قد اصبنا المرمى ولم نمل عن المحجّة .

ثم عنّ لنا أن نُذيّل هذا الجزء بشيء من منظوماتنا ممّا جادت به قريحتنا الكليلة . وسننشر الباقي في الاجزاء التالية تباعاً اذا أنسأ الله في اجلنا .

ولا بأس من ان نجاهر هنا بأننا لم نَرِد في كل ما كتبناه مورداً اعجمياً بل عوّلنا

فيه على ما اذّخرناه في خزانة الذاكرة ورسمناه على لوح المخيّلة في اثناء تصفحنا لما خلّفه لنا منشئونا البلغاء من الآثار الادبية الثمينة والتصانيف العلمية الغالية حتى جاء عربياً صميماً بحتاً لا دَعِيًّا ولا هجيناً . ولأن يقال عنّا أن ليس في ما وضعناه مسحة من الزخارف الخيالية والتصوُّرات الوهمية خير من ان يقال عنا إننا حمنا حول تلك المناهل ومنها استقينا ، وجلسنا الى تلك الموائد وبألوان اطعمتها تغذينا

ولعلّنا اغرقنا في انتقاد ما رأيناه من المغامز في بعض عاداتنا واخلاقنا وتصرفاتنا حتى لقد يتبادر الى الاذهان أن الامة غائصة في خضمّ زاخر من الشوائب والمعاير ، وامواج النكبات تتقاذفها من كل جانب ، بحيث لم يبقَ من سبيل الى انقاذها من الغرق وانهاضها من لُجج العطب . فنحن اعقل من ان نتحامل على أُمة نعزُّ بعزها ونذل بذلّها ، وانما ندّدنا بها حيث رأينا مجالاً للتنديد قصدَ ان ننبّهها الى عيوبها فتتحاماها ، ونُنذرها بما يتوعّدها به الدهر اذا لم تبرح على ما هي عليه من الاستهداف للمخاطر ولم تتحرّز من المزالق والمعاثر . ولايخفى مافي ذلك من حسن القصد وسلامة النيّة ، ولنا من صفحات ماضينا البيضاء ما يشفع فينا وهو حسبنا .

فعسى أن يصادف هذا المؤلَّف في الاصقاع العربية رواجاً ينشّطنا الى نشر ما بقي لدينا نثرًا ونظماً مما يستغرق عدة اسفار . والله المسؤول ان يمنّ علينا بالعافية ويمهّد لنا العقبات للاضطلاع بخدمة أُمتنا العربية الشريفة التي يلذ لنا في سبيلها الجهاد ويحلو العناء .

الخوري بطرس
البستاني

العصامي خير من العظامي

اذا نشأتَ في بيت خيَّم عليه الخمولُ وأحدقت بهِ الفاقة من جميع جَنباتهِ فلا تحملنَّك ضعةُ نسبك على الونية والفتور ، ولا تدعنَّ اليأس يُنشب فيك مخالبهُ الحادة حتى ينزع من صدرك الهمَّة ومن فؤادك النشاط والمضاء ، بل انظر الى الذين نبغوا في الدنيا من قبلك ، فانَّ اكثرهم قد نشأوا مثلك في الاكواخ الوضيعة ، لا ينتمون الى جدّ اثيل ولا الى أب اصيل ، ولا يتباهون بالعمومة والخؤولة ، بل عوّلوا على ما آثرهم به الله من توقُّد الذهن وشهامة الخاطر وحدَّة العزيمة ، فسابقوا العظاميّين في حَلَبات المعارف وكانوا من المبرّزين

نحن لا نُنكر أن المرء اذا كان من أَرُومة عريقة في النُبل والثراء والشرف والاباء تتوفَّر لديهِ ذرائعُ النبوغ ويكونُ اقربَ الى النجاح ممَّن يتفرَّع عن اصل وضيع خامل ، ولكن اكثر الموسرين يعتمدون في الغالب على مالهم التليد فلا ينصبُّون على اقتباس العلوم وحذق الفنون ليزيدوا أُسرَهم سنًى ونباهة ، فتظل مواهبُهم العقلية مدفونةً فيهم ، فلا هم ينتفعون بها ولا ينفعون ، شأنَ مَن عِلكُ كنزًا من الذهب ولا تنهض به همتهُ الى استخراجهِ من معدنهِ ، فتضيعُ فوائدهُ عليه وعلى سواه

واما ابناء الاكواخ فلا تقع عيونُهم منذ يُبصرون النور الَّا على الشقاء فاغرًا فاهُ لازدرادهم . فاذا ارادوا الهجوع لا يَرون لهم سوى الحضيض مضجعاً ، ولولا أن يتغلَّب عليهم سلطانُ الكرى لنبت جنوبهم عن مراقدهم الخشنة واحيَوا لياليهم سَهدًا . واذا برَّح بهم الجوعُ لا يظفرون الَّا بخبز قفر فإذا أكلوهُ مرةً مأدوماً حسبوهُ قرصَ شهد وسهُلَ مدخلُهُ في حلوقهم كأنه ماء ورد . واذا نظروا الى اجسامهم لا يرون عليها الاَّ اسمالاً . واما اقدامُهم فكما برأها الله لم تألف الخِفاف ولم تنتعل الا الارض .

وبعدَ هذا أفتستغربون أَن ينشَط بنو الخصاصة الى العمل للإفلات من براثن التعس ومناسِر الإعدام والإتراب ، وأَن تكون اطبَّاء البشرية المتألمة من الطبقة التي هي اشعرُ بالالم وأدرى بالنكبات

لا تيأسنَّ ايها المُعدمُ من ادبار الدنيا عنك ولا يُخجِلنَّك أنَّك من ابوين خاملين مُتربين ، بل جرِّد ما فيك من قوة وعزم وانزل الى معترك الجهاد معتمداً على ساعديك المفتولين ، متكلًا على ما اختصك به المولى من نضارة العافية ، وهي من اسنى الآلاء . ثم تاجر بما جاد به عليك سبحانه وتعالى من مواهب الذكاء والفطانة والثقافة وتحلَّ بالصدق والاستقامة والامانة والاخلاص ، حتى اذا عرفك الناسُ بهذه الخلال الفريدة وثقوا بك كل الثقة ، وكان لك من هذه الثقة اكبرُ رأس مالٍ بل خيرُ وسيلةٍ للتقدم والشهرة

وما أبهجَ يوماً تستوي فيه على عرش العبقريَّة وفي يدك صولجانُ العمل الذهبي ، ومن حوليك نطاقٌ من أبصار المُعجَبين بتفوُّقك وشهرتك . وما اسعد يوماً ترى فيه العزَّ ضارباً قبابهُ فوق ربعك ، والمجدَ رافعاً اعلامه الخفَّاقة على مشارف صرحك . وما امجدَ ساعة تنشر فيها ثواقبَ العلاء وشهبَ الشرف في سماء اسرتك ، مبدداً بانوارك الثاقبة شقاءها المكفهرَّ وذلها المدلهمَّ وخمولها الدامس . وما أعزَّ آناً تقفُ فيه الى جانب العظامي وقد بذَّر ثروة آبائه باسرافه ، ودكَّ معالم مجدهِ بطارق تهتكه واستهتاره ، وافسد سُمعَة أُسرتهِ بما اقترفه من الفواحش وما اجترحه من المخازي والدنايا ، حتى البسها من العار ثوباً صفيقاً وأرخى على محياها من الهوان سدلاً كثيفاً

ايها العِظاميُّ السابحُ في بحارملاذك ، المنهمكُ في اهوائك ، المُطلقُ الاعنَّة لنفسك الهوجاء ، اربأ بنسبك ان تلطِخهُ في رَدَغات النذالة ، وبشرفِكَ أن تُدنِسهُ باقذار الخساسة . وايَّاك أن تزدري بمن حرمهم الله ما اسبغهُ عليك من نِعَم الثراء والعلاء ، فرُبَّ بائس هو اشرف منك خُلقاً وارفعُ نفساً وأثقبُ ذِهناً . والإِنسانُ إنما هو انسانٌ بأصغريه ، لا بغزارة نَشَبهِ ولا بشرف نسبهِ . فاذا رأيتَ ولداً ضرب عليه الفقرُ مضاربهُ وتفرَّستَ فيه خيراً فأنفق على تعليمهِ من بعض ريعك تغنم أجره وتُقدِّم لوطنك عُضواً ينفعهُ ، فيكتَب اسمك في عداد المحسنين الى قومك المتوفرين على إنهاض بلادك ، الدائبينَ في نشر المعارف بين فئة منكودةِ الحظ ، التي الله على عواتق المثرين امرَ الاهتمام بها ، وانارة بصائرها المتسكعة في دياجير الغباوة والجهالة . ولكَم يكونُ مبلغُ سعدك اذا نهضت بهذا المفترض المقدس بدلاً من ان تُنفق اموالك بما

يُبهظُ ظهرك من أعباء التَّبِعات ، ويُطلقُ الالسنة في ذمك وهجوك

ولكم تَقرُّ عينُك وينبسطُ فؤادك يومَ يشبُّ هذا الولد البائس ، وهو حاملٌ ثمرات العلم الشهية متحلٍّ بحلى الآداب الرائعة ، ويومَ يزينُ المحافل بخطبه البديعة ويُدبّج الصحف بمقالاتهِ الأثيرة ، وإذ يُصبح حصيفَ الرأي لطيف التدبير دامغ الحُجة بعيد النظر ، بحيثُ يُرجعُ اليــه في مُعضلات المشاكل ومُغلقات المسائل ، فينادي القوم اذ ذاك أنه من غراس يمينك وممَّن نشأوا على مهاد عوارفك ، وغرفوا من بحر فضلك ، وتفيأُوا عنايتك ورعايتك ، فيرعون لك اكبر جميل، وينظرون اليك بعين الاعجاب ، وينوّهون بفضلك في كل منتدى

وامــا ذلك البائس الذي اقلتَهُ عثرَتهُ وانهضتهُ من هاوية الضَّعة والخمول فالله أعلمُ ما يكون من عرفانهِ لاحسانك وشعورهِ بحسن صنعيك بعد إذ أبلغتهُ هــذا المدى من السعادة ، وكحلت عينيه بانوار الهدى والسداد ، ورصَّعت صدرهُ بفرائد المعارف ، وجعلتهُ رجلًا ايَّ رجل بين ابناء موطنهِ الذين اصبحوا يتباهون به في محاضرهم ويتفاخرون بمآثره ومحامدهِ . . . كذلك يفعل ابناء اليُسر والسَّعة في البلاد التي يتنافس فيها المحسنون في المبرَّات . واذا أمسكَ احدهم يدهُ عن بذل شيء من ماله في سبيل البر اغارت عليه الصحف غارات شعواء واندفعت الالسنة في ميــدان هجائهِ ، وثلمت سُمعتهُ وحطَّت من قدرهِ ، وشدَّد قومهُ عليه النكير وسوَّأُوا عليه بخلهُ وعيَّروهُ أَلذع تعيير، حتى يَضطرُّوهُ الى ان يجود بقسم مما تملكهُ يداهُ على من هم في حاجة الى الإمداد، او يجعلوهُ على الاقل عِبرةً من بعدهِ للاغنياء الاشحَّاء فيتحاشون عن ان يقعوا في وهدته او يُوصَموا بوَصمته

على ان اغنياءنا الممسكين يحمدونَ الله على أنهم في بلادٍ لا يسمعون فيهــا الا عبارات الاطراء الكذَّاب من كل فمٍ ملاق خدَّاع ، فلا يخشون مذمَّة ولا يحذرون ان يشدخ مسامعَهم تنديدٌ جارحٌ او انتقاد اليم لذَّاع ، ولذلك يمضُونَ مضــاءهم في مسالك الاستئثار وينطلقون في مضمار الاهواء بدون ان يُوجسوا خيفةً او يتوقعوا محذورًا . وانما يُشجعهم على الاستهتار كونُ اولاد الميسرة والاثراء مقدورًا قدرُهم في هذه الانحاء الشقية بأهلها بحيث تزيد قيمةُ المرء ما زادت امواله وهي الضــلالة

بعينها . فلو كان الاهلون هنا ينظرون الى المرء من جهة ما يعمل لا من جهة ما يملك من حُطام الدنيا وزخارفها الوهميَّة لكانت قيمتُهُ ما يُحسنه من الاعمال لا ما يجمعهُ من الاموال بطرقٍ ربما كانت محظورةً او مَشُوبة بشيءٍ بل باشياءَ من الطمع والغُبن ، وكان اهلُ الثراء يقومون ويقعدون كلّما انقلب عليهم الجمهور وسلقهم بلواذع اسانهِ وقوارص كلامه ، والجأتهم الحال الى ان يتبرَّعوا على اندية البِرّ بقسم ما اكتسبوه طمعاً في حسن الاحدوثة او فراراً من الطعن والتثريب

وأخلِقْ بالحكومة اذا شاءت أن تتدارك حُشاشات المُملقين وتُصلح من شؤون المُدقعين وتُخفّف جيش المُتسوّلين ان تُرصد في كل سنة مبلغاً من المال تبذله في سبيل تعليمهم مِهَناً تُغنيهم عن التسول والتكفُّفِ والتكدية والاستجداء ، فلا يبقون عالةً عليها ولا على الرعية . واذا رأت فيهم ذا عقل ثاقب يُبشِر بمستقبل سعيد فلتدفعهُ الى المعاهد العلمية لعله يقتبس من العلوم والفنون ما يجعله في مصاف الاعضاء المُفيدين لبلادهم . واذا لم يكن في بيت مالها ما يُعينها على الانفاق في هذه الوجوه المحمودة فلتضرب على الموسرين الذين اترفهم المال وأبطرهم، وهم حراصٌ كل الحرص على اذخاره ، ضرائبَ تتقاضاهم اياها سنةً فسنةً مراعيةً فيها مقدار ريعهم ومبلغَ مكسبهم . فاذا فعلَت رأينا كيف ينشأ من اليتامى وابناء الاكواخ نوابغ يفيدون البشرية ويَسمُون بأوطانهم الى المستوى الاعلى

وما اكثرَ الأذكياء الالبّاء في الطبقة المعوزة، وما أوفرَ استعدادهم للتحصيل . فلقد روى لنا التاريخ في كل عصر وافادنا الاختبار انَّ اكثر الاختراعات والاكتشافات كان اربابُها من العصاميّين الفقراء لا من العظاميّين الأَغنياء . فلتصعد اذاً الأُمّة على مناكبهم القويَّة الى روابي العزّ ومراتب المجد اذا تخلّف العظاميُّون عن ان يفضوا بها الى الأَمد المرصود في ساحات الرغد والسعد . وحرامٌ ايُّ حرام ان تبقى الارض المِمراحُ مَواتاً والمِمراعُ المخصاب مجداباً ضنّاً ببعض دريهمات تُنفقُ في سبيل استنباتها واستثمارها

التسامح والمخالقة

أشقُّ ما يكونُ عليه المرء أن يحيا بين قومه وحيداً لا أنيسَ له في عزلته ، ولا مؤسي في نكبتهِ ، ولا مُعزي في محنته ، ولا مُمرّض في علتهِ . وأشقى الناس مَن ناصبهُ ابناء وطنه العداء وكانوا في مُلِمَّاتهِ أعواناً عليه ، بحيثُ اذا نابته بليةٌ أعرضوا عنه وولّوه ظهورَهم

وانما يعاني المرء هذه الجفوة من ابناء بلاده اذا كان شرِس الطباع غليظ المعاشرة ساقط الهمة زمِن المروءة وضيع النفس بذيء اللسان دَغِل الصدر ، أشهى الأمور اليهِ ان يتقلَّب على المهاد الوثيرة ولو تململ قومهُ على أحدّ من شوك القتاد ، وأن تُنصب له وحدَهُ قبابُ العز والمجد ولو كان وطنه على حضيض الذل والضعة والمهانة . ومتى استحكم الاستئثار في المرء حتى اصبح لا يودّ الخير الَّا لنفسه ، ولا يطيب له الا ان يكون في غبطة ورفاهية وهناء ، وسيَّانِ عندهُ أشقيَ اخوانهُ في البشرية ام سعدوا ، فلا تعجب للناس أن يتظاهروا عليه ويتألَّبوا ، وأن يَسوموهُ ما هو حقيقٌ به من ضروب الخسف والخذلان ويضعوا في وجهِ الحواجز ومن حواليه العراقيل حتى لا ينجح له مسعى ولا يستقيم له امر

فاذا راقك يا صاحِ أن يكثُر نُصراؤك وأودَّاؤك فعامل الناس بالحسنى وتودَّد لهم ما استطعت ، وجاملهم جُهدَك واصطنع اليهم من المعروف ما يمتدُّ اليه ذرعك ، وتمنَّ لهم من صنوف السعادة ما تتمناهُ لنفسك ، وكن سلِس الطباع لطيف المعشر انيس المحضر رحيب الصدر بعيد الهمة سريع النجدة ، اذا استصرخك صارخ خففتَ اليه دفعاً للبلاء عنهُ ، واذا قصد اليك احد لسدِّ لُبانة او قضاء أرب اهتززتَ لإجابة سؤلهِ اهتزازَ الأريحيّ للتبرُّعات والمجواد للمبرَّات . وإيَّاكَ ان تخذلهُ وانت قادرٌ على إسعافهِ بمالكَ او رأيك او جاهك او شفاعتك ، واحذر ان تخيّب له أملاً مع ثقتهِ بأنكَ موضع امله وحسن ظنهِ . على أنه إذا تعذر عليك أن توآزره بما يصلح حاله ويرأب صدعَهُ فلا أقلّ من أن تُسمعهُ كلمة مستعذبة تحيي فيه ميتَ الأمل وتُعينه على

التجمُّل . وتحرَّز من أن تزجرهُ او تصرفه يائساً ذليلاً فانك بهذه الجفوة تنكأُ قروحه وتَهيض عظامه وتخنقه يأساً . . .

إن التسامح من أوطد دعائم التآلف وأدعى الاسباب الى التحابّ والتضامّ ، ما انتشر في أمة وتوثق حتى اصبحت أوثق من البناء المرصوص وأمنع من المعاقل اسواراً ، وباتت افرادها في مأمن من أن يثقبها سوس العداء او تندلع اليها نيران البغضاء ، فيتساقَون في اعيادهم كؤوس الصفاء ويتهادَون عبارات الولاء ، وهم آمِنون مطمئنون لا يخشون عدوًّا صوَّالًا ولا فاتكاً قهَّاراً .

واذا راقك أن تستشفَّ الضلوع وتخترق حبَّات القلوب وجوانح الصدور لتعرف مبلغها من التساهل فامدُد اليها مِسبارك ، فاذا لم ترَ في أغوارها اثرًا للتعصب الذميم ، وكانت مكارم الاخلاق مستويةً هناك على عروشها الرفيعة ، فقل إن التسامح في أُمَّتك راسخ القواعد متين المباني ، لا خوف عليه من عاصفة تُزعزع اركانه ومن زوبعة تجتاح بَوانِيَهُ ودعائمَهُ . ولكن اذا بد لك أن الصدور ليست على شيء من الرحب حتى لَتغلي فيها مراجلُ الأَحقاد لِأقلّ هفوة وادنى بادرة ، وأن القلوب تنقبض لِإساءَة وقعت على غير عمد ، والالسنة تنطلق في ميدان البذاءَة والهُجر والهجاء لكلمةٍ فَرطت على سلامة نية ونزاهة قصد ، ثم رأيتَ الناس بعد وقوع من مثل هذه الهفوات التافهة وقد تحزبوا احزاباً وتشيَّعوا أشياعاً ، فالتفَّ كل فريق تحت لواء زعيم يأتمر أوامرهُ وينتهي بنواهيهِ ، واخذ يُصلي خصومهُ احمى نار ، فقل ان التسامح ليتبرَّأُ من أُمَّة قائدُها التعصبُ الاعمى وهي ليست من رحابة الصدر وكرم الاخلاق في شيء

ومعلومٌ أن كل امة مهما تكاثر عدد حكمائها لا يزال الجهالُ الغوغاء فيها أوفَر عددًا من عقلائها ، وهم في الغالب مفطورون على الشرّ مُتحفِّزون له ، يطيرون اليه لأَوَّل نفخةٍ ينفخها نافخٌ في ابواق الفتنة . فاذا لم يكن في الامة المتسامحون المتساهلون لم يردع اولئك الطَّغام عن المنكرات رادع ، ولم يزعهم عن ايغار الصدور وهرق الدماء وازع ، وهناك الطامَّةُ الكبرى

ونحن من أَشدّ الامم افتقاراً الى التسامح نظرًا لكثرة الملل فينا وتفرُّق كلّ ملة الى فرقٍ في نزعاتها ومطامحها واغراضها ومطامعها . فاذا كنا لا نتساهل ولا نُرَبِّي

ناشئتنا على روح التسامح تعذَّر علينا ان نُعزّز فيما بيننا روابط الوئام والوفاق ، وننزع من صدورنا أُصول النفار والشقاق . وأضمَنُ ذريعةٍ لبلوغ هذه البغية المرصودة أن يجتمع قادةُ الافكار من كل مِلة ومذهب في هذه البلاد ويؤلفوا جامعة وطنية للتوفيق بين القلوب المتنابذة والصدور المتنازعة ، واستدراك ما يقعُ من الخلاف بين ملة وملة ، ومداواة كل نزاع بالادواء الشافية ، تفادياً من ان يتسع الخرق ويتباين الصدع

وليجهد الخطباء والصحافيون والأئمة والاساتذة جُهدَهم كلَّهُ في ان يغرسوا فضيلة التساهل في قلوب الناشئة وصدور العامة ، ملقينَ عليهم في هذا الموضوع الخطير دروساً تُلقِّنهم كيف يجب أن يتسامحوا لدى وقوع الطوارئ ، وكيف ينبغي لهم أن يراعوا سُنَّة المخالقة وحسن المعاشرة ، حتى لا ينتقض فيما بينهم حبل الولاء ولا تعكر كأس الصفاء . فاذا نشأوا هذه النشأة المباركة وسلكوا هذا المسلك المحمود لاتنطوي بضع سنوات على هذه البلاد المنكوبة بكثرة المذاهب حتى نُصبح كتلةً واحدة ، فتسود فينا الوطنية الصحيحة سيادَتها في البلاد المتآخية الراقية ، حيث لا يعرف المرء ابن دينهِ الا في معبده ، واما خارجَهُ فكلُّهم اخوانٌ في الوطنية ، وما أجملَ هذه الأُخوَّة وما أحوَجنا اليها

الانفة والاباء

أنفس تاجٍ تصوغهُ للمرء من معدن الإطراء ، وأشرفُ وسام تُرصَّع بهِ صدره ، أن تقول عنهُ : إنَّه عزيز النفس أبيُّ الضيم ، طَمُوحٌ الى المعـالي تَوَّاقٌ الى العظائم ، لا تستقرُّ قدماهُ إلَّا على قمَّة الشرف ، ولا يسبح إلَّا في جوّ النزاهة ، ولا يعرف غير جادَّة الرُّشد ، ولايهوى سوى غواني المجد ، ولا ينزل الَّا في مغاني العزّ وربوع العلياء ، وهو وَلوعٌ بحسن الأُحدوثة ونباهة الذكر ، كَلِفٌ بما يُورثهُ الرفعة وجلال القدر . فالى هذه المحاسن الباهرات ترتاح نفسهُ الأَبيَّة وبمثل هذه المناقب الرائعات والشمائل العطِرات تُحدِّثهُ همَّتهُ العليَّة

ثم ألذعُ هجوٍ تهجوه به وأوجعُ ميسمٍ تكوي به جبينهُ ، أن تنعتهُ بأنه خوَّاضٌ لغَمرات المخجلات ، مُتهافتٌ على ما يُفسد السُّمعة ويُكسِب المذمَّة ، ويقفُ به في مواقف الريبة وسوء المظنَّة ، ويطبعهُ بطابع الشنار ويخلِّف له في وطنهِ اقبح الآثار ، وهو اذا سمع بالسفاسف خفَّ اليها ، واذا عُرِضت سِلَعُ المقابح كان من اكثر الناس إقبالًا عليها . لا يرى العزَّ الَّا في خيانة يجترحها ، ولا الشرف الا في نقيصة يلتحفها

ولا مُشاحَّة أنَّ كلّ امة كثر فيها عددُ أُباتها كانت من اسعد الأُمم نصيباً وارفعها مقاماً وأمنعها جانباً ، لأَن ابناءها لا يتباهَون الا بالمفاخر ولا يَتيهون بغير المكارم والمآثر ، وهم ينفرون من كل وصمةٍ وسُبَّة ، فلا يدعون للعار اليهم منفذاً ، ويأبى إباؤهم إلَّا ان يكونوا في طليعة الامم عزًّا ومجداً . وإنك لَتعرف منزلةَ كل أُمة من الرفعة والصغارة ، اذا نظرت الى مِرآة اخلاقها ، فاذا كانت نقيَّةً صافيةً ليس عليها مسحة من الفساد ، فلا يُخالجنَّك ادنى مرية في ان الإباء مُتسلسِلٌ في عروقها والحفيظة جاريةٌ مع دمها في مفاصلها وأوداجها ، وإلَّا فاحكُم عليها بدون ادنى تحفُّظ بأنَّ اللُّؤم متغلِّبٌ عليها و داءَ الاستهتار مُتفشٍّ بها . وهي لا تُبالي بشرفها أن يداس وبعزِّها ان يُقوَّض وبهيبتها أن تُخرق وبمحارمها أن تُخفر ، ولا تأبهُ للضَّيم ان ينزل بهـا ولا للحيف ان يقع عليها ، ولا تكترث للحريَّة ان تُنزع من يديها ، ولا تستنكف من

النير أن يُوضع في عنقها ، ومن القيد ان تُوثق به قدماها . وسواءٌ عندها أذمَّها الناسُ ام مدحوها ، وكان لها مكانة في القلوب ام ازدرتها العيون ، ولا فرق عندها بين ان تكون نبيهة الذكر او خاملةً ، وأن تكون رفيعة الشأن او وضيعةً ، اذا لطمتَها ثم جُدت عليها بفلس فكأنك نثرتَ على خدِّها الورد ، واذا نفحتها بدينارٍ هان عليها أن تَنالَ من عِرضها وتضعَ من قدرها وتَبغي عليها ما شئت .

هذه حالُ أمة ألِفت الاستكانة والضعة ولم تتبوّأ ارائك السؤدد والعز ولم تُعصَب على هامتها أكِلّة المجد . وأمتُنا العربيَّة هي والحمد لله اعزُّ من ان تُغضي العينَ على القذى او ترضى بالهوان او تخنعَ لجبّارٍ غشوم يُريد استرقاقها . فلقد ورثت الشمم عن آبائها الأُباة ، وهو تراث ثمين تَفديه بالُمهج وتحميه بالارواح . غير انه يشقُّ علينا أن نرى في بعض افرادها شيئاً من الصغارة ، غرسها في نفوسهم هُيامُهم إمَّا بالمال او بالجاه او بالعظمة الوهميَّة . ترى احدهم يُضحّي بشرفهِ وعزة نفسهِ ، طمعاً في ثروة يحاول احرازها بوجوهٍ غير مشروعة ، كأن يطمع في عَرَق العُمَّال مُراقاً على جنبات مصلحتهِ ، فلا يدفعَ لهم جُعلًا يُوازي عناءَهم ، بل ربما حسم عليهم نصفهُ لسببٍ يختلقه اختلاقاً تبرئةً لطمعهِ ، غيرَ ملتفتٍ الى مناخس ضميره ولا لسُنَّة العدل تحظر عليه أن يهضم حقوقَ غيره ، ولا يخافُ من المذامّ ان تتساقط عليه من كل فم ، ولا للمساخط أن تنقضّ عليه انقضاضَ الصواعق من كل جوّ .

وترى آخرَ يعفِّر جبينهُ على عتبة الحُكَّام متذلِّلًا لهم ، لعلَّهُ يرى منهم نظرة عطفٍ ، او ينالُ لديهم بعض الزُّلفة . فاذا ظفر بأُمنيَّتهِ طغى وبغي ، ولم يذر وسيلةً إلَّا توسَّل بها الكيد مزاحميه وقهر منازعيه والنكاية بحسَّاده وشانئيه .

وترى آخر ولا همَّ له الا ان تلهجَ الصُّحفُ بالثناء عليه ويُطنبَ الشعراء في مدحه وينوّه الخطباء بفضله ، وأن يتبوَّأ صدور المجالس والمحافل ، وان تُنثر امام قدميه الازهار حيثما سار . ثم هو لا يتبرَّع بفلس على اندية البرّ ، ولا يحنو فؤاده على بائس ، ولا يتفجع للمهوف ولا يرقُّ لمنكوب . ولو وقف عند هذا الحدّ وكفى الناس شرَّه لهانت به البليَّة ، ولكنه يحوم على الدنايا لخساسةٍ في نفسه ، ويستبدُّ بمن كان من بني قومهِ هشَّ المكسر ليِّنَ الجانب ، ويجلدُ الضعفاء منهم بمقامعَ حديدية ،

ويُنزل بهم ما شاءَ من الوان الضيم ، حتى يتنقَّصهُ المنتقِدون المنصفون ، ويُزري عليهِ منكراته الهجّاؤون المعيّرون . فلا يقع مع ذلك في فؤاده الهجاء موقعاً أليماً مهما كان قارصاً لذّاعاً ، بل يتعزى عنهُ بابتسامةٍ يبتسمها له الحاكم ، وكثيراً ما تكون ابتسامة ازدراء . فلو كان هذا الثَّمِلُ بسُلافة الكِبر حميَّ النفس أبيّها ، لم يألُ جهداً في ان ينفع بني وطنه منفعةً يستميلُ بها نفوسهم ويستعبد خواطرهم ، حتى يبرهن للملإ انه ممن يَعتدُّون باحترام القلوب لا بإطراء الالسنة الخدّاعة ولا يُهمُّه الّا ان يخلِّف في موطنه من الآثار الطيّبة ما يرفع قدره ويُحيي ذكره ، ويُنيله في عالم التاريخ العظمة الحقيقية لا العظمة الوهمية الفارغة التي يتقلّص ظلُّها في حياته ، ولا يبقى لها اثرٌ بعد وفاته .

ان عزة النفس يتنزَّه صاحبُها عن ان يُوارب عشراءَهُ ويُداهن رؤساءَه ، لانه يكون حُرَّ الضمير جريءَ الجنان كبير النفس ، يأبى عليهِ إباؤُه ان يكون في عداد الكذَبة الذين ليس عندهم لنفوسهم ادنى حُرمة ، حتى لقد يبيعونها في سوق المخاتلة والمجاملة الخلّابة كأنها من سَقَط المتاع .

فاذا شاقك ان تعجم عودَ احد الحكّام لِتعرف أهُو قعير الغور في النزاهة والعفاف ، راسخ القدم في النصفة والاستقامة ، بعيدُ المدى في ميدان الحميَّة ، فانظر الى احكامه وتصرفاته ، فاذا رأيتها منطبقةً على الشرع جاريةً على سَنَن العدل ، لا غُبار عليها من المحاباة والهوى ، فاحكم له بالترفُّع عن الرُّشى وسائر المحظورات التي يتلوَّث بها بعض الحكّام الظلَمة ، ثم احنِ رأسك أمام عزَّة نفسهِ واستقامة ضميره ونقاوة إزارهِ ، وإلّا فاحشره بين زمرة المرتشين الغاشمين ، واندب حظَّ أمّة غلَبت على وليِّ شؤونها الصغارة حتى زعزع اركان الشرائع بمطارق طغيانه ، وأنبت في مُحيّا النزاهة بثوراً تُشوّهه ، وفي صدر العدالة دمامل تمِضُّه ، وجشّم الرعيّة نوائب تُقِضُّ مضجعها وتُسهّد مقلتيها . . .

واذا ولجتَ صرحاً فخماً ورأيت ربَّهُ لا يرعى لعقيلتهِ المصونة حُرمةً ، ولا يقضي للزواج عهداً ، بل ينصرف وراءَ اهوائهِ مُمزّقاً عرضهُ بيده ، مستهدِفاً لمطاعن النقّادين ، لا يبالي بأن يُنعوا عليه معايبهُ ومعايره ، فلا تشكَّ في انه من اسقط الناس نفساً

واحطّهم خلقاً وأوضعهم همّةً .

واذا تصفّحتَ جريدةً ورأيت على صفحاتها الثناءَ الأبلغَ على امرئٍ دنيءِ النفس لئيمِ الطبع ، فثِق بأنَّ صاحبها ليس على شيءٍ من الصدق والإباء ، لانهُ خان ضميرهُ وخدعَ قرّاءَه وباع شرف مهنته بمبلغٍ طفيفٍ من المال قبضَهُ من ذلك السافل ، حتى خلع عليه تلك الحُلّة السابغة من المديح الكذّاب ، مع أنه ليس له في نظره ادنى فضل إلّا كونَهُ من المشتركين في صحيفتهِ ، او كونهُ نَقَدهُ مالًا كان الأحرى به ان يترفّع عنه حِرصاً على عِرضهِ ان ينالَ منهُ المندِدون ، وضِنّاً بجريدته أن يُزري بهـا المنصفون إزراءً يُسقطها من العيون .

واذا رأيت ثلّاباً يُموّه الحقائق ويبتدعُ الاراجيف ويغتابُ اهل المروءَة والفضل ، فتيقّن أنه من اخسِّ الناس واجمعِهم للشوائب ، وهواشبه شيءٍ بالذُّباب الذي لايحوم الا على المقاذر والمزابل ، بل اشبهُ شيءٍ بالخنافس التي يُؤذيهـا عَرفُ الورد المِعطار .

والمرءُ متى كان عزيز النفس كان ولا محالة عفيف اليد واللسان ، يرى النقيصة في اخيه فلا ينمُّ عليه ، ويسمع عنه اشياءَ تَعيبهُ فيتمحّل له عذراً ، ويُصيبهُ منـهُ مكروهٌ فيبسطُ عليه جناحَ حلمه . . .

واذا كان عليك دينٌ قد استحقَّ أجلُ دفعه واخذتَ تُماطل الدائن لغير ما سببٍ سوى ما ألفتَهُ من عادة التخلّفِ عن قضاء ما عليك ، حتى الجأتهُ الى ان يتقاضاك إيّاه ويُطالبك به كلما صادفك في الطريق ، ثم احرجتَهُ بعد محاولاتك واعتذاراتك الواهنة حتى رفع عليك الدعوى فأضعتَ وقتَهُ ووقتك في المرافعة ، وكلّفت نفسك من الرسوم ما كنت في غنى عنهُ ، وحمّلتها ذُلَّ الوقوفِ بين يدي القـاضي كأنّك لصٌّ لئيم او مُجرم اثيم ، فقُل حينئذٍ عن نفسك إنها ذليلة ساقطة ، اذ رَضِيت بكل هذه الغضاضات وصبرت عليها صبر اللئام .

واذا طمِعتَ في مال غيرك واغتصبتَهُ اغتصاباً حتى اضطررتَهُ ان يستصرخ اهلَ النَّجدات على دفع مظلمتهِ ، وأَن يستعين عليك بالصُّحف للمحاماة عن حقوقه ، وإزاحة وطأتك الثقيلة عن ظهره ، فثِق أَنك من صِغار النفوس الذين لايخافون حصائدَ الأَلسنة ، ولا يتحامَون التعييرات ، ولا يتلافَون سوءَ الذكر ، ولا يحذرون اللوائم والتثريبات

إنَّ أَبيَّ النفس يتنكَّبُ عن مداخِلِ الريبة ومخارج التُّهمـة ، ولا يخطو خُطوةً تحمِل الناس على أن يُسيئوا به الظنّ ، لأنَّ عِرضهُ عزيزٌ عليه ، وسُمعتهُ اغلى من اللآلئ ، ومقامه اكرمُ من أن يُعرَّضَ للمهانة . وما من شيءٍ اكرهُ الى طبعه من أن يَلحُوهُ لاحٍ او يغمزَ من قناته غامز ، او ينظر اليه احدُ العقلاء بعين الازدراء . ثم هو يأبى إلَّا ان يكون المُجلّي في كل مَيدان ، والسبَّاقَ في كل مجالٍ يتبارى فيه الاقران . فاذا ادرك أترابُهُ الشوطَ قبلَه في مباراةٍ تجارَوا فيها ، التاع فؤادُه أيَّ التياع وخنقتهُ غصَّةُ الخيبة . واذا فشل في امتحانٍ عاناه ، تصبَّب عرقُ الخجل من جبينه ، وبقي اثرُ الفشل على وجهه ، ولوعةُ الاخفاق في صدره سحابةَ عُمره . وأمَّا الوضيعُ القدرالخسيسُ النفس ، الخائر العزيمة الضئيلُ الهمَّة ، فاذا اخفق امام اللَّجنة التي تمتحنهُ فانه لا يبدو على محيَّاه شيءٌ من الحياء ، وربَّما ابتسم ابتسامةً تَنطق باستهتاره واقتحامهِ لجج العار بدون تهيُّب ووجل . وأيَّ امل تعقد على فتىً يترطَّبُ جبينهُ بالمُنديات ولايبالي بالمُخزيات . أَوَتستغربُ ، وقد رأيتَ منه هذه القحة في ذلك الموقف المخجل الذي وقفهُ أمام اقطاب العلم ومصابيح الحكمة ، أن ترى منه مثلها اوافظعَ منها يوم يبرز الى ساحة الكفاح ، أَوَ ترتابُ ادنى ارتياب في ان مستقبلَهُ سيكونُ مُحلولِكاً مُكفهِراً وحياته ملأى بالجرائم والمعاصي والمنكرات والمحظورات التي لا يجترحُها سوى صغارِ النفوس ، ولا يُقدِم على ارتكابها غيرُ سُخفاء الاحلام . .

إنَّ النفس التي تنشأ كبيرةً ابيَّة ، لا تُطيق الهوان ولا يغمض لهـا جفنٌ ، ما لم تقبض على نواصي العز وتُحرز الشأوَ الاقصى في كل حَلبة من حلبات المجد . وما اسعد الامة التي يرسخ الإباء في صـدور بنيها رسوخاً يحملُهم على ان يتساجلوا ويتنافسوا ويتباهَوا بكل مافيه فخرٌ لهم ولبلادهم . فاذا رأوا أمةً فاقتهم بفنٍّ او علم اوسبقتهم الى اكتشافٍ هبُّوا هبَّةً واحدة ، ولايقرُّ لهم قرارٌ ولا يسكنُ ما جاش في خواطرهم من السجس والبلبـال ، ما لم يزيدوا على ذلك الاكتشاف شيئاً من التفنُّن والتأنُّق والابداع ، او يُحدثوا اختراعاً آخر ينفسح لهم المجال فيه لِأَن يفخروا به تلك الأُمَّة التي فاخرتهم بما اكتشفته . . وبمثل هذه المفاخرات والمفاضلات تنهض الامم وتستبحرُ في المعارف وتتبسَّطُ في الفنون .

على ان عزة النفس اولُ ماتبدو في الصِغار وهم على مقاعد الدراسة ، فاذا ابصرتَ ولدًا لا تثور عاطفة المنافسة في فؤاده ، حتى لا يحفل بأن يسبقه اترابُهُ في مباراة يتبارَون فيها ، ولا يكترث للعلامات التي يُحرزها ان تكون دون علاماتهم ، فلا تتوسمنَّ فيه ادنى خير ، وثِق أنه سيكونُ مدى حياته من الخاملين المتقهقرين ، أيةَ كانت الحرفة التي يحترفها . كيف لا ولقد أفادنا الاختبار ان الهمام الناهض انما تظهر عليه مخايلُ الإباء والنشاط يوم يكون يَفعًا أو حَدثًا ، ثم ينمو فيه الشممُ نُموَّه هو في العمر . وهيهاتِ ان تتبدَّل حالُ الولد بعد أن يترعرع ويبلغ أَشُدَّه . فكان على الآباء والاساتذة اذًا أن يُعنَوا العناية كلَّها بأن يغرسوا في قلوب الناشئة الأَنَفة والحميَّة ، والترفُّع عمَّا يَشين الاخلاق ويُصغِر النفوس ويشوِّه السمعة ، حتى اذا شبَّت على هذه المزايا الفريدة نفعت أُمتها المنافعَ الجليلة ، ولم تضنَّ عليها بأموالها ، وبذلت أرواحها في السبُل التي تُعينها على اقتعاد مقاعد العز وتسنُّم مراتب المجد .

ان عزة النفس هي التي تُنسِلُ الابطال وتُنبِتُ اعاظم الرجال ، وتولِّد مساعِرَ الحروب ومغاويرها الأنجاد ، حتى لقد يخوضون حومات العراك وغمرات الهيجاء ويستهدفون للمدافع الرشَّاشة غيرَ حذِرين ، ويُعرِّضون صدورهم للقذائف السامَّة والقنابل الجارفة ، ويقتحمون المتالف والمعاطب ويستخفُّون حتى بالمنايا فرارًا من الدنايا . وكل ذلك دفاعًا عن ذمار اوطانهم ، وتفاديًا من ان يظهر عليهم العدوُّ ويُذلَّهم ويشمتَ بهم شماتةً يؤثرون عليها الموت الذُّعاف ، اذ تُلصق العار بأعقابهم من بعدهم جيلًا فجيلًا ، وكفى بهذا الإرث المُخزي باعثًا لحفدتهم على ان يَلحُوهم ويتبرَّأوا منهم أبدَ الدهر .

ومتى رأيتَ بلادًا لا ينهض شبأنها نهضةً واحدة ، لِأَقلِّ حيفٍ يُنزله اعداؤهم بأُمتهم ، ولا يغضَبون غضبةً مُضَريَّة لأَدنى إهانة يرشقها بها المفترون ، فأَوثِق اقدامهم بوُثُقٍ حديدية ، ثم عَيِّرهم بما تشاء من المعاير ، وقبِّح عليهم سفالتهم ودناءتهم ، لانَّ الذي لا ينتفض لعارٍ يلصق بأُمته لا خيرَ فيه ، وهو أَولى بالنير وأَحرى بالقيدِ من العبيد الأَذلَّاء .

وصفوة الكلام أنَّ كل امرئٍ يتغاضى عن مصلحة بلاده ، ولا يهتمُّ الا بمصلحة نفسه ، لا يمكن ان يكون من عزَّة النفس في شيء ، لانَّ الأَبيَّ لا يرضى ان تكون

أمته في وهـدة العسر والذل والهون ، وهو يرتعُ في مروج اليسر ، ويسبحُ في جوّ الرفعة والسؤدد . وكلُّ رجل تُعينه حاله على توفير دواعي السعد والعز لوطنهِ ، ثم يتقاعد عن إمداده بجميع مالديه من الذرائع المُنجِحة المسعدة ، فهوعَقوق لئيم ونذلٌ وغد

ولا يقولنَّ احدُكم أنّى لي ان اخـدم أمَّتي خدمةً تُعلي شأنها وتضمنُ رفاهيتها وتُعزز مقامها بين الامم النبيلة ، وانا وضيعُ المهنة قليل المعرفة والخبرة ، سيّئُ الحال صفر اليدين ، فإنَّ الامة لا تبتغي من بنيها ما يتجاوز طاقتهم ، ولا تحدّثها النفس بأن ياتيها كلُّهم بالمعجزات ويُغنيها بالاختراعات ، ويفتح لها البلدان وينشر هيبتها في كل مكان ، بل تريد ان يتضافروا على إنهاضها من كَبَواتها وسدِّ الثُلَم التي في مبانيها ثُلمةً بعدثلمة . ألا فليعلم القرويُّ انه يخدم بلاده بحراثهِ الذي يعزقُ به ارضهُ الصلبة في صبَارة الشتاء وحمارة القيظ ، كما يخدمها العالم بيراعته وهو منكبٌّ على منضدتهِ ، يُذيب دماغه ويعصر فؤاده ، لعلّهُ يضع مؤلَّفاً نفيساً يُنير به الاذهان ويثقِّف ما انآد من الاخلاق ، ويسمو بالأمة الى المستوى الجديرة هي به . وليثِق الصانع الذي يجدّ جدَّه حتى يحذق صنعتهُ ويمهَر فيها ، ويتأنّق في مصنوعاته تأنُّقاً يُروِّجها ، أنّهُ أرفعُ قدرًا في عيون ابناء وطنه العقلاء من رئيس لا يُهمُّهُ إلّا ان يقبض وظيفتهُ ، ثم لا يعنيه شيءٌ من امور أُمته التي ألقت بين يديه زمامها . وليت شعري كيف يسعُك ان تنعت بعزة النفس ذلك الرئيس الذي يُغفل امورمرؤُوسيه إغفالًا لا يُعذر فيه ، حتى يثوروا عليه ويرشقوا صدره بألف نبلة ، ويلطِخوا سُمعتهُ بألف وصمة . وربمـا خلعوه عن كرسيه وثلُّوا عرشه من تحت قدمَيـه بعد ان ثلَّه هو من قبلهم بيديه ، يومَ شرع يسيء اليهم العمل ويُغلظ لهم القول

ونحنُ اليومَ في عصر تتسابق فيـه الأُممُ في مجالات الشرف والفخر ، وباحات المجد والعز . فأيُّ عارٍ نكوي بكواتهِ جبيننا اذا عشنا كما عاش آباؤنا من قبلنـا في القرن الغابر ، وهم لم يخلّفوا لهم في عالم الاختراع اثرًا يحييهم ، ولم يدوّنوا في سجلّ الفتوح العلمية والتأنُّقات الفنّية سطرًا يُثبتُ أنهم كانوا معاصرين لاولئك العبقريين الابطال ، الذين رصَّعوا صدر القرن السالف بجواهر الاختراعات ، وحلَّوا جيد هذا العصر بما لا يُحصى من الاستنباطات ، حتى لقد يُخيَّل أن الطبيعة لم يبقَ في قلبها سرٌّ الا

اكتشفوهُ ، ولا رمزٌ الّا حلّوهُ ، وحتى يتسنّى لأصحاب الأخيلة النفّاذة ، ولا جناح عليهم أن ينعتوا هؤلاء القوم المُبدعين المخترعين بأنهم أحدثوا في الكُرَة الارضيّة من الاختراعات الباهرة والاكتشافات الساحرة فلكاً ثانياً يكاد يُسامِتُ الفلك الأعلى ويوازيه في عدد شُهُبِهِ وكواكبه وثوابته ومُتحيّراتهِ ، مما نراه نحن اليوم بامّ عيوننا ونسمعه بآذاننا ونلمسهُ بايدينا ، ولا نزال مع ذلك نتمطّى ونتبختر ، متلاهين عن النزول الى مَيدان الاكتشاف بمنظوماتٍ حماسيَّة وقصائد فخريَّة وغزليَّة ، يتغنّى بها شعراؤنا ونردّدها نحن من بعدهم مترنحين متمايلين ، كأَنها من بنات قرائحنا او كأنَّ ناظميها قد اتوا معجزةً اعجزت الأنبياء ، او كأنَّ الوطن إنما يتعزّى بمثل هذه الموشّحات والمقاطيع عن بقائه في مؤَخّرة الامم عُمراناً وعلماً وصناعةً . فالى متى هـذه الغفلة يا ابناء الشرق ، والى متى نتلهّى بالقشور معرضين عن اللُّباب يا أُولي الألباب

سرعة التصديق

اذا دبت الأحقاد في القلوب وشبَّ الحسد بـين الجوانح والترائب ، ساءَت الظنون وكثرت الافتراءات والاراجيف ، ووقعت الشُّبهات والتُّهم وأوّات عينُ السخط نيّات المحسود وأفعاله شرَّ تأويل ، حتى لقد تعدّ محاسنه مساوىء وحسناتهِ سيّئات وتصورها للناس باشنع الصور ، قصدَ أن تُثير عليه خَطَرات السوء وتُعرّضهُ للمظانّ والمذامّ . وكثيرًا ما يعمد الحسودُ البـاغي الى اليراع ، فيستحلبُ مادّته من قلب الضغينة وينفثها على القرطاس سماً ناقعاً ويُفرغها في قالب المكر والخبث والتمويه ، حتى اذا اظهر البُطلَ بمظهر الحق وسدَل على الأفكار غشاوةً من التضليل ، اضعف ثقة الناس بمن يُبطن له العداء واشتفى بمهانتهِ وسقوط قدره . فاذا كان السامعُ ممن لا يتثبّت في ما يَبلغهُ من احاديث البُهتان احلّهُ في محل الحقيقة ونقله الى غيره كأنه خبرٌ ثبتٌ عاينٍ وقائعهُ بمقلتيه ، فيرويه هذا كما رُوي له وربما عزّزه بإسناده الى الثقات الاثبات تسهيلًا لمداخل قبوله . ولا يزالُ هذا النبأ المختلَق يتراجع صَداه في الاسماع وتتناقلهُ الألسنة والصحفُ حتى يمتدّ من الصُّقع الذي ولد فيـه ودرجَ الى سائر الأصقاع ،

ويكونُ امتدادهُ بالقياس الى أهميَّة مَن شُيِّع عنه ومنزلتهِ في المجتمع ..

ومعلومٌ ان الأخبار المموَّهة اذا انتشرت هـذا الانتشار واصابت من القلوب موقعَ اليقين تعسَّر على المفترى عليه أن يُزيح الستار عن بطلانها تجاهَ كلّ فردٍ ممن وثقوا بصحتها ، فيبيتُ مثلومَ العِرض ولا ثُلمةَ في آدابه ، ويُرشقُ بالخيانة واللائمة وهو بريء الساحة عزيز النفس ، وتلحظهُ العيونُ بلاحظة الازدراء وتسلقهُ الالسنةُ بحراب حِدادٍ ، على حينَ انه حريٌّ بكل تكرمة وثناء ، وربما اقتصَّت منه ايدي القضاء وزجَّت به في ظلمات السجون لمجرَّد إشاعة مفتراة شيَّعها عليه اصحابُ الأغراض والأهواء ، فيقضي في سلاسل الذل والضيم مـا بقيَ له من الايام ، ثم يدفنـهُ الدهر الخؤون مع المجرمين ويُكفِّنهُ مع الخونة اللئام ، على ماهو عليه من العفَّة والانفة ونصاعة الطويَّة . وايةُ مظلمة اشدُّ من معاقبة البريء وتدنيس عِرض الشريف وأن يُنزل أباة النفوس في منازل السفلة الأنذال ، وايُّ شر اقبحُ من ان تقع الشبهة على من لا شبهة في اعماله ، وان تتناول الريبة من عُرف بنقاء السريرة وصلاح السيرة . وايَّةُ خيانة افظعُ من التحامل على رجال النزاهة والفضل والغضّ من قدر الكرام .

والافتراء لا يُؤَثِّر الا حيثُ يسود الجهـلُ المقرون بخبث النيَّة وفساد الرويَّة والتسرُّع في الحكم والنُّزوع الى الشرّ . ويكونُ تأثيرهُ بقدر ما لصاحبه من المكانة عند السامعين . فاذا تغلَّب الجهلُ في قومٍ على المعرفة راجت عنـدهم سوقُ الخداع والتزوير والتدليس لإقبال نفوسهم على بضاعتها ، فلا ينفخ احدهم في بوق حتى تجاوبهُ ابواق ولا يُحرِّكُ لسانه حتى يسمع لندائه صدًى في كل ناد . على ان العقول اذا كانت على جانب من الرجحان لا يكون ثَمَّ سبيلٌ الى الاغترار بالمرويَّات الكاذبة التي تُدفَع بصدق النظر وسداد الرأي واستقراء القرائن ومراعاة الاحوال الى غير ذلك ممـا لا ينحجب معه وجه الصواب

وافضلُ طريقة للتملُّص من شباك المُفترين والوقوف على دسائسهم أن يسلك المرء عند تلقّي الاخبار مسلك العقلاء ، وذلك بأن يراعي صفات الرواي ومبلغهُ من الصدق ، وما بينهُ وبين المَرويِّ عنه من التآلف والتنافر ، والغايةَ التي يرمي اليهـا حتى إذا كانت خلاله سافلة ، او كان ممن لا يَصدقون الحديث ، او كان بينه وبين

المحدِّث عنه عداوةٌ او منافسةٌ ، كان من قصر الرأي أن يعار جانبَ التصديق ،ومن العار أن يُحمل كلامه محملَ الحقيقة . ثم لا بُدَّ من النظر الى خلال الشخص الموجَّهة اليه المظنَّة ، ومبلغهِ من الأمانة والنزاهة وشرف النفس ، وموضع ثِقة الناس فيه مع مراعاة حالته واخلاقه وضميره وفطرته وحرصه على حسن السُّمعة واعتصامه بجانب الدين والانصاف، حتى إذا اجتمعت فيه محاسن النزهاء كانت تُهمته بارتكاب احدى الدنايا جنايةً على الحق والشرف والانفة والاستقامة

على أنه لايتأتَّى لكلٍّ أن ينظر الى كل هذه الوجوه عندما يقع في سمعه نبأٌ من الأنباء ، ومن المحال أن يُحيط علماً بصفات جميع اهل بلاده ، ولا سيما اذا كان في بلدة حافلة بالسُّكَّان ، وانما عليه أن يقف موقفاً معتدلاً بدون دحضٍ وتأييد الى أن يكشف الحقيقة مَن تولَّى البحثَ عنها ، فاذا ثبت الذنب على المتَّهم فمن العدل أن يُعامل بحسب ما يستوجبهُ جُرمُهُ تأديباً له وردعاً لامثاله عن التشبُّه به ، والا فأن يُحكم عليه فورًا او مجازفةً بدون اعتماد على بيِّنات راهنة إجحافٌ بأقدس الحقوق ، وهو مما لا يرضاه العقل ويأباه الضمير القويم وتحظره العدالة والمروءة

واذا كانت سرعةُ التصديق من اشنع الشوائب اذا التصقت باخلاق العامة فلأن تلتصق بنفوس الخاصّة اقبحُ ، ولا سيما اذا كانوا من اصحاب السلطة ، فإن الاحظياء عندهم اذا عرفوا منهم هذه الخلَّة ملأوا مسامعهم من المطاعن في مَن يُريدون قهرهُ وكيده ،وحينئذٍ تكثر السعايات وتفقد الثقة وتضيع الامانة وتتبلبل ادارة الامور وتختلّ الاعمال ، حتى يُصبح الرئيس ومن حوله اعداءٌ لا يُخلصون له الخدمة ، ويُمسي وحيدًا لا يُشاركه احدٌ في حمل اثقال مُهمّاته . ومتى تجرَّد الزعيم من الاعوان وانفصلت عنه قلوبُ الرعية عَدِمَ الراحة والسكينة وكان هدفاً لنبال اللوم والتثريب ، اذ تأتي احكامهُ وفقاً لهوى السعاة وطبقًا لرغائب الوشاة الذين يستفيدون من بلاغاتهم ، وانما يقع الضررُ بأجمعه على رئيسهم الذي قرّبهم منه وسلَّمهم قياده ، فهو يحرق نفسهُ ليُنير غيره ، ويتحمَّل الأذى لينفع حاشيته الخائنة التي لو كان عندها مِثقالٌ من الامانة لنصحت له قولاً وعملًا . فليحترز اذًا ذو الامر والنهي ان يكون وابصة سمع يقبلُ في أذنه كلَّ البذور لئلا تنبتَ في نفسه الاشواكُ فتخنق منها مغارسَ الحكمة والفراسة

والدراية والدهاء وحسن التدبير، وهي صفاتٌ فريدة لا يستقيم امره بدونها

والصحفُ من ايسر الذرائع لا يقاف الناس على صدق الاشاعات واختلاقها، ولذلك نستحثُّ اربابها على ان يتأنَّوا في نشر ما يُروى لهم من الأخبار، خوفاً من ان يُثبتوا امراً لا صحة له، فتضعف ثقةُ القراء بهم بعد الوقوف على كذبه. واذا اضطُرّوا الى نشر شيء قبل ظهور الحقيقة فليصرِّحوا أنه اشاعةٌ تحتمل الصدق والكذب بدون انكار واثبات، ولا ريب أنهم بهذا التحوُّط يُطفئون جانباً عظيماً من الاشاعات الكاذبة، ويُنقذون رجال الادب والمروءة من شر الاختلاق، ويلجمون افواه المفترين ويقطعون السنتهم عن العبث بأعراض الكرام، ولكن اذا لم يتروّوا فيما يكتبون او اثبتوا امراً يحتمل التفنيد، او انكروا خبراً لا يقبل الدحض فإنما يُذنبون الى الصدق الذي اتخذوه لهم شعاراً، بل يساعدون الرعاع على بثّ المفاسد وزرع المثالب ويُمالئون الاشرار على التمادي في فظائعهم ومغاويهم، ويكون حكمُهم حكم مَن يُطعم النار حطباً ويدفعُ للاعزل سلاحاً.

وما اشقى بلاداً تتستَّر فيها الحقائق ويذهب بها الابرياء ضحيَّة المخاتلة والافتراء، يشنّع اللئامُ في صيتهم وهم انقى ديباجة من سماء لبنان، وأفوح عرفاً من أزاهير الجنان، وما احرى هذه البلاد بالهجر اذا لم يتوفر على إصلاحها اربابُ الحميَّة من رجال الصدق والاستقامة.

وإننا لنأمل من قادة الشعب وخَدمة الحقيقة ألّا يألوا جهداً في غرس مبادئ الصدق والاستقامة في القلوب والأفكار، حتى يكون الوطن بمأمن من غوائل الأفك والمكر. وإنها لمأثرةٌ فُضلى بل خدمةٌ جُلّى لا يعرف قدرها الا مَن شعر بنتائج التصديق قبل البحث والتنقيب واطلع على الأضرار الجسيمة التي تنجم عن الإشاعات المبتدعة. وقانا الله شر البهتان وخُبث الجنان وطهَّر الوطن من الجناة المكارين الاوغاد والمتخرصين الانذال وحمانا من العيون الساخطة والألسنة اللداغة

AMERICAN UNIVERSITY LIBRARY CAIRO

عبر الدهر

على صفحات الأيَّام ' مِن نواجع المواعظ ونوابغ الحكم ' مايستظهِرُ به العقلاء في مسالك هذه الحياة ' تحرُّزًا من جيوش المكاره أن تفتُك بهم فتكاتها الهائلة ' فيصيبهم ما يُصيبُ الاغبياء الاغرار يوم يهيمون على وجوههم في قفار الاضاليل فيُؤَدِّبهم الدهر تأديباً يجعلهم من روادع العبر لقوم يعقلون . ومن الغرائب ان المرء ' على شدَّة حنينه الى حسن الاحدوثة وجلال القدر ' ومع عظم حذرهِ من صروف الزمان وتقلباته ' لا يستمسِك من الأسباب بما يُظفِره بأمانيه ويُفيزهُ بأحلامه الجميلة ' بل يتهافت في الغالب على ما يُذلِّلهُ ويُشقيه ويُصمُّه ويُعميه حتى يقع في وهدة الشقاء ولا نصيرَ له ولا مُشفق عليـه ، وكان الخليق به لو كان من المستبصِرين أن يتنكَّب عن مداخل السوء ، ويحسم العلل الموبقة التي تُورِّطه في المهالك ، ولا سيَّما بعد ان أبصر المحن التي نزلت بمن تقدَّمه في تلك الطريقة التي التزمها على غير هداية . فلو كان في صدور الجهلاء الذين استأسرتهم الاهواء شيءٌ من الأَنفة لما هان عليهم ان يكونوا للحكماء عظةً زاجرة بل كانوا يحرصون على أعراضهم ان يغتالها العار ، وعلى ذكرهم ان ينتابهُ الخمول ، ولكنَّ هنالك من النزعات الثائرة ما يُصوِّرُ لهم القبيح حسناً والضارَّ نافعاً ' او يدفعُهم الى استطراق المُخزيات واقتحام المعاطب ' مهمـا سامتهم من الخسف والهوان وأَورثتهم من المضرة والخسران . وإنَّ هذا الضلال لَمستهجنٌ خصوصاً في كِبار القوم الذين يُهتدى بآثارهم ويُقتدى بخلالهم ' فإن عثراتهم من أزجر العبر من حيث هم وجهةُ الأَبصار ومِحوَرُ الآمال ' فاذا زلَّت بهم القدم اهتزَّت لزلتهم البلاد ' وتراجع صَداها في اطراف المعمور ' فيتناولها التاريخ ويُودِعها خزائنهُ الخالدة ' حتى تصلح اردع عبرةٍ للاخلاف كما كانت اوزع موعظةٍ للأَسلاف

وايَّة كانت حالةُ الانسان فانه لا يعدم فائدةً يقتبسها من اهل زمانه ' اذا كان على نيِّرة مُتبصِّرة ' تتَّعظُ بعواقب الغيِّ ومغبَّات الفساد ' فالأحداثُ ' وهم في المنتديات العلميَّة ' لا نُدحة لهم ' اذا كانوا من المعتبرين ' عن ان يتشبَّهوا بمن حولهم من خـيرة

الرجال الذين عَقدت العلومُ على هامهم اكاليل بديعة ، وخلعت عليهم الآداب حُللًا رائعة ، وإلا عبثت بهم عواصف الملاهي حتى يصبحون وهم عن مصالحهم غافلون ، ويكونون لأَبناء التحصيل من أوزع المَثُلات ولا سيما بعد مغادرتهم معهد التهذيب ، اذ يصادفون من المخازي والنكبات ما يحرجون به صدرًا ، فلو كان الكسالى يُطلقون النظر الى مصير الجهال الوبيل ، ثم يحدّقونه في مقام العلماء الباذخ ومـا ينشأ عن سعة مداركهم من المنافع الجمة للبلاد ، لأَقلعوا عن فتورهم واجهدوا الفكرة في احراز فرائد المعارف ، حتى اذا برزوا الى ميدان الكفاح كان لهم من العـلم دروعٌ منيعة ومن الادب تروس واقية

وبديهيٌّ ان الصغار ، اذا تغافلوا عن الاتّعاظ بسوء مآل الجهلاء ، كان لهم من سنّهم النزِقة الطيّاشة عذرٌ يشفع فيهم ، ولكنَّ الكبار لا تُخطئهم سهامُ الملامـة اذا تغاضَوا عما فيـه نفعُهم ونفع المجتمع ، اذ انهم على حالٍ لا تُحمدُ معها الملاينة والمسامحة والإغضاء ، وهي الحال التي يكون فيها النظر ابعد امتدادًا الى الحقائق وأبصر بمغبّات الترّهات . ثم إن خطأهم يكون اذ ذاك اشد تأثيرًا وأعمّ انتشارًا . ومن ثم فاذا انصرف الآباء والمؤدِّبون عن تربيـة الاحداث كان انصرافهم من المحظورات التي لا تُغتفر، لان هؤلاء ، بما في سليقتهم من الخفة والميل الى اللهو، وما هم عليه من قصر النظر في النتائج ، ليس لديهم ما يستعينون به على اصلاح نفوسهم بنفوسهم ، فكان على أُولئك المهذِّبين ان يهدوهم السُّبُل الامينة وينصحوهم النصح الوافي ، حتى اذا طبعوا في قلوبهم ما يُحمَد اثرهُ ويجملُ مَخبره تحامَوا كلَّ ما فيه شينٌ وعار . وحسبُهم بما ينجم عن إغفال التأديب عظةً وتبصرةً ، وكفى عبرًا لأُولي الالباب ما جرّبوا . .

واين نحن من الأُمم المستيقظة المستبصرة التي تستقصي البحث عما تريد الاقدام عليه احترازًا من المضلّة ، وهي تستفرغ كنانة الجهد فيما عساه يعودُ عليها وعلى بلادها بالنفع ، غيرَ مُباليةٍ بما ينالها من العناء في هـذه السبيل ، ولا حافلةٍ بالنفقات الطائلة التي تبذلها في جنب عزها وتأييدها . ولذلك تراها على رابية المجد والسؤدد ، يصافحها الهناء ويعاهدها النصر وتُحالفها الغبطة ويهشُّ لها العمران . وحسبُك دليلًا على ذلك

ما رواهُ التاريخ عن بطرس الاكبر ، فان هذا الملك الخطير مُعلي منار المملكة الروسية وفاتحةُ مجدها وأُسُّ مفاخرها ، لمَّا آنس من رعيته التقهقرَ في مذاهب الحضارة ، غادر عرشه الموطد الاركان الى العواصم الأوربيَّة ، حيث تفقَّد المعاهد والمعامل والمصانع والمجامع ، حتى اذا درس اخلاق تلك الامم واحوالها الاجتماعية حقّ الدرس ، عاد الى وطنه ونشر فيه من اضواء المدنية ما جعله ازهى من الفلك الدوّار

ولا ريب ان العاقل ، كيفما وجَّه ابصاره الى هذا العالم ، لايخلو عن عظات يتلقَّاها من اهل الغباوة الذين تمر على عيونهم آثار العبر ، وتقصف في اسماعهم رعود الغِيَر ، وهم في ملاذّهم منغمسون . على ان الايام لا تدع جاهلاً الّا ادّبتهُ ولا تلوي على غافل الّا نبَّهَتهُ ، غير انه كثيراً ما يكون هذا الانذار على غير طائل ، اذ يكون الغبيُّ قد صار الى حالة يتعذّر معها الاصلاح ، فاذا حاول النهوض من الهاوية التي غرّر فيها بنفسه خانته قواهُ الخائرة وعصتهُ نفسهُ الجامحة ، حتى تتصرَّم حياتهُ في سكرات الهوى وغمرات الشدائد . ولو ان البشر كانوا باجمعهم من اهل الذكرى والاتّعاظ لما كان للشر والبلاء اثرٌ في الدنيا ، وانما قليلون الذين يتأدّبون بالتجارب ويدرسون على الدهر ، وهو امهر استاذٍ واحكم مؤدِّب . وهذه العصابة المتعظة لاتغمض اجفانها عن تصاريف الزمان ونوائب الغفلات بحيث اذا فعلت اقترنت افعالها بالسداد ، واذا قالت جمَّلت اقوالها بالحكمة ، واذا عزمت على امرٍ مهَّدت له العقاب الصعاب

ومن المُحال ان تسعى البلاد الى غايات التقدم اذ لم يكن اهلها طُلَّاباً على الدهر ، يجمعون من تحت منبره ما ينثره عليهم من الدروس الناجعات . وما تلك الدروس سوى العِبَر التي يستخرجونها من عواقب اهل الغواية . فلو كنا نحن من طَلَبة الايام لما كنا على هذا التقهقر المخزي في جميع احوال المدنية ، من عادات مستقبحة ومزاعم مستهجنة ، ونفوس بطِرة ورؤُوس شامخة فارغة . وكيف لا والجهَّالُ بيننا يتعثَّرون في اذيال مغاويهم ويبتدعون كل يوم للمفاسد طرقاً ، وينسجون كل ساعة للمكر اوهاقاً بدلاً من ان يُقبلوا على ما يسعد بلادهم من المشاريع الحيوية تشبُّهاً بالامم النابغة . فأين الاتحاد الذي يولِّد القوة ، واين رجال الغيرة والنخوة والعمل واين اندية الخير المجرد ، واين المذابح التي يُضحَّى عليها بالانانيَّة والاستئثار والتعصُّب

الذميم ، واين المعاهد التي تفتح للبلاد ابواب الاكتشافات ، واين اللجن التي تحارب اهواء الامة ، واين الخطباء والصحافيون الذين يعاركون الاباطيل والاوهام ، ويشددون النكير على ارباب المظالم والاستبداد . فالى متى لا نتعلم من الدهر غوائل المقامرة ومضارّ الكحول وعواقب القصف والترف . والى متى نغض الطرف عن الاخذ بأسباب الاقتصاد ، ونتزع الى التشبه بأرباب الثروة في احوال المعاش . والى متى يدفعنا التحاسد الى ان نتحامل على ابناء وطننا النابغين ، وحتّامَ نبقى على هذه البلبلة في العمل ونقتل الوقت في الملاهي والملاعب ، ونشغل الصحف والمسامع بما يغرس الضغائن والاحقاد . وهناك سلسلة طويلة من الانتقادات لا يتّسع لها المقام . وان في ما ألمعنا اليه تذكرةً لأُناسٍ يعتبرون

فإليكم نسوق الامل يا عمدة الاصلاح لعلّكم تتوفرون على تعزيز الوطن والذَود عن حياضه . فاننا في عصر يأنف فيه أباته من الانحطاط والاستعباد ، وقد فسح لكم هذا العهد مذاهبَ العمران ، فجمِّلوا الوطن بآثاركم الغراء حتى اذا احدثتم فيه ما يسعده ويُحييه ، ونشرتم في الصدور نفوساً كبيرة ، اعدتم للشرق بهاءه القديم وكُتِب لكم في صحائف الفضل آياتٌ ذهبيَّة يتغنى بها الاعقابُ عصراً بعد عصر

تنازع البقاء

ليس في هذا العالم رقدةٌ للأهواء ولا شكيمةٌ للمطامع ، وانما الدنيا ميدان كفاح تتجاول الناس في باحاته للاستئثار بما يَروقهم من مباهج هذا المعمور ومحاسنه الخلّابة . فهم في عراك مستمرّ وجهاد متواصل حتى لا ترى فترة بين الحملة والحملة ، ولا هدنة بين الصدمة والصدمة ، وحتى تسمع من البشرية الأنَّة تلو الأنّة والشكوى اثر الشكوى من حَملة لواء تلك الحرب الضروس التي تقصف رعودها في اطراف البسيطة جمعاء

معركةٌ هائلة تشترك في نوائبها المعمورة من اقصاها الى اقصاها ، وتتأوّه من كوارثها الانسانية رازحةً تحت فوادح اوقارها ، لا تفتأ تجرّ على ابناء آدام جيشاً

من المحن ، يدفعهم الى مهاوي الشقاء ، ويُهبط عليهم من الضيم صواعق قتّالة . يضربُ في بوقها ارباب الطمع وطلّاب المجد ، ويُثير غبارها عُشّاق العز وروّام السؤدد ، فيسطون على اخوانهم ويصولون ويستطيلون ، وهم بينَ متخلّقٍ بأخـلاق الأُدباء ومُتّسم بسيماء العلماء ، وبينَ مُجاهِرٍ بالتضامّ والتآلف ومُزهّدٍ في التنابذ والتضاغن ، وبين لابس لباس الحملان مع انه اروغُ من الثعلب وأَفتكُ من السرحان ، الى ان يسحقوا تلك الفئة الضئيلة وينسفوا مباني راحتها ويقذفوا بهـا بين مخالب الفاقة والبؤس ، حيث تُعاني من الغُصص اشدها وتُجرَّع من المكاره امرَّها .

اجل إن في هذا الكون قوّتَين تطحنُ احداهما الاخرى بيد اقسى من الحديد . قوة تلجأ تارةً الى الحيـلة وطوراً الى العُنف ، حتى تلتهم من الضعيفة ما تُشبع به نَهَمها . فَلا تعبأ بمظلمة تجترحها ، ولا تكترث لجريمة تقترفها وانما يلذّ لها أن تحلّق في جوّ الوجاهة والنباهة ، وتستأثر بكنوز الارض وتسحب اذيال الفخر وتتربع في دست السيادة قابضةً على اعِنّة العاجز تحتكم فيه على هواها ، وتسخّره في تنفيذ اغراضها وادراك اوطارها . وايُّ شرّ افظع من أن يستقلَّ القويُّ بمنافـع القاصر ويتلاعب بحقوقـه ويعبث بعرق جبينه ويستخدمه في مصالحه ، ويُكلّفه اصعب المشاقّ طمعاً في انماء الثروة واحراز الرفعة ونيل الشهرة . بل ايَّة جناية اقبـح من ان يسدَّ منافذ الارتزاق في وجهه ، ويضع الحواجز في سبيل تقدمه ، ويحتكر المتاجر لاستنزاف دراهمه ، ويؤلف الشركات للاستبداد بريع اراضيه ، حتى اذا فرغت يداه من النقود استسلم بحكم الاضطرار الى ان يخنع ويستكين لذوي اليسر ، وربما كان انزه منهم طبعاً واشرف روحاً واسمى فكراً وارقَّ شعوراً . بل ايُّ جُناح اجسم من إثقال منكبه الضئيل تحت الضرائب الباهظة والرباء الفاحش ، وايُّ جرم اعظم من تعريضه للمهالك والمرائر حتى يشيدوا على عَضَلاته القويّة وسواعده المفتولة من المجد صرحاً باذخاً ومن الثروة جبلاً مشمخراً شامخاً

مشهدٌ مؤلمٌ يُدمي العيون ويذيب الصدور ، يُمثّله كُلَّ يوم على ملعب القسوة والجور اصحابُ القوة والدهاء حتى ترى البحر يبتلع النهر ، والذئب يفترس الحَمَل ، والاسد يدقّ هامة الثور ، والصقر ينقضّ على العصفور . وربما تعاركت القوى المتكافئة

وتدافعت الامواج المتعادلة . بل ربما تصاولت الوحوش الشرسة والاسود الضارية ، حتى تهالكت وتفانت واصبحت عِبرًا لاناس يعقلون .

ولا جَرَمَ ان الدنيا بما اودعها المُبدِع الجَوَّاد من الكنوز والخيرات تكفي كلَّ امرىء مؤونةَ هذا العراك الثقيل الوطأة على المجتمع البشري ، بحيث يقطع مراحل الحياة ناعم البال قرير المقلتين . ولكن هو الحرص حتى لا تسكن شهوة النفس ولا يُروَى غليلُ القلب ، وهو الطمع حتى لا ترى احدًا قنوعاً بحالته راضياً بما قُسم له ، وهو الكبر حتى يدفع الانسان الى مناطحة الجوزاء ومزاحمة النجوم في القبَّة الزرقاء . فلو لجم البشر مطامعهم وخفضوا من جناح خيلائهم لعاشرا عيشة اعذب من الماء الزلال . ولكن الاهواء تثور في البابهم ، وحبّ البقاء يتغلب على نفوسهم فيتناظرون ويتنازعون ، والبشريَّةُ بينَ كل ذلك تُصعد الزفرات وتسكب العبرات ، والايامُ تُنذِرهم بالويلات وتتوعَّدهم بأقسى النكبات وافظع المُلِمَّات

كيف لا والآذانُ تصطكُّ كل ساعة بالوف من الحوادث الهمجيَّة ، بل الجرائم البربرية التي يجنيها الانسان بكل قسوة وفظاظة ، انتقاماً من اخيه في الانسانية او استبدادًا بماله ، حتى لقد يضنُّ عليه بنسمات الحياة او حاول ان يتنسَّمها للاحتفاظ برمقه والذَود عن روحه . الا ترى هذا المستبِدَّ كيف يُكبِّل اخاه ، الذي لا نصير له ، بأغلال الجور وسلاسل القيد والعسف ، وذاك القويَّ كيف يرشق الضعيف بسهام حادة ويُحكِّم فيه سيف السخط والنقمة ، وذلك الغنيَّ كيف يمتصُّ مال البائس كما تمتص العلقة الدماء ، وذاك الحسودَ الطمَّاع كيف ينصب الحبائل للقلب ذي السؤدد عن كرسي مجده حتى يستوي هو على سدَّة عزه . وعلى الجملة فان الانام اصلبُ قلباً من الضواري ، فاذا قصرت يدُهم عن الاغتيال دبَّت عقارب السنتهم تنفث سماً زعافاً لتشويه سمعة من يُضمرون له البغضاء ويَطوون الشحناء . واذا عجزوا عن اللَّحاق بمن تقدمهم الى غايات الفلاح ، ولم يتيسر لهم ان يضعوا في وجهه حواجز متينة تصدُّه عن متابعة المسير ، شهروا عليه حرباً سياسيَّة تُعرقِل مساعيه حتى يرجع ادراجَهُ وينكص على اعقابه فشلًا مدحورًا .

هذا قلٌّ من كُثر مما يُنتجه تنازُع البقاء ، غير انه وافٍ فيما نظن بان يُشعر اهل

الذكرى والاستبصار بجسامة مخاطره . اذ كثيراً ما يكون من عواقب الحسد والطمع والاستئثار على ما بيَّنا ، وجميعُها من افظع آفات الانسانية واكبر غوائل البشرية . وحسبُك به شرًّا انه يستأصل من الصدور كل عواطف الشفقة والرحمة ، ويُكمن المروءة في مرابعها ويُكفِّن الرحمة في مدافنها ، فتزداد القلوب خشونةً وصلابةً ويدبّ الحرص في المُهج ، فيفترس ما فيها من بقايا الشرف والحميَّة ، حتى تدغل النيَّات وتسقم العواطف ويجفّ الشعور ، فلا تقع الابصار الا على ما يُدميها ولا يقع في الآذان الا اصوات المتألمين وانَّات المنكوبين .

على اننا مع إلمامنا بما ينجم عن تنازع البقاء من جسائم البلايا ، لا يسعنا ان نُنكر ما له على المجتمع الانساني من جلائل الحسنات ، فهو الذي يُرهف الهمم ويحثّ العزائم ويوطِّن النفوس على المآتي الخطيرة ، تخليداً للآثار الرائعة والذكرى النبيهة والاحدوثة الذائعة ، وهو الذي يحضّ على التسابق في مجالات العلى ومصاعد النبل والنباهة . فلو لم يتنازع الانام اطراف الحياة الخالدة ومطارف المجد الرائعة ، لباتوا في خمول مُخجل وتقاعُد شائن وانحطاط مذلِّ وتقهقر مُكبِّل . غير اننا نود لو تسلم هذه المزيَّة الغريزية من الشوائب حتى لا تتشعب عنها تلك المضار الموبقة والنتائج المرهقة ، لانه يتسنى للمرء ان يحيا في عالم التاريخ ما بقيَ التاريخ ، وان يطوي العمر وهو مُعزَّز الجانب نبيهُ الذكر جليل القدر ، بدون ان يتلطخ ضميرهُ بأدران المفاسد واوزار المطامع . ولنا على تأييد ذلك الوفُّ من الشواهد منها ارباب الاختراعات والمكتشفات والفلاسفة والحكماء الذين خدموا الانسانية بثمرات ذكائهم وانصبابهم ونفعوا ابناء جنسهم بمحامدهم ومآثرهم ، حتى دوَّنوا لهم على صفحات الايام سطوراً خالدات من محاسن الذكر وروائع المجد مما لا يقوى الدهرُ على طمس اثره واخلاق جدّته ، وهم مع ذلك انقياء العِرض سُلَماء النية والدخيلة ، لم يعلق في نفوسهم طمع ، ولم يُنزلوا باحد اذيَّة ، ولم يُبطنوا لعدوّ كرهاً ولم ينصبوا لمزاحم شركاً ، وانما اجتازوا مسافة الحياة يُفيدون ويُهذبون ويُصلحون ويُفقِّهون . وما اشهى الحياة اذا تصرَّمت على هذا النهج السوي وتلك الوتيرة المثلى .

الهوى يعمي والغرض يصم

اذا ضاعت في أمّةٍ الحقائق وسادت التُرَّهات ، ودُفنت المصلحة العامة فقل انَّ هناك ميداناً للأهواء تتعارك فيه القلوب وتتنازع النفوس ، حتى يدلهمَّ جوُّ الفضيلة ويلبس الهيكل الانساني ثوباً قاتماً ، حداداً على الصدق والاستقامة والمروءة والنخوة

واذا ابصرتَ الباباً تتنافر وصدوراً تتضاغن وايادي تتخاذل وعيوناً تتشازر ، فلا يخامرنَّك ريبٌ ان النزاهة اسيرة المطامع الاشعبيَّة ، والوطنيَّة مكبَّلة بقيود المنافع الذاتية ، والحميَّة مكمومة الفم موثقة الايدي والأقدام ، لاتستطيع حراكاً ولا ينبض لها عِرقٌ وقد علت محيَّاها صُفرة الموت

واذا شاهدتَ بين الحاكم والمحكوم فواصل منيعة ، وبينَ السيِّد والمَسُود حواجز قوية ، وبين القويّ والضعيف سدوداً متينة ، وبين المثري والمعدِم حوائل حصينة ، فتيقن ان الهوى هو الذي أسَّس تلك الموانع ، ودعمها بالضغائن وعضدها بالحزازات ، وشدّدها بالافتراءات واحكمَ بنيانها بالمثالب والتخرُّصات ، حتى قامت العقبات في وجوه طُلَّاب الفلاح وعُشَّاق المدنية ، ولم يبقَ هنالك الا نوادب تبكي العمران وترثي صروح المجد ، وتتفتَّت جزعاً على خراب الامة ودثور آثار منعتها وتقوُّض اركان مهابتها وسطوتها

واذا رأيتَ من حولك الشِقاق ضارباً اطنابه ، والوفاق مُوصداً ابوابه ، واصطكَّت مسامعك من وقوع الجنايات ، وارتجفت مفاصلك من ارتكاب الفظائع المنكرات وارتعدت فرائصك من الحوادث الهائلات ، ثم لم تأمن على روحك من عدوّ ينتزعهُ من صدرك ، وعلى مالك من لصّ يبتزُّه من صندوقك ، وعلى عِرضك من نمَّام يسلقه بلواذع لسانه ، وعلى مقامك من ظالم ينسف أُسس بنيانه ، وليس من حولك وازعٌ يردع الطغاة ويزع البغاة ويصد الجُناة ويكفّ العداة ، فثِق ان الاغراض هي المحتكمة في بلادك والمتغلبة على بني وطنك ، تقودهم الى مواقف الخيانة ومواطن اللآمة ، وتسوقهم الى مهاوي الغواية ومزالق العماية

واذا هُضِمت حقوقُ الوطن واختلّت فيه الادارة ، وضاع رجال الادب والفضل ورجح اصحاب البلادة والجهل ، وانتشرت المظالم وهُتِكت المحارم وظهرت الرذيلة على الفضيلة ، والبُطلُ على الحق ، والكذب على الصدق ، والرئاء على حرّية الضمير والمكر على الاخلاص ، فاحكم اذ ذاك ولا تخشَ لومة لائم ان عبيد الهوى هم السائدون والمستبدون والناقمون والمتحكمون ، وهم الذين يُذلّلون بلادهم ويخفضون وطنهم ، ويحطون من شأن الفضلاء وقدر العلماء ويُشوّهون وجه الانسانية ويجتاحون اصول المدنية

واذا رأيت الصحُف السيارة لاتُصلح خللًا ولا تسدُّ ثلمةً ولا تعالج داء ولا تقوّم خلقاً ولاتثقف نفساً ولا تنير ذهناً ، وانما تزيد الامة عماءً وضلالاً وتهوُّراً واستهتاراً ، فقل ان الغرض يلعب بين سطورها وينفث سمومه في اقلام اصحابها ومنشئيها ، حتى انهم يخدمون اوطارهم ويغضون الطرف عن مصالح موطنهم ومنافعه العمومية .

وعلى الجملة فانه ما من شرّ ولا بلاء ولا محنة الا والاهواء تؤجج نارها والأغراض تُثير غبارها ، فحاربوها واهلها حتى اذا احرزتم عليها الغلبة لم يبقَ في البلاد فتنة ولا فوضى ، وسادت فيها الحرية والمساواة والاخاء والشورى ، وحينئذٍ يُمكنكم التبحُّر في مذاهب التمدن الصحيح والتبسُّط في مضمار النجح والعمران ، ويتسنّى لكم ان تزرعوا الحقائق في الافكار وتغرسوا العواطف الشريفة في الالباب ، وتُرشّحوا ناشئة مهذبة وتنشئوا نابتة محنَّكة مدرَّبة ، تقوى على ان تنهض بالامة النهضة المرصودة ، وتعزّز جانبها وتحيي دوارس مجدها ومعالم عزها . والا فلا تأخذنّكم الدهشة من التقهقر والبوار والانحطاط والدمار والفتن العمياء والثورات الصماء ، الى ما هنالك ممـا يُنتجه الهوى اذا احتكم في النفوس ، ويولِّدهُ الغرض اذا تأصّل في القلوب ، والعياذُ بالله من سورات الأهواء ونزواتها ، ووثَبات الأَغراض وعصفاتها

الاحلام الذهبية

لكلّ امرئٍ في دنياه احلامٌ رائعة تتجلى في سماء فكره مبدِّدةً عنها ما تلبَّد فيها من غمائم الهموم القاتمة

وأكثرُ ما تتزاحم هذه الاحلام في ربيع الحياة ' اذ يكون المرء قد بلغ أشُدَّه واخذت نفسهُ الفتيَّة تطمح الى معالي الامور ' سابحةً في جوّ الاماني بأجنحتها القوية التي تهزأ بما يساورها من العواصف الهائلات والرياح الهوجاء

ولولا هذه الاحلام لقضى المرء ايَّامه في زاوية الخمول ' وربما طواها بين مخالب اليأس وانياب الجزع ' كما يتَّفق في الغالب لمن يقنطون من دنياهم فلا يقوون على مُناصبة بلاياها فيعمدون الى مغادرتها بالانتحار ' وهو سلاحُ الجبناء المعتوهين لا سلاح الاباة على ما يزعم بعضُ الغلاة المتطرّفين

وإن الطموح الى العلاء والنزوع الى التقدم لَعنوانُ الهمة الناهضة ودليلٌ على المضاء وصدق العزيمة . ولنا بنابليون ' نابغة الفرنسيس بل نابغة الدنيا بأسرها على توالي الاعصار ' اسطع شاهد على مانحن بصدده ' فانه لم يدرك سنَّ الرشد حتى اخذت الاحلام الذهبية تحوم على خاطره الوقَّاد وبصيرته النفَّاذة ' فذلَّلت في وجهه الصعاب ومهَّدت العِقاب وتدرَّجت به من ادنى المراتب الى اسناها ' فلم يقرّ له قرار حتى قبض على صولجان الملك وخفض أجنحة الأَقيال والعُهَّال

على ان الاحلام لابدَّ لصاحبها من التنزُّه عما يشينه من المطامع ويعيبه من المنازع ' حتى لايلصق بسُمعته غبار ولا يُلقى على عاتقه عبءٌ من التبعات وجبل من العار . فلأن يبقى تحت حجاب الخمول أولى من ان يصعد الى رابية النباهة على سلَّم المحظورات المخجلات

ولقائلٍ ان يقول : كيف يتسنّى للمرء تحقيق احلامه الذهبية وهي في اكثر الاحايين فوق طاقته بل ربما كانت احياناً ضرباً من المُحال ?

فنحن مع إقرارنا بانطباق هذا القول على سَواد الناس لا يسعنا السكوت على مضاره التي اقلُّها انها تثبِّط الهمم وتُخمد العزائم وتسدّ مذاهب التنافس والتسابق في مضمار

العلاء . وهل يَجمُل بذي الهمة العالية انيهاب العظائم اذا رأى بعض اقرانه قد باؤوا عنها بالفشل وانقلبوا بالخيبة . ومن يُنكر عليه ان يكون من الفائزين اذا كدّ وراء مطامحه وسعى اليها من وجهها السهل الامين . فلكم من مُعسرٍ قد ايسر بجدِّه واستقامته وفطانته ' كما وقع لكثيرين من كبار المثرين في اميركا الذين استهلّوا حياتهم بالمهن الوضيعة ثم ختموها وهم القابضون على ثروة بلادهم ' يهزّون اعصاب التجارة في اقطار المعمور كلما شاؤوا . وأيُّ اكتشافٍ لم تُهرق على جانبيه سيولٌ من الدماء ' بل ايُّ اختراع لم يذهب بحياة الوف من ذوي الإقدام والشمم . وحسبُنا ان نلقي نظرة على ضحايا الطيران فهي تغنينا عن الاسهاب في هذا الموضوع

ان الاحلام الذهبية التي ترافق المرء من مهده الى لحده هي خير انيس وألطف جليس وانطس طبيب لمعالجة ادواء الحياة وكوارثها القاسية . إلّا أنها تُنغِص العيش وتكثر من مرائره اذا خرجت عن حَيِّز المعقول ' او تدرّج اليها المرء على غير طريق السَّداد ' اذ لكل مسعىً سبيلٌ يؤَدِّي اليه ولكل عظيمة مذهبٌ لا يمكن بلوغها بدونه . فعلى العاقل أَن يلج الامور من ابوابها ويتحرّى النجح من طرائقه اللَّحبة الواضحة

وإنني لأُقدِّس الاحلام التي تُفضي بصاحبها الى السعادة في الدارين ' وذلك بأن تكون وجهتُها تهذيب النفس وتقويم الارادة وتثقيف العقل وتدميث الخلق . فكلّما نزع المرء الى الفضائل والكمالات البشرية وسما فؤَاده الى مكارم الاخلاق ومحاسن الاعمال كانت نزعاتُهُ حرية بالإطراء والإعجاب . كيف لاوان مُهمَّته هذه من اشرف المُهمَّات ومسعاه من أجمل المساعي . ولهذا السبب أجمعَ العقلاء في كل عصر على استحسان الطريقة الرشيدة التي سار عليها اولياء الله وإيثارها على سائر الطرائق ' اذ ضمنت لهم راحة الضمير في هذه الدنيا ' وهي قطعةٌ من ملاذ النعيم ' وافازتهم بعد مغادرة هذه الفانية بالثواب العلويّ الذي أَهَّلهم له الجهادُ العظيم الذي جاهدوه في دار الشقاء

ومن الاحلام الخليقة بالتعظيم ما كانت غايتهُ المصلحة العمومية بل المصلحة الوطنيَّة ' وذلك كأَن يصرف المرء هَمَّهُ الى تعزيز وطنه وترقيته في معارج الفلاح والسموّ به الى قمّة المجد الشامخة ' وأن يتوفر على إسعاده و إحيائه بالمشاريع العمرانية

المفيدة ويدافع عن ذماره في مواقف الخطر ويبث الروح العالي في صدور بنيه ، ويدأب في توطيد دعائم التآلف والتحابّ فيما بينهم حتى يكونوا كتلةً واحدة على العدوّ اذا اضمر لهم شرًّا أو أنزل بأحدهم سوءًا

وما أجملَ ما يكون فضلُ الآباء على بنيهم اذا غرسوا في مخيّلتهم مثل هذه الاحلام البديعة وحثُّوهم على بذل قصارى المجهود في سبيل تحقيقها .

ونحن اليوم في اشدّ الافتقار الى ناشئةٍ نبيهة راقية يدور في خَلَدها مثلُ هذه الاحلام النافعة التي تُنعش البلاد من كَبوتها وتسمو بها الى ذرى العلياء . نحن في امسّ الحاجة الى إحياء روح الالفة والوئام في قلوبنا ، وذلك بتأليف جامعة وطنية من العقلاء تتكاتف على التوفيق بين قلوبنا المتنابذة ، بعد ان مزّقتها يد الاغراض شرّ تمزيق وفرّقتها العصبية الذميمة ايَّ تفريق حتى اصبحنا وكأننا خارجون من برج بابل لا نعرف كيف نتكالم ولا كيف نتفاهم

وما أفقرنا الى لجنة تُعنى بتعزيز لغتنا الشريفة التي تتهدَّدها عوامل الدثور والفناء من كل جانب ، وهي ناظرة بعين دامية الى مَن عقَّها من بنيها مؤثرًا غيرها عليها حتى طعنَها في صدرها طعنةً نفذت سُوَيداء فؤادها . .

هذا مايدور في خاطري من الاحلام الذهبية ، فعسى أَن يتحول الى حقائق فأرى بدر السعد وهّاجاً في سماء بلادي التي نشأتُ على هواها وأموت في هواها

النخاسة العلنية

او بيع الاعراض

لو كان في البلاد أسواقٌ للنِّخاسة ورأيتَ الإماءَ كيف تُقاد اليها اسراباً وراء اسراب ، والعبيد الأرِقّاء كيفَ يُساقون اليها ، وهم صاغرون ، أرسالاً تلوَ أرسال ، ثم ابصرت النخَّاسين يسومون تلك السوائم كما تُسام السِلع ويبيعونها من الموالي الاحرار بيع العجماوات ، فينطلقون بها الى اقفاصهم الحديدية حيث يُرهقونها اشدّ الخسف ويَعسفونها ايَّ عسف , لهالكَ الأمرُ ونبا بصرُكَ عن أُولئك النخَّاسين الجُفاة والموالي الاجلاف القُساة نُبُوَّه عن السفَّاكين والجزَّارين والجلّادين ، وتحرّزتَ منهم تحرُّزك من العقارب اللَّداغة والافاعي اللسَّاعة . وكأنما لا يكفي هـذه الفئة المقهورة المغلوبة على امرها ان تُؤسر وتخنق حريَّتها وتوثق بقيود الذل والصغارة ، حتى يبرِّحوا بهـا تبريحاً يزيدها شقاء على شقاء ويُعنِّفوها تعنيفاً يذيقها امرّ البلاء .

واذا كان الاتجارُ بالرقيق الاسود هذا مبلغهُ من القسوة والنذالة والفظاعة ، فما يكون مبلغُ الاتجار بالرقيق الابيض من الهمجيّة والتوحُّش ، والقحة والخساسة . وهل من متجر أسفلُ من هذا المتجر ، اوَ هل من مهنةٍ اخسُّ من هذه المهنة التي تشفُّ عن لؤم في الطبع وصِغَر في النفس وصلابة في الوجه وغلاظة في الجنـان . اوَ لا ترى القوّادين لحاهمُ الله ، واراح الانسانية من مكايدهم واسوائهم ، كيف يُغرون ذوات الخدور بالفسق والفجور ، ويسوقون المحصَّنات الى المواخير او ما هو أشبهُ بالمواخير ، وكيفَ يقذفون بربَّات الحجال والغواني الحسان الى بُؤَر الفحشاء ومباءات البغاء حيث يخضنَ مناتن الدعارة ويستحممنَ في مراحيض العهارة . وكلُّ ذلك طمعاً بقطع معدودات من عينٍ او ورق ينقدهم إيَّاها الفسَقة الفُجّار ، مكافأةً لهم عـلى اصطيادهم أُولئك المخدَّرات ، بما ينصبونهُ لهنَّ من الحبائل الذهبية ويُمنُّوهنَّ به من الاماني الطيّبات والاحلام المستعذبات . وهل من جناية ، مهما فظعت ، ابعثُ على الاشمئزاز وأجدرُ بالمؤاخذة والتنكيل ، من ان يسلبوا الابكار كنز عفافهنَّ ويجردوهنَّ من

صِوان الحياء ، وهنَّ أحوجُ اليه من الغصن الغضّ الى اللحاء ، اوَ هل من سهم أنفذُ للصدر وأثبتُ في القلب من نظرات الهزء ترميهنّ بها عيونُ المتحصنات ، اوَ هل من فتاةٍ ، مهما عثُر جدّها ، أسوأُ حالاً من تلك التي تنسج بيدها لنفسها في ربيع الحياة أكفانَ الهوان والعار ملطِّخةً جبين أسرتها بوصمةٍ لن تطمسَ يدُ الايام آثارها السوداء ؟ فوايمُ الله لأَن تُوأَدَ الصبيَّة وتدفنَ تحت أطباق الثرى ، وهي حيَّة تُرزق ، خيرٌ لها من أن تكون بين البواغي المومسات العواهر ، ولأَن تتجرَّع العلقم في كوخها الوضيع أهنأُ لها وأسلس من ان تكون حظيَّة مرفَّهة عند مليك عهَّار او امير فَجُور او مُثرٍ خالع العذار . ولأَن تأخذَ الحكومةُ اولئك القوَّادين المكَّارين بمثل ما تأخذ به السفَّاحين والغدَّارين أقربُ الى العدل وانفى للظلم وأحمى للعِرض وأصوَن للشرف وأحسمُ لدابر الفسق والعُهر ، فلا يتجرأُ من ثمَّ احدُ الرَّعاع الانذال ، بالغةً مابلغت وغادتُهُ ، ان يقدم على اقتناص الحمائم البيضاء ، واجتراح من امثال تلك الجنايات الهائلات ، التي تُذيب الابدان وتُقرّح الاجفان ، وتجرح صدر المجتمع الجراح الثخان ، وتُقوّض من مباني الشرف ومعاقل الصيانة امتن الاركان

ولا مُشاحَّة أنَ القوَّاد أجسمُ جُرماً وأشد ضيراً من سَفَّاك الدماء لأَنه بإغرائه العذراء الحَصان يُخرجها من حرز التصوُّن الحريز الى مجاهل التهتك الكثيرة المخاطر السريعة المهالك الشديدة المعاطب ، حيث تفترس الذئابُ عفافها ، ويدوس الطَّغامُ شرفها ويُمزّق السَّفِلةُ حجاب حيائها ، ويعبثُ عبيدُ الاهواء بحريّتها التي هي اغلى من ان تقوَّم واعزُّ من ان تُسام . وحيث تُسقى كوُوسَ المرائر حتى الثُّالة وتُذاقُ الوان المكاره على موائد العهارة ، وحيث تُقلَّب على القتاد او ما هو احدُّ من القتاد ، حتى لقد توُثر الحتف على البقاء في رموس الفحشاء بين الاجياف المنتنات . وكيف لا وهي تغصُّ في اليوم الف غصَّة وتُصعد من صدرها الكليم الف زفرة ، وتُذرف في الساعة العَبرة تلو العبرة وتموت مئة موتة . ولأَن تقتلَ قتلةً واحدة بيد سفَّاح اثيم أفرجُ لها وأروَحُ من ان تُلطم الف لطمة بيد فسَّاقٍ لئيم .

وكيف لا تُدرجُ في زمرة النخَّاسين ذلك الوالد اللئيم الاحمق الكليل النظر الضئيل الرأي السخيف الحصاة ، الذي يبلغ منه الخرقُ مدًى قصيًّا حتى يُكره فتاة

له روعاء حسناء رشيقةً هيفاء ذات ذوقٍ وأدب في لطفٍ وظُرف الى اناقةٍ وكياسة ، على الاقتران بكهل ذميم دميم اخرق لا مزيَّة له على مَن تَزاحمَ على خطبتها ، من الشبّان الاكياس الظرفاء الالبّاء ، سوى مالٍ احرزه بالإمساك والتقتير . وهل تتوسَّمنَّ ادنى خير في من تقعد به همتهُ عن منافسة الاكفاء في المفاخر والمعالي ، ومجاراة الأقران في حلبات المعارف والاداب ، اوَ هل يكون في فؤادك مكانةٌ لمن لا يطمحُ بصرهُ الى غير المال ، يحشده بالكدح وشِقّ النفس ، ثم يجمعُ بين الدَّمامتين : دمامة الخلَق ودمامة الخُلق ، والداءين : داء الجهل وداء البخل « وما اجتمع الداءان الا ليقتلا »

على أن مَن يبيع عبدًا قِنًّا ليس بأفظعَ جريمةً من أبٍ غرّ جافٍ ، يبيع ابنته المهذبة الابيَّة الحرَّة بيع الأمة ، رغبةً في نُقرةٍ من فضة او ندرةٍ من ذهب ، ينفحهُ بها صهرهُ القارن بين سوء المظهر وسوء المخبر . وكيف تكون حاله يومَ تُذوي سمائمُ الأسى غصن فتاته النضر ، وكأني بها تقول له : لقد ظلمتني وقتلتني ، قتلك الله ، يا اقسى الآباء قلباً واغلظهم كبدًا . وما يكونُ موقفهُ يومَ يسير امام موكب المشيّعين المتلهفين ولا يسمع باذنيه سوى اللعنات ، ولا يرى بمقلتيه غير النظرات المتهنات الشامتات . ام كيف يكون جوابهُ للقاضي العدل اذ يناقشه الحساب على تغريره بكريمته وضغطه عليها وخنقه لحريتها ، طمعاً بمهرها وما يتبعُ مهرها من الصِلات الخلّابات

وكيف لا تعدّ في طليعة النخّاسين ذلك الزوج الشحيح الخسيس ، الذي يُقتِّر على قرينته أفحش تقتير ، ويُغلظ لها القول ويُعنفها اشدَّ تعنيف ، ثم يوسعها ضرباً وشتماً وسباباً الى ان يُحرجها فتنشز عليه ، وتعمد الى السفاح وركوب الفحشاء . مع أنه لو أنفق عليها ما يُعينها على الظهور بمظهرٍ لائق ، لقنعت بحظها ولزمت نطاق حماها ولم تطأ على جمر العقوق اللذّاع . ولو راعاها وحاسنها ولم يعاملها معاملة المولى لجواريه لضنَّت بشرفها أن يوطأ تحت الاقدام وبسمعتها أن تكون أخبثَ من بخَر الضرغام بعد ان كانت اضوعَ من ريّا الخزام .

وألأم من هذا الزوج نفساً وأصلبُ وجهاً وأذربُ لساناً وجناناً مَن يقولُ لعقيلتهِ

الخفرة الحصان ، وقد انّبتهُ على خرقهِ حرمة الزواج المقدسة وايغاله في ميدان التهتُّك حتى بلغ في حلباتهِ غايةَ الغايات : لا تُسرفي في عذلي ولا تحاولي ردعي عما انا ماضٍ فيه ، وشأنَكِ انتِ وما تهوَين ، ولا بأسَ عليك ولا جناح . لقد القيتُ حبلك على غاربك حتى تُخلي لي الجوَّ ، فدعيني اسبحُ في بحر اهوائي ، وانطلقي أنتِ في سبيلكِ ، فإنَّ فضاء الحرية فسيح ومجال الخلاعة أفسحُ

أوَ ما تدسّ مع النخّاسين فتى لبيباً قد اورده ابواه اصفى موارد العلم واعذب مشارع الادب ، وعهدا في ادارة دفّته الى ملّاحين ماهرين لهم خبرة واسعة بفن التهذيب ، فوقوه غمرات الطيش ونزَوات الفتوّة ، وعُنوا بتثقيف طباعه عنايةَ الاب الحكيم ، وحنَوا عليه حنوّ المرضع على الفطيم وغرسوا في نفسه اشد الميل الى معالي الامور . وبعد أن قضى تحت رعايتهم ردحاً من الزمن برز الى ميدان الكفاح ، فاستفزّه العُجب واستخفَّه الصلَف ولعبت برأسه سورة الخيلاء ، وانشأ يخالط قرناء السوء فاحاطوا به إحاطة الغُلّ بالعنق ولزموه لزوم ظله ، وشرعوا يغذّون لبه بالمفاسد ، طابعين في مخيلته ما يؤَجّج في صدره نيران الهيام ، ويقذف به الى حومات الغرام ، حتى اذا استرقه الهوى واعمى بصيرته وباصرتيه اخذ يختلف الى المراتع الوبيئة والمناجع الوبيلة ، ملوِّثاً شرفه بردَغاتها القذِرة وحمآتها النتِنة ، غير عابئ بصواعق السخط تنقضُّ عليه من سماء آبائه ، ولا بنبال الازدراء والشماتة ترشقه بها عيون اكفائه فضلًا عن اعدائه . وانما كان غرضه الاوحد ومرماه الاقصى أن يُشبع نَهمته الحيوانية ويروي غُلّته البهيمية . ولقد فات هذا الفتى النزق الغِرّ أنه ، بتهافته على المناتن والمخابث ، قد جعل نفسه من المماليك الاخسّاء وباعها في سوق أذلّ من سوق النخاسة وأَوبل مغبَّة ، الا وهي سوق الغرام التي يبذِر فيها عُبَّاد الاهواء اموالهم ، ويَنهكون اجسادهم ويفقدون صحتهم ، ويُقصّرون حبل حياتهم بما ينتابهم من العلل الموبقة التي تنغّص عليهم العيش وتكدر موارد الهناء . أَضِف الى هذه الفجائع الساحقات والمخاسر الفادحات أَنهم يبيعون في تلك السوق الدنيئة حُرّيَّاتهم وأَعراضهم وآدابهم ، ويخسرون دينهم وشرفهم ونخوتهم وإباءهم . واين الموت الاحمر والبلاء الاكبر من هذه النائبات الجسام التي توشك ان تنحصر فيها تصاريفُ الايام .

وما رأيكم في فتاة يوسوس لهـا الخنّاس ان تتأنّق في ملابسها وهندامها تأنقاً يتبرّأ منه الحياء ، و تُسوّل لها نفسها الغويّة الوَلوع بالمحاسن الوهمية ، أن تتبهرج وتتبرّج تبرّجاً لا تتعدّاه بناتُ البغـاء ، ثم تبرز من خدرها وعلى محيّاها من الطِّلاء مسَحاتٌ فوق مسحات ، وقد رسمت عليه يدُ التصنع من الرواء الكذّاب آيات خالبات ، حتى اصبحت وكأنهـا دُميَةٌ من مرمر ، اجتمع على صنعها وتصنيعها نحّاتٌ صَناع اليدين ونقّاشٌ متفنّن مُبدع ، فجاءت آيةً في الصنـاعة وغايةً في البراعة . وتأخذ تطوف في هذا الزيّ المنكر متنقلةً من حيّ الى حيّ ومن شارع الى شارع ، وهي بسّامةُ الثغر ميّاسة القَد ، تلتفت ذات اليمين وذات اليسار ، لترى ما يكون موقعُهـا من قلوب المبصرين ، وما يكون شأنُها عند الاخلياء فضلاً عن المفتتنين . ألا فلتعلم هذه الطيّاشة الحمقاء ، التي تحوم حول المفاضح كما تحوم الفراشة على المشاعل ، أن السلعة اذا عُرضت للمبيع نقصت قيمتها او بارت . والعُقاب امنعُ ما تكون وهي محلِّقةٌ في جوها ، فاذا أسفّت هانت وسهل على القنّاصين اصطيادها . والدرّة اليتيمـة أصوَن ما تكون في صدفها ، فاذا غاص عليها الغوّاصون ونزعوها منه فربما جُعِلت فوق صدرٍ يشينها او في نحر اجدرُ به الغُلُّ من عقد الدر . والبنفسجة اذكى ما تكون بين اوراقها ، فاذا جُنيت لا تلبث ان تذبل فتفقد عرفهـا ورونقها معاً . والوردة افوَحُ ما تكون في كِمّها على صدر أمها ، فاذا تداولتها الايدي ، وتهادتها المباسم ، وتناقلتها الصدور ، وتناوبتها المعاطس ، ذوت وكان مصيرُها ان تُنبذ تحت مواطئ الاقدام او تلقى على المزابل ، حيث تتجافى عنها الابصار وتعافها الالباب . كذلك الفتاة فانها اعزُّ ما تكون في حَجَلتها واهونُ ما تكون في سوق النخاسة ، وهي السوق التي تعرض فيها نفسها على الشبّان ، فتتعرض للابتذال والامتهان . ولذلك جاء في المثل المأثور : مَن تبذّل تسفّل ومَن تهتّك هلك

ثم ما قولكم في والدة تُزيّن لها نفسُها الغَرور أن تستصحب فتاتها الى الملاهي الكثيرة المزالق ، والمراقص الشديدة المخاطر ، والمجتمعات الوخيمة المغبّات ، وتذهب بها الى اندية التمثيل حيث تُعرض صورٌ تُدمي مقلة العفاف ، ومشاهدُ غرامية يتقزّز منها اصلبُ الفتيان وجهاً فكيف بالفتيات الخفرات ، وتقودها الى المحافل التي يختلط

فيها الحابل بالنابل، حيث تمثّل حيناً المهازل المضحكات وأحياناً المآسي المبكيات، وحيث لا تقع النواظر الا على مناظر يتبرّأُ منها الحياء، ولا تسمع الآذان من الاحاديث سوى مايشدخ مسمع الادب، ويُلقي في اتون الصبابة ويؤول الى العطب. ومع ذلك فاذا نَصَح لهذه السيدة احدُ العقلاء أن تُشفق على فتاتها وتُقصيها عن تلك الموبقات، وتنكِّب بها عن تلك الغمرات المتلفات، خطّأته وسفَّهت رأيهُ. وحُجّتها، وهي أوهى من نسيج العنكبوت، أنَّ الفتاة، اذا اعتزلت المحتفلات، حيل بينها وبين الزواج، فتلبث في زوايا رَبعها كأنها بضاعة مزجاة، وتبقى في اعين ابويها أوجعَ من القذى، وفي حلوق اخوتها أمضَّ من الشجا. فنحن ندفع حجة هذه السيدة القاصرة النظر بأن نقول لها: إنَّ كساد فتاتها، مع عزلتها وحميتها ومنعتها، أشرفُ لها واعزُّ لأسرتها من ان تُنفق في معارض الخلاعة ومواضع الرِيب والتهم. ثم مَن يضمن لها أن كريمتها، متى احتكّت بالشبّان الضلّال واجتمعت بالغواة الجهّال، لا تسقط من العيون ولا تصير مضغة في الافواه. فكم من فتاة كانت مطمح الأبصار وقبلة البصائر وزهرة فوّاحة في حديقة غنّاء، فلما عاينها حتى المُعجَبون بها واللاهجون بأدبها الجمّ في تلك المزدحمات، التي تحوم حولها الشبهات، اعرضوا عنها ونفروا منها واحجموا عن خطبتها. وأيُّ شاب فيه مسكةٌ من العقل وبقيّةٌ من الشمم يُقدم على الاقتران بآنسة هذه مواردُها ومسارحها، وتلك مراتُعها ومناجعها. وما أجدر هذه الوالدة أن تنظر الى نفسها كيف تفعل لو همَّت بترويج احد انجالها، أتراها ترضى له زوجة من امثال تلك الفتيات النزقات الثرثارات. وما عساها ان تجيبهُ لو سألها رأيها في آنسة يُريد الاقتران بها، وهي ليست على شيءٍ من الادب والحشمة والصيانة، افما تقول له: دعنا يا بُني من هذه الحمقاء الخبيثة الأُحدوثة السيئة الادب، وابحث عن فتاة حسيبة نسيبة، معروفة بشمائلها الحسناء وطباعها الرضية الكريمة، فان العِرق دسّاس والفرعَ ينشأُ على الاصل

هذا بعضُ ما خطر لنا من الخواطر عندما اجرينا القلم في هذا الموضوع الخطير، البعيد المدى المتشعِّب الاطراف، أثبتناه في هذه العجالة على ما اوحاه الينا الضمير، حرصاً على سُمعة هذه البلاد، وضِنّاً بأُمتنا المحبوبة أن يكون فيها شيءٌ من النخاسة،

فيُشوّه محيَّاها الوسيم ويغضّ من مقامها في قلوب الغرباء . .

ونحن اليوم بعد إذ قرَّبت الاكتشافاتُ المستحدثة المسافات النائية بين البلدان ، وبعد انتقالنا الى هـذا الطور السياسيّ الجديد ، من اكثر الشعوب تعرُّضاً لسهام النقّادين وطعنات العاذلين . فلتكن دروعُنا التصوُّن والعفاف ومكارم الأخلاق ، ولتكن تروسنا الحميَّة والأنفة والآداب الرائعة . فانَّ اشرف الامم وانقاها ديباجةً وأقدسها عِرضاً مَن كان لها من حياء نسائها سورٌ متين ومن اخـلاق رجالها الحِسان حصنٌ حصين . .

النخاسة السرية

او الخيانة الوطنيَّة

اكثرُ الناس يزعمون ان النخاسة محصورة في المتاجرة بالرقيقَين : الأَسود والابيض ، وهم لو نظروا بعين نفَّاذة وبصيرة نقَّادة الى مايقع من الدسائس ويُنصب من الحبائل ويُرتكب من ضروب الخيانة تحت طيّ الخفاء ، ثم لو استقرأُوا الحوادث التي يجنف بها اصحاب الضمائر الملتوية عن جادة العدل والإنصاف ، وعرفوا كيف يهضم المرء حقوق اخيه ويسومهُ ما شاءَ من اصناف الجور والضيم ، وكيف تُداس مصالح الأُمة تحت اقدام المصلحة الفردية الشديدة الوطأة ، لأَيقنوا ان النخاسة أفسحُ من ان تُحصر في دائرة الاتجار بالأَرقَّاء ، وأنَّ في كل بلدة وتحت كل كوكب نخاسات ليست بأقل فظاعةً من النخاسة التي يعرفونها ويستهجنونها . وهل يُخامرنَّك ادنى مرية أن الذين يخونون وطنهم وأبناءَ وطنهم خفيةً او علانيةً ، جلبـاً لنفع او دفعاً لضرّ ، إنما يتعاطون مهنة النخاسة الوضيعة ، بل هم من اوغد النخَّاسين وأنذلهم طبعـاً وأخسّهم نفساً ، وأن الذين يدسُّون على أُمتهم ويكيدونها ويمكرون بها ويغتالونها هم أَخونُ لها وابلغ أذًى منَ الذين يُناصبونها العداوة ويصارحونها بها .

واكثرُ ما تقع هذه الخيانات سرًّا لا جهرًا ، كأني بأصحابها يشعرون بجسامة إثمهم فيأتونه تحت جنح الظلام ، او حيث لاتتناولهم الابصار ولا تسمع افتراءاتهم

الآذان . ومن الغريب أنَّ هؤلاء الخَوَنة اكثرُهم من الذين يجاهرون بمحبتهم لبلادهم ويتباهون بغيرتهم على ما يعود عليها بالنفع والجداء ، مع انهم اشدُّ مناهضةً لها من اضدادها ، واكثر ايقاعاً بها من شُنَّائها وحسَّادها . .

ولعلَّكم تستغربون اذا ارشدناكم الى مُحترفي هذه الحرفة الدنيئة وهم ، على وفرة عددهم ، منتشرون بين طبقات المجتمع ، لا تكاد تخلو منهم طبقة . وأغلبهم ممن تُطأطأ لهم الرؤوسُ اجلالاً وتكريماً ، ويُفسح لهم في صدور المجالس تهيُّباً وتعظيماً ، وممن اذا ذُكر الفضل خلتم انهم من اخص ذويه ، واذا نُسبوا قلتم انهم من لباب الشرف او من خيرة بنيه . غير أنَّ هؤلاء السادة الذين تحسبونهم من صُيَّابة القوم ربما كانوا في افعالهم الخسيسة من خشارته ونفايته ، ولكنَّ العامَّة قلَّما يشعرون بهم ، واذا شعروا لا يجسرون أن يسوِّئوا عليهم خسائسهم التي منها ينفرون ، ولا يجرأون أن يَجبهوهم بما يُنكرونه عليهم من الخبائث ، اتِّقاء للذعات سخطهم وحذراً من مكروهٍ يُنزلهُ بهم اولئك السادة اذا وغرت عليهم صدورهم ونقموا منهم . .

وعمرُكَ الله كيف لا يكون في هذا الوطن نخَّاسون ، واكثر بنيهِ يبيعونهُ بأكلة عدس ، ولا يحفلون بشرفهم أن يُدنَّس ولا بضميرهم أن يُلوَّث ولا بعِرضهم أن يُمزَّق ، ولا يُوجسون أقلَّ إيجاس أن يُعيِّرهم المعيِّرون بأنهم باعوا حُريتهم وشممهم بأبخس الأثمان في أسفل الاسواق ، ألا وهي سوق النخاسة السياسية التي يَرُوج فيها الخبث والخداع وتكثر الوشايات والاختلاقات . ولا يخافون أن يُشوِّه النقَّادون وجهَ نزاهتهم ويطعنَ الثلَّابون صدر وطنيَّتهم . ولا يتحاشون عن اقترافِ كلِّ دنيئة في سبيل اغراضهم وكل مَخزاةٍ في جنب مطامحهم . ويُقبِّلون الف يد طمعاً في رغائبهم أن تُقضى وفي مآربهم أن تُسدّ . فاذا تَرَعت أبصارهم الى منصب رفيع طالما علَّلوا به النفس ، سعَوا اليه عن طريق المداهنات والمراوغات والتزلُّفات والتذلُّلات ، وعفَّروا أَجبنتهم العالية في التراب الذي تطأه اقدام مَن يُحقِّقون لهم أملًا ويُجيبون سؤلًا ويُفيزونهم بأمنية ويقضون لهم لُبانة . واذا أعانهم حسنُ الجَدِّ على ان يكونوا عند الرئيس الأعلى من ذوي الحُظوات وأُولي المكانات فانهم يغارون عليه من الأزهار أن يتنشَّاها أنفهُ الأشمّ ، ومن أشعَّة الغزالة ان تخرق منافذ صرحهِ ، ومن هَينمةِ

النسيم ان تلج صِماخ أُذنه . حتى اذا قطعوا على الأحظياء لديهِ كلَّ مدخل استأثروا به وانفردوا بصحبتهِ واستقلُّوا بمنادمته ومسامرته ، وتسنَّى لهم ان يجعلوه اداةً لتنفيذ مقاصدهم والفوز بمطامعهم . وحينئذٍ فلا تسل عما يتسبَّبون به اليه من الاسباب المذمومة ، حمايةً لمنزلتهم عنده ، ولا عما يتذرَّعون به من الذرائع الممقوتة للحؤُولِ بينه وبين المخلصين له من عقلاء الامة وحكمائها . واذا آنسوا منه عطفاً على احد مرؤُوسيه الأمناء أفرغوا ما في كنائنهم من الحِيَل حتى يخفضوا من قدره في عينيه . وكثيراً ما تحدِّثهم نفوسهم اللئيمة بأن يسعَوا السعايات السافلة بمن يحذرون منهم أن يزاحموهم على حظوتهم لديه ، فيذهبون في ميدان التقوُّلات والبلاغات والمثالب والمطاعن مذهباً قصياً هيهات ان يبلغه الرعاع . وحتى يكونوا بمأمن من الأقران الشداد والخصوم اللداد لا يغفلون طرفةَ عين عن ان يستميلوا مولاهم اليهم ، تارةً بالمدالسات ، وطوراً بالمخاتلات والمصانعات ، وحيناً بأن يُثنوا على عملٍ لم يُحكمه ، واحياناً بأن يُبدوا آيات الاستحسان لما انفذه من الأحكام وهو حريٌّ بالملام والاستهجان ، الى ما هنالك من التمويهات والتضليلات التي تحجب عن بصيرته وجه السداد وتُوقعه في الارتباكات والمعضلات . ومن امثال ذلك أنهُ اذا قامت الأُمة يوماً وقعدت لسوءٍ نالها او حيف نزل بها او ضريبةٍ فُرضت عليها ولا قِبَل لها بها ، ثم اجمعت كلمتها على ان تتظلَّم الى الحاكم لعلَّه يخلع عن عنقها النير الثقيل ، انسلَّ أُولئك الخونة الدسَّاسون الى غرفته واندفعوا بما أُوتوه من ذرابة وسلاطة وقوة حجة وحصافة يُعملون مكرهم في الامة ويطعنونها في سويدائها ، وذلك كأَن يقولوا له : امضِ على رأيك ولا تأبه للامة المستصرخة ، فانها من اليسر بحيث تُطيق ان تتحمَّل هذه الضريبة وأفدحَ منها على غير عناء . وهذه المقاصف والملاهي التي تكتظُّ كل ليلة بالمحتشدين اسطعُ دليل على ما هي عليه من الترف والسَّعة وغضارة العيش . ولا بأس عليك من سُخطها فقليلٌ من العزم وشيءٌ من العُنف يُشتِّت شملها ويُفرِّق آراءَها ، وما اكثرَ مواضعَ العجز فيها ، وما أَيسرَ الطُرق لاستعباد زعمائها . فاذا اسندتَ الى احدهم منصباً تطمحُ اليه ابصاره قطعتَ لسانه وألسنة أنصارهِ وأشياعه الذين يمشون تحت علَمه ولا ينطقون الا بما يُنطِقهم هو به ، حتى كأَنهم أدوات في يديهِ صمَّاء يحرِّكها على ما يشاء او ابواقٌ

ينفخ فيهـا ما شاء . وإلّا فمن اين لك أن تُنفق على موظّفيك ، وهم جيش عرموم جرّار ، يموجون ويمورون حول صرحك الفسيح الاطراف تيّارًا إثر تيّار .

وما اشبه هذه الخيانة بما يُقدم عليه احد المستنفعين الاوغاد من السعاية بأُمته يوم تنهض نهضةً واحدة ، تحتجُّ على احدى الشركات لعلاوةٍ اضافتهـا الى رسومها ، خرجت فيها عن حدود الاعتدال ، فتؤلف وفدًا تنتدبهُ للاجتماع بمدير الشركة وإيقافه على شكواها العادلة والرغبة اليه بأن ينصفها ، وإلّا اضطُرَّت الى الاعتصاب مُكرَهةً عليه . فلا ينصرف الوفدُ من غرفة المدير بعد إنجاز المهمّة التي انتُدب لها ، حتى يهرول اليه ذلك الداهيةُ الملِقُ اللسان الخدِر الضمير المهزول المروءة الساقط الهمة يقول له : لقد اعتادت الامة أن تُسمعنا جعجعةً ولا تُرينا طِحناً . فصمّم على ما قرّرت ونفّذ ما به هممت ولا تخشَ محذورًا وعليَّ كلُّ دَرَكٍ وتِباعة . أوَ يذهبُ عن بصيرتك الثاقبة انَّ الذين يتوعّدونك باعتصاب الامة على الشركة ومقاطعتها لها ، يمكنك أن تستظهر بهم حتى على الأُمة نفسها التي انتدبتهم للاحتجاج باسمها ووضعَت فيهم كلَّ ثقتها ، متى عرضتَ امام ابصارهم العجلَ الذهبيَّ المُسمَّن الذي لايشركون به ولا يرضون عنه بديلًا ، ولا يرعون معه لأحد ادنى حُرمة حتى لنفوسهم . واذا خالجك ادنى ريبة في ما أثبتُّهُ فحسبُك أن تُسمعهم نغَمات الاصفر الرنّان فإنها أوقعُ في قلوبهم من صدحات الهزار وارخمُ في آذانهم من تطريبات الكنار . .

على ان هذه الامور الساقطة يقعُ كثيرٌ من امثالها في جميع الحلقات ، فان الذين يترصّدون فُرص الاستفادة من طرق المداجاة والاغتياب والخيانة هم مبثوثون في كلّ مكان ، ولهم في كل عرسٍ قرصٌ ومن كل مأتمٍ مغنم وفي كل شِقاق ومُشادّة يدٌ ، ونحن نقتصرَ هنا على إيراد شيء من تلك المداجيات ممايقعُ عادةً في الادارات العمومية الحافلة بالمستخدمين الغاصّة بالمتزاحمين ، لارغبةً في ان نتنقّص غيرنا ونثلم سُمعته ونحطّ من قدره ، فاننا نربأُ بنفسنا الابيّة ان تتمرّغ في هذه الحمأت القذِرة ، بل إرادةَ ان نَلفت انظار من يتولّون تلك الادارات الى وجوب التحرُّز من كل دسّاس خدّاع ومُداجٍ ختّال ، تفادياً من ان يُستدرجوا بتقوُّلات المتقوّلين وتخرُّصات المتخرصين ، فينحرفوا عن طريق السداد ويُلحقوا بمن له صلة بهم ضررًا بيّناً على غير عمدٍ منهم .

وانه ليؤلمنا أيَّ ايلام ان يكون في بعض ربوع العِلم نفرٌ من ادعيـاء الادب لا يروقُهُ إلَّا ان يصطاد في المـاء العكر ولا تُحدِّثه نفسُهُ الخسيسة الَّا ان يتنقَّص رُصفاءه الاماثل ويخفض من أقدارهم في عيون رؤسائهم . ولو كان هذا الرهط راجحَ الحجى لصرف همتهُ الى منافسة اقرانه في الاستزادة من المعارف والاخلاق العالية التي يحسدهم عليها ، ومضى في قضاء واجباتهِ مُضيًّا يُظفره بما يتوخَّاه من استرضاء وُلاة شؤونه والحُظوة عندهم . فانَّ هذا المسلك اشرف له واصوَنُ لماء وجهه . واما الطُّرُق الذميمة التي ينهجها للوصول الى غرضه فالأجملُ به ان يتحاشى عنهـا ، ضنًّا بمهنته الشريفة ان يلوّثها بهذه الادران وحرصاً على سمعته ان ينصبها هدفاً للتثريب والتنديد . اوَ يليقُ به ان يكون ، بين المتخرّجين عليه ، الماثلين امام منبره ، يتلقَّنون منه دروس الآداب ، مَن هو اعزُّ منه نفساً واعفُّ لساناً واكرم خلقاً وانزه قصداً . والعِلمُ انما يرِدُ المرء موردَه العذب حتى يُروي صدره من مكارم الاخلاق ويترفَّع عن الخسائس المُنديات . وليتَ شعري كيف يكون موقفُه يوم يفتضح امرُهُ وتُعلَن خيانتهُ وتُكشف مكايده ، ويومَ يعرف الطلَّابُ أنَّ معلّمهم الذي يحضُّهم على التجمُّل بمعالي الامور هو من اسقط الناس ومن اذلّ النخَّاسين . ونحن لو كان في يدنا زمامُ الإدارة واتانا مثلُ هؤلاء العقارب اللدَّاغين لاستأصلنا شَبَواتهم وكفينا الناس سُمومَهم القتَّالة . .

ولا نفتأُ نذكر ، والعهدُ غير بعيد ، ما وقع من الدسائس المخزيات يوم اضرب عَملة شركة القطار الكهربائي عن العمل والحّوا على مديرهم ان يراعي في أُجورهم جانب العدل ، أفلم ينسلخ يومئذ عنهم بعضُ المستخدمين المتذبذبين فضلاً عن المستنفعين الملّاقين ، واخذوا يُوغرون عليهم صدرَ المدير حتى فُتَّ في اعضادهم وانتثر عقدُهم ومُزّق شملُهم كلَّ ممزَّق . فما اصغرَ نفسَ الانسان امام منافعه ، وما اجرأه على ركوب متن الهوان سعياً وراء مطامعه ، وما أسفله واذلَّهُ ازاء الدينار الذي يسجد له ليـلَ نهار ويعبده في الآصال والاسحار كما يعبد الحنفاء انصابَهم المصنوعة وأصنامهم المنحوتة

وهل من شيء ادعى الى التأسّف وابعثُ على الاشمئزاز واجدر بالمؤاخذة من النخاسة السرية التي يتعاطاها اولئك الذين يجمعون باسم المساكين البائسين التبرُّعات والصدقات والزكوات من ذوي المبرات ، وهم انما يجمعونها لنفوسهم لا لأُولئك

المنكوبين الملهوفين . ولو عرف الاريحيّون كيف تُبذل تلك الاموال وكيف تتسرَّب في جيوب أولئك اللصوص الأشراف ، لكانوا اشدَّ إمساكاً من الاشحّاء . لانهم انما يتبرَّعون بما يتبرعون حتى يُنفَق وجوه البرّ او في سُبُل تُعين الجريح على تضميد كلومه وتخفيف عذابه ، لا في طُرُق يتجافى عنها الشرف وتُنكرها الرحمة وتنقبض منها الانسانية التي يدَّعي اولئك السرَقة أنهم من أصدق خدَّامها وأغيَر نصرائها . نقول هذا ونحن على يقين من أنَّ عندنا في هذه الربوع عدداً جمّاً ممن فُطِرت نفوسهم على مؤاساة ابناء الفاقة والَحدْب على من أخنى عليهم الدهر وأذاقهم من عواديه الصاب والحنظل . وهؤلاء الكرام هم ، والحمد لله ، في كل ملّة ومن كل مذهب . اكثر الله من امثالهم وأثابهم على مساعيهم المبرورة ومآتيهم المشكورة مَثوبةً تُنسيهم مايتجشّمونه من الانصاب في خدمة مَن هم عالةٌ على البشرية ، ولا ظهيرَ لهم من ابنائها الا الرحماء الرقاق القلوب النُصحاء الجيوب . . .

وهنا نرغب الى عقلاء الامة ، وفي طليعتهم اربابُ العقد والحلّ فيها وساستها وممثلوها واصحاب المهن الحرَّة ، أن يفسحوا لنا في توسيع نطاق النقد ، ولو اصاب بعضَهم من فم اليراعة رشاشٌ منه . فانهم من ارحب الناس صدراً وأدراهم بما يترتَّب على الانتقاد من جليل الفوائد ، ولا سيما اذا أصاب المرمى ، وكان بمعزل عن الهوى ، ووقع في قلوبٍ ذات شعور ، ولم يُقصد بهِ سوى مصلحة الامة بل مصلحة المنتقَدين انفسهم . فان الموضوع لأخطر من أن نحبس اليراع فيه عن التنديد حيث نرى له وجهاً وإليه سبيلًا . والكُتَّاب النزهاء في الامة أعقلُ من أن يُغمدوا الاقلام مراعاة لزيد ومجاملةً لعمرو ومحاباةً لخالد ، وأجرأُ من أن يتهيَّبوا مآزق التخطئة محاذرةَ أن ينال منهم وينقلب عليهم مَن يَعيبونهُ على خللٍ فيه ، او مظلمة ارتكبها ، او رشوةٍ شوَّه بها وجه عفافه ، او دنيئةٍ دنَّس بها إزاره ، اوخيانةٍ بعثهُ عليها طمعُهُ ونهمه . وهانحن موردون هنا ما يتمثّل في خاطرنا من الوقائع الشائنات مما رأيناه بأُمّ أعيننا او سمعناه بآذاننا ، والوطنيَّةُ براءٌ منه ، والامانةُ منحورةٌ فيه والنزاهةُ مُصماة في سويداء لبِّها

وأوَّلُ ما نتناوله في نقداتنا مهنة المحاماة ، فان بعض اربابها تُزَيِّن لهم نفوسهم النهمة بالمال الحرام ، أن يُقدموا على الامور السافلة ويقتحموا الدنايا ، ولا يخشون

محذورًا ، حتى تتزعزع ثقة الناس بهم ، وتخبث أحدوثتهم فضلًا عن تدنيس ضمائرهم وتلويث شرفهم وشرف المهنة التي يحترفونها . ولهم في الاحتيال اساليبُ غريبة وأفانين مدهشة تجوز حتى على الدهاة فكيف بسُلماء النيَّة . ومما يحضرنا من هذا النوع ان أحد هؤلاء المكّارين شعر يوماً بخصام وقع بين رجلين ، فخفَّ الى احدهما يقول له : دونك المحاكم فانها تنصفك وأنا احامي عنك وأضمن لك النجاح . ثم اتفق واياه على الأجرة وتقاضاهُ قسطاً منها ، وبعد عَقد جلستين قبض قسطاً آخر ثم الباقي حتى استوفاها كلَّها . وحينئذٍ هرع اليه الخصمُ بعد أن وثقَ من الإخفاق في دعواه يقول له : علامَ انت تُرهقني هذا الإرهاق وتُعنيني إعناءً يُضيقُ ذرعي . دع الرجل وشأنهُ وخذ مني ما تشاء . فلما رأى ذلك المكّار في يده الدنانير الوهَّاجة حوَّل وجهه عن مصلحة موكِّله واخذ يستدرجه حتى يُضعف امله بحسن النتيجة . ومما قاله له : انَّ حجج خصمك اقوى من ان تُدفع حتى اصبحتُ على يقين من ان الحق عليك لا لك، ولذلك رأيت ان أُوفق بينكما بطريقة حُبيَّة ، لئلَّا يصيبك من الاذى ، فيما لو واليتَ المرافعة ، ما لا طاقة لك به وانت في غنى عنه . فاغترَّ بنصيحتِه المموَّهة ونال المحامي بمكره نصيبَهُ من المتخاصِمَين .

وحدث مرةً ما هو أَدلُّ على الخيانة وابعد مدًى في مجالات السفالة . وذلك ان محامياً بعد ان استنزف مال موكلهِ ، ولم يَبقَ في ضرعهِ ما يُروي غلَّته ، تواطأ وخصمَهُ على ان يتخلَّف عن حضور آخر جلسة يكونُ فيها الحكمُ الفصل ، وادَّى له الخصمُ على هذه الخيانة مبلغاً من المال . فلما كانت الجلسة حكم القاضي للخصم ، فألحق المحامي بموكِّله ، بسبب تغيُّبِه ، خسارةً ذات شأن . وهو غاية ما تنتهي اليه الخيانات في هذا المضمار السافل . وهناك من طرق الخداع والحيل ما يضيق المقام عن استيعابه وبسطه وتفصيله . فأحرِ بنقابة المحامين ان تطرد من سلك هذه المهنة الرفيعة كلَّ مَن يحط من مقامها ويسِم جبينها بميسم العار

ولا بدَّ لنا من جولة انتقادية حول الصحافة ، وإن كان اكثر رجالها في هذه الانحاء ، ممن تربطنا واياهم صلةُ الولاء فضلًا عن صلة الادب ، ضنًّا بمرآتها الصافية أَن تعلوها هَبَواتٌ تكدِّرها ، وتنزيهاً لشرفها عن أَن يُلطَّخ بشيءٍ من الخسَّة . فان الصحافة

هي ولا جرم منارة الامة ونبراسها الوقّادوقائدها المدرّب واستاذها المجرَّب ' بل هي معرض أَخلاقها ومظهر آدابها . فاذا انحرفت عن سَنَن الرشاد إطاعـةً لداعي الهوى او اندفاعاً وراء المطامع ' كانت على بلادها اشدّ وطأةً من الأَوبئة الفتّاكة

وإنه لَيكلمُ فؤادنا ان نرى في ما ينشرهُ غيرُ واحدٍ من محترفي هذه الحرفة الخطيرة ما لا يلائم شرفها ، ولا ينطبق في شيء على مصلحة الأُمّـة التي يتبجحون بانهم من أَضنّ الناس بسمعتها وانهضهم بخدمتها . وكيف لا يحقُّ لنا ان نسوء بهم ظنّاً ، وهم يولُّونهـا ظهورهم في محنها ، وينقلبون عليها كلما رأوا في الانقلاب منفعةً مادية لهم . فكم من مرة فار فائرُ الأمة لظُلامةٍ نزلت بهـا فأنّت حتى بلغ انينها عنان السماء وطبَّقت شكواها الآفاق . وكانت الصحف الوطنية الصادقة الى جانبها تُناضل عنها مناضلة اللبوءات عن اشبالها ، والرأيُ العامُّ ترسٌ لها والحقُّ الصراحُ سيفٌ مصلتٌ في يدها . واذا بصحيفة ملّاقة متذبذبة برزت الى الميدان تدافع عمن أحلَّ البغيَ بالأمة دفاعاً أضحَكُ ما فيه انه مبنيٌّ على جُرُف هارٍ وصادرٌ عن قلب اعمى الغرض بصيرتيه وسدَّ الذهب الرنّان مسمعيه ، حتى اصبح لا يرى الحقَّ الا بطـلًا والبُطلَ الّا حقّاً .

وكم من مرة ثار ثائر الأمة على من نحتَ في اثلتها وطعنها في مُهجتها ، فتغاضى بعضُ الصحفيين عن هـذه الطعنة النجلاء ، حتى كأنها وقعت من قلوبهم على صخرة صمّاء . وكم من مرّة حملت الصحف الأجنبية على ابنائنا في المهاجر حملات شعواء ، وعيَّرتهم بما لو عُيّر الشعوب الأُباة بعشار معشاره ، لهبوا على المعيّرين هبةً واحدة وقطعوا اسلات السنتهم وأَلقموهم حجاراً حادّة . ومع ذلك استقبل بعضُ الصحافيين الوطنين هذا التعيير بدمٍ بارد ولم يبدِ ادنى حراك تجاه هذه الاهانات التي جرحت صدر الأمة حتى كأنه جُلمود او ميت ملحود .

او ما تعدُّون من ضروب الخيانة وقوفَ الصحافة موقفَ من لا وطنيَّة له بازاء كل كارثة تحلّ بالبلاد ، وتجاه كل خطر يتهدَّدها . اوَ ما يبيع الصحافيُّون شرفهم في سوق النخاسة يوم يتهيَّبون الخوض في مضمار النقد مراعاةً لخواطر اولياء الشأن ، بعد اذ فرَّط هؤلاء في خدمة الأمة تفريطاً ذمياً وانحرفوا عن مصالحها . ويومَ يُبصرون

بعيونهم الأكبال الحديدية يشدُّها على قدميها مَن عاهدها على ان يُخلص لها العمل فكر بها ، ثم هم يسكتون سكوتاً لا يعذرون عليه . ويومَ يُعاينون بعض الشركات تمتصُّ دم الشعب امتصاص العلق ، فيلزمون الصمت او يكونون مع الشركات اعواناً عليه ، طمعاً في مال وعدتهم بـه مكافأةً لهم على خيانتهم اياه . ويومَ يُرشِّحُ احد الموسرين نفسه للعضوية النيابيـة ، وليس له من وسيلة اليها سوى مالٍ يَرشي به المنتخِبين ، او زُلفةٍ ينالها عند الحكّام على غير جدارة ، او قبضةٍ من الدنانير يستهوي بها بعض الصحفيين المستجدين ، فيأخذون يغرّون العامة بما ينسبونه الى ذلك الموسر من المآثر التي لم يأتِها ولم يحلم بها ، وما يصفونه به من الشمائل والمناقب الرائعـة التي لم تجتمع يوماً في صدره الخسيس . ولقد يُغالون في التمويه على العقول بحيث يقولون عنه بدون ادنى حياء : هذا زعيم البلاد اذا سار سارت تحت لوائه الألوف ، واذا وقف وقفت امامه الصفوف ، واذا رضي رضيت لرضاه الأُمّة ، واذا غضب غضبت لغضبه كلُّ نفس حُرَّة . ألا فاستنيبوهُ تسعدوا وضعوا فيه ثقتكم تغنموا وتُحمدوا .

وكأننا برجال الصحافة وقد تبرَّموا من ملامتنا يقولون لنا : اثنِ يراعك عنا ومِلْ به الى غيرنا ممن هو أولى بالعذل منّا ، وهاتِ رذاذاً من نقداتك تُنزله على ساداتنـا الشيوخ والنّواب والنظّار والقضاة ومَن اليهم ، والا كنت خوّاراً رِعديداً . فنحن ننزل عند رغبتهم غيرَ هيّابين

أمّا الشيوخ والنّواب فمن راقه أن يسبر اغوارهم ليرى أهم مُخلصون للأُمـة ام غير مخلصين ، فليشهد جلسةً تُعقد في ندوتهم ، وليستوعب ما يدور فيها من المناقشات والمذاكرات والاعتراضات والمنازعات والاستدراكات ، وما يلقى هناك من الخطب الرنّانة والتقاريظ الطنّانة ، وما يصدر من القرارات وما يعلّق على القرارات من الذيول والحواشي ، وعمـا تُسفر تلك المباحثات وما ينجم عنها . ثم ينفرد بنفسه ويُحكِّم عقله في مـا وقع على مسمع منه ومرأى ناظراً بعين مجردة عن الهوى الى ما انطبع في ضميره من آثار تلك الجلسة ، وما كان لها من الصدى والوقع في فؤاده ، وما علّق عليهـا من الآمال فاذا رأى مندوبي الأُمة قد آثروا مصلحتها على مصلحة نفوسهم فليقل : بارك الله في شيوخنا ونوّابنا السراة النزهاء الأَماثل ، فلقد تناولت

اجتماعاتهم الشائقة كلَّ موضوع يعود على الأُمة بالخير والفلاح ، ووضعوا المقرَّرات المفيدة ، واقرُّوا المسائل التي تنهض البلاد من كبوتها الاقتصادية ، واجمعت كلمتهم على انشاء المشاريع العمرانية التي تحيي الأمة وتزيد في ثروتها ، وتعزز مواردها من زراعية وصناعية وتجارية ، وتفتح لها ابواب اليسر ، فهم ولا ريب من أغير الناس على مصالحها واشحّهم براحتها ، وادأبهم في سبيل سعادتها ومجدها ، وابرّهم بوعودها وارعاهم لمحارمها ، وانشطهم الى الذود عن حقوقها وأنهضهم الى تحقيق امانيها ، واسدّهم لثُلمها ، واقوَمهم بما عاهدوها عليه من أنهم يخدمونها خدمة نصوحاً لا غُبارَ عليها ولا مغمز فيها ، ولكن اذا رآهم يسومونها افدح الضرائب وابهظ الرسوم ، وهم لا يأتون عملاً ينفعها ولا مشروعاً يُحييها ولا مسعى يُعلي شأنها ، بل لا همَّ لهم الا ان يُضخّموا وظائفهم ويرفعوا جعائل مَن يمتُّ اليهم من ربيبٍ او صنيعةٍ او نسيبٍ ، ويضمنوا تقاضيها شهراً شهراً ، ولو استنزفوا دم الأمة واستنفدوا بيت مالها ، ثم لا يبالون بالحرّاثين والعمّال يطيرون الى المهاجر زرافات وراء زرافات ارتزاقاً وانتجاعاً ، فقل : اللهمَّ أعِنّا على الذين ائتمنّاهم على مصالحنا فخانونا ، وعاهدونا على ان يكونوا لنا أحلافاً فكانوا عداةً اجلافاً ، وقد باعونا في سوق المراوغة كما تباع العبيد في سوق النخاسة .

واما نظاراتنا السبع ، التي يظنُّها المتشائمون انها اشبه بمصائب مصر السبع ، فاهمُّها العدلية والداخلية والنافعة . اما العدلية فانكم تعرفون منزلة رئيسها من النزاهة والانصاف اذا اجلتم رويّتكم في القضاة ورجال العَدالة الذين يختارهم اعواناً له على إقامة ميزان القسط بين العباد . فاذا كان العدلُ ناشراً في مجالس القضاء لواءهُ ، والعفاف مرفرفاً بجناحيه ، والنزاهة تجول جولاتها في تلك الغرفة الرهيبة ، بحيث يفوز كل ذي حقّ بحقه بدون ادنى محاباة ، فاحنوا الرؤوس امام ذلك الناظر الجليل القدر وامام أعوانه النزهاء الاعفّاء الذين يعرفون كيف يصونون للقانون هيبته ويرعون للقضاء حرمته . وكيف يُقدّسون الشريعة ويحترمون واضعيها . ولكن اذا رأيتموهم يحكمون للقوي على الضعيف ، وللغني على الفقير ، ولاصحاب الشفاعات على المخذولين ، متصرّفين في حقوق عباد الله على ما يُملي عليهم الهوى ، فابرحوا تلك الغرفة وفي

عيونكم دمعةٌ على الانصاف ، وفي قلوبكم لوعةٌ على العفاف . ولا يأخذنَّكم العجب من النخاسة كيف قويت على أن تفتح لها باباً حتى الى اعدل الغرف ، ومن الرشوة كيف قدرت على ان تُفسد ضمائر القضاة وتعبث بنفوسهم الأبيَّة ، حتى باعوها وباعوا معها صيتهم وشرفهم في تلك السوق النخاسية

واما الداخليَّة فليست بأقل خطورةً من العدلية ، لان رجالها هم الذين يُدبرون شؤون الأمة ، واليهم مرجعُ الأمن والسكينة والراحة ، فاذا لم يتخذ ناظرها النزاهة دليلًا له في انتقاء مُظاهريه ولم يعتمد على ذوي الخبرة والحزم والتدبير ، وقع كلَّ يوم في البــلاد مفسدةٌ تُسجِّس الخواطر وتعمي البصائر ، وانتشرت بين السكَّان المخاوف والبلابل ، بحيث لا يأمنون على ارواحهم أن ينزعها العيَّاثون من صدورهم حتى في دورهم ، ولا على اموالهم أن يسلبهم اياها الطرَّارون الغاصبون ولا على اعراضهم ان يهتكها الثوَّار الفتَّانون .

واما النافعةُ فانها الجسرُ الذي تعبر عليــه الأمة الى ضِفاف العمران وميادين الفلاح ، والطيارةُ التي تطير بها من حضيض الهمجية الى جو المدنية ، حيث تسبح الامم المتحضِّرة والممالك المتمصِّرة ، فاذا تشاغل ناظرها بمصلحته عن مصلحة امَّتــه وتغافل عن موازريه وكل من له صلة به حتى غار في اجوافهم جانب عظيم من المال المُرصد الى الاصلاحات العمرانية من ترميم معابر وتعبيد سوابل ، وانشاء طرق حديثة ومدّ خطوط جديدة ، وقع الخراب وعمَّ الخلل وتضررت البلاد اي تضرُّر ، وبقيت في ساقة الامم المتمدنة تقاسي مرارة التقهقر وتعاني اشد العنــاء ، متأوِّهةً من سوء حالها ساخطة على من يزدردون اموالها ويمتصون دماءها بدون ان يُجدوها ادنى جدوى ، كأنما لا يحق لها ان تمتِّع نظرها بمسعى حيوي ولا مشروع عمراني ولا بمظهر مدنيّ ، بل قُسِم لها أن تُرسف باكبال الرقّ ناظرةً بعين قريحة الى الشعوب الحيَّــة وسامعةً بأذنٍ جريحة ما يُعيّرها به المعيّرون

ونحنُ مع اعجابنا بناظر نافعتنا العبقريّ النزيه الهمام ، وثقتنا الوطيدة بناظري الداخلية والعدلية ، وهما من صفوة العلماء ونخبة الجهابذة وأقطاب السياسة والتدبير ، لا نتمالك عن ان نفرغ في مسامعهم اللطيفة ما ينتقدهُ عليهم المنتقدون ، ومدارهُ في

الغالب على محور واحد، اذا ضربنا عرض الحائط بتقوّلات المتقوّلين وافتراءات الماقتين، ألا وهو أن في تلك النظارات جيشاً عرمرماً من المتوظفين، تنوء الأمة بنفقاتهم الفادحة على حين انها في غنًى عن اكثرهم. فلو نهضَ نظّارنا الاعلام نهضة وطنية جريئة وشذّبوا بمقاريض التجرد والنزاهة أغصان نظاراتهم الذاوية التي لا ماء فيها ولا حياة، ولا طائلَ للأمة من ورائها، لضنوا بسمعتهم العطرة ان تفسدها انفاس المخطّئين، وازاحوا عن ظهر البلاد عبئاً طالما اجهدها واثقلها حتى كاد يُلصق صدرها بالحضيض. ولا نخالهم الا نازلين على رغبة كل من يشحُّ بمصلحتهم ويحرص على حسن احدوثتهم. ومتى خطوا هذه الخطوة المباركة اجتمع في بيت المال ما لو انفقوه على الانشاءات الاقتصادية والمشاريع الحيويّة لسعدت الأمّة فلهجت بمآثرهم وسطرتها على حبّة فؤادها بمداد الذهب وضنّت بها ضنين الشحيح بما يملك من النشَب

على انه لا يسعنا في هذا المقام الا ان نُنوِّه بفضل عدد كبير من رجالات القضاء والادارة، الذين هم من موازين العدالة ومقاييس النزاهة، وممن تباهي بهم الشريعة أنهم من اعفّ خدامها وابسل حُماتها، حتى لقد عززوا اوطانهم بسعة معارفهم وغزارة مداركهم، وشرفوا أمّتهم بأنفتهم ونصاعة ازارهم، وادهشوا الأغيار بما تفرّدوا به من صدق الفراسة والحصافة وسعة الخبرة. فحبَّذا أن تحتفظ بهم الحكومة احتفاظها بالكنوز واللآلىء الثمينة حتى تتلقَّن الشبيبة من تحت اعواد منابرهم، مع الدروس الفقهية والعلميَّة والادارية، علم الاخلاق العالية، وهو من اوجب العلوم للجالسين على كراسي الاحكام

واما سائر النظارات ودوائر الشرطة والدرك فان اربابها أدرى منها بما يقع فيها، والصحافة محتكرة ايراد حوادثها وتعليق الذيول الضافية عليها. وعهدُنا قريب بتلك الخيانة الفظيعة التي ركب مركبها الخشن بعض رجالها الذين عُهد اليهم ان يُبرموا الأَمن فكانوا من ناقضي حباله، وأن يحموا الأمة من العائثين فأنفذ كلٌّ منهم في صدرها احدَّ نباله. ولا يأخذك العجب مما يقع فان الدنانير الصفر تعمي الابصار وتفسد الضمائر، والرشوة تخدِّر الاعصاب وتخلب البصائر

هذا وعسى ان تكون النخاسات في هذه البلاد اضغاث احلام او من ثمرات

الاوهام ، لانه عارٌ على الأمة ايُ عار ان يكون رُعاتها ذئاباً وحُماتها سُلَّاباً وقادتها خُوَّاناً وقضاتها حيتاناً . اوَ ما يكفينا ما فينا من الادواء الاجتماعية والحزازات المذهبية حتى تبطش بنا العلل السياسية والقضائية والادارية . ارفُق بالأُمة يا ارحم الراحمين وأَجِرها من الظَّلَمة الغاشمين وأعِذها من الخوَنة النخَّاسين .

منافع الروايات ومضارها

ان فنّ الروايات من اجمل الفنون وأوفاها نفعاً وأدلّها على ثقوب الفكرة وبُعد مرامي النظر ، لما يستلزمه من التفنُّن في اساليب الوصف ومذاهب الإِقناع ' ويستدعيه من البراعة في سرد الاخبار وايراد الوقائع على ابدع نمط والذ منوال . وله في العالم المدني شأن خطير ومكانة عالية حتى ترى مشاهير الكتّاب واقطاب الحنكة والدهاء يتجاولون في ميدانه المترامي الاطراف ادراكاً لقصبات السبق وطمعاً في نباهة الذكر . ولذلك اصابت الروايات عندهم اوفى حظ من الرواج والانتشار واوردت ذويها من الثراء موارد غزيرة أغنتهم عن سائر مناهل الارتزاق . ولا بدع ان يكون لهذا الأثر القلميّ تلك المنزلة الرفيعة عند الشعوب الناهضة ، فان المدنية لم تسطع اضواؤها الوهَّاجة في تلك الآفاق الا بما اقتبسته من أشعَّته الوقَّادة . والأَخلاق لم يُقوَّم ميلها الا بثِقافه القويم والترَّهات لم تنقشع غياهبها عن الاذهان الا بعد ان نشر في سمائها انوار الحقائق وهداها اوضح المراشد . وعلى الجملة فان مرجع التقدم والعمران في تلك الارجاء الراقية الى هذه الصناعة البديعة وآثارها الباهرة . ولا نزانا في هذا الكلام على شيء من الغلو بل نحن الى الحقّ اقرب منا الى المبالغة واليك الدليل :

كان العالم الاوربيّ قبل وضع هذه الصناعة في اقصى دركات الهمجيّة والخمول والانحطاط ' وكانت عاداتهم وطباعهم وتقاليدهم من السفالة والعماية بمكان ، وكان حُكَّامهم ينظرون الى العدل شزراً ويمرحون في حللهم السندسية كِبراً وبطراً ، وكان الاغنياء يجمعون ينابيع ثروتهم من العرق المتصبِّب من جبين اهل البؤس ' وهم يتحكَّمون فيهم تحكُّم الموالي في العبيد . ولا تسَل عما كان يتخلَّل ذلك من المظالم

والمفاسد والمساوئ والفظائع مما تقشعرّ له الابدان ويُشيّب الولدان . فلما شبَّ في اقطارهم بعض الكتبة الحكماء انكروا على أُولئك الطغاة تلك القبائح وعدُّوهم ضربة قاضية على البشرية ونيرًا ثقيلًا في اعناق أبنائها ، ولم يتمالكوا عن النزول الى ساحات الجهاد حرصاً على اوطانهم ان تذهب فرائس الطمع والحيف والطغيان . ولقد أنتجت لهم الفطنة ان يضعوا لكل حادثة من تلك الحوادث الهائلة رواية يُفرغونها في افصح القوالب وأشدِها تأثيرًا حتى يستمليوا الخواطر الى تصفُّحهـا والتبحُّر في مغازيها ويحرّكوا القلوب للاتعاظ بعبرها والاستفادة من نصائحها وحِكمها . وبفضل الاجتهاد ادركوا مع كرور الايام ضالَّتهم المنشودة ، فعالجوا الأَدواء وروَّضوا الطباع وهذبوا النفوس ورقُّوا الافكار وأصلحوا العادات وبدَّدوا الاضاليل ونشروا أضواء الحقيقة وغرسوا في القلوب الخصال الرائعة والمناقب الكريمة وفطموهـا عن سموم الغوايات والاباطيل حتى انتقلت بلادهم من حضيض الذل الى ذروة العز وبلغت من الكمال أمدًا قصياً .

ولم يزل في الأَمصار الحَضريَّة الى عهدنا هـذا رجال روائيُّون واقفون بالمرصاد لكل حادث يطرأُ لايخلو نشرُه من مغزى ادبيّ او درس اجتماعي او فائدة تاريخيَّة او أقوال حِكَميَّة فضلًا عما فيه من العِبر الزاجرات والذكريات الرادعات، فيُنشئون له رواية يتأنَّقون في نسجها ايَّ تأنق ويُحكمون سرد وقائعها ويُبرزونها على أسلس نمط وأبهى صورة ، بحيث لايسع القراء بعد الشروع في تصفُّحها الا ان يستقرئوا حوادثها ويتابعوا اخبارها ، غيرَ مبالين بسهر يُذيب ابصارهم ولا بعناء يُضعف اجسادهم ، وذلك لما يجدون في تضاعيف سطورها من الاوصاف الساحرة والمشاهد الرائعة والمواقف المدهشة والغرائب النادرة الى غير ذلك مما يجذب النفوس ويملك الالباب والخواطر . ومما يجمل بنا ذكره في هذا المقام أن اغلب الروايات عندهم مبنيٌّ على حوادث تاريخية جديرة بالنظر والاعتبار ، واكثرُها يدور على الاحوال المعاشية والخِطَط السياسية والادارية والشؤُون الاجتماعية ، ولهم في وجوه الادارة والتدبير حنكةٌ واسعة تقيهم العثرات وتُبعدهم عن مهاوي الشطط والخطَل

وقلما ترى هناك مَن لا يُفردون قسماً من اوقات فراغهم في قراءة الروايات التي

AUC - LIBRARY

تلائم احوالهم وتُعينهم على حسن التصرّف وسداد السيرة . فاذا دخلت كوخاً حقيراً رأيت في يد صاحبه رواية شريفة المغزى يطالعها بتدبُّر وانصباب ' والى جانبه امرأته واولاده يقصُّ عليهم ما استخرج منها من الحكم والعظات والنتائج المفيدة مما يصلح لهم درساً يوسّع نطاق مداركهم ويفتح امام عيونهم مذاهب الرشد في عقبات هذه الحياة . واذا ولجت صرحاً من صروح الاعيان والكبراء ابصرت كلًّا منهم في خلوته يتصفَّح من الروايات ما يُحرّزه من الخطاء ويُدنيه من جادة الصواب ولا سيما الشبّان والاوانس فانهم يعكفون على مطالعتها عكوفاً عجيباً حتى لا يمرّ عليهم وقت الّا يجتمع في بصائرهم من حوادثها الحافلة بالمواعظ ما يزيدهم حنكةً واستبصاراً ويجعلهم بمأمن من الوقوع في حبائل الغرور المنصوبة من حولهم . وكذلك الملوك والساسة والزعماء الذين في يدهم زمام العباد فانهم يصرفون ما سنح من آونة العطلة في الروايات المنسوجة لمن تقدَّمهم من دهاقنة السياسة وأئمة التدبير حتى اذا ابصروا في سِيَرهم صواباً تأثروه او خطأً تجنّبوه . وكثيراً ما يقرأون قصص الخاصة والعامة من رعاياهم ليحيطوا بطرائقهم ومسالكهم علماً فلا يضلوا سواء السبيل في تصرفاتهم السياسية ' ونعمَ ما يفعلون ' لأنَّ الرؤساء قلما يُحسنون ادارة مرؤوسيهم اذا لم يكن عندهم إلمام باهوائهم واخلاقهم وحاجاتهم ومآربهم ولا يتهيّأُ لهم ذلك الا بالمخالطة والمذاكرة وطول الاختبار

ولقائل ان يقول كيف تُعلّق على الروايات تلك العوائد مع انه قد مرّ علينا نحن ماينيف على ثلث قرن واكثرُ سُكّاننا يطالعون القصص والروايات في لغات شتى ولم نشعر بالفوائد التي أوردتها ' بل علّمنا الاختبار ان الروايات هي التي اهبطت علينا العلل الادبية المتفشّية فينا وأفسدت اخلاق شبّاننا وفتياتنا واورثتنا من العلل والبلاء ما أحمدنا معه الايام الغابرة وانكرنا الحاضرة . فنحن لا نرى لهذا الاعتراض وجهاً للدفع لان حالنا اليوم الاجتماعية اسوأُ من الماضية وانما لا نجد بدّاً من اماطة النقاب عن الاسباب التي انتجت هذه العواقب الوخيمة فنقول : ان الذنب في سوء مصيرنا انما يقع علينا وحدنا لاننا لم نختر من الروايات الا السمجة الوبيئة التي خلعت عذار الحياء وبرزت باثواب التهتك وجرّت اذيالاً من الفساد والدناءة ' قذفها الينا بعض كتّاب

المغرب وهم من الاوغاد عندهم قصدَ ان يتصيَّدوا محاسن آدابنا ببهرجتها الخدَّاعة ومسحتها الختَّالة ويُدنِّسوا بياض أُحدوثتنا بسواد مبادئهم السافلة . واما نحن فبدلاً من ان نطرحها على المزابل عرضناها في منازلنا واطلقنا الحرية لذوات الخدور وربات الحجال أن يُقلّبنَ نظرهنَّ النقيّ في صفحاتها القذرة ويُلطِّخنَ عفافهنَّ الناصع بأدرانها الكريهة ، وبذلك أذنَبنا الى الوطنية والانسانية وحرمنا بلادنا جواهر نفيسة لاتقوَّم بثمن، ألا وهي آدابنا الرائعة واخلاقنا الصحيحة وعاداتنا الحميدة وعقائدنا السليمة

ومن ثم فاننا نسوق النصح ولاسيما الى ارباب الاقلام ودعاة الاصلاح والتهذيب أن يتجنَّدوا لمناصبة أشباه هذه الروايات الضارَّة بالدين والآداب المُخمِدة لأنفاس الفضيلة المُروِّجة لسلع الرذيلة الرافعة للغرام اعلاماً خفَّاقة تُكسِب القلوب خفقاناً والشهوات ثَوَراناً وجيشاناً . ولنا بالخطاب الذي القاه المسيو تيرو دانجن في احد المعاهد المصرية، وهو من اهم اعضاء الندوة العلمية الافرنسية، أسطعُ شاهد على بذاءة الروايات التي نجتلبها من اوربا للمطالعة او التعريب واليك ماقال : ان آداب الافرنسيين ليست على الشكل الذي ترونه في الروايات التي بين ايديكم ، فما هو الا صورة لبعض الكتّاب السفلة الذين لا يفقهون للآداب معنى ولايعرفون للفضيلة أثرًا ، ولاهم يَدينون بدين يردعهم عن بثّ الاضاليل ونشر الاراجيف والسفاسف . فاذا راقكم ان تقفوا على آدابنا الشريفة فارتشفوها من ينابيعها الصافية الخالية من التمويه والتزييف والغواية

قلنا وهل بعد هذا القول العسجدي المزدان بآيات الحكمة ومجالي الصدق ، من مجال للارتياب في دناءة تلك الروايات التي بها يقصد ذووها التغرير والتضليل وملاشاة كل عاطفة شريفة من المجتمع . أوَ يليقُ بنا بعد ذلك أن نُرخي لبنينا العنان في تصفُّحها حتى يتهوَّروا في المغاوي ويُفسدوا دماءهم الطاهرة بسُمِّها الذُّعاف . ألا فانظروا الى المغرب في القرن السابع عشر كيف كانت آدابهُ أسطع من سناء الكواكب وأخلاقهُ أضوع من نفحات الرُّبى ايام كانت الروايات عذبة المشارع . ثم وجِّهوا اليهِ ابصاركم بعد ان انتشرت فيه تلك الروايات القبيحة التي غرست أُصول الرذائل وأقامت للاهواء سوقاً تفانت فيها نفوس الفتيان والفتيات . فاذا تبصَّرتم في ذلك عرفتم موقع الخلل وأحطتم لنفوسكم وتوفَّرتم على سدّ الثلمة قبل تداعي البنيان . وجلُّ ما نلفت

اليه انظاركم ، وهو من الاهمية بمكان رفيع ، انتنبذوا من بين ايديكم كل رواية تُثير الاهواءَ من مكامنها وتُسوّل للنفس الانهماك في ملاذّها وتغرس في القلوب الشوائب والخسائس والطباع الخشنة السافلة. ونُحذِّركم على الخصوص من الروايات الكفريَّة التي ينشرها ابناء التعطيل والإلحاد او المارقون من الدين القويم ، فانهم يدسُّون لكم السمَّ في الدسم ، ليقذفوكم في اعمق لجج الهوان والعماية . أمَّا كتّابنا الادباء الضليعون من الفن الروائي فاننا نستحث عزائمهم على وضع روايات وقعت حوادثها في بلادنا فانها اجدى من المعرَّبة ، لما بيننا وبين الاعاجم من التباين في الحاجات والاخلاق والعادات والاذواق . والمجال امامهم بعيد المدى فكيف وجَّهوا ابصارهم يصادفون عندنا من الحوادث ما يصلح عبرةً لأَبناء الوطن ، وها نحن نذكر لهم بعض الشيء من عِللنا الاجتماعية كالمقامرة ومعاطاة بنت الحان والمضاربة والتعصُّب الاعمى والانقسام والتبذير وعدم المبالاة بالعواقب وسوء التربية وعشق المناصب والخلل في الإدارة البيتية الناشئ عن الجهل والإقدام على الزواج قبل اختبار الطباع او اصطفاء قرينة طمعاً في ثروتها او في وجاهة ابويها الى غير ذلك من العلل التي يتعذَّر استئصال شأفتها بدون معاونة أطبَّاء الاخلاق وفلاسفة المجتمع

فإلى الامام يا أعلام المروءة والنهضة فان الآمال معقودة على غيرتكم وخبرتكم فلا تُخيّبوها ، لأَنه قد حان لنا ان نَنعتق من نير الهمجية ونخرج من لجج الغواية والطغيان ونلحق بالأُمم الناهضة في مضمار المعارف والآداب والعمران ..

أركان النجاح

لايتأتّى لطُلّاب الفلاح ان يفوزوا بجلائل الاماني، مالم يسلكوا اليها الطرق الأَمينة الواضحة التي خطّتها الحكماء وأرشد اليها طول الاختبار . إلا ان هذه الطرق لا تخلو من العقبات والمصاعب ، بحيث لا يُقدم عليها الا ذو العزمات الشديدة والهمم الشمّاء ولا يُذللها غيرُ النفوس الكبيرة التي لاتُطيق الضيم والهوان ، ولا تستصعب ركوب الاهوال وتجشّم العناء في سبيل المعالي . فاذا نزلت الأَنفة في الصدور وكان الى جانبها همةٌ علية وعزيمةٌ صحيحة ، فبشِّر ذويها بالنجح العاجل ، بشرط ان ينتهجوا المناهج التي تهديهم اليها ، واهمها التروّي والتيقُّظ ، والتأني والتدقيق ، والثبات والترتيب ، وحسن التدبير والإحكام ، والأمانة والصدق وتصفُّح الاعمال ، والشجاعة والاعتماد على النفس ، الى غير ذلك من المحاسن التي لا يسعنا استيفاؤُها في هذه المقالة الوجيزة فرأَينا ان نفرد لكل منها مقالاً برأسه حتى نوفّيها حقها من الاشباع والتفصيل

اما التروي فهو من امتن دعائم التقدم والعمران ، لأنه يفتح امامك ابواب الرُّشد ، ويقيك مهاوي الضلال ومزالق القدم ، ويصونك من تبعات التهوُّر وعواقب العسف والاقتحام ، ويُجيرك من لجج المخاطر والمهالك ، ويدفع عنك معرّات الفشل والخيبة ، ويُوقفك على مواطن السداد والصواب . فاذا اقدمت على عمل بدون رويّة كان حكمُك حكم من يسير بدون مصباح تحت اكناف الظلام الدامس ، او يخوض غمرات الحرب وهو اعزل او اشلُّ اليدين . ولا يخفى ما في ذلك من التورُّط والتغرير وسوء العقبى . واما التيقُّظ فلا يُجدي التروي نفعاً بدونه . فهما إلفانِ مُتلازمان لا يُطيق احدهما انفكاكاً عن الآخر . فاذا تروَّيتَ في امر حتى رسمت له خِطَّة قويمة ، ثم باشرته بدون تنبُّه وتيقظ ، فاجأك من المشاكل والعراقيل ما لم يسبق اليه ظنُّك فتتولّاك الحيرة وتحرقك لواذع الندم على ما فاتك من التحرُّز في غضون العمل . . .

واما التأني فهو من لوازم التيقظ ، لان الغافل لا يتأنّى في عمله ولا يتثبَّت في قوله ، بل يأتي الامور على غير تبصُّر وتدبُّر ويُرسل الكلام على عواهنه بدون

حذرٍ وتحرُّس . ومن المُحال ان يقترن الاتقان بالعجلة والصواب بالاسراع مهما طال عهدُ المزاولة . وانما يُدني المرءَ من جادة الهدى والاحكام طول اناته وتثبّتهِ ويُسدِّده الى غايات التوفيق شدةُ تمهُّله وتيقُّظهِ . وما أقلَّ الإخفاقَ مع التروي والتأني واليقظة

واما التدقيق فهو من دلائل الحكمة وبُعد النظر وبلوغ الحنكة ، عليه بُنيت دعائمُ فن الاقتصاد الذي هو من أغزر شِعاب الثروة ، ولذلك عُدَّ من اوطد أُسس النجاح في جميع الشؤون . كيف لا وهو يقضي بمراعاة الصغائر كما تراعى الكبائر ، وتعهُّد ما ليس بذي شأن كأنهُ شيء خطير . ومتى صُرِفت الهمة الى الامور الطفيفة كما تُصرف الى الجسيمة لم يقع إفراط ولا تفريط ، وهنا سرُّ النجاح

واما الثبات فمن خصال الرجال العظام لانه يستلزم جَلدًا واقداماً وصبرًا على المشاق . فاذا لم يكن للمرء قوةٌ على نفسه الميَّالة الى اللهو والوناء ، صعُب عليه الثبات في ميدان العمل والجدُّ في ما يُجهِد القوى ويورث السأم . ولا مُشاحَّة أن الثبات هو الذي يولِّد المقدرة على اتقان الفنون والمهن . فربَّ غبيٍّ بلغ ، بفضل انصبابه على مزاولة حرفته ، ما لم يبلغه الذكي الأروع مع فتوره وتوانيه . والاختبارُ يكفينا مؤونة البرهان والإدلاء بالحجة .

واما الترتيب فهو نصفُ العمل ، لأنه يصون الوقت من الضياع ويُعين على حسن التدبير ، ويساعد على التعجيل في انجاز الاشغال ويُقوّي على تصفُّح الامور باصلح الوجوه وأقوم الأنماط . فاذا وزَّعتَ اوقاتك على المهمات المحتومِ عليك قضاؤها تسنَّى لك ان تُتمَّها مع الترتيب بهينة وتجوُّد ، دون ان تصادف نَصباً في طريقك وبلبلةً في شؤونك ، بخلاف مالو تعاطيتها على غير انتظام ، فانها إما ان تأتي مختلةً مشوَّشة ، او يضيق وقتُك عن استتمامها ، وفي كلا الحالين ضررٌ بيّنٌ . واما حسن التدبير فانما يستدعي نظرًا صائباً وخبرةً واسعة ورأياً حصيفاً وحكمة بليغة ، ولا بدَّ منه في جميع الخطط الادارية والاجتماعية والسياسيَّة والاقتصادية . غير ان القابضين على زمام العباد هم احوجُ الناس الى هذه الحلية الباهرة . فاذا ساء تدبيرُ الرجل عجزَ عن تأديب بنيه وتشوَّشت امورُ عائلته واضطربت اسباب راحته . وعليه قِس الزعماء فانهم اذا

حُرموا جودة التدبير تعبوا واتعبوا وارتبكوا في مشاكل تُعييهم وتعجز مرؤوسيهم

واما الإحكام فانه البُغية المرصودة التي يترتَّب على ادراكها الفلاح والشهرة. فاذا انجزتَ في يومك من الاعمال ما يضطلع بعبئه نفرٌ من الرجال ، فلا يُجديك ذلك نفعاً ولا يؤتيك شهرةً . لان العقلاء انما ينظرون في الاعمال الى الاجادة والاتقان ، ولا يعتدُّون بكثرتها والسرعة في إنجازها ' فكم من عمل مُتقَن أورث صاحبه سمعة عبَّاقة وخلَّد ذكره في بطون التواريخ . وكم من عمل سيّئ خفض شأن صاحبه واضعف الثقة به ومحا اثر احترامه من صفحات القلوب . فاذا راقك ان تعرج في معارج النجاح وتحلِق في جوّ النباهة والاشتهار ' فأحكِم اعمالك ولا يُهِمَّك تكثيرها . فربَّ عمل يورثك انبه ذكر ' اذا كان مستوفياً شروط الاجادة

واما الامانة والصدق فهما مزيَّتان بديعتان لا تقدر ان تخطو خطوة في ساحات الفلاح بدونهما . كيف لا وانت اذا كنت متحلِّياً بهما كبُرَت الثقةُ بك وارتفع مقامك في الصدور ' حتى تروج تجارتك ويقبل الناس عليك ايَّ اقبال . ولكن اذا كنت خائناً خدَّاعاً فان الجميع ينظرون اليك بعين الازدراء ' ولا يؤمّنونك على شيء من مصالحهم ' بل يتجنَّبونك كما يتجنَّبون الداء الدوي والوباء القتَّال

واما تصفُّح الاعمال فهو من ثمرات التدقيق والتيقظ ' وفوائدهُ لا تخفى على البصير . وحسبُك به انه يُريك عثراتك في النهار فتعتزلها في الغد ' ويُطلِعك على مسالك رُشدك فلا تتنحَّى عنها في الايام المقبلات ' حتى تصبح حليف النجح اليف التوفيق في جميع حركاتك وسكناتك

واما الشجاعة والاعتماد على النفس فهما المهماز الحديدي الذي يدفع الهمم لمباشرة المساعي الكبيرة والمشاريع الجليلة ' لان ضعيف الجنان لا يُقدم على العظائم ' والهيَّاب لايقتحم المصاعب ' والذي يُعوِّل على غيره يكون فاتر العزيمة قليل الخبرة قاصر الراي ' يقضي ايامه بالعجز والكسل . فاذا شاقك الانخراط في سلك مشاهير الرجال فاتبع الطريقة التي بيَّناها لك ، ونحن الكفلاء بنجاحك وعلوّ مقامك ونباهة ذكرك .

الثقة بالنفس

لا نكاد نرى لهذه الخلّة الحسناء في هذه البلاد ، الكثيرة الآفات الجسيمة العاهات ، أثرًا محسوساً حريًّا بالذكر ، باعثاً على الفخر ، الا في فئة قليلة قد تدرَّبت منذ نشأتها الأُولى على ان تثِق بنفسها ولا تعوّل على غيرها . فعاشت أبيَّةً حرَّةً لا تلتفُّ تحت لواء زعيم يحميها بسيوف رجاله ، ولا تقرع باب مُثرٍ لعلّه يعضدها بشيء من ماله ، ولم تعرف قدماها غرفة حاكم فتتزلَّف اليه طمعاً في منصب او رغبةً في رتبة ، ولم تبذل ماء وجهها أمام ذي حظوة حتى يشفع فيها او يُنيلها شيئاً من أمانيها ، بل قضت الحياة تحت سماء الحرية والشمم لا تحني رأسها لغير باريها ، ولا تصافح الا من تنزهت عن الرشوة يداه ، وترفَّعت عن المداهنة شفتاه ، ونبت عن الخسائس والمخازي مقلتاه . .

وحبَّذا ربعٌ يخرج من تحت سقفه من امثال هؤلاء الأباة الأحرار الذين يستنكفون من الاسترقاق ، ولا يُطيقون ان يمر ظله امام أبصارهم . ونعِم معهدٌ يربّي الاحداث على الأنفة والثقة بالنفس حتى يترفعوا عن الضراعة والاستكانة والاستسلام والاستنامة

وما اشهى يوماً نرى فيه الأُمة قد همد هُيامها بالمناصب حتى لقد يضطرَّ الحاكم ، اذا شغر عنده مقام ان يرغب الى ذوي الجدارة في قبوله ، وهيهات أن يرى فيهم مَن ينزل عند رغبته . فان ذلك اليوم تبرهن فيه الامة ان ابناءها قد اخذوا يعتمدون على نفوسهم وان الحميَّة سرت في عروقهم حتى اصبحت اعمال الحكومة عندهم اصغر من ان تلهيهم عن متاجرهم وتصرفهم عن معاملهم ، واعجزَ من ان تقصيهم عن مزارعهم ، وتقطعهم عن الاشتغال بما يُحيي بلادهم من المشاريع العمرانية والانشاءات الحضريَّة التي بها يُعرفون أنهم من الشعوب المتمصِّرة الخليقة بالعلاء الجديرة بالعز والسؤدد . ولا تظنُّوا ان بلوغ هذه الامنيَّة هو رابعُ المستحيلات ، فربُّوا جيلكم المقبل على كره الوظائف ودرّبوه على الثقة بنفسه ووسّعوا في البلاد دوائر العمل ، فتروا يومئذٍ امام ابصاركم من الأُباة

موكباً حفلًا ، لا يُدرك الطرف آخره ، جارياً على طريقة اسلافه العرب الذين كان من اكره الاشياء اليهم ان يتقيدوا بخدمة الحكّام . . .

ولا مُشاحّة ان المرء ما دام مستندًا الى غيره ، لا يفتأ ضعيف الهمة كليل العزيمة فائل الرأي قليل الخبرة ، اذا اعترضتهُ معضلة وقف امامها عيّان حيران ، واذا ألمت به مُلِمّة تخاذلت قواه واصطكت ركبتاه ، واعجزته الحيلة عن ان يعالجها بالحزم او يدفعها بما أُوتيَ من حكمة وسداد تدبير . فاذا رغب اليه ابناء قومه ان يُقدم على مشروع مُجدٍ له ولأمته احجَم عنه تفادياً من ان يفشل ، او قضى ايامه بين التردُّد والاقدام حتى يطويه الرمس ، مُوارياً مع نعشه مواهبه العقلية ومداركه الواسعة وثروته الطائلة التي عجز عن ان يستثمرها في حياته ، لقلة ثقته بنفسه واتكاله على من يتولّى شؤونه ويدبر أُموره . أوَ تعتقد اقلَّ امل على الوكِل العاجز الذي لا يركَن الى نفسه ، ولا يعوّل الا على غيره ، ام هل ترجو خيرًا ممن لا خير فيه ولا رأي له اذا ادلهمّت المشاكل واكفهرّت المغلقات .

على ان الواثق بنفسه لا يكون بمأمن من الخطإ والخطل قولاً وفعلًا ، مالم يجمع بين الدراية والخبرة ، والحصافة والإصابة ، والتفنُّن والإحكام ، فيما يزاولهُ من الفنون ويباشره من الاعمال . والا كان وثوقه بنفسه غايـةً في الحمق والخُرق وضرباً من الدعوى والعجب . وما اجتمعت هذه الشوائب على رجل الا عرّضته للهلكة وكان مثلُهُ مثل مَن يمتطي فرساً حروناً اجنب ، ثم يُرخي له العنان في الميدان ، وهو ليس على شيء من الفروسة ، فلا يلبث ان يكبو به فرسه لاول جولة يجولها مع الأقران ، فيزدريه الفرسان وينظر اليه الشهود بعين الامتهان ، ناعين عليـه اعتدادَهُ بنفسه وإعجابه بها ، حتى غرّر بها هذا التغرير وجعلها غرضاً للتثريب والتعيير .

ومن المُحال أن يتضلع المرء من العلم الذي يأخذ في اقتباسه ، ما لم يعكف عليه ويدأب فيه ، فاذا احاط باطرافه ووقف على دقائق أبحاثه ، لم يكن عليه بأس من ان يعتدّ بنفسه ويسكن اليها فيما ينصرف الى وضعه من التآليف ، وما يدبّجه يراعه وما ينتج له لبُّه الثاقب من الارآء الصائبة في المسائل التي يخوضها مع الجهابذة المدققين في مضمار المناظرة والجدل . وانه ليجني على العلم جنايةً لا تُغتفر من يبلغ منه هذا

المبلغَ القصيَّ ، ثم لا يجرأ على نشر ما اذخره في صدره من حقائقه الراهنة ، وما فتحه الله عليه من كشف اسراره المغلقة حـذرًا من الانتقاد والتنديد ، او ضِنًا به على بني قومه او استرسالاً الى الدعة ، على حد مايقع لكثيرين من العلماء الأعلام الذين يكتفون بان يخزنوا كنوز معارفهم في صدورهم كما يخزن الشحيح امواله في بطن ارضه ، إيثارًا للراحة على العمل والكلال على المضاء . فاذا ظعنوا عن هذه الفانية لا يخلِّفون لامتهم اثرًا علميًّا ، على حين انها في امسّ الحاجة الى سدّ ما فيها من الثُّلَم في كل فنّ وفي كل علم . او ما كان الأَجمل بهؤلاء العلماء المِحلين المُجدِبين ان يتأسَّوا بالأئمَّة العاملين المخصِبين ، الذين يطوون اعمارهم في ميدان التأليف والتعريب والتنقيح والتحبير ، فلا يدعون ساعةً من اوقاتهم الثمينة تذهب سُدًى ، حتى اذا رحلوا الى دار الخلد اورثوا أُمتهم تركةً علميَّة تُخلِّد لهم بين الاعقاب اشرف تذكار ، وتُسطِّر لهم على صفحات التاريخ اطيب الآثار . وهؤلاء الابطال ، لو لم يَحذقوا العلوم التي وضعوا فيها مصنَّفاتهم النفيسة ، ولو لم يثقوا بنفوسهم ومقدرتهم العلميَّة تلك الثقة المحمودة ، بل لو لم يتغلَّب حبهم لوطنهم على محبتهم لنفوسهم حتى عانوا في سبيل نفعه من المشاقّ والانصاب ما عانوا ، لحرموا نفوسهم الثناء الخالد وبلادهم ثمار معارفهم اليانعة ، وعاشوا كما عاش اولئك العلماء المُجمِدين الممسكين الذين خمل ذكرهم وانطوى خبرهم ، يومَ استبطنوا رموسهم وأُدرجت علومهم مع اجسامهم في اكفانهم

على أنَّ الثقة بالنفس تكون وخيمة المغبَّات اذا اقترنت بالجهالة ورضعت من ثديَي الدعوى والعجب بالنفس . فان صاحبها يعثر العثرة بعد العثرة وينصب صـدره هدفاً لأُلوف من المحن فيما يتعاطاه من المِهن . افلا ترى المتطبِّب الدجَّال ، الذي لا يُلمُّ بالطبّ إلماماً يؤَهِّله للانخراط في سلك اربابه النطاسيين الحاذقين ، كيف يخاطر بأَرواح عباد الله ، فيصف لهم الدواءَ قبل ان يستبين الداء ، حتى يقتلهم بعلاجه ويقتل نفسه بحماقاته وغباواته . اوَ لا تبصر بعض الجرَّاحين ، على كونهم لم يمهروا في صناعة الجراحة ولم يزاولوها ، اذا جاءَهم امرؤٌ فيه عضوٌ مَؤُوف ، يُقدمون على معالجته غير هيَّابين ، فيتناولون المبضع ويبترون بهِ العضو الزمِن كأَنهم يبترون عضو شاة ، فيعطبون الجريح من حيث لا يدري ولا يدرون . وهم لو كان فيهم بقيّة من الشفقـة وشيءٌ من

الصلاح لما تجرَّأوا على ما تجرأوا عليه ' حتى قتلوا مَن استسلم اليهم وجنوا عليه جناية لا تُغتفر , بل اذنبوا الى الحرفة التي يحترفونها ثم الى نفوسهم ' ذنباً تلزمهم تبعاته . وحسبهم من المضارّ أنهم يموتون بين قومهم موتاً ادبياً ' فتنفر منهم الصدور وتُعرض عنهم الابصار أيَّ اعراض ' حتى لقد يقطعون عن نفوسهم مورد رزقهم بيدهم ' فضلاً عما يلقونه من مرّ الجزاء يوم يمثلون بين يدي ذلك القاضي الرهيب الذي سيجازي كل امرئٍ على ما قدَّمت يداه من خير او شرّ . .

أَوَ ما ترى العدد الأَوفر ممن شَدوا من العلم شيئاً زهيداً كيف يتوهَّمون انهم اصبحوا من افرس فرسانه ' فلا يُعتِّمون ان يقبضوا على اليراعة مفرغين من لُعابهـا على القرطاس ما يكون اشدّ سواداً من الليل البهيم . ثم هم يزعمون أنهم ينثرون على الناس درراً وينظمون لنحورهم عقوداً ' في حين انهم كثيراً ما يتلقَّفون معانيهم من مصنَّفات أُمراء الانشاء والبيان وأغلبُها في اللغات الاعجمية ' حتى اذا اغترفوا ما اغترفوا من تلك الينابيع الصافية وسرقوا ما سرقوا من تلك الكنوز الذهبيـة ' انتحلوه لنفوسهم ثم نشروه في لغتنا العربية ممسوخاً مشوَّهاً ليس من العروبة في شيء ' وهو مختل المباني معتلّ المعاني ' جامعٌ الى الركاكة الغموض والابهام ، حتى لتوشك ان تحسبهُ من الأَحاجي والمعميَّات . ومـع ذلك فإنهم ينتظرون أن تقرّظهم الصحف وتنوّه بهم المجلَّات العلمية والأَدبيَّة ، مُهنِّئةً البلاد بما أتحفوها به من التآليف التي يحسبونها خالاً في وجنة العلم وواسطةً في عقد الادب . وما هي في الحقيقة إلَّا أَجنَّةٌ أَسقطتها أُمَّهاتها قبل تمامها ، فكان نصيبُها أن تُلحد لا أن تُنشر . وأَيَّة فائدة من ثمرات لم تنضج وحبَّاتِ بُرٍّ جوَّفها السوسُ

أَوَ تظنُّون الارض وقد زلزل زلزالها تكون على هؤلاء القوم ، أدعياء الادب ، اشدّ وطأةً من الصحف الحرَّة ، يومَ تنتقد كتبهم الزائفة وتميط النقاب عما فيها من المغامز حتى لا تخدعهم ولا تخدع القرَّاء معهم . وحينئذٍ تستخفُّهم الحدَّة على ارباب تلك الصحف الجريئة النزيهة ، فيرشقونهم بأحدّ النبال وينسبون اليهم الحسد والافتراء والتحامل ، وربما سخطوا على بلادهم نفسها ، بدعوى ان بضاعة الادب كاسدة فيها ، وأن حمَلة الأَقلام أمثالهم لاقدرَ لهم تحت سمائها فينشطوا الى متابعة جهادهم العلمي .

وعمرك الله كيف يطمع هؤلاء المتطفلون الى ان يكون لهم منزلة عند الأئمة المحققين ، وهم على ما هم عليه من قصر الباع في الانشاء وضعف النظر في المعارف ، ومعا الفوه من السخافة في التعبير والابتذال في الافكار ، ومع إقبالهم على التصنيف في علم لم يختمر في ادمغتهم ، حتى سوَّدوا صحيفة حياتهم الادبيَّة في زهرة عمرهم ، فضلاً عن تسويدهم وجه اللغة الوسيم بما نشروه من المعاني السقيمة في عبارات مهلهلة وتراكيب سخيفة مضطربة ، لااثر فيها للجزالة ، وليس عليها ادنى مسحة من التفنُّن والإحكام . أفبمثل هذه الأسقاط والملفَّقات من الكتب ينال المرء الثقة التي يتوخَّاها . وماضرَّ هذه الفئة التي تلعب برأسها سورة الخيلاء وتُعمي بصيرتها الدعوى لو أَدمنت الدرس ووالت البحث ، وزاولت فنَّ التعريب والانشاء ، وتخرَّجت على المتضلّعين من العلوم البيانيَّة والكتابيَّة وعرضت ما تكتبهُ على اصحاب النظر الصائب والذوق السليم ، حتى اذا غزرت مادَّتها واتسعت دائرة مداركها ورسخت قدمها في اللغة وصحَّ مذاقها في اختيار الالفاظ وانتقاء المعاني ، كانت في غنى عن ان تحوم على التآليف الأعجميَّة او أصبحت من المقدرة في الكتابة والتصرُّف في اساليب التعبير بحيث لو ارادت ان تنقل الى العربيَّة شيئاً من تلك الكتب الأجنبيَّة النفيسة ، لأَفرغت ما تقع عليه من التصوُّرات السامية في قوالب فصحى حتى كأَنه عربيّ الوضع منسوج بيد نسَّاج صنع اليدين سليم الذوق .

وعلى هؤلاء المتطفلين على موائد التأليف ، الأجرِئاء على نشر ماتنتجه قرائحهم المهزولة ، قِس كثيرين من الشعراء النظَّامين والخطباء المتحذلقين الذين يتناهى بهم الغرور ويأخذ منهم العجب بالنفس مأخذاً شديداً ، حتى لقد يرتجلون الشعر ويبتدهون الخطب في احفل المحافل الغاصَّة بحمَلة لواء القريض وأُمراء الفصاحة والبلاغة . فلا يُشفقون على الآذان ان يصكُّوها ويوقروها بما فيها يُفرغون ، ولا على الالباب أَن يشجوها ويخدِّروها بما فيها يقذفون ، بل يطيب لهم ان يتشدَّقوا بما يقولون ، وهم يزعمون أنهم يأتون بجوامع الكلم وروائع الحكم ، وينطقون بالآيات البيِّنات والفِقَر الساحرات والسُّوَر المنزلات . ألا هدى الله هذه العصبة المغرورة التي لا تعرف قدر نفسها ، وأعان الأُمَّة على ماهي عليه من ثقل الروح وخفَّة الحجي وفساد الذوق

ومجاوزة الحدّ في الدعوى

اوَ ما ترى بعض المتفلسفين البُلداء الاغبياء الذين ليسوا على شيء من علم الجدل، كيف يُمارون بدون ادنى حذر ولا حياء مَن استبحروا في المعارف الفلسفية، وكان لهم القدح المعلّى في المباحثات الجدليّة والمناقشات المنطقيّة والمناظرات العلمية، حتى اذا سُدَّت في وجوههم المنافذ وعزَّت عليهم المخارج، وأُميطَ النقاب عن سفسطاتهم واوهامهم وهذَراتهم وشقشقاتهم، وتجلّت الحقائق الراهنة لكل مَن له ادنى إلمام بالأقيسة الصحيحة والبراهين الدامغة، انكشفت سوآتُهم ووُضِع من قدرهم وخبث ذكرهم وتقوَّضت الثقة بهم.

وما اسوأ حظ مَن يستخفُّهُ الزهوُ ويستفزُّهُ الكِبرُ حتى ينزل الى ميدان النقد، الشاسع الاطراف الكثير المداحض والمزالق، مُنازلاً مَن هم اوسع منه باعاً واشد ساعداً. فانه لا يجري فيه شوطاً حتى يكبو كبوةً تُسفر عن قصر نظره وفيالة رأيهِ ووهَن حججه، فينقلب عن ذلك الميدان وعلى بصرهِ غشاوةٌ من الحيرة، وعلى محيّاهُ آثار من الهوان، وفي قلبه حزازات وفي صدره لَذَعات. وما دار في خَلَد هذا الغِرّ أن أقرانهم من الدُّربة وصعوبة المراس بحيث يصرعونه في ساحة العِراك لأول جولة يجولونها معه، واوّل كرَّة يكرّونها عليه. والا تهيَّب مُناجزتهم ومبارزتهم وانزوى في بيته كافياً نفسه عار الهزيمة وذلَّ الغلبة.

ومما يُضحك الثكلى أن بعض المعجَبين بنفوسهم يقحمون ميدان المناظرة على غير رويَّة وسابق بلاء، حتى اذا صُرعوا فيه عمدوا الى المماحكات والمجادلات الفارغة قصدَ التمويه والتضليل. فلا يحصدون من مكابرتهم سوى العار ولا يُنتج لهم عنادهم غير الخزي والمذمّة. وما كان اغناهم عن ان يقتحموا مأزقاً محفوفاً بالمكاره والمهالك، ويركبوا مركباً يهوي بهم الى أذلّ المهاوي، وأن يخوضوا حرباً لم تكن غنائمهم فيها سوى الفضيحة والفضاضة فضلًا عن شماتة الاعداء...

وإنه لَيشوقنا أن نرى بعد حين فضيلة الثقة بالنفس منتشرةً في الأُمة بين جميع طبقاتها من صغيرها الى كبيرها، حتى نبرأ من علة التواكُل التي هي من اعضل عِللنا الاجتماعية، ومن اكبر البواعث على انحطاطنا وتخلّفنا عن الامم السبّاقة في حلبات العمران

والفلاح . غير اننا نريد ان تكون هذه الثقة في محلها اي غير مبنيَّة على أُسس الاوهام والدعوى والعجب والاغترار . والا كان اتّهام النفس وسوء الظنّ بهـا اولى من ان يُركن اليها ركوناً يكون من ورائه سلسلةٌ طويلة من النائبات ، والوفٌ في الوف من العقبات والصدمات والارتطامات ، مما يفضي الى وهدة الفشل ويثلم شباة المضاء ويُوقف تيَّار الهمَّة . ولأن يُحجم الفتى الغِرّ عن كل عمل لا خُبرةَ له فيــهِ ، خيرٌ له ولأُمَّته من ان يقدم عليه وهو مغترٌّ بنفسه اغترارًا يُذيقه سوء المغبَّات ويُورثه ألذع الحسرات والزفرات . . .

هذا ولما كان قد طال بنا نَفَس الكلام حتى حذرنا من الإملال والابرام ، رأينا ان نقطع على القلم مجراه في هــذا الموضوع الرحب الذي هو الخطورة بالمكان الذي يعهدهُ فيه عقلاء الأمة وأطبَّاؤُها الاجتماعيُّون . ولعلَّ ابناء الوطن يعرفون اقدار نفوسهم فلا يثقوا بها الا حيث تحمد الثقة ، لئلَّا يقتحموا المقاحم ويتهوَّروا تهوُّرًا تكون فيه هلكتُهم . والأمة في اشدّ الافتقار الى ان يثق ابناؤُها بنفوسهم الثقةَ الحصينة الرشيدة ، وان يتبادلوا الثقة بعضهم ببعض . حتى اذا تعاونوا بعد التواكل وتكاتفوا بعد التخاذل ، واجتمعت اغراضهم المتباينة وآراؤُهم المتضاربة ونزعاتهم المتشعِّبة ، اصبحوا شعباً تليق به الحيــاة وتجدر به الحريَّة والاستقلال الناجز . ومن المحال ان تنهض الأمة الى رابية المجد وقمَّة العزّ ، وتُحرز ثقة الامم النجيبة بهــا ، مالم يثِق ابناؤُها بنفوسهم الوثوق المحمود الموطَّد على الجدارة والخــبرة والاحكام والنزاهة التي هي من امتن دعائم العمران واقوى اسباب الفلاح . . . .

الثقة بالغير

اذا رَسَخَت ثقةُ الناس بك ، ولم يطرأ عليها مايزعزع اركانها ويُقوِّض جدرانها ، فاختر من المِهَن ما شئتَ يتبعك النجاح حيثما سرت كما يتبعك ظلُّك . ولكن اذا لم تملك هذه الثقة او ملكتها ثم انسلّت من بين يديك ، فما أوعرَ طريق فلاحك وما اكثر العقبات التي تقف في وجهك . وانه لمن الخرق ان تأمل بالنجح بعد فقد ثقة الغير بك فان نُجحك حينئذ لمطلب أصعبُ مايكون على المرء بلوغهُ ، ومركبٌ اشقُّ مايكون على النفس ركوبهُ . وكأني بالثقة ملكةٌ مُستويةٌ على عرشها يَخفرها جيشٌ من مكارم الأخلاق وبواهر الخلال ، بل فتاةٌ آيةٌ في الجمال ، يتزاحم الناس على خطبة مودَّتها ، فتُغلي مَهرها ولاترضى لها زوجاً إلّا مَن يكون كُفوءًا لها ، جديرًا بأن يجلس على اريكة فوءادها . نشأت منذ كانت على الأَنفة والإباء ، ورضعت من اثداء الحكمة والحصافة والدهاء . فلا يستهويها شيءٌ من مباهج الدنيا ومحاسنها الخلّابة ، لا الأَموالُ ولا الوجاهات ولا الاحساب ولا الانسابُ ، ولا المقامات العالية ولا العروش ولا ارباب العروش . ولكنَّها اذا مالت فإنما تميل الى مَن يجذب لبَّها وقلبها معاً . واذا هامت فإنما هُيامها بمن ازدان بأروَع الخصال ، وتوفَّرت فيه جميع الشروط التي ترفع مكانته بين ابناء جنسه ..

ومن غريب طباعها انها صعبة المراس ، نَفُورٌ من كل مَن يَشينها ، مهما سمت منزلته ، لا تُحابي ولا تُراعي ولا تعرف الملَق ماهو . وإنما يُهِمُّها ان يكون قسطاس العدل في يديها معتدلَ الكفَّتين ، لا ترجح إحداهما إلّا مع الراجحين . واذا أحدث احبُّ الناس اليها وأملكُهم لقلبها ثُلمةً في حماها اقصتهُ عنه وقاطعته ونفرت منه ، ولا ترضى عنه مالم يسدّ تلك الثلمة ، وهيهات ان يقوى على سدِّها بعد انفغارها ..

امَّا الصفات التي تتطلَّبها في مَن تهواه فمنها عامٌّ ومنها خاصٌّ امَّا العامُّ فأهمُّه الصدق والاستقامة والامانة والنزاهة والاخلاص والوفاء والمروءة والشمم ، وأَمَّا الخاص فإنما مداره على الحرفة التي يحترفها المرء . فالعالِمُ مثلًا حتى يكون للناس ثقةٌ

به يتعيَّن عليه ان يكون ضليعاً من العـلوم والمعارف ولا سيما في الفرع الذي تفرَّغ لدرسه . واللغويُّ يجب ان يكون راسخ القدم في فلسفة اللغة مُحيطاً بدقائقها جامعاً لشواردها وأوابدها . والمؤرّخ لا بدَّ له من ان يتبسَّط في التاريخ ويتبحَّر في ابحاثه معتمداً على الفلسفة التاريخية لا على النقل، ويكون مع ذلك مجرّداً عن الهوى في سرد رواياته بحيث لا ينقل الا الحقائق ولو كتب عن أُمَّتهِ وقبيلته حتى عن نفسه . والخطيبُ لا ندحة له عن ان يجمع الى المعرفة والخبرة النُّصحَ وسداد الرأي في الموضوع الذي يخطب فيه ، وأن يصدع بالحق ولا يتعمَّد الا منفعة سامعيه حتى يُذعنـوا له وينقادوا الى نصائحه . والتاجر لاغنى له عن ان يكون صادقاً في معاملاته وفيًّا بعهوده وعقوده ، قَنوعاً بِكسبه مترفعاً عن الغبن والغش والاحتيال . والصانع يتعيَّن عليه ان يكون ماهراً في صناعته مُحكِماً لها مثابراً على عمله غير متباطئ في إنجاز ما عُهد اليه في صُنعه . والمحامي يتحتَّم عليه ان يضمَّ الى مقدرته الفقهيَّة ومعارفه القانونية النزاهة وعزة النفس والاستقامة حتى لا يعرّض نفسه للطعن وسمعتَهُ للثلم ومهنته الشريفـة للامتهان . .

واما الذين في ايديهم ازمّة العباد من امثال الحكّام والرؤساء فلا سعة لهم عن ان يُضيفوا الى هذه المناقب الروائع ما يُعلي شأنهم في عيون مرؤُوسيهم ، بحيث يجمعون الى رجاحة العقل أصالة الرأي وبعد النظر ، والى نبالة القصـد عفاف اليد والترفُّع عن الغرض ، والى الحكمة ولطف التدبير الحزم والعزم ، والى المضاء والشمم الغيرة والعطف ، والى الرزانة والوقار رحابة الصدر والوداعة والملاطفـة على غير ابتذال ، حتى اذا انتشرت حول كراسيهم ومنابرهم هالةٌ من الأبَّهة والجلال غُضَّت امامهم العيون وملكوا مع مهابة الرعية حبَّها المكين واحترامها الحصين . .

وهذه المحاسنُ البواهر كلما ازداد زعماء الامة منهـا رجحت كفَّتهم في ميزان الأقدار وسطعت اشعَّةُ نباهتهم في الآفاق والاقطار ، وكانوا من املكِ الناس لثقة الامة واجدرهم بثقتها وتعظيمها . ألا فانظروا الى حاكم عفيفٍ عادل رفيق برعيّتـهِ حريص على مصالحها ، لايغفل شيئاً من شؤُونها ، ولا يُهمُّهُ الّا إحقاقُ الحقّ وإزهاق الباطل ، حتى تستنيم الى عدله وتثِق بعطفه عليها ورعايته لها وُثوق الطفل بأبيه الـبرّ .

فلا تخاف على حقوقها أن يهضمها هاضم ، ولا على اموالها أن يغتصبها غاصب ، ولا على دمها ان يهرقه السفّاحون ، ولا على عيشها ان يُنغِصه المنغِصون ، بل ترتع في مروج الأمن وتسرح في مسارح الحرية بدون ادنى حذر ·

ثم انظروا الى حاكم آخر يتشاغل عن رعيّته بما يدرّ عليه الخير ولا يبالي أفي راحة هي ام في عناء ، أفي سعادة أم في شقاء ، وهو يُعين القويَّ على الضعيف والظالمَ على المظلوم ، ولا يؤَثّر فيه غيرُ مالٍ يرتشي به حتى اذا أعمت عينيه الدنانير الصُّفر تعامى عن الحق وتغابى عن الحقيقة وداس الشرائع وعبث بالمحارم · وليت شعري كيف يكون للأُمة ادنى ثقة بهذا الحاكم الغشوم ، وهو يمتصُّ دماء بنيها ، ويستخفُّ بأرواحهم ، ويمتهن حقوقهم وكلَّ شيء مقدَّس لديهم ·

وعلى الحكّام قِس الذين يَلُون شؤون الامة ويُديرون دفّتها ، وقد استوفينا الكلام عليهم في مقالة لنا عنوانُها « النخاسة السريَّة » ، فلا نرى في إعادة الكرَّة فائدةً سوى إيقاظ المساخط وإثارة الحفائظ وتنبيه الخواطر الغافلة والعيون الهاجعة ، ونحن في غنى عن إضرام ثورة فكرية ربما نُشر آباؤنا من اجداثهم وشاركونا فيها ضامّين أَصواتهم الى اصواتنا ، تظلُّماً من سوء الحال , وهيهات ان يكون للشكوى صدى او وقع في تلك القلوب الجامدة والآذان الصماء · ·

ولذلك نصرف عنان القلم عن هؤلاء الآلهة الى غيرهم من ابناء قومنا ممن يحيك في ألبابهم النقد · ولنشرع في التجّار · ترى الناس اذا اختبروا صدق التاجر وقناعته بالربح ، وعرفوا أن سلعته من اجوَد السلع ، يُقبِلون على مخزنه ايَّ إقبالٍ وحسبُه بذلك مغنماً ، على حين انهم ينحرفون عن غيره ويتحامون معاملته اذا غبَنهم مرةً في المبيع ، او باعهم السَّقط من البضائع بثمن السليم ، او طمع في المكسب طمعاً لا مُبرّر له · وأكثر تجّارنا متى دخل احد الناس الى مخزنهم يغتنمونها فرصةً للغُبن ، حتى اذا شعر الشاري بالخديعة انقلب عن المخزن وأطلع جميع معارفه واصحابه على خيانة صاحبه وجشعه الفاحش ، فيتحاشون عنه كلّ حياتهم ، وهكذا دواليكَ حتى يُقلِع الوُرّادُ عن هذا المورد الأَسِن ولا يبقى لصاحبِهِ الطمّاع إلّا أن يعضَّ الاصابع ندماً على خاسره المادّية فضلًا عن الادبيَّة ·

وليت شعري كيف لا يكون لك كلُّ الثقة بذاك التاجر القائم على مواثيقه الصادق في معاملته الذي يترفع عن ان يغبنك في البيع او يُرغِبك في بضاعة كاسدة عنده ، والذي يقنع من الربح بما يُجيزه العدل ولا تحظره القَناعة ، أم كيف لاتنقطع عن التجّار الغابنين الذين اذا استمتَهُمْ سلعة طلبوا منك أضعاف ثمنها ، وهم مع ذلك يدّعون بمحاباتك وهوادتك مُعزِّزين كلامهم بالأَيمان المغلّظة ، حتى اذا استغليتها وأظهرتَ انقباضاً وهممتَ بالانصراف عرضوها عليك بنصف الثمن الذي طلبوه منك فلا تلبث ان تتأفّف منهم مُحوّلاً وجهَك عن مخازن لا يعرف اصحابُها الصدق ماهو، بل يهمُّهم إدراك ما طمعت فيه نفوسهم الخسيسة من المكاسب المحظورة ولو زعزعوا ثقة الناس بهم . .

فما اغبى الذين يُمنّون نفوسهم بالفوز في معترك الحياة وهم يستطرقون الغدر والمكر ، ويستحلّون ارتكاب المطامع والمخزيات في سبيل منافعهم ، ولا يرَون منكرًا في خفر الذمم ونقض العهود . ثم هم يسمُون بأبصارهم الى المعالي ويُحاولون أن تنصَب لهم في الصدور العروش ، ويُقام لهم في كل فؤاد منبرٌ يُسبَّح لهم عليه في الاسحار والآصال .

واغبى من هؤلاء مَن يرغبون عن بلادهم ويتنقّصونها ويمكرونَ بها ويكونون لأعدائها أعواناً عليها ، ثم يعلِلون النفوس بأن يكون لهم بين بنيها خطَرٌ رفيعٌ وشأن كبير ، مع أنهم اوقع في صدورهم من نصل السهم وأفعل في قلوبهم من شباة العضب . فما ضرَّ هؤلاء القوم الذين لم يأتوا عملًا يُوطِن النفوس على الوثوق بهم ، ولم يتجمّلوا بشمائل ترفع مكانتهم عند العامّة فضلًا عن الخاصّة ، ولم يُبرهنوا عن حميّة وامانة ووفاء حتى يُركن اليهم ويُؤمن جانبهم ، ما ضرَّهم ، لو تشبّهوا بذوي الضمائر الحية المشهود لهم بالانصاف والشمم والنخوة ، أُولئك الذين يُؤثرون أن يثق الناسُ بهم على ان يكتنزوا الكنوز ويقتنوا النفائس والأعلاق . وكيف لا يكون للثقة هذا المقامُ الرفيع في صدورهم والناسُ على اختلاف طبقاتهم في اشدّ الحاجة الى التحلّي بجلاها ، وبدونها لا يكون لهم ادنى قدر ، ولا يخطون خطوة في ميدان الفلاح . كيف لا وهي للعالِم أضمنُ ذريعة لترويج مؤلّفاته وللتاجر اكبرُ رأس مال ، فاذا

فاز بها فقد فاز بإقبال الجمهور زرافاتٍ على مخزنه ، وكفى بذلك فلاحاً . ثم ان المصارف متى وثقت به الثقة كلها تُؤَدِّي له مايفتقر اليه من المال بدون ادنى تحفُّظ، واصحاب المعامل متى ركنوا اليه وخبروا صدق معاملته يُنفِذون اليه من البضائع كلَّ ما يستقدمهُ من عندهم ولا يطلبون ادنى سلفة منه . فاذا اضطرته الحال يوماً ان يعتزل التجارة باع اسم مخزنه بألوف من الدنانير ، وهو لم يبع في الحقيقة الَّا شيئاً ادبيًّا ، ألا وهو ثقة الناس به وبمحله التجاري ، وهل من شيء مهما نفس وغلا يعدل هذه الثقة . فكم من تاجرٍ لا يكون معه رأس مال سوى وثوق المتموّلين به ، وهو أثمن من الكنوز .

إن الثقة غيرُ مقدورٍ قدرُها الا عند من ملكها ثم فقدها . فهي اشبه شيء بالعافية التي لا تُوازيها اللآلىء الغوالي ولا يُعزّي عن فقدها شيءٌ في الدنيا ، وهي مع ذلك مجهولةُ القيمةِ عند اصحابها المتمتّعين بها ' فلا يشعرون بنفاستها حتى تُنزَع منهم فيندبوها بالدموع الغِزار متلهّفين على خسارة كنز هو اغلى من ان يعتاض عنه . ولو خَيَّرتَ ملكاً بين ان يُثَلَّ عرشُهُ من تحت قدميه وان يفقدَ ثقة رعيَّته به ، لآثر الثقة على الصولجان كما يؤثر الصحةَ على جميع ما يدَّخرهُ من قلائد العقيان وما يملكه من الجواهر والتيجان . .

والعقلاء أشهى الأماني اليهم ان يكونوا عند ثقة الخاصَّة والعامَّة بهم اذ يعلمون انهم بهذه الثقة يعلو شأْنهم ، ويرتفع مقامُهم ، ويجنونَ لنفوسهم من الفوائد ما لا يُقاس بمقياس . .

ولنقِف هنا موقفاً فضوليًّا لنرى الأَغيار أَهُم واثقون بمجموعنا ام غير واثقين ، ولعلّكم تنوبون في الجواب منابنا فتقولوا : كيف يكون لهم ثقةٌ بنا ونحن لا نتبادل الثقة ' ام كيف يركنون الينا مع ما نحن عليه من التنافر والتنابذ والتضاغن والتشاحُن والتحاسُد والتخاذل ' ولا يزال كُلٌّ منا واقفاً لاخيه بالمرصاد يتحيَّنُ غفلةً منه للايقاع به ، ويفترصُ فرصةً لإنشابه في حبائله واغراء العداوة بينه وبين إخوانه ، ولا نفتأ نُثير الاحزاب حزباً على حزب مُوقظين في صدورنا النعرات المذهبيَّة ، كلفاً بالتقاليد الهمجيَّة وإضراماً لماخمد من الحزازات وهمدَ من الإحن والعداوات . وكثيراً ماننفخ في

ابواق الفتن كلّما هاج هائجُ الرَّعاع ، فيتناجزُ حَمَلة اليراع في ميادين المهاترة والمناظرة ، وهي اهولُ من ساحات الصراع ، حتى نُمسي وكأنّ الرَّوعَ قـد حمي وطيسُهُ فهبَّت الصدورُ تقذفُ من اجوافها الحِمَم استنامةً الى النقم . والعياذُ بالله من الاقلام اذا جمحت ومن الاهواء اذا ثارت ومن النفوس اذا بطرت .

فهل لعقلاء الأمة ان يتبصَّروا في خُطورة الموقف ، فيردعوا السوقة والطغام عن التعارك والتفاني فيما ليس من ورائه لنفوسهم الا العار ، ولأمتهم الا الثبور والدمار .

واذا كانت العامّة لا غنى لهم عن الثقة حتى تستقيم امورهم وتنجح مساعيهم ، فَلأَن تكون ضالَّة اصحاب المهن الحرَّة بالأَولى ، لانهم هم المتفرغون لخدمة الجمهور والمنقطعون الى تخفيف ويـلات الانسانية وبلايا المجتمع ، بل هم سُرُج الأمـة المنيرة وبدورها الوهَّاجة في الليالي الظلماء ، وادلَّاؤها على الخير وقادتُها الى السبيل السويّ والصراط القويم ، بل هم اطبَّاء ادوائها الاجتماعية واساتذتها المدرّبون وخطباؤها المفوَّهون ، يُلقون عليها من على منابرهم دروس الحكمة والسداد ، ويُبصِّرونهـا المراشد ويُقصونها عن المزالّ والمآزق . وكنا نودّ لو أن المقام يفسح لنا المجال لاشباع الكلام في هذا الموضوع حتى نتناوله من جميع اطرافه ، فيسبح حينئذ اليراع في هذا الافق الفسيح ، ويقوم برحلة انتقادية حائماً تارةً حول الفلاسفة والمؤرخين ، وطوراً حول الخطباء والشعراء ، وحيناً حول اللغويين والمنشئين ، ووقتاً حول الصحفيين والروائيين ، وآخر حول المحامين والمعلّمين . وكلُّ طوفةٍ من هذه الطوفات يضيق عن وصفها مجلّدٌ ضخم فكيف بمقالةٍ ضيّقة النطاق

على انه وان كان ضيق المقام يضطرّنا الى حصر الموضوع وقَصْر الكلام فيه على بعض ارباب هذه المهن ، فان الفائدة من النقد انمَّا يجتنيها اللبيب من المقابلة بين الاشباه عملًا بقول إمام النحاة : اذا فاتكَ السَّماع فعليكَ بالنظائر . ومرجعُ الأمر كله الى الثقة ، فاذا احرزها المرء ملك الخواطر وقبض على اعنَّة المجد وتبعه النجاح حيثما سار كما يتبعه ظلُّه ، واذا فقدها فقد كل شيء في دنياه . افلا ترى الناس كيف يزدحمون على مؤلَّف نفيس أودعه صاحبه ، الحائز على ثقة قومه ، ما نضج في دماغه من الآراء السديدة والأفكار السامية في فلسفة الحياة وعلم الاخلاق ، وضمَّنه ما ادَّته اليـه

أبحاثه العميقة واختباراته الطويلة من الأدوية الناجعة لما تفشّى في المجتمع البشري من العلل القتّالة ، حتى جاء دستورًا لكل طبقة من الطبقات تُنظِّمُ به شؤونها المختلّة وتُصلح احوالها المعتلّة . ولم تمر سنوات على طبع هذا السفر المفيد المُغذّي للنفوس والاذهان معاً حتى استؤنف طبعُه مرارًا لرغبة الناس فيه وشعورهم بفوائده ، ولا عجب ان يكون كذلك فالموردُ العذبُ كثيرُ الزحام . ولكن كم من كتاب يُصيب هذا الحظ من الرواج والانتشار . يُمكنك ان تعرف ذلك من المؤلفين انفسهم فأيُّ مؤلَّف انتشر في البلاد ، ثم اقبل المتأدِّبون عليه إقبالاً حمل صاحبه على استئناف طبعه في حياته ..

او ما ترى الناس كيف يتواردون على صحيفة راقيــة في مواضيعها ، ثقةٍ في رواياتها ، نزيهةٍ في اغراضها ، شريفةٍ في نزعاتها ، تنتقد حيث ترى للنقد موجباً وتمدح حيث ترى للمدح وجهاً ، ثم تُنبِه لكل خلل يقعُ في الأُمة ، وتصِفُ لكل علّة من عللها دواءَها الحاسم . واذا رأت في الحكومة ثُلمةً حملت عليها حملات صادقة حتى تسدَّها ، فلا تتهيَّب حتى احرج المواقف . وأبغضُ الامور اليها أن تداهن او تتذبذب او تتزلَّف الى حاكم ، او تحابي رئيساً ، او تداهن ذا حظوة . وهي تجيل يراعة النقد في جميع الحلقات الإداريَّة والقضائيَّة بدون أدنى مراعاة . ثم تَهدي الحكومة والأمة معاً الى كل مشروع يُسعِد البلاد ويَنهضُ بها الى روابي العزّ والعلاء . فاذا عُرضت اسهُم هذه الصحيفة للمبيع افلا تُشترى كما تُشترى اسهُم المناجم الثمينة والمعــادن النفيسة . وهذه أُمَّات الصحف في اميريكا وأُوروبا يكاد يعجز عن شراء اسهمها ملوكُ الأموال ، ولها بناياتٌ فخمة أشبهُ بمقاصير الاقيال وصروح العهّال ، تضمُّ تحتَ سقفها بضعةَ أُلوف من المنشئين والروائيّين والطبّاعين والمُنضِّدين ، حتى اذا دخلت اليها وطوَّفت بغُرفها وقاعاتها وردهاتها ومكاتبها وأبهائها وما فيها من الباحات الفسيحة للملاهي والألعاب الرياضية ، خلتَ نفسك أنَّك في مدينة عامرة مستقلّة بنفسها . ومتى عرفت ان ارباب هذه الصحف كانوا في اول عهدهم من عامَّة الشعب ، وأن اول صحيفة أبرزوها الى عالم المطبوعات كانت اشبهَ بنشرةٍ ذات صفحتين ، عرفتَ كيف يجاهد اولئك الرجال العظام في معترك هذه الحياة ، وكيف يقدرون قدر الثقة وكيف

ينشدونها حتى اذا ملكوها حرصوا عليها كما يحرصون على مهجهم الغالية .

وهل من صحيفةٍ اجدرُ بان تكفَّن وتدفن في جبَّانة الاموات من تلك التي لا تعرف سوى لُغة المواربة والمدالسة ، والتي تتذبذبُ وتتقلب مع كل ريح اندفاعاً وراء المنفعة الذاتية بحيثُ تصبح على مبدإٍ وتمسي على آخر ، ولا ترتشد الا ببصيص الذهب الوهَّاج الذي يخطف بصرها ، ويكاد ينزع قلبها من صدرها ، ويُصمّ أُذنيها عن سماء نداء الحق وصوت الضمير وداعي الشرف . او لا ترى الروائيّين كيفَ تَروج رواياتهم اذا كانت محكمة الوضع رائعة المغزى رائقة الديباجة ، وكيف تبور اذا لم تكن على شيء من الضبط والاحكام . فرُبَّ روايةٍ خالدة ببيع الحقّ في اعادة طبعها ببدَرٍ من المال وشذرات من الذهب ، من حيث نفاسة موضوعها ، وافراغ معانيها الرقيقة في اعذب القوالب واشتمالها على الدرر او اثمن ، وانطوائها على الغرر او اشهى ، ورُبَّ أُخرى لا تصادف عند المطالعين الا النبذَ والامتهان لخلوّها من كل هذه الحسنات او لانطوائها على ما يضرم لظى الهيام والصبابة . وبعد هذه الشواهد الساطعة والبينات اللامعة أفيخامرك ادنى ريب في ان الثقة هي اثمن من ان تباع واغلى من ان تقوَّم بثمن . وايــةُ طبقةٍ من الطبقات ام ايُّ فرد في المجتمع لا يفتقر الى خطبة مودَّتها ليحيا عزيزاً نبيهاً رفيع الشأن سامي المكانة . ولكن صَداقها غالٍ لا يقوى على دفعه الا من جمع في صدره جميع المحاسن الأدبية والعقلية التي تحمل الناس على الوثوق به والسكون اليه .

على أننا لو احتككنا بالأغيار وسألهم احدُنا ما رأْيهم فينا اتراهم يجيبون جواباً ترتاح اليه اذانُنا وتنبسط اليه صدورُنا . ان هؤلاء القوم لا ثقة لهم بمجموعنا وان كان لهم ثقة بافرادنا . فلا هم يثقون باقوالنا ولا باعمالنا ولا بمواعيدنا ولا بمواثيقنا ، ولا يتجرأون على ان يعاملونا بدون تحرُّز وتحوُّط ، ولا تطاوعهم نفوسهم الحذرة في ان يكِلوا الينا بادارة محل تجاري لهم ما لم يتعهَّدونا ايَّ تعهُّد ، ساهرين علينا سهر الراعي الأمين على صغار نعاجه خوفاً عليها من خَطَفَة الذئاب .

وعمركمُ الله كيف تأملون ان يستنيم الينا هؤلاء القوم الغُرباء عنا ، ونحن لا نَركُن بعضنا الى بعض ، بل نتَّهم حتى الثقات فينا ، ونشتبهُ حتى في مَن تربطهم

بنا وشائج القربى واواصر النسب . اوَلا ترون الأب كثيراً ما يسيء بابنه الظن ، فلا يأمن على خزانة امواله أن يسلّمه مفتاحها خوفاً من أن يمدّ يديه في غيابه الى ما فيها . اوَ ما ترانا اذا فتح أحدُنا محلًا تجارياً كيف نؤثّر الاجنبيّ عليه لضعف ثقتنا به وبسلعته ، حتى نخنق في صدره روح النشاط والمنافسة ، ونُلجئه الى اقفال محلّه ، او نعرّضهُ للافلاس . اوَ ننكر انه اذا اشتهر احدُنا في مهنةٍ انقطع اليها نُعرضُ عنهُ ونُقبلُ على زميله باعتباره كونه غريباً عنّا ليس غير . مع انه كثيراً ما يكون دون ابن بلادنا براعة وتفنُّناً وحذقاً . فلكم أغلقنا من معهد وطني لإقلاعنا عنه وإيثارنا المعاهد الاجنبيَّة عليـه . وكم هدمَت ايدينا من معملٍ اقدم على تأسيسه احدُ ابناء وطننا المعتمدين على نفوسهم ، فلم يرَ منا سوى المعاكسة بدلاً من التنشيط . وكم من طبيبٍ اوقعناه في هاوية اليأس لإعراضنا عنه مع انه كان انطس من زُملائه الأغيار الذين يترامى اعلاؤُنا على ابوابهم وهم أوضع قدراً من النَقَد واذلّ من وَتَد . وكم من عالم أخمـدنا في صدره الهمّة والنشاط وأطفأنا من فؤاده نور الأَمل ، لبُخلنا عليه ببعض دُريهمات نشتري بها نسخةً من كتاب نفيس ابرزه الى عالم المطبوعات ، بعد ان ذاق في سبيل وضعه الأمرّين حارماً نفسه ملاذّ الحيـاة واسباب الطرب والأنس ، مقاسياً هموم العزلة وخشونة الوحشة . وكم من صحافيٍ تخلّفنا عن الاشتراك في صحيفته الشائقة بخلًا عليه بمبلغ هو ازهدُ من العناء الذي يعانيه في عراكه الصحافي وجهادهِ الوطنيّ حتى اعتراه اليأس وتولّاه السأم . .

ولو كان اهلُ الشحّ والحرص على هذه المشاريع النافعة وعلى اربابها العِصاميّين من اهل العَوز والضنك لكانت البلية مما لا يصعب على الطبع احتماله ، ولكنّهم في الغالب من ذوي اليسر والسعة وهمْ اكثر من ان يُحصوا . ولهذا السبب لا يبرح بيننا وبين الأمم المتحضِرة بونٌ شاسع . ويعزُّ علينا ان نجهر بهـذه الحقيقة وإن جرحنا صدرنا قبل صدور الحراص على اسم الوطن ، الغُيُر على رفع معالم مجده وهُم كُثر .

على اننا لا نرمي في ما اثبتناه ان نثبِّط الهمم ، ولا ان نقدح في أُمة نحن من جِذرها ، ومن أضنّ الناس بكرامتها ، وهي منا بمقام الروح وبمنزلة الدم من العروق ، بل نُريد ان نُثير العزائم وندفع ما في النفوس من حميَّـة وإباء لإصلاح شوائبنا ،

ومداواة عللنا ، والتجمّل بأروع الصفات واشرف الطباع ، حتى اذا عجم الأجانب عودنا ورأوه صلباً وثقوا بنا واعترفوا بأننا شعب له جامعته الوطنية وثروته الادبية ، وله الحقّ ان يحيا حياةً شريفة حرّة ، في هذا العصر الذي تفكّكت فيه القيود والأكبال وطمحت فيه الابصار الى سماء العز والاستقلال . وانه ليتعذّر علينا ان نتمتع بثمرات هذا العصر وحسناته الجمّة ما لم نثِق بنفوسنا أمتَن ثقة ونكون عند ثقة الناس بنا .

فعسى ان يتحقّق هذا الحلم الذهبي الذي نرعاه بمقلة الهائم ، حتى اذا انتشرت الثقة بين جميع الطبقات في وطنِنا المحبوب ، وتبادلناها فيما بيننا ، اقبلنا على كل ما تُنتجه بلادنا وتحوكه ايدينا وتُنبتهُ عقولنا وتُثمره اراضينا ، تشجيعاً لذوي العبقريّة والنبوغ في الأقطار العربية ، وتنشيطاً لذوي الهمم الناهضة الى الاقدام على المشاريع العمرانية والفنون الجميلة والمهن الشريفة . فيكثر حينئذ في قُطرنا المصنِّفون والمخترعون والمكتشفون والمبدعون والمتفنّنون ، ونرى فيه المعامل والمناسج والمصانع لكل صنف من اصناف الحاجيات بل الكماليات ، ونُعيد الى بلادنا المقام الرفيع الذي كان لها على عهد اجدادنا الفينيقيين وأخلافهم العرب ، ولا يكون على شعرائنا اذ ذاك ادنى بأس من ان ينظموا الحماسيّات والفخريّات ويُطرّبوا ويهزجوا ويتثنّوا ويتمايلوا حتى يُرقصوا الجماد ويهزّوا الاوتاد وحتى تردّد الألسنة اهازيجهم ترديداً وترجّع الاودية قصائدهم واناشيدهم ترجيعاً . .

أحيِنا اللهمّ الى موعد هذا المهرجان ثم انقلنا مع الشعراء الى فسيح الجِنان .

الضبط والتدقيق

لو نظر الحكماء الخبيرون بعلم الاخلاق في ادوائنا الاجتماعية وعللنا الادبية نظراً فلسفياً ، واستقرأوا الآفات التي تقعدنا عن مجاراة الأمم المجلية في حلبات المجد السباقة في مضمار العمران ، واستقصوا الاسباب الموقفة لنموّنا الادبيّ وتبسّطنا العلميّ وتقدّمنا الاجتماعيّ وتبحّرنا الحضريّ ، مما قضى علينا ولا ريب ان نبقى احقاباً في زوايا الخمول وأكبال الهوان ودياجير الجهل ، في ارضٍ قدّستها اقدام الانبياء ، وتحت سماء يحسدنا على صفاء اديمها اعرقُ الامم حضارةً وانبهها ذكراً ؛ ثم لو ارخوا لبصائرهم العنان في مجال الروية للوقوف على الدواعي الموجبة لجمودنا ، المثبّطة لهممنا الضاربة بيننا وبين الاختراع والابداع تلك السدود الكثيفة والحوائل المتينة ، لأنتج لهم بحثهم العميق ان جميع ذلك ناشئٌ في الغالب عن استخفافنا بضبط أمورنا ، فلا ندقق فيما نعمل ولا فيما نقول ، ولا نقدر الوقت قدره فنحرص عليه ، حتى أوصدنا في وجوهنا أبواب النجاح وتقاعدنا عن الاندفاع الى الامام ، لحاقاً بالامم الشمّيرة المتسابقة في مجالات الفخر المتبارية في ميادين العلياء .

ولا تعجبنّ اذا كان للتدقيق هذا التأثير في تكوين الأمم ، وإخراجها من طور الهمجيّة الى طور المدنيّة ، والنهوض بها من حضيض الهوان الى فلك العز ، ومن هاوية الجهل الى قمة العلم ، فان المرء اذا دقّق في اعماله جاءت غايةً في الضبط والإحكام ، واذا تدبّر اقواله جرت على نظام الصواب والسداد ، واذا ضنّ بوقته ضنينَه بعرضه وروحه كان موفور البركات كثير الخيرات . وكيف لا يكون للتدقيق هذه الحسنات الرائعة ، وهو بمثابة أسّ للاقتصاد الذي يُعدّ من اغزر موارد الثروة واكبر ذرائع اليُسر . أم كيف تستغرب ان تذوق أمرّ المكاره وأمضّ الغُصص أمةٌ لا تبالي بأوقاتها ان تذهب هدراً ، وبأعمالها ان تتشوّش ، وبعهودها ان تُنكث وبحقوقها ان تُهضَم ، وبأقوالها ان تكون ضرباً من الهذر والهذَيان . وهل يكوننّ لك ادنى ثقة في هذه الامة التي تستهتر كل الاستهتار ، حتى يقع ابناؤها في هذه الورطات ويظهروا

بتلك الاطوار . وكأَنَّ نفوسهم العمياء لا تشعر بما هم عليه من المغامز الفاحشة وما هو متفشٍّ فيهم من الأوبئة العضالة ، حتى تُطمِعهم في ما لا يطمع فيه الرجال النُّبهاء الأَلبَّاء من حسن أُحدوثة ونباهة ذكر الى مناعة عزٍّ ورفعة قدر . أَو ما يكون من الحمق والغرور أَن يحلموا هذه الاحلام ويمنُّوا النفوس بتلك الاماني ، وهم لا يُبرمون عملًا ولا يُجيدون قولاً ، ولا يولِّدون اختراعاً ولا يُحسِّنون اكتشافاً ، ولا يُقدمون على مشروع مفيدٍ لهم ولبلادهم يُحدِّث عن علوّ همة ومضاء ، ويُعرب عن غيرة وطنيَّة وحميَّة قوميَّة . وهَبْ أَنهم أَقدموا يوماً عليه أَفلا تبدو فيه امائر الخُرق والفساد وسوء التدبير ، حتى لقد يودُّ المشفقون عليهم وعلى سمعتهم لو أَنهم لزموا عُزلاتهم وانزووا في منازلهم ، ولم يُقبلوا على عملٍ فُتحت في مبناه الفوهات ، وظهرت على جوانبه الثغور والثُّلمات ، وكان من ورائه الفضائح ، ومن وراء الفضائح سلسلةٌ طويلة من التعييرات والشماتات .

وإِنه ليسوؤُنا أَن نرى في مجتمعنا مجالاً للانتقاد في ما أَلِفناه من العادات ونشأنا عليه من الاخلاق ، بحيث لا نسبر غورًا من الاغوار حتى يعلق صديدٌ في المسبار ، ولا نُعاير موازيننا ومكاييلنا حتى يبدو لنا في المعيار ما يسومُنا العار ، ولا نقايس بيننا وبين الشعوب الناهضة حتى نرى في المقياس ما يُدمي الابصار

ويُخيَّل الينا أَنَّ القرَّاء الكرام هم اعقل من ان يكتفوا بما اجملناه ، بل يطمحون الى التفصيل والتشريح إِشباعاً للكلام في هذا الموضوع المهمّ ، ولو أَلَمْنا بشراطنا الاعضاء الزَّمِنة ، وهي من أَحوج الاشياء الى البتر تفادياً من ان يسري فسادها الى سائر الاعضاء الصحيحة .

فمن آفاتنا الاجتماعية أَننا لا ندقِّق في مَرويَّاتنا ولا في مواقيتنا ولا في مواثيقنا . والمرء لا يزال على مكانته في صدرك حتى يكذبَك الحديث والنصح ، او يغالي في ما يرويه لك من الانباء ولا سيما عن نفسه ، او يعاهدك على ان يزورك في وقت كذا او يوافيك الى محلّ كذا ، ثم يُخلف الوعد او يتخلّف عن الزيارة في ميعادها ، وحتى يخفر عهودك أَو يماطلك بحقِّك او يسوِّفك دَينك فيضطرَّك الى قرع باب القضاء . . .

ومن الناس مَن يكون لهم حُرمة عند بني قومهم وأُحدوثة كنفحات الزهر أَو

أَذكى. فاذا اساؤوا مرةً العمل او ارتكبوا شططاً او خللًا لا يليق بمقامهم الادبي ، زلّ احترامهم من الصدور وازدرتهم الابصار .

ومنهم من يتبحَّرون في المعارف حتى يرتفع شأنهم عند اهل العلم ، فاذا نشروا شيئاً من نفثات يراعهم يدلّ على ضعف نظر وفساد ذوق وفيالة رأي ، او وقعوا في خطإٍ لا يليق بأمثالهم الوقوع فيه ، سقطت منزلتهم من القلوب وخبا نجمهم الادبي وخسُف بدرُ اشتهارهم خسوفاً ربما كان ابدياً .

ومنهم مَن يُحرزون في عالم التجارة اسماً يُغبَطون عليه ، ثم يقع في معاملاتهم او في حساباتهم او في اداراتهم خللٌ لا عذر لهم فيه ، فتصعف بهم الثقة وربما غارت في صدوع الارض ، حتى يُقلع عنهم عملاؤهم ويقاطعهم كلُّ من لهم صلةٌ بهم .

ومنهم مَن عُرفوا بالمروءة والشمم والصدق والاستقامة ، فاذا تخلَّفوا يوماً عن مناصرة مشروع خيري ، او عرقلوا مسعىً فيه خيرٌ لامة منكوبة او أُسرة ملهوفة ، او لم يخفُّوا لانجـاد مستصرخ ومؤاساة بائس ، او اجترحوا إحدى الخسائس ، تغيَّر رأي الجمهور فيهم وانقلب عليهم ، بعد اذ رأى في ثوب أريحيتهم فتقاً لا يُرقع ، وفي حمى مروءتهم صدعاً لا يُرأب . .

ومن القُضاة مَن طبَّق ذكرهم الآفاق ، فتحدَّث الناسُ بنزاهتهم وعفافهم وإقامتهم لميزان الحق وإحيائهم للسنن ، وأُعجبوا أيَّ اعجاب بمواهبهم النادرة ومناقبهم الرائعة . ثم عنَّ لهم ان ينحرفوا عن نهج العدل انحرافاً لا يُجيزه الشرع ، او يُحـابوا محاباةً يترفَّع عنها القضـاء ، او يحكموا في دعوى قبل ان يُنعموا النظر فيها ، حتى جاءَ حكمهم أميلَ الى الجور منه الى الانصاف ، فأثاروا عليهم الشبهات وأيقظوا التُّهم ، واخذت بعدئذٍ الظنون تحوم على ما يُبرزونه من الأَحكام ، ولو لم يكن ادنى غبار عليه ولا وجه للارتياب فيه .

ومن اللُّغويين مَن اتخذهم الناطقون بالضاد كعبةً لهم ، يحجُّونهـا زرافاتٍ كلما التبست عليهم مسألةٌ لغويَّة . ولم يفتأ لهم هذا المقام في الصدور الى ان استُفتوا ذات يوم في مسألة دقيقة ، وكانت الحلقة غاصَّة بأقطاب العلم وبدور اللغة ، فلم يتروَّوا في ما دار عليه البحث حتى أفتوا فتوى جازفوا فيها ، فأحدثوا في مكانتهم العلمية ثلمةً

بيّنة واسعة ، ثم نشروا عقبَ ذلك مقالةً لم تخلُ عن المغامز ، فتصدَّى لتخطئتهم من كان في اللغة أضعف منهم قدماً واقصر نظراً ، ولكنه اصاب في ما تداركه عليهم وخطَّأهم فيه مما لعلّه وقع منهم سهواً ، او لم يتَّسع لهم الوقت للتنقيب عنه في المعجمات . على أنهم لا يُعذرون فيما فرط منهم ، ولا يَشفع فيهم كونُهُ صدر منهم على غير رويَّة ، او لم يكن لهم سعةٌ من الوقت حتى يعيدوا النظر فيما كتبوه . فإنَّ الناس ينظرون الى العمل من حيث هو لا الى الوقت الذي أُنشئَ فيه . وكان عليهم ان يدقّقوا التدقيق الحريَّ بأمثالهم حتى لا يفقدوا المقام الذي لهم في عالم الادب ، ذلك المقام الذي تبوَّأوهُ برهةً من الزمن ، ولكنهم تسرَّعوا في ما افتوهُ ولم يتثبَّتوا في ما كتبوه حتى هفَوا تلك الهفوات التي اكبرها الأُدباء منهم وعدُّوها دليلًا على قصر الباع .

ونحن وإن كنّا نستهجن هذا الانقلاب من حَمَلة الاقلام على علماء أعلام لهم آثارهم الغرّاء في جانب العلم ، ونُريد ان تكون العروش التي يستوون عليها أمنع من أن تُثَلّ ، لمجرَّد عثرة لُغويَّة او سقطة بيانيَّة او غلطة نحوية ، باعتبار ان المرء عرضةٌ للزلل والعصمة لله وحده ، فضلًا عن ان اللغة العربية بحرٌ زخَّار لا يسلم السابح فيه من الارتطام ، اذا سلم من العطب او نجا من الغرق . فاننا نأبى مع ذلك كلَّ الاباء على هؤلاء الائمة واشباههم من مصابيح الامة ان يرسلوا الكلام على عواهنه ، فلا يدقّقوا فيما يستخدمونه من الاوضاع اللغوية على غير وجهِهِ ، حتى لقد يعثرون عثراتٍ يتبعهم فيها استدراجاً أُلوفٌ من الواثقين بهم ثقةً عمياء . ولا جرم ان اكبر جريمة يجترمها المرء أَلَّا يكون عند ظنّ من يُحسنون به الظن ، وان يكون مزلَّةً لغيره ممن وثقوا به الوثوق كلهُ حتى استسلموا اليه استسلاماً اوقعهم في خطإِهِ .

ومن الخطباء مَن رزقهم الله مع طلاقة اللسان وشهامة الخاطر وتوقُّد الذهن قوَّة الحجّة وفصاحة اللهجة وحصافة الرأي وحسن التصرُّف في الكلام والتأثير على الخواطر ، ومَنَّ عليهم بجهارة الصوت وعذوبة المنطق وحسن الالقاء ورشاقة القدّ وروعة الوجه ، ثم قيَّض لهم الجدُّ أن يقِفوا بين قومهم مواقف خطابيَّة برهنوا فيها على مقدرة وتفنُّن وسعة مدارك ورجاحة عقل ، بحيث اصبحوا كلَّما جرت في البلاد حفلة يُنتدبون للخطابة فيها ، وكلما وقع في الأمة حادثٌ خطير خطبوا في الجماهير إما

تسكيناً للخواطر الثائرة ، او ترغيباً في الإقبال على مشاريع مفيدة. وقضوا على هذه الحال شطراً من العمر وهم قبلة القوم ووجهة أنظاره ومحور آماله . ثم استفزهم العُجب لابتداه الخطب ، فأخذوا يلقونها على غير تَرَوٍّ وسابق نظر ، حتى في المحافل الجامعة للخطباء البلغاء والنَّقَدة الجهابذة . وكثيراً ما كان يجمح لسانهم فلا تقوى بصائرهم على كبحه ، ولا سيما في المواقف الحماسيَّة التي يكون فيها الخطيب المرتجل اكثر تعرُّضاً للخطل وأسرع الى الخواطي، والبوادر. حتى اصبحوا بعد مدة ، في عُرف العقلاء وفي نظر المحقّقين المدقّقين ، من زمرة الثرثارين المهذارين الذين لا ينصبون للكلام ميزاناً . ففقدوا تلك الثقة الكبيرة التي كانوا قد احرزوها وتمتعوا بها ردحاً من الزمن . ولو لم يغترّ هؤلاء القوم بما نالوه من طِيب السمعة وسموّ القدر بخطبهم البليغة التي استرقُّوا بها الألباب ، ولو لم تتغلَّب عليهم الدعوى حتى نزعت من صدورهم رَوعةَ المنابر وهيبةَ المحافل ، وأسقطت من عيونهم أقدارَ السامعين ، حتى صاروا يزدرونهم ازدراءً يحملهم على ان يخطبوا فيهم على البديه خطباً سخيفة ، ليس عليها مسحةٌ للفصاحة ولا أثرٌ للبلاغة ، ولا هي في شيء من الاجادة وصحة الذوق والإحكام ، لما هَووا من سماء وجاهتهم وما أَفل كوكبُ نباهتهم . .

وأحوَجُ الناس الى التدقيق بعد اللغويين ، الخطباء والمؤرخون والفلاسفة والمصنفون والمخترعون ، فاذا لم يُمحِّص المؤرخ ما يأثرهُ من الروايات ولم يعتمد في اسانيده على الثقات وفي اخباره على الأثبات ، ولم يُحكِم رأيه الصائب في ما راوهُ من قبله الرواة مما لا يخلو احياناً عن الهوى في النقل ، ولم يبحث عن اسباب الحوادث ، ولم ينظر في احوال ولا في عادات ولا في تقاليد ولا في اخلاق الأُمم التي يدوِّن سِيَر رجالها نظراً يُعوِّلُ فيه على فلسفة التاريخ ، انحجبت الحقيقة عن عينيــه وعن عيون مُتصفِّحي كتابه ، وكان عملُهُ غايةً في الاختلال والاختلاط ، واضرَّ هو بمسخه للتاريخ وتلفيقهِ لرواياته ضرراً بيّناً سيؤاخذه عليه الخَلَف مؤاخذةً تجعله عبرةً لمن يُموِّهون الانباء ويحرّفون الحقائق ويزيّفون الحوادث . ومتى عرفتَ أنَّ الأُمم المتحضِّرة تُنفق على الحفريَّات ونبش العاديات ما لا تُنفقه على استخراج معادنها الذهبيَّة والإلماسيَّة ، ثم بان لك أن الذي يحدوها على الاسراف في هذه السبيل انما هو رغبتها في العثور على

ما قدم من الآثار لعلّها تهتدي به الى حقائق لا تزالُ في عالم التاريخ مبهمةً غامضةً ، سهُلَ عليك ان تُدركَ مقدار الذنب الذي يُذنبه الى التاريخ ومحارمهِ المقدَّسة أولئك الذين لا يدققون في ما ينقلون ، او انَّهم يُوردون الروايات على ما تُوحيهِ اليهم المصلحة الذاتيَّة او تمليه عليهم الاغراض ، ولا يحذرون من تبعات المسخ والتحريف . . .

والفيلسوفُ اذا لم يُجِل فكرته في المباحث الفلسفية ، ولم يُحكم علم القياس إحكاماً يأمن معه الأضاليل ، ولم يُحِط علماً بسائر اجزاء الفلسفة ، استهدف لسهام المحقّقين من أرباب هذه الصناعة ، فيفنّدون اقواله ويُزيّفون حججهُ ، ويميطون اللثام عن مزاعمه وأوهامه وسفسطاته ، ويقبّحون عليه تمويهاته وترَّهاتهِ .

والمُصنِّفُ اذا لم يحذق العلم الذي يضع فيه تصنيفه جاء كتابه مهلهلَ النسج مختلَّ الوضع ، اشبه بخديج ولدته أمُّهُ قبل تمام ايَّامه . والمخترعُ ان لم يذلِل جميع الثنايا التي تتصدَّى له في اثناء أبحاثه وغضون تجاريبه وتحقيقاته ، بقي اختراعه في مطاوي فكره وزوايا صدره ، او أبرزه مشوَّهاً مختلًا حتى يندم على خراقتهِ ويتوجَّع له كل من شعر بخسارته وضياع وقته . ولا مُحالة ان الذي يفسد على المرء عمله حتى لا يحسنه إنما هو عجلتُهُ وحمقهُ ، وقلّة بلائه وسوء تدبيرِه ، وكفى بها أسباباً لعرقلة الاعمال . . .

ومما يُسوِّئه علينا الأغيار ، ولا نكيرَ عليهم ولا ملام ، اننا نُقدم على التأليف في علمٍ لا نُحكمُه ، ونكتب في موضوعٍ قبل أن نُمعن النظر فيه ، وننشر بنات افكارنا بدون تمحيص وتنقيح . ونُدرج في المجلّات والصحف السيَّارت المقالة اثر المقالة ، بدون ان نُمرَّها على محكِّ النقد ونُجيل فيها نظرَ المحقِق المدقِّق . ولذلك لا يكون لموٴلَّفاتنا شأنٌ عند العلماء لأننا لا نضمّنها من الفوائد ما هو حريٌّ بالمطالعة ، ولا نضعها على اسلوب سهل المأخذ ، ولا نجعل لها فهارس تسهل للقرَّاء العثور على ما يريدون الوقوف عليه من محتوياتها ومضامينها . وكأننا لا نكتفي بجميع هذه الشوائب حتى نضمّ اليها ما يزيد كُتُبنا غضاضةً ، من رداءة طبع الى خساسة ورق ، ومن خياطة واهية الى تغليفٍ أوهى ، او كأنَّا لا تكفيها المغامز التي فيها حتى نُضيف اليها من الأغلاط المطبعيَّة ما لا يقع تحت حصر . وكثيراً ما يُقرّ رأي الناشر والطابع على ان يُغفلا التنبيه على هذه الأغلاط في ختام الكتاب ، مُحيلَينِ امر اصلاحها على

فطانة اللبيب حرصاً على سمعتيهما معاً. وقد فاتهما ان القرّاء لا يُشفقون عليهما أنفسهما بعد ان عانوا في المطالعة ما عانوا من العناء. اوَ ما يندى جبيننا خجلاً إذ تقع عينُنا على كتاب اجنبي نظيف الطبع، صقيـل الورق، محكم التجليد، رائع المظهر زاهي الرونق، واذ نتصفحه ولا نرى فيه غلطةً مطبعيَّة ولا هفوةً قلميَّة، مع انه كثيراً ما تتجاوز صفحاته بضع مئات... نحنُ نتهـاون بـكل شي حتى نأبى ان نـكلّف نفوسنا عناء البحث في المعجم عن كلمةٍ ارتبنا في معناها، او في الحرف الذي تتعدّى به، والأجانبُ اذا وطّنوا النفس على وضع سفر في علمٍ وعر المسالك، ولم تتوفّر لهم في بلادهم اسبابُ البحث والتنقيب، يقومون برحلةٍ نائية الشقّة وينفقون فيها من أموالهم التي جمعوها بالكدح والتقتير، قصـدَ ان يسدّوا الثلمة التي أبقاها العلماء مفغورةً من بعدهم. وكم من عالم ضحّى بنفسه في هذه الرحلات العلميّة، فقضى بعيداً عن بلاده يُكفنهُ رُكامٌ من الثلوج، وكم من دولة اوفدت البعوث العلميَّة الى الرواسي الشامخات التي زادها الجليد شموخاً ورزانةً ورُسُوّاً، ولم يكن لِقَشاعم النسور من سوالف العصور اقلُّ عهدٍ بها ولا بالجو الذي يظللها، لعلَّهم يكتشفون شيئاً يوسع نطاق العلم ويروي ما في الصدور من غُلَّة. فما اخوَرَ عزائمنا واوهى هممنا وما أبعدنا من النجاح. نريد ان نلعق العسل بدون ان نشتاره من خلاياه، وكأننا نسينا او تناسينا قول المتنبي، وهو احكم شعراء العرب «ولا بدَّ دون الشهد من إبر النحل»

على ان ارباب المهن الحرة كالمحامين والصحافيين والأطبّاء وباعـة الأدوية والعقاقير ليسوا الى التدقيق بأقلّ افتقاراً من اولئك العلماء. امّا المحامون فاذا لم يكونوا من الفقهاء المتضلّعين من الاحكام الشرعية والقانونية، ولم يكونوا على بسطة من المعارف التاريخية والعلوم المنطقيَّة والفلسفية التي كثيراً ما تدعوهم مواقفهم الدفاعية الى الإلمام بها، حتى تكون ادلَّتهم دامغـة وبراهينهم قاطعة، ثم اذا لم يُحكموا درسَ الدعوى التي يترافع فيها الخصمان، حتى ارتبكوا في الدفاع عن موكّلِهم وعجزوا عن دحض حجج خصمه، أذنبوا ايَّ ذنب الى الحرفـة الشريفة التي يحترفونها على غير جدارة وكفاية، وأخلُّوا بحقوق الامانة في جنب من جعلوهم وكلاءَ عنهم.

واماَّ الصحافيُّون فانهم اذا لم يتأنَّوا في مرويَّاتهم ، ولم يوفُّوا الموضوع الذي يكتبون فيه حقَّه من الجلاء والتفصيل ، ولم يُشبعوهُ درساً مع أنه من المواضيع الوطنيَّة الخطيرة التي يهم الأمة الاطلاع عليها ، حتى تنتعش من كبواتها الاقتصادية والاجتماعيــة ، فانهم يُجرمون أجراماً لا تُغتفر الى نفوسهم والى القرَّاء والى مهنتهم معاً .

اماَّ الى نفوسهم فلأَنَّهم يُضيعون ثقة الناس بهم بما يُلفِّقونه من الأنباء ، ويُشيِّعونه من الحوادث التي لا ظلَّ للحقيقة فيها ، وإنما أنطقهم بها الغرض ' والغرضُ يُعمي ويُصِمُّ . واما الى القرَّاء فلأَنهم لم يَصدقوهم الأخبار ، او لأَنَّهم فرَّطوا في درس الموضوع الذي كتبوا فيه قبل ان يُلمُّوا به حقَّ الإلمام ، حتى جاءت مقالتهم مبلبلةً مشوَّشة ' ولم يحصل عنها ادنى فائدة لهم ولا للبلاد التي عاهدوها ، يومَ نشروا صحيفتهم ، على ان ينصحوا لها الخدمــة فلم ينصحوها . واما الى مهنتهم فلأَنَّهم أحدثوا فيها ثُلمةً تعيبها ' وعرَّضوها للقدح والطعن والإتهام بما اختلقوه من الافتراءات وما اقترفوهُ من الخيانات . وشديدٌ على الأُمة أن ترى على محيَّا هــذه المهنة الشريفة هَبَواتٍ تشينهُ ، وهي مرآةُ اخلاقها ومقياس مدنيَّتها بل حرزها الحريز ، يومَ تشدُّ عليها الكوارث وتُحدق بها المخاطر .

وامــا الاطبَّاء فاذا وصفوا للعليــل الدواء قبــل ان يتحقَّقوا الداء ظلموه وظلموا نفوسهم وحرفتهم جميعاً ، والجريمةُ أفظَعُ ما تكون اذا نزعت الارواح من الصدور ، ودنَّست السُّمعات ولوَّثت الضمائر وجرفت الأَعراض ، ونسفت الثقة وزعزعت الامانات ، وطعنت المهن واربابها في السُويداء . وهل من مُنكرٍ أهولُ من أن يقتل المرء مستصرِخاً لاذ بجاهه ، وخائفاً اعتصم بمــأواه . ومعلومٌ أن الاعلاَّء اذا تبلَّغت بهم العلل انقطعوا الى أُساتهم ، وكان اعتمادُهم بعد الله عليهم ، واملُهم بهم دون غيرهم ، فلا يستنيمون الا اليهم ، ولايستأنسون الا بهم ، ولا يُعزّيهم عن مضض الضَّنى وتباريحه سوى ابتسامة يرونها على شفاههم ' وتعليلة يُعلِّلون بها نفوسهم الواقفة على شفير اليأس ، فتُحيي فيها الأَمل وتُنشِّطها الى مغالبة العلَّة والتجلُّد عليها . وهم يتجرعون مرائر الأَدوية بكل ما يُمدُّهم به فراَّجُ الكروب من الصبر ، فاذا

أذاقوهم ايّاها سمّاً ذعافاً فمن عساهُ ان يُنيلهم الترياق . او ما يكون هؤلاء الأطبّاء اقسى قلباً من الضرائر السواقط اللواتي ، اذا رأينَ اطفال بعولهنَّ يتضاغونَ ويتضوّرون جوعاً يُقدِّمنَ لهم ما يُشجيهم ويُمزّق معدهم . وكيف يطاوعهم ضميرهم أن يقتلوا بتهاونهم ارواحاً قد ائتُمنوا عليها ، واستشهدوا الله والناس يومَ فازوا بالشهادة الطبيَّة أنهم يُخلصون الخدمة ويرعون شرف المهنة . او يندُّ عن بصائرهم النافذة أن السفّاحين لا يكونون اكثر اجتراءً منهم على جريمة القتــل اذا قصّروا في استقصاء الداء ولم يدقّقوا في العلاج .

واما باعة الادوية فانهم يبلغون في ميدان اللآمة غاية الغايات اذا باعوا عقاقير فاسدة ، او مزجوها بمادّة مؤذية او غير ناجعة ، او لم يتروَّوا في تركيبها ، او لم يراعوا في اخلاطها الكميَّة التي يعيّنها الطبيب ' او لا يكون عنـدهم الدواء كلُّهُ فيجتزئون ببعضه ' بحيثُ يصير قليل النفع ' او يكون تناولُهُ وعدمُه على حدٍ سوى . ولعلَّ برءَ المريض يتوقَّف على هذا الدواء اذا كان تامّاً صحيحاً . فتأمَّلوا في من يؤمَّنون على ارواح عباد الله ثمَّ يكونونَ من قُبَّاضها . .

وربما كان لوخزاتنا ورشَقاتنا موقعٌ أليم في صدور المنتقدين ' ولكن متى عرفوا أننا لا نعني بانتقادنا احداً منهم بعينه ' بل حُمنا فيه حول المهنة وارباتها بقطع النظر عن الشخصيات ' ثم متى تحقَّقوا ان لنا بين المنخرطين في اسلاك تلك المهن كلَّ صديقٍ حميمٍ وفيّ ' له في فؤادنا اقدس حُرمة وامنعُ ذمَّة ' وفي صدرنا اسمى مقام وأشرفُ مرتبة ' هان عليهم الأمر . ولعلّهم يستصوبون انتقاداتنا ويستحسنون حملاتنا اذا رأوا ان نِبالنا لم تخطئ المرمى ولم تتجاوز الهدف ' فاذا كانت لم تُصِب المقاتل ' فلقد اصابت الأغراض وهو حسبُنا . .

ولنُحوِّل الآن وجهنا الى الأُمم الخبيرة البصيرة التي أحكمتها التجارب ' وصقلت مرآة فكرتها الايام ' حتى اطّلعت على كُنه الفلاح وطرقه واسبابه واشرفت من قمّة الحكمة على دقائق الامور وجلائلها ' وصغائر المسائل وكبائرها ' فاحاطت بجميعها ، حتى اذا عارضنا ما هي عليه بما نعهدهُ نحن فينا ' من عادات واخلاق واطوار واذواق ' تسنَّى لنا ان نشعر بما بيننا وبينها من التفاوُت والتفاضُل ' وادركنا سرَّ تقدُّمها وسبب

تخلّفنا في مذاهب الحضارة وحلبات العلوم والفنون .

ولا نزانا في حاجة الى ان نُدلي بالحجج الدوامغ إثباتاً لمزيَّتها علينا ، ولا نرى ضرورةً لأَن نختار من مظاهر مدنيَّتها ماهو ادَلُّ على تفوّقها ورجاحة كفّتها ، وأنطَقُ بتدقيقها في شؤُونها ولُزومها سنَن الرشاد في تصرُّفاتها وتدابيرها ومناهجها السويَّة ، فاننا كيفما قلّبنا النظر في جميع هيآتها الاجتماعية يبدو لنا ما هو جدير بالاعجاب ، من القرويّ الى العامل الى التاجر الى الكاتب الى المدير الى الرئيس الى الحاكم . ومن يوم يكون الولد في حُجر ابويه ، الى ان يترعرع ، الى ان يصير كهلاً ، الى ان يشيخ ، لا يعرف غير التدقيق منهجاً . فهو شعار لهم ودليلهم الى الخير وقائدهم الى الفلاح ، يرتضعونه مع الحليب في المهد ، ثم ينمو فيهم بنموّ اجسامهم بل لا يزال على نموّه وإن اكل الدهر من اجسادهم .

واذا كنت في ريبة من ذلك فتفقّد احد مصارفهم ، ثم عُد إليَّ واخبرني الخبر اليقين ، وقل لي ما تركتْ هذه الزيارة في فؤَادك من الأَثر ، وماجال في خاطرك حين أَبصرت المستخدمين يُقبلون على المصرف في الموعد المضروب أفواجاً ، لا يتأخرون عنه دقيقة واحدة ، وفي مقدمتهم مُديرهم ، ثم يمضون كلٌّ الى دائرة عمله لايشغله عنه شاغل ، فاذا كان المساء شرعوا يتصفَّحون دفاترهم ويراجعون حساباتهم ، فاذا بدا لأَحدهم أَدنى خطإ فيها قام وقعد ، وأَنشأَ ينظر فيما دخل عليه وما خرج منه . فاذا اهتدى اليه وإلَّا لبث هزيعاً من الليل يبحث عنه أَدقَّ البحث ، ولا ينصرف الى منزله مالم يقع عليه فيصلحه . وكثيراً ما يحدث للقيِّم على بيت المال أن يقبض من احد التجّار سهواً اكثر من المبلغ الذي عليه للمصرف ، والقيّم لاينتبه لذلك الا بعد مراجعة حساباته في المساء ، وحينئذٍ تكون هذه الزيادة الى جانب مصلحته ، بحيث لو استأثر بها ولم يشعر المدير ولا التاجر ، ولم يبكّته ضميره على خرقه حرمة الامانة وتعديه على مال غيره ، لم يكن عليهِ ادنى بأس ، ومع ذلك فانهُ يضطرب كلَّ الاضطراب ، ولو ضمَّ هذه الزيادة الى مال الصندوق ، إذ يعلم أَن مديره سيبحث عنها كما يبحث عن النقص لان الخلل وقع ، ولا بدَّ للمدير من استقصاء اسبابه حتى لا يُكرَّر فيما بعدُ

وكنا نودّ لولا ضيقُ المقام ان نصف للقرَّاء حالة هؤلاء القوم وصفاً مُشبعاً ،

ونصورَّها تصويراً شاملاً ، بحيث لاندع حلَقةً من حلقاتهم إلّا نوفّيها حقها من البيان، وما اجمل السياحة في تلك الربوع وما ألذّ الكتابة فيها ، غير أننا على يقين من ان الفائدة التي نتوخّاها قد حصلت وأن ابناء وطننا لم يبقَ عليهم الا أن يقيسوا ما لم نذكره على ما ذكرناه من محاسن تلك الامم الرشيدة . واذا انكروا شيئاً من كلامنا فما عليهم الا أن يدرسوا اخلاقهم وطرائقهم وسُننهم ، ويلجوا ربوعهم ومخازنهم ومجتمعاتهم ، ويخالطوا القابضين على أزمّة شركاتهم ولجنهم ، ويدخلوا الى دوائر حكوماتهم ويحضروا مجالسهم القضائية والادارية ، ويسمعوا اقوال المحامين واحكام القضاة ، ويزوروا عواصمهم ومدنهم ودساكرهم وما تشتمل عليه من المكاتب والمعابد والمتاحف والمعاهد والحدائق والملاهي ، ويتصفحوا أسفار علمائهم ليروا كيف يكون الضبط والإحكام ، ويسمعوا خطباءهم كيف يخطبون ، وشعراءهم كيف ينظمون ، وأساتذتهم كيف يعلِّمون وكيف يشرحون ، وقوّادهم كيف يدرّبون جنودهم وكيف يشجّعونهم وكيف يكافئونهم متى أبلوا البلاء الحسن ، ويجيلوا النظر في مجلّاتهم وصحفهم وما فيها من المباحث الناضجة والآراء السياسيَّة الاصيلة ، ويحضروا مجالسهم النيابيَّة ومجامعهم العلمية . ويروا السيّدات كيف يدبّرن منازلهنّ ، وكيف يُدرن دفّات أُسرهنّ ، وكيف يراعينَ الاقتصاد في النفقات ، وكيف يصرفنَ ايامهنّ فيما يفيدهن ويفيد وطنهنّ . فاذا قاموا بهذه الرحلة اللذيذة والمؤلمة معاً أفلا يحنون هامهم الشامخات امام العظمة التي استوى اولئك المجاهدون على عرشها الموطّد بسبب حرصهم الشديد على الوقت وتدقيقهم المفرط في الأعمال والأقوال .

أوَ يجمل بنا بعدما رأينا ما رأينا ان نجمد كالاصنام ، او نستسلم الى الحيرة واليأس . اوَ يليق بنا ان ننظر بعيون خاشعة دامية الى أُولئك العبقريين الذين لم يؤثرهم الله علينا ولم يميّزهم بشيء ، وانما ميّزوا نفوسهم بما زانوها من بواهر المحاسن وروائع الاخلاق ، مما لا نبرح نحن أعطالاً منه . وأزينُ حليةٍ تجمّلوا بها احتفاظهم بالوقت ومثابرتهم على العمل وتدقيقهم فيهما معاً ، حتى عرفوا كيف يستثمرون الزمن وكيف يتأنّقون فيما يعملون وفيما يقولون . ولولاذلك لما تقدموا خطوةً في باحات الفلاح والعمران لأنهم ليسوا بأثقب منا ذهناً ولا اسدّ رأياً ولا ابعد نظرًا ، وإنما

تفوتنا هممهم الشمّاء التي فتحوا بها الارض والسماء ، وسخّروا الطبيعة واستخدموا عناصرها في مصالحهم ، وسمت بهم نفوسهم الى معالي الامور ، فتسنّموا ذرى المجد وحلّقوا في فلك العزّ ، وفُتحت لهم ابواب الثروة واليُسر ، حتى اصبحوا وكأنهم من غير جبلتنا ، واصبحنا نحن وكأننا عبيدٌ لهم خُلِقنا للاسترقاق والمهانة والاستكانة .

او يحسن بأخلاف الفينيقيين واعقاب العرب ان يعيشوا اذلّاء ويموتوا اخسّاء ، او يليق بمن ارتضعوا مع الحليب الإباء ان يضعوا الأنيار في اعناقهم بأيديهم ، استرسالاً الى الدعة وفراراً من الجهاد ، في عصرٍ لا يُفلح فيه الّا المجاهدون . وأيّة مشقّة تنالنا اذا جرينا على سنَن التدقيق في جميع شؤوننا حتى لا نبذّر اوقاتنا ولا نُفسد اعمالنا ، ولا نبدِّد اموالنا ولا نخطل في كلامنا . ألا فلننشِئْ ابناءنا على عادة التدقيق الحميدة فانها احسن ميراث نبقيه لهم من بعدنا والله وليُّ التوفيق والسداد .

التنشيط واثارة الهمم

اذا أُتيحَ لك الحظُّ أن تجول في عواصم اوربا وتجوب مدائن اميركا الكبرى ، متعهّداً ما هنالك من الاختراعات المُدهشات والاكتشافات الفتّانات ، مما يَرُوع اللبَّ ويُحيّر الذِهن ، لاتتماسك عن ان تُطأطئ الرأس أمام العبقريّة ، ناظراً بعين الإعجاب والإعظام الى الانسان العامل المُبدع في عصرنا هـذا الذهبيّ الذي هو ، ولا مُحالة ، عصرُ العجائب والغرائب ، بل عصر المُعجزات الخالدات في كلّ علمٍ وفنّ .

هناك ترى المخترعين في زوايا غُرفهم ، كأنهم في اقفاص ضيّقـة او في محابس مدلهمّة الجوانب ، يُذيبون ادمغتهم ويُعمِلون فكرهم ويُجهِدون قرائحهم وخواطرهم ، لعلّهم يهتدون الى استنباطٍ مفيد ، يُعلون به شأن موطنهم قبل شأن نفوسهم ، بل يخدمون به البشريّة التي وقفوا على تعزيزها مُهجهم الغالية واذهانهم الثاقبة الوقّادة .

وكثيراً ما يحرمون عيونهم الكرى ويَفطِمون نفوسهم عن الاستئناس بالمجتمع المدنيّ ، مُعتزلين الاهل والخلّان مدى الحياة ، في اماكن خاوية قفرة ، حيث لايسمعون الّا خَطَرات النسيم وزقزقة العصافير وخرير الماء وثُغاء الشاء ، وحيث لا يرَون سوى

ملكة النهار على عرش من نار ، وامير الدجى حول موكب من الانوار ، وحيث يقتعدون البُسُط الخضراء على ضفاف الانهار ، ويتظلّلون ماتهدّل من الافنان تحت بواسق الاشجار ، وحيث لا يُناغون سوى الطبيعة ولايستلهمون سوى ربّ الإلهام ، حتى اذا فتح عليهم وقيّض لهم ان يستحدثوا شيئاً يزيد دائرة العلم اتساعاً ، طفحت قلوبهم عزاءً ونسوا ما ذاقوه في خلال عملهم من مرائر الوحشة ، وما عانوه بعد الاختبارات الطويلة من النَّصَب الناصب والجُهد الجاهد . .

واذا نقّبتَ عمّا يستثير عزائمهم ويدفع هِممهم للجهاد في ميدان الاختراع ، حتى لقد يُضحّون براحتهم بل بعافيتهم وحياتهم ولا يبالون ، اكبرتَ الرؤوس التي تُدبّر أولئك الشعوب ، وأعظمتَ الحكمة التي تعرف كيف تستثمر العقول الولّادة وتنشّط النفوس الكبيرة وتستنبت القلوب الخصيبة . .

هناك أُممٌ حيّة متضافرة متكاتفة قد هامت بالمجد هُياماً تستعذبُ في سبيله الموتَ ، وأولِعت بالعزّ حتى لقد تَفديه بالمُهج وتحميه بالصدور لابشِفار السيوف . وهي تقدّس كلَّ من يرفع لها عند الامم شأناً ، وتعبُد كل مَن يُحيي لها على صفحات التاريخ ذكراً . فاذا رأت احد رجالها النابغين قد أتوا مفخرةً تزينها ومسعاةً ترصّع صدرها ، عقدت على رأسه تاجاً من جواهر الإجلال والإطراء وجزته عليه اسنى جزاء . واذا قُسِم له ان يستنبط شيئاً يعود عليها بالفخر غمرته بآلائها ، وضمِنت له ولذرّيته من بعده غضارة العيش ومباهج الحياة وموارد الغبطة والهناء . .

ومن وراء هذه الامم حكوماتُها الرشيدة ، لاتدع وسيلة من وسائل التنشيط والترغيب إلّا تتذرّع بها . ألا ترى هناك التماثيل الفخمة منتصبةً كالأعلام على قواعد مُحكمة البناء ، في اعظم المنتديات وافسح الشوارع ، تُمثّل أُولئك المخترعين الذين هم من اكبر المُحسنين الى قومهم بل الى البشرية جمعاء ، فتمرُّ الناسُ كلَّ يوم من كل طبقة وجنس امام هذا المشهد المهيب ، فلا يتمالكون عن ان يقدّموا لهذه التماثيل الممثّلة عظمة الفنّ ومعجزات العلم ، أذكى بخور يُقدِّمه البشر لِمَن ضحّى في سبيلهم بأنفس شيء لديه ، ألا وهو الدعة ولذة العيش والصحة والحياة التي لا تُفدى بثمن ولا يُعوّض عنها إلّا بشيء أقدسَ منها ، وهو خدمةُ الانسانية خدمةً تسمو بها الى

اوج المجد أو تُخفف عنها اثقالها وتُلطِّف ادواءها .

أوَ لاترى بواخرها ومعاهدها ومحافلها وشوارعها مُطلَقةً عليها اسماء مَن اشتهروا فيها بالسيف او القلم ، من قُوَّادٍ عِظام وجنودٍ بواسل ، وعلماء جهابذة ومُخترعين مُبدعين ، ومؤَلِّفين متفنِّنين وأَطبَّاء ماهرين ومُهندسين حاذقين . الى ماهنالك ممايدلُّ على أن تلك الأُمم أدركت سرَّ النجاح وعرفت كل طرائقه ومناهجه فتبِعتها حتى انتهت الى الغاية .

ونحن معاشِرَ الشرقيّين اذا طاف في بلادنا أحدُ الاغنياء حتى يسبر غورنا ويقف على كُنهنا ولُبابنا أتراه يُبصر للتنشيط أثرًا يُذكر . فأين التماثيلُ المنصوبة لنوابغنا وعلمائنا الأَعلام الذين اناروا بصائرنا بمؤَلَّفاتهم النيّرة ، وأغنوا مكاتبنا بمصنَّفاتهم الخالدة . وأين الآثار الروائع التي تُذكّرنا بهم وبما كانوا عليه من التهالُك في سبيل منفعتنا والجدّ في إقالتنا عثراتِنا وسدِّ ثُلَمِنا . وأين الجوائز التي تُرصدها حكومتنا في ميزانيَّتها السنوية لمن ينبغ منا في فنّ أو يُبرز في علم، او يفوق اقرانه في مباراة علمية او مسابقة ادبية ، أو يُنشيءُ مؤَلَّفاً رائعاً في المباحث الاجتماعية والمسائل الاقتصادية . وأين المبالغ الماليَّة التي تُمدُّ بها مَن تنهض به همّتُهُ في هذه البلاد الى تأسيس معهد علميّ ، فيستعين بها على تعزيز مشروعه حتى يُقبل عليه أبناء الوطن ويؤثروه على سواه . واين الجوائز التي تمنحها لمن يتفوَّق في مهنتهِ من الزُرَّاع والصُنَّاع والتُجَّار حتى تُرهف غرار نشاطهم وتكون مِهمازًا لقرائحهم المستنبِطة . واين الجوائز المشجعة لمن يخدم وطنه بنصح ووفاء مُترفِعاً عن الرشوة منصرفاً لإقامة ميزان العدل بين المُتقاضين، من أمثال القُضاة النزَهاء والحكَّام الأَعِفَّاء والموظَّفين الأُمناء ، حتى يزدادوا نزاهةً وعفافاً وأمانةً وإباء .

على انه يؤلمنا كثيرًا ان نجاهر بالحقيقة مُعلنين على رؤُوس الأَشهاد أن أمائر التزهيد والتنفير متغلِّبة عندنا على علائم التنشيط ، حتى كلّت العزائم الماضية وسكنت الهمم الجائشة ، وصَدِئت النفوس الحادَّة في أغمادها وكادت القلوبُ تخرج من صدورها وأكبادها . فأصبحنا واليأسُ يُروينا والجزعُ يُغذّينا ، والقضاء ناضٍ على رؤُوسنا عضبه البتَّار ، والدهرُ يتوعَّدنا الساعةَ بعد الساعة بصَرفهِ القهَّار . واكثرنا

ساهٍ عن مصيرنا السيّئ ومُنقلبنا الهائل

كيف لا ونحن اذا رأينا احدَنا قد تفرَّد بمعارفه وحذَق فنّه ، او اتى امرًا يجعله من أهل النباهة في قومه نُضمِر له المَقت والقَلاء ونُبطِن له الحسد والغدر والشحناء . ولا نزال نشدُّ عليه الشدَّة بعد الشدَّة حتى تزدريه العيون وتمتهنه الصدور ، وحتى نسدُّ في وجههِ مذاهب التقدم ، فيتولّاهُ القنوط ويرجع القَهقرى . .

أفبمثل هذه الكرّات الشنعاء نُعزّز نوابغنا وأهل العبقرية فينا ، وكيف ترجو خيرًا وفلاحاً لامة تضع أمام ابنائها المُتفوّقين الأَفذاذ من امثال هذه الحواجز الكثيفة والحوائل المنيعة حتى يفشلوا ولا يتقدموا خطوةً الى الأَمام .

وكأَنه قد كُتب لنا أن نبقى في موَّخرة الأُمم المتمصّرة بل الامم التي لاتزال في مهد الحضارة حتى يُحارب جُهَّالُنا عقلاءَنا وأغرارُنا حكماءنا ، وحتى نقطع كلَّ قدم تسير أمامنا الى الفلاح ، وكلَّ يدٍ تختطُّ لنا خُطط السعادة والهناء ، وحتى نهيض أجنحة كل طيرٍ من اطيارنا يُحلِّق في سماء النباهة وجوّ العلاء .

وبعد هذا العراك الشديد الذي يخوض ساحاتهِ كلُّ مَن ابتُلي بالحسد من ابناء قومنا ، نأمل ان نجري في ميدان المدنية مع فرسانه أشواطاً ، فاذا علّلنا بذلك النفوس نكون من القوم الحمقى .

ولا نظنُّ أُمةً اشدَّ افتقارًا الى التنشيط من أُمتنا العربية اليه ، لانها حتى الآن لم ترتقِ في سلّم العمران سوى درجاتٍ ، وأمّا في معراج المجد والعز فإنها لا تبرح في أقصى الدركات . فاذا لم تُعنَ العنايةَ كلَّها بتنشيط مَن يستحق التنشيط من ابنائها الأَفراد ، وهمُ النابغون في ما يُزاولونهُ من المِهن والفنون والعلوم ، ولم تكُن الحكومة في طليعة المنشّطين بجميع ما لديها من الذرائع ، قُضي علينا القضاءُ المُبرم ، وكان حُكمُنا حُكمَ عليل مُني بداء لم يتداركهُ الأُساةُ إلّا بعد استفحاله ، فلم ينجع فيه العِلاج ولم يُفِد المعالجون العليلَ الّا مرارةً وتحسُّرًا ويأساً . .

وأولى الناسِ بالتشجيع في هذه البلاد الطبقةُ البائسة . فأحرِ بالحكومة أن تختار من ابنائها مَن تتفرَّس فيهم النجابة والشَّهامة ، وتُعلِّمهم العلوم الزراعيَّة والصناعيَّة ، اذ نحن أَحوجُ الى هذه العلوم من سواها . وما من احدٍ يُنكِر ان المخترعين والنابغين

والنابغين في الدنيا أغلبُهم من هذه الطبقة التي هي من افقر الطبقات مالاً ولكنّها من اغناها ذكاء واسرعها اقتباساً وتحصيلاً ، واصبرها على مغالبة المصاعب واقتحام المخاطر وتذليل العقبات . اوَما يُعدُّ من فيالة الرأي وفساد التدبير ان نحرمها ونحرم نفوسنا ثمرات بصائرها الحادَّة ، ونتركها هملاً لا احد يرعاها ولا عين تحرسها ولا قلب يحنو عليها .

وبعد هذه الطبقة تأتي الطبقة العاملة ، فإنها في اشد الاحتياج الى التنشيط حتى تدأب في اعمالها وتتأنق فيها . ولتنشيطها وجوهٌ عديدة أهمُّها ان تُعفي الحكومة من الرسوم جميع الذين يتقنون ما تحوكه ايديهم من النسائج والمصنوعات اليدوية ، وتختصُّهم بجوائز تزيدهم رغبةً في التحسين ، حتى اذا بلغوا الغاية من الإحكام اقبلت الأُمة على شراء ما نسجته ايديهم وآثرته على سواهُ من البضائع الاجنبية ، وفي ذلك ما فيه من الترغيب والتشجيع . وعلى العُمَّال قِس الزُرَّاع ، فما من شيء يدفعهم للعمل في حقولهم مثل ترويج مزروعاتهم وبيعها بأثمانٍ تعادل العناء الذي يقاسونه في حراثة اراضيهم وتنبيتها . .

والصُّحُف الجريئة النزيهة تحتاج ايضاً الى التنشيط وذلك بأن يُقبل القرَّاء ولا سيما الاغنياء على الاشتراك فيها ، حتى يتسنى لأصحابها ان يُنفقوا عليها ويعكفوا على ترقيتها وينصرفوا الى خدمة الأُمة بما هو اجدى لها واصلح لمداواة عللها . فاذا كانت الصحيفة لا تقوم بنفقات صاحبها فكيف يسعهُ ان يتفرَّغ لتحسينها ، ويبحث ليلَ نهار عن المواضيع التي يُفيد بها أُمته ، وأُمتُهُ غافلة الطرف عنه ، لا تجود عليه بما يُغنيه عن التعيُّش او يسدّ ضرورياته .

وخُدَّامُ العلم الذين يُرهقون اجسامهم ويُذيبون ادمغتهم وخواطرهم في وضع كُتب نافعة لأُمتهم ، يقضي العدلُ ان تُقبل الامة على شراء تآليفهم حتى تُبرهن على شعورها بجميلهم وقَدرِها لأَتعابهم ، وإلَّا رشقتهم بنبلةٍ تنفذُ صدورهم وتقتلُ ما يجول فيها من الآمال ، وتُعرّضهم لليأس وتذهب بما اوتوه من صبرٍ وجلد . ولا خير في أُمةٍ تخنق علماءَها وتُرهِق حكماءَها . . .

وإنهُ ليُدمي مقلتنا ان نرى الموسرين يُبذِّرون اموالهم بدون شفقة في وجوهٍ

يعافُ القلم ان يحوم عليها ، اويفرغ شيئاً من مداده في وصفها ، وهم يضنّون بملغ زهيد يُنفقونه على الاشتراك في صحيفـةٍ مفيدةٍ او شراء مؤلَّف نفيس . واذا كانوا هم يبخلون على مثل هذه الآثار الادبية التي ترقّي اذهانهم وتوسّع مداركهم وتُدمِّث طباعهم وتهذِّب نفوسهم فمَّن نرجو البذل عليها تشجيعاً لأربابهـا وتعزيةً لهم على ما يقاسونه في خدمة المعارف والآداب من الأَنصاب والأَتعاب . ونحن لا نبتغي منهم ان يتشبهوا بأمثالهم من ارباب الثروات الواسعة في اميركا واوربا الذين يتبرَّعون بربع تركاتهم او بأكثر من ربعها على المشاريع الخيرية والمعاهد العلمية ، بل نريد ان يبذلوا مايبذله العمَّال في تلك البلاد على مطالعة الصحف والمجلَّات والاسفار والروايات وغيرها ممَّا يحسبونه ضرورياً لأَذهانهم كما ان الغذاء ضروريٌّ لاجسامهم . . .

على ان التنشيط حتى يكون مفيدًا يجب ان يكون في محلّهِ والا كان ضررُهُ بيِّناً وذلك كأَن يُقبل القومُ على شراء جريدة تافهة في مواضيعها سافلة في اغراضها بذيئة في كتاباتها متقلّبة في نزعاتها فان إقباله عليها ممـا يشجِّع صاحبها على متابعة خطَّته العوجاء والمضاء في غواياته وترَّهاته ، أوكأَن يُروّج كتاباً عدمُهُ خيرٌ من وجوده بل إحراقهُ انفعُ من إبقائه ، لما فيه من الافكار المزيَّفة والتصوُّرات الزائغة والمبادىء الساقطة ، فضلًا عن ركاكة عباراته وابتذال معانيـه واضطراب أُسلوبه ، او كأن تكافئ الحكومة مَن لا يجدر به الا العقوبة والملامة من رجالها المعروفين بسوء تصرُّفاتهم ، ثم تُعرض عن اطراء مَن هو حريٌّ بكل إطراء من اعوانهـا الاعفَّاء النزهاء حتى يزداد اولئك لجَّةً واستهتارًا ، ويستحوذ على هؤلاء القنوط والفشل . .

وهنا مجالٌ فسيح للانتقاد من هذا الوجه سواءٌ كان من جهة الأُمة او من جهة الحكومة . غير اننا نحبس عنه اليراع ضِنًّا بسُمعة البلاد .

ولنُحوِّل انظارنا الى الطرق التي يتعيَّن علينا انتهاجُها ، ادراكاً لما توخَّيناهُ في هذه العُجالة من إثارة الهمم وايقاظ العزائم وإحياء روح النشاط في أُمَّتنا المحبوبة . واقربُ وسيلة لبلوغ هذه الغاية المحمودة ان نتعهَّد شؤون اولئك القوم المفلحين ونلابسهم عن كثب ونخالط جميع طبقاتهم ، حتى نتعلَّم كيف ينشِّطون وكيف يرغِّبون ، وكيف يُحيون ميّت الآمال بل كيف يولِّدون الرجال ويخلقون الابطال . . ولما كانت الرحلات

الى تلك الانحاء السحيقة مما يتعذّر علينا الاضطلاع به نظراً لضيق ذات يدنا رأينا أن نلفت الانظار الى تصفُّح تواريخ اولئك القوم ' فان فيها من الشواهد على التشجيع ما يفي بالمرام . ولكن ما لنا ولتراجم اولئك الاماجد ' فان في بطون تواريخنا العربيّة غنًى عن تلك الموارد . فلنُجِل فيها الطَّرف وحسبُنا . كيف لا وهي حافلة بسِيَر اجدادنا العظام الذين تبسَّطوا في المعارف وتبحَّروا في الفنون ' وحلّقوا في سماء القريض وتعمّقوا في الفلسفة والطبّ ' وكان لهم في اللُّغة القِدحُ المعلّى وفي البلاغة النصيبُ الأَوفى حتى خلَّفوا لنا من نفائس الآثار ما يحقُّ لنا به الافتخار على توالي الاعصار . واطّلِع اذا شئت على كتب فلاسفتهم وخطبائهم وحكمائهم فإن فيها من جوامع الكلِم وروائع الحكم ما يُدهش الأَلباب . ولا ريب أن المكانة العالية التي كانت للأَئمّة المحقّقين واللغويّين المدقّقين والشعراء المُفلقين والخطباء المِصقَلين في تلك الاعصار الذهبيّة هي التي كانت تشحذ العزائم وتسمو بالنفوس الى التسابق في ميادين العلم والتنافس في مكارم الاخلاق ومعالي الامور . فلولا السوق العُكاظية ، تلك السوق التي كانت تتناثل اليها العرب من كل حَدب وصوبٍ ' لما رأينا تلك المنظومات الخالدات والمعلّقات المذهّبات ، وما أتحفنا الجاهليّون بمن اتحفونا بهم مَن أُمراء الشعر ، أشباهِ امرىء القيس وزُهير بن ابي سُلمى والنابغة الذُّبياني وعنترة العبسي . ولو لم يُشجع الخلفاء بالجوائز السنيّة امثال ابي الطيب المتنبّئ وابي تمّام الطائي والبُحتري وابي فراس الحمداني والشريف الرضيّ وابي نواس لما انتهى الينا شيءٌ من قلائد منظومهم ، مما زان نحر اللغة العربية ورصّع صدر القريض وبات مرجعاً لكل من له شَغفٌ بمِهنة الشعر الرائقة .

ولولا التنشيط لما رأينا في عالم الإنشاء من زانوا قلادة اللغة بفرائد منثورهم من امثال ابن المقفّع وابن الحميد الكاتب والصابئ وابن الاثير وابن خلدون وغيرهم من كبار المنشئين . ولولاهُ لما كان بين اللُّغويين المحقِّقين من اضراب الجوهري والكسائي والصاغاني والليث وابن سيده وابن دُريد والزمخشري وابي قاسم الحريري وابن منظور ، وسواهم مما يضيق عن استيفاء اسمائهم نطاقُ هذه المقالة .

واكثرُ هؤلاء الأَئمة الأعلام كانوا من الطبقة الخاملة ، نشأُوا في الاكواخ الحقيرة

فاحترفوا المِهن الوضيعة ، وكانوا من اضيق الناس ذرعاً في وجوه المعاش واقلِّهم حيلةً في الكسب ، ولكنَّهم كانوا من اوسع الناس باعاً في العلم وأرسخهم قدماً في اللغة . . .

وما لنا وللأقدمين فإنَّ في عصرنا من نوابغ الكتَّاب والشعراء من مهَّد لهم التنشيطُ العقباتِ الكأداء حتى صعدوا الى قمَّة النباهة والشهرة ، ونزيد بالتنشيط هنا المقام الأدبيّ الذي للعلماء في صدور العقلاء ، وكفى به باعثاً على الدأب في التحصيل والاستبحار في المعارف . وممن تفوَّقوا في اللُّغة والإنشاء وخدموا المعارف الخدم الجليلة ونفعوا أُمَّتهم المنافع الكبيرة ، اليازجيُّون والشدياق والأفغاني والشيخ محمَّد عبده والشنقيطي والسمعاني والدويهي وفرحات والدبس والمطران حنا حبيب منشىء جمعية المرسلين اللبنانيين والبطريرك الياس الحويك والمطران يوسف ابي نجم والمطران يوسف دريان والبارودي والأَسير والأَحدب والحوراني والشيخ سعيد الشرتوني واخوه رشيد ونقولا نقاش ومحمد كرد علي رئيس المجمع العلمي في عاصمة الأمويين واحمد شوقي وخليل المطران وحافظ ابراهيم والرصافي والزهاوي وجبر ضومط واديب اسحق والشيخ اسكندر العازار وسليم باز والمنفلوطي وولي الدين يكن والريحاني وزيدان وعمون والآباء شيخو ومعلوف اليسوعيان وانستاس الكرملي ويوسف علوان اللعازاري وصروف ونعوم المكرزل صاحب جريدة الهدى وداود بركات رئيس تحرير الأهرام وانطون بك شحيبر والامير شكيب ارسلان والشيخ ابراهيم منذر ورشيد بك نخله وشبله الفذّ امين وبشاره عبدالله الخوري صاحب البرق ووديع عقل منشىء الوطن وتامر ملَّاط واخوه شبلي بك والياس فيَّاض ونجيب الحداد وطانيوس عبده وامين ناصر الدين وامين تقي الدين وحليم دمّوس وعيسى اسكندر معلوف ونجله فوزي وهو احد قدماء الطلبة الذين تخرجوا علينا في معهد الاخوة المسيحيين في بيروت وجرجي نقولا باز والرافعي وخليل مردم بك وسليم الجندي والشيخ المغربي والزركليّ وانيس سلوم وداود قربان والمقدسي والخوليّ وفيليب حتّي وطه حسين والعقاد والمازني وسلامه موسى وظاهر خير الله والغلاييني والخياط وجورج عطيه والفيكونت دي طرازي والكفوري وغيرهم من ارباب القلم وامراء الشعر

والبيان ممن لهم بين العرب والمستعربين المكانة العالية .

ولا جرم ان الذكر الأدبي والقدر العلمي همـا اللذان حبَّبا الى هؤلاء النابغين الاستزادة من العلم والتفنُّن فيه والتضلُّع من اللغة والاحاطة بشواردها وأوابدها ومعاناة الحرفة الشعرية والمهنة الصحافية الشاقَّة . ولو عضدتهم الحكومة وروَّجت مصنَّفاتهم وصحفهم بل لو اقبل الموسرون في البلاد على ما ينشرونه لكانوا اعكف على العلم واجدّ في التأليف والتصنيف وادأب في خدمة الصحافة وامضى في نفع الأمة

ويسوؤنا في هـذا المقام ، بل يجرح فؤادنا جرحاً لا يُضمَّد ان تشحّ حكومتنا وبلادنا معاً على خُدام العلم بما يصون ماءَ وجوههم ، ويكفيهم ذُلَّ العُسر ، ويحفظ لهم وقارهم وكرامتهم ، حتى لقد يُضطرّ بعضهم إما ان يصبر على شظف العيش صبر الأُباة او ان يُعرِّض شرف ادبه للابتذال والامتهان بتسخير يراعه وضميره كليهما تزلُّفاً الى من يسدُّون لباناته من اهل الميسرة والسعة . ولقد فشا داء البخل في الأمة على حَملة الاقلام حتى قيل : ان العلم والمـال لا يجتمعان . ومن منا لم يعرف ولو بالسمعة طانيوس عبده ، ذلك المنشىء البليـغ والروائيّ المبدع الفكه الروح الذي قضى حياته ينثر في الاقطار العربية الدرر الغوالي نظماً ونثراً ، ومن منا لم يشعر او لم يسمع بما تجرَّعه في حياته من المرائر حتى قضى جهاده الأدبي بين الغُصص والأَزمات . وأيُ اديب عربيٍ لم يستنر بمعارف امير الانشاء ودليل الكُتَّاب ومصباح اللغة الوقّاد الشيخ ابراهيم اليازجي ، ذلك العلاَّمة الجهبـذ الكبير الذي خلَّف ، من آثار مرقمهِ للمنشئين والمترسِّلين ، ما هو حريٌّ بان يكون منارةً لكل من له كلفٌ بهذه اللغة الشريفة ، وجديرٌ بان يُعرض في مجامعها الأدبية كما تعرض النفائس في المتاحف . ومع ذلك فقد عاش هذا الإمام الخطير كما عاش سواهُ من الأئمـة الجهابذة ، لا يملك من حُطام الدنيا مايقوم بنفقات معاشهِ ، حتى لقد ضاق ذرعُهُ في آخر عمره ، يومَ دهمتهُ تلك العلَّة المشؤومة التي ذهبت بحياته ، عن ان يتحمَّل نفقات معالجتها ، فقام بهـا فريقٌ من عُشَّاق ادبه كما قاموا بنفقات مأتمهِ بعد ظعنهِ الى دار البقاء .

اوَ ليس من العار على الناطقين بالضاد أن تكون حياة اليازجي على ما عرفَت ، وان تكون خاتمتُها من اوجع ما يُختتم به الأَعمار . فما اشقى العلماء وما أهونَ الأدباء

في هذه البلاد . فأين الأُباةُ ارباب الحمية فيبسطوا ايديهم الى كل عالمٍ يُفيدهم بمعارفه ، وكلّ اديبٍ ينفعهم بأدبه ، حتى يكون لعلمائنا في بلادنا ما للعلماء الأَعاجم في بلادهم من عزة المقام وسعة الحال وخفض العيش وحُسن المآل .

ولعلّ العقلاء يقولون لنا : كيف تدَّعي بأن بلادك ليس فيها من أثر للتنشيط ، وانت كيفما اطلقت بصرك لايقع الا على المنشِّطات المشجعات المُرهفات للهمم المنبِّهات للعزائم . افلا ترى دُور التمثيل الخلاعيّ غاصَّةً بكرام القوم وعقائله وأوانسه وفتيانه وكهوله حتى شيوخهِ ، اوَ ما يُعدُّ ذلك ضرباً من التنشيط حتى يتمادى خالعوا العذار في ميدان التهتُّك ويقوُّوا الرذيلة على الفضيلة وينصروا الفجور على العفاف والقحة على الحياء والفساد على الصلاح . او ما ترى المقامر تكتظُّ بعُشَّاق الميسر وعينُ الحكومة متغافلة عنهم تغافلاً يُشجعهم على تبذير اموالهم وإشقاء نفوسهم ونفوس أُسَرهم . اوَ ما ترى الحكومة اعزَّها الله قد جعلت لقنص الحمام اماكن يختلف اليها الناس مرَّةً في الاسبوع او اكثر حتى يشهدوا ما يقع هناك بين القنَّاصين من المباريات والمراهنات التي يشترك فيها اغلبُ الحضور حتى لا تختلف في شيء عن سائر المُقامرات والمضاربات والمخاطرات ، فضلاً عن انها تعوِّد الشبَّان ان يتقامروا ويتراهنوا ، وهُنا الضرر البيّن والخطر الجسيم . أَهذا الذي ننتظره من حكومتنا ونأمله من أُمتنا ، او هذا الذي يحسبونه نوعاً من التنشيط .

على انه ما من شيء اندى على كبدنا من ان يكون للتنشيط ابهى مظهر واجمل مخبر في هذا القُطر الذي هو من احوج الاقطار الى إرهاف الهمم واستثارة العزائم حتى نلحق بالأُمم السابحة في جوّ المدنية . واملنا بحكومتنا ان تتقدمنا في هذا المضمار حتى اذا تلقَّينا عنها هذا الدرس الضروري لنا كل الضرورة تعلَّمنا منها كيف يُنشِّط بعضُنا بعضاً وكيف نجاري الشعوب السبَّاقة في هذا الميدان . ومتى انتشر هذا المهماز الادبيّ في بلادنا هذه وعمَّ جميع الطبقات فاستبشِر بالفلاح العاجل ، وثِق ان ابواب الحذق والابداع والإعجاز والاختراع تُفتح لرجال الغد على مصارعها فينهضون بالوطن الى المقام الذي يجب ان يتبوَّأه في هذا العصر بين الشعوب المفلِحة النشيطة ، وحينئذٍ نرى النُّبهاء الالبَّاء يتسابقون في حلبات العلوم والفنون على اختلاف انواعها ،

فيجرون كل يوم اشواطاً الى ان يبلغوا الامد المرصود . ويتفرغ اطبّاء الاخلاق لمحاربة ما تفشّى في طباعنا وعاداتنا من الادواء الوبيلة حتى اذا استباحوها من نفوسنا واستأصلوها من صدورنا غرسوا في مقرّها ما حمد من العادات وكرم من الاخلاق ، فتنتشر في هذه الربوع المناقب العالية والشمائل السامية والنزعات الشريفة والمبادئ الصحيحة ، فتعلو منزلتنا في النفوس وترمقنا العيون بنظرات التكريم ، ويثق بنا الاغيار ثقةً مقرونةً بالتجلّة والإعجاب ، وتغزر عندنا موارد الثروة بعد تعزيز زراعتنا وإتقان صناعتنا وإنهاض تجارتنا ، وتكثر المشاريع العمرانية والاقتصادية ، ويزداد عدد المؤلّفين والمؤرّخين والفلاسفة والمخترعين ، ويحجّ بلادنا السوّاح من جميع اصقاع المعمورة حتى يطّلعوا على نهضتنا المشرقية والاستفادة بما تُنبِتُه اذهاننا وتُبدعه قرائحنا وتحوكه ايادينا وتُنتجهُ خواطرنا ، وحتى يُفكِّهوا انظارهم بمحاسننا الادبية كما يفكّهونها بمحاسننا الطبيعية ، وحتى يعجبوا بأرضنا كما يعجبون بسمائنا . وكلّ ذلك سهل باذن الله متى عرف الرئيس كيف ينشّط مرؤوسيه ، والحاكم كيف يشجع رعيته ، والأب كيف يُحيي في بنيه روح المنافسة والمفاضلة ، والأُمة كيف تجازي بنيها الأمناء العاملين ، والاغنياء كيف يبذلون شيئاً من ريعهم الفياض في تعزيز المعارف وترويج الآداب وتنشيط النابغين ولا سيما اذا كانوا من الطبقة المُعوزة ، وذلك إمّا بأن يُنفقوا على تعليمهم في المدارس الكُبرى ، او بأن يُقدِموا لهم جوائز مُشجعات تزيدهم رغبةً في العلم ، او بأن يقدِّموا لهم مالاً لشراء ما يفتقرون اليه من الملابس والكتب وسائر الحاجات المدرسية . والكريمُ البذُول تُرشِدهُ مروءتُهُ الى اساليب شتّى ينفع بها اخاه في الانسانية . فلمتشبّه بالاريحيين المفطورين على البر الخُبراء بطرق الاحسان ، وهم اكثر من ان يُحصَوا في تلك الاقطار المتحضِرة الراقية ، حتى ينهض وطننا النهضة التي يهواها له كل غيور على فلاحه وهنائه وَلوع بعزّه وسنائه .

ولنكن على يقين من ان التنشيط هو من اعون الذرائع وابعث الاسباب على تقدّمنا ونجاحنا ، ولا غنى لنا عنه في كل المهن التي نحن لها متفرغون . فلنتنافس اذاً في تنشيط بعضنا بعضاً ولتكن حكومتنا اهدى دليل لنا في طرقهِ المتشعّبة واقوى مهماز يدفعنا للمضيّ في ميدان العمل ، وذلك بما تقترحه من المباريات في كل فنّ

وموضوع ، وبما تجود به من الجوائز على من يتفوَّق في علم او يتفرَّد في صناعة ، وبما تقيمهُ من الاسواق العمومية حيث يعرض ابنـاء البلاد آثار ذكائهم وثمرات عقولهم ونتاج قرائحهم . ومتى رأينا من القابضين على ازمة شؤوننا غيرة وطنية ومن اهل اليسر والسّعة حميةً ادبية ونخوةً علميـة وابصرناهم يتسابقون في مضمار التبرُّع بالمكافآت السنية تنشيطاً للمتفنّنين والمصنّفين والمكتشفين والمبدعين فقُل ان الشرق قد استعاد مجده التليد واستوى على عرش عزّه الوطيد وصـار له بين الأمم الرفيعة المقام العالي والذكر الحميد .

وان فؤادنا ليترنَّح طرباً بما آنسناه ولانزال نؤنسهُ من علائم التنشيط في وادي النيل مما يصلح ان يكون لهذه البلاد انفع درس تتلقّاهُ عن الكنانة ، تلك الشقيقة الناهضة العاملة والجارة المُجلّية السبَّاقة في مجالٍ يورث بنيها الفخر ويُعيد للأمة العربية ما كان لها من رائع المجد ونبيه الذكر . كيف لا ولقد اخذت من نحو ربع قرنٍ تعقد الحفلات التنشيطية الحفلة اثر الحفلة لمن تفرَّدوا من ابنائها بل من جميـع ابناء اللغة العربية بمعارفهم الواسعة ومداركهم النادرة وبمـا ادَّوه للناطقين بالضاد من جلائل الخدم سواء كان بمصنَّفاتهم الخالدة ام بابحاثهم اللغوية الشائقة ام بنفثات اقلامهم الساحرة ام بمعرَّباتهم النفيسة الرائقة مما زان نحر القريض ورصَّع صدر اللغة وزاد محيَّاها الوسيم رونقاً ورُواء . وأُولى تلك الحفلات على ما نذكر هي التي اقاموها تكريماً للمغفور له سليمان البستاني بعد فراغه من تعريب الالياذة ، وقد اشترك فيهـا علماء مصر وادباؤها واعيانها وعظماؤها ، ثم الحفلة التي عقدوها لحامل لواء الشعر شوقي بك النابغة الكبير ، ثم لشاعر مصر المبدع حافظ بك ابراهيم ثم لخليـل بك المطران شاعر القطرين بل بلبل القريض الصدَّاح على توالي الأعصار . واذ نعقد نحن مقالتنا هذه يعقد كرام مصر ومن أمَّ مصر من مندوبي الاقطار العربية جمعاء حفلةً من اندر الحفلات وابهاها تكريماً للنسر العربي المحلّق في سماء الشعر شوقي بك مُحيي دولة القريض ومُجدّد رونقهُ في عصرنا الذهبي . وسيكون لهـذه الحفلة في جميع الاصقاع صدى جميل ، ولا سيما في صدور المعجَبين بعبقريَّة شاعرنا الكبير المنقطع النظير .

على انه لا يسعنا في هذا المقام إلّا أن ننوّه بجميَّة اخواننا المهاجرين الذين برهنوا

في كل المواقف عن نخوة ادبية جديرة بكل إطراء وإعجاب وحريَّة بأن تُسطَّر لهم على صفحات تاريخنا بمداد الفخر حتى يتحدّث بها الأَعقاب ويتناقلها الأَخلاف عصراً بعد عصر . وهذا تمثال العلّامة الشيخ ابرهيم اليازجي في عاصمة لبنان أسطع دليل على ما في صدور أُولئك القوم الكرام من الغيرة على تعزيز لغة قُريش وتنشيط كل من يتفوّق بعلمه وأدبه من بني قحطان .

ويسرُّنا ان نرى للتنشيط في هذه الديار بعض مخايل اخذت تبدو فيها من عهد ليس ببعيد، منها الحفلة التكريمية التي جرت من سنوات في هذا الثغر لحضرة العلّامة الأب لويس شيخو اجلالاً لمعارفه الواسعة وقدراً لخدمه الخطيرة . والحفلة التي وقعت بعد ذلك اكراماً للمرحوم العالم الهمام الشيخ احمد عبّاس الازهري رئيس الكلية الاسلامية

واليومَ يُعِدُّ أُدباء بيروت وحملة الاقلام فيها المعدّات الجليلة احتفاء بحفلتين ستكونان ولا ريب من اجمل الحفلات وادعاها الى التنشيط : الاولى للشيخ عبدالله البستاني صاحب معجم البستان ، والثانية للعلّامة جبر ضومط شيخ اساتذة الكلية الاميركية . فعسى ان يكون من وراء ذلك نهضة مباركة ترفع شأننا بين الامم المجيدة

هذا وكنا نودّ ان نختتم هذه المقالة بغير ما افتتحناها به من الانتقاد المؤلم الذي لم يُملِهِ علينا سوى حرصنا على سمعة قومنا وهُيامنا الشديد بان نرى بلادنا انقى وجهاً من مرآة سمائها . أَوَ يزكو بنا أن نكتفي بما بدا لنا في هذه الايام من أَمائر التشجيع ولا سيما انه مقصورٌ في الغالب على الحكومة ولا يد للأُمة فيه فضلًا عن ان طريقته لا تُؤدِّي الى الغاية المرصودة ولا تُجدي الوطن الجدوى المنشودة . ونحن نقتصر هنا على ذكر ما تأتيه الحكومة يوم يُسفك دم احد جنودنا البواسل في ساحة الشرف ، فان تنشيطها يومئذٍ لا يتعدّى المجاملات والتعازي والتآبين التي تكاد لا تضمد جرحاً من جراح اسرته البائسة ولا تشجع غيره على اقتفاء آثاره . وليت شعري كيف تدبُّ الحماسة في صدور فتياننا وكيف ينفرون مع الحكومة للدفاع عن ذمار بلادهم كلما استنفرتهم ، وهم يرون المجاهدين والمستبسلين من جنودنا تذهب دماؤُهم هدراً ولا ينالون عنها عوضاً سوى اكليل يوضع على نعوشهم اووسام يُهدى الى اهلهم اوخطاب يُنوَّه فيه ببأسهم ومُغامَرتهم واستشهادهم ، ثم يُوارون في الرموس وتبقى عيالهم بعد

رحيلهم على اسوإ حال ' لاعائلَ لها ولا كاسب ولا مَن يهتمُّ بتعليم صغارها وترويج فتياتها . وما ضرَّ الحكومة لو عمدت الى غير هذه الطريقة , وذلك بأن تكفي اهل الجندي الشهيد معاشهم وتوفر لهم الاسباب التي تعزّيهم عن فقده بعض التعزية . وماعليها اذا علّمت في المدارس ابناء ذلك البطل وأنفقت عليهم مبلغاً يكون زهيداً مهما بهظ بالقياس الى دم ابيهم الذي هُرق في سبيل أُمته . فيشبُّون على محبة وطنهم ويفدونه بمُهجهم الغالية كما فداه ابوهم من قبلهم .

ولعلّ الأُمة والحكومة تشتركان في تشجيع مَن هم في حاجة الى التشجيع من ابناء البلاد بالطرق المفيدة والوجوه المرغّبة . ولا يعدم السداد مَن اخلص قصداً ونصح عملاً ، ولا يُحرم اجراً مَن احيا قومه بمآثره واسعد وطنه بمحامده ومفاخره .

التيقظ والتحفظ

اذا كان المرء يقظ الفؤاد حذِر الخاطر متنبهاً للطوارىء كان بأمن من الدهر ان يُساورهُ على حين غرّة ويصرعهُ شر صرعة . ولكن اذا كان ساهي العقل شريد الفكر فانه كلما واثبتهُ الغوائل وقف امامها دهشاً حيران كما يقف الاعزل الرعديد ازاء الكميّ الصنديد

وخيرُ عدّة يعدّها العاقل لمكافحة عداته الشِداد الواقفين له بالمرصاد ان يتنبَّه لما ينصبون حوله من الحبائل ويدسّون له من الدسائس حتى اذا عثر على مكامنهم واوهاقهم لم يقع في مكايدهم وأمن شر اغتيالهم . وما اجهلَ الذين يستأمنون الناس على غير تروٍّ واختبار وبلاء فيثقون بهم ثقة عمياء ، حتى لقد يستسلمون اليهم بدون ادنى حذر وتحفُّظ ، فيأتيهم الاذى من حيث يرجون النفع ، وتتوالى عليهم قنابل الخيانة من قلوب كانوا يحسبونها لصدورهم في الجُلّى دروعاً وفي الهيجاء معاقل ، فاذا بها ترشقهم عن قسيّ الغدر وتُصيب منهم المقاتل . والسهامُ اذا انطلقت من كنائن الاخلاء كانت انفذ في الصدر واوقع في الجنان واثبت في الكبد من التي تُرسل من جعبة الاعداء ، لان العدو لا تتوقَّع منه الا ان يوقع بك كلما مكّنتهُ منك الفرصة

فتحذرهُ اشد الحذر ، واما الصديق الموارب الخوّان فلثقتك به تسترسل اليه استرسال الولد الى ابيه وتستنيم اليه استنامة الخائف الى صاحبه . فاذا غدر بك وانت موتمن له مطمئنّ الى صحبتهِ سحق قلبك وهاض عظمك واضاع رشدك . ثم هو ادرى بمواقع العجز والضعف فيك واعرف بمساوئك وسيئاتك ، فاذا اضمر لك السوء وحاول البطش بك كان اشدّ إيذاء لك من عدوك الذي لا يكاد يعرف شيئاً من اسرارك فيبوحَ به ، ولا سوأةً من سوآتك فيكشفها للشامتين بك ، ولا قرحاً من قروحك فينكأهُ ، ولا جرحاً من جراحك فيجمعَ عليه الذباب حتى يزيدك ألماً على ألم . على انه اذا حقّت الملامة فانت بها احقّ من ذلك الصاحب اللئيم المذّاق الذي يَظهر لك بمظهر الصديق الصَّدق الامين ، فيُريك من نفسه انه لين الملمس نقي الدخيلة وتحت نابه سمٌّ ناقع . فلو كنت قد بلوتـه وعجمت عودهُ يومَ خطب ودّك وتحرّزت من ان توقفهُ على طويتك وتُفضي اليه بأسرارك واحتطت احتياط العقلاء في عشرتك له ، ولم تسلِم اليـه مفتاح قلبك ، لكان اعجز من ان يُنزل بك ضيراً او يوقع بك مكروهاً . . .

ومن اقبح الفجائع ان بعض الخونة الاوغاد في هذه البلاد ، وهم المخاتلون والمدالسون ، لا يعرفون في احاديثهم سوى لغة المجاملة والمصانعة ولا يطيب لهم الا المواربة والمداهنة . فاذا رأوا رجلاً حرّ الضمير سليم النية صادق اللهجة اطربوا اذنيهِ باقاويلهم المزخرفة وعباراتهم المزوّقة وابدوا له من شواعر الولاء ما هو اعذب من الخمر المعتّق واصفى من الماء المروّق ، الى ان ينبسط اليهم ويستأنس بمعاشرتهم ومناسمتهم وينقطع الى مجالستهم ومصاحبتهم ، فتتغذّى مخيلته بالاوهام ويقع كل يوم في معضلة يتعذّر عليه التملص منها

وما اشقى أمة يكثر فيها من امثال هؤلاء الخلطاء الافّاكين والعشراء الملّاقين الذين يُصوّرون الشوائب محاسن والمساوىء محـامد ويُمثّلون الباطل حقّاً والخطأ صواباً ، فيرفعون قدر من لا قدر له الا عند نفسه ويُعظِمون من يستوجب الامتهان والتذليل ، وينوّهون بمن لا فضلَ له ولا مزية على غيرهِ سوى مال جمعهُ بطرق تُدنّس العرض وتثلم الشرف وتورث سوء الاحدوثة . وكثيراً ما يصـاب الذين

يخالطون هذه الفئة الغرَّارة بالعُجب والخيلاء والصلف والادعاء ، فيهيمون في مجاهل الغرور ومفاوز الغواية حتى يوغروا عليهم الصدور ويثيروا سخط الجمهور

واذا كان العامـة ، واغلبهم من الاغرار الذين لم تصقل اذهانهم التجارب ولم تدرِّبهم محنُ الايام ، لا غنى لهم عن ان يتحرزوا من السكون والانبساط الى هذه الطبقة الخدّاعة حتى يَسلموا من سمومها القتالة وجراثيمها البطّاشة ، فأحرِ بارباب السؤدد ان يلزموا جانب الحذر ممن يلتفّ حولهم من المتصلِّفين الروّاغين والمدّاحين الكذابين الذين يتزلفون اليهم تزلُّف الرقيق الى مولاهُ قصـدَ ان يستدرجوهم ويستهووهم ، فيبيعون نفوسهم وضمائرهم وشرفهم وشممهم في سوق المداهنات والمدالسات وهي اذلّ من سوق النخاسة .

وليت شعري هل من شيء ادلّ على الضعة وصغر النفس وادعى الى الامتهان والازدراء من ان يرضى المرء لنفسهِ بان يقال عنه انه ملّاق افَّاك ختَّال . وهل العبد والغلُّ في عنقهِ والوثاقُ في يديه والقيدُ في قدميهِ ، بأذل من حرّ يعفّر الجبين على عتبة سيدهِ لعلّه ينال نظرة رضى من عينيه ويرى ابتسامة ارتياح في شفتيهِ . كيف لا وانه ليبذل في هذا السبيل عزّة نفسهِ ويهرق ماء وجههِ ويُسوّدِ صحيفة ضميرهِ بآثار المَين والمكر ويحشر نفسهُ في زمرة الثعالب المراوغين ويستخرج من لسانهِ لعاباً اشبه بلعاب الافعى يسمّم به دم عدوٍ يشنأهُ وخصم يكرهه

ألا فليصفق ولاة الامور صفقةً مؤلمة كل من يحاول ان يحول بينهم وبين رعاياهم من النامين الثلّابين والطعّانين السفلة الانذال الذين يأبون الا ان يمزقوا بمقاريض السنتهم الحادة أعراض من يُبطنون لهم البغضاء ويشوّهوا وجوه من يُضمرون لهم الشحناء ، حتى اذا ما اسقطوهم من عيون الحكّام سدوا دونهم كلَّ منفذ وأوصدوا كل باب . وما اكثر القذّافين الدسّاسين والمفترين المرجفين في الامم التي تروج في اسواقها سلعُ النمائم والمطاعن والاراجيف والاختلاقات ، بل ما اكثر السُّعاة الوشاة في البلاد التي لا يكون اولياء الشأن فيها على اعظم جانب من الاحتراس والتؤدة والتبصر والتيقظ . وانما يعمدون الى السعايات بمن لهم مكانة عند الرؤساء حتى يزعزعوا حظواتهم ويحلُّوا هم في محلهم ، وحينئذٍ يخلو لهم الجو فيهضمون الحقوق ويخفرون الذمم ويدوسون

المحارم ويرتكبون المظالم ، ولا يهدأ لهم بال ما لم يُدركوا منازعهم السيئة وينفذوا مقاصدهم الملتوية ونياتهم السافلة ويظفروا بما تطمح اليه نفوسهم النهمة من المراتب السنية والمطالب القصيَّة ، وسواء عندهم رضيت الأمـة ام سخطت ، سعدت ام شقيت ، احبَّت ولي شأنها ام كرهتهُ . واذا شكا اليهم احد سوء الحال واختلال الادارة تبرأوا من كل تبعة ونفضوا ايديهم وتنصَّلوا الى قادة الرأي العام من كل خرق وقع ولم يُرتق ، وكل ثلمة فُغرت ولم تُسدّ ، وعزوا ما حصل من العراقيل في الامور السياسية والادارية الى القابض على زمام الأمة ، وهنا الدهاء الاكبر بل الخيانة العظمى

ومن ثم انما ترثون لحال من يُحظي عندهُ من اضراب هوءلاء المكرة الدهاة الذين بما لهم لديهِ من الزلفى وسمو المنزلة يجنون من الاطايب ما شاؤوا ، ثم يُلصقون به ما يقع فيه من الارتباكات والبلبلات ومايطرأ على ادارته من الخرق والفساد ، على حين انه لولا خيانتهم له لكان ابعد من ان يتورّط في ما تورط فيهِ حتى جعل بينه وبين رعيتهِ تلك الشقَّة المتنائية الارجاء والمسافة المتراخية الاطراف

هذا ولما كان قد كثر في هـذا العصر ، عصر الخداع والغدر ، عدد المفسدين العائثين والمشَّائين العيَّابين كان على من فيه مسكة من العقل ان يحترس اي احتراس من ان يصحب اولئك الغواة المضلين ، تفادياً من ان يُفرغوا في اذنيهِ ما يُفسد نظره ويُخرجهُ عن دائرة الحكمة والسداد ويحجب عن بصيرته مناهج الصواب والرشاد

وحقيقٌ بالصحف ان تندِّد بمن رُكِّبوا على هـذه الطبائع السافلة الذع تنديد وأَخلِق بالعقلاء ان ينبذوهم كما تُنبذ الدراهم الزائفة ، مُعلنين على روُّوس الاشهاد ما هم عليه من الخساسة والنذالة حتى يعتزلهم الخاصة والعامة ولا سيما من عُرف منهم بسلامة الطوية ومحض السريرة

ولا نزال في حاجة الى حث اصحاب المهن الخطيرة على ان يكونوا في طليعة المتنبهين المتحرّزين ، ولا سيما مديري المصارف والبيوت التجارية الكبيرة والذين يتولَّون الادارات الماليـة والقائمين بشؤون العباد ، فاذا كانوا من ذوي الغفلات تجرأ المستخدمون تحت رعايتهم وإشرافهم على ان يخلُّوا بواجباتهم ويعبثوا بما عُهد اليهم فيه

من الامور ، فتتبلبل الادارات وتتعرقل الاشغال وينتشر الخطأ في الحسابات وتختل المعاملات ، والتبعة كل التبعة انما تقع في الغالب على الرأس لا على الاعضاء

وهل من خطب ابلغ ضرراً بالأمة من ان تغفل عيون الآباء عن بنيهم ولا سيما اذ يبلغون طور الفتوة ، وهو من اعظم الاطوار اخطاراً واشدها اهوالاً . فاذا اطلقوا لهم العنان في ميدان الاهواء كبا بهم جواد الحرية الحرون ، وما اكثر الكبوات في هذا الميدان

ينفق الوالد ابهظ النفقات على تعليم بنيهِ قصد ان يمهد لهم عقبات الفلاح ويفسح مجال اليسر ونطاق السعة . ولسرعانَ ما يدهش لبهُ اذ يراهم بعد انتقالهم من عهد الحداثة الى عهد الشبيبة قد تنكَّروا اي تنكر فشرست طباعهم وساءَت معاشرتهم وصعبت مقادتهم . ولو بحث ببصيرتهِ النقادة عن السبب في هـذا الانقلاب الغريب رأَى ما يهوله : جرثومةً صغيرة في حجمها ولكنها شديدة في بطشها قد ولجت الباب اولادهِ من نوافذ مسامعهم وابواب ابصارهم ولم تلبث ان عشَّشت وباضت وفرخت حتى نزعت منها روح الفضيلة واذوت زنبقة العفاف وايبست بنفسجة الاتضاع والوداعة واذبلت وردة التصوُّن والحيـاء ، واصبح الاولاد الهائمون في كل وادٍ والقحةُ في عيونهم والصفاقة في وجوههم ، لا يبالون بالمنكرات ولا تنقبض نفوسهم من المعاير المنديات ، وربما كان ذلك ليلةَ كانوا يتصفحون رواية غرامية او كتاباً موبوءًا وعينُ ابيهم في غفلة عنهم ، او يومَ كانوا منفردين بعشراء السوء يتلقَّون عنهم مبادئهم الزائفة ويتجاذبون واياهم الاحاديث الموَّججة لنيران الشهوات . ولا جرم ان هذه الغفلة هي التي جنَت عليه وعلى افلاذ كبده تلك الجناية الفظيعة وآلت الى هذا المآل الرائع فذاق من المرائر ما نغَّص عليه العيش والقاهُ في هوة الشقاء

أَلا فليتنبه الآباء لعواقب الغفلات الوبيلة وليسهروا اشد السهر عـلى فتيانهم الاغبياء المعرَّضين كل ساعة للمفاسد ، وليحترزوا من ان يفسحوا لهم في مطالعة ما يُودي بالاداب من النشرات السامة والموَّلفات الضارة ، ولينهوهم عن الاختلاف الى الاندية القذرة حيث تُعرض الصور المتحركة التي كثيراً ما تكون مفسدة للاخلاق وبؤرة وبيئة للنفوس الطاهرة واحبولة لاصطياد الحمائم النقية ومهمازاً للاندفاع في ساحات

يُخلع فيها العذار وتُهتك الاستار ، والا فلا يلومُنَّ الا نفوسهم يومَ تختنق بنيهم امواجُ الاهواء وتتدافعهم لجج الارزاء . . .

وسقياً ورعياً للآباء الذين يقطعون على اولادهم من احداث وفتيان مجاري الغيّ والفساد ويحمونهم عن المناقع الوبيلة والردَغات الخبيثة ، ويجعلون من حواليهم سوراً منيعاً يحول بينهم وبين الخلطاء السيئي السيرة والسريرة ، ويُنزلونهم من الامكنة الدغلة والمقاذر الوبئة في حرزٍ حريز ، ويحبسون عنهم كل ما يلتهم عفتهم ويفترس حشمتهم ويُجرّئهم على اقتحام الفواحش وركوب القبائح ، ويحدوهم الى الاستهتار ويوقعهم في مهاوي الذل والشنار

ولا دَرَّ درُّ الامهات النزقات اللواتي يبلغ بهنَّ الرفق الى ان يستصحبن فتياتهنّ الى المراقص الخلاعيَّة والملاهي الفتّاكة بالاخلاق السليمة والمشاهد الجارفة للآداب الصحيحة ، حيث تنضب مياه الوجوه وتُعرض سلع الدعارة ويُصمى صدر الطهارة ، وحيث يستحيل الملك السويُّ خنّاساً رجيماً وقلب العذراء المخفار جحيماً بعد ان كان جنة ونعيماً ، وحيث يصير الزوج الوفيّ خوّاناً غدّاراً والخلُّ الحميم عدواً قهّاراً ، وحيث تنسج الاكفان لربّات العفاف وتُفصم عرى الوئام بين الازواج ويَعرو الحب الشريف كدورة وجفاف . . .

وهل من أمٍّ الأم طبعاً واقسى قلباً من تلك التي تنصب بناتها هدفاً لمثل هذه النوازل الساحقات ، أم هل من أب اسخف عقلاً وأطيش لبّاً واكلُّ بصراً من ذاك الذي لا يرعى بنيه بعين يقظى بل يُلقي حبلهم على غاربهم كالهمَل التي لا راعي لها ، فينجعون الكلأ الذي يستطيبونه ويرتادون المراعي الوخيمة والمناجع المستقذرة الى ان يُعمنوا في الاضاليل ويُوغلوا في فلوات الحريـة الكثيرة المزالق ، حيث يجتازون العقبات الكأداء ولا تقع اقدامهم الا على الاشواك المدميات والصخور الصمّاء

وحبذا ان تجري الأمة على سنن التحرز والاحتراس متنبهةً كل التنبه لغدرات الزمان ووثبات الحدثان . فرب غفلة تُوبق الغافل وإغضاءة تُمطر النوازل وهجعةٍ تميت الهاجع ، ورب لحمةٍ تُورد الحتف ونزوةٍ تُذيق الخسف ونزقةٍ تجلب العسف . ورب عبثٍ بالصغائر يستدرجك الى الكبائر ، وذلك كأن تصحب سكّيراً الى بنت الحان

ولم تذق شفتاك قبل هذا العهد نقطة من المسكرات ، فيدعوك لمشاربتهِ ومنادمتهِ فتعتذر اليهِ ، فيهوّن عليك الخطب ، ولا يزال بك حتى تُلبّيهُ فتشرب معهُ لاول جلسة نصف كأس ممزوجة بالماء ، ثم تشرب في الغد كأساً بدون ماء وبعد الغد كأسين الى ان تعود من المعاقرين المدمنين المفرطين وتصبح من مشاهير السكّيرين

فلو تحرّزتَ من مصاحبة ذلك السكّير لاول مرة دعاك لمرافقته لكفيتَ نفسَك مؤونة السكر ووقيت سمعتك عار هذه الخلّة الشوهاء والعادة الهوجاء . او كأن تخرج الفتاة من خدرها الى حيث يُثير عليها الرِيَب ويُوقظ المظانّ والشبهات . ثم تُغضي عنها أمُّها إغضاءة تُطمعها فيها وتزيدها لجاجة في مغاويها ، حتى اذا مضغتها الافواه وسوّدت صحيفتها البيضاء بارت كما تبور السلعة لعيبٍ طرأ عليها . أو كأن يسمع الأب من ولده الشاب في ليلة ساهرة احياها هو في منزله حديثاً مجونياً تجاوز به حد اللياقة واللباقة فلم يؤاخذه عليه حتى بعد انصراف السمّار . فلما كانت الليلة الثانية تفنّن في مفاكهاته ومباسطاته تفنُّن الظرفاء الاكياس ، ولكنه زاد في الرقة حتى انقطع ، فلم يبدُ مع ذلك على محيّاً ابيه شيءٌ من الاستهجان ولا اثر من الامتعاض ، حتى توهّم الشاب ان اباه مرتاح الى نكتته معجبٌ بُملحهِ نشوان بنوادره ولطائفه . فلما كانت الليلة الثالثة اسرف في مداعباته ومغازلاته إسرافاً أحرج صدر ابيه وأنفد صبره حتى لم يتماسك عن تقريعه وتعنيفه ، ولكن ذلك كان بعد فوات الوقت فلم يزدهُ التأنيبُ الا اغراءً والتثريب الا تصلُّباً واستعصاءً . ولو كان ابوه قد ردعهُ عن حديثه لاول شوط جراه في ميدان المجون والهراء لما اندفع في مجونياته ذلك الاندفاع الذميم وما اضطُرَّ ابوه ان يُشدِّد عليه فيما بعد تشديداً ضيّق عليه نطاق الحرية ' حتى رغب عن الأُلفة الاهلية الى الاجتماع بمن هم على شاكلته من اهل الصفاقة والبذاءة والخلاعة والذرابة ، وصار يتحيّن الفرص للانسلال تحت جنح الدجى من الحمى الابوي الحصين الى المجتمعات التي تسِم جبينه بميسم العار وتلبسهُ من الهوان اطماراً فوق اطمار . . .

ونرانا اسهبنا في هذا الموضوع اسهاباً ربما اورث الملل ولكن الاطناب في مثل هذه المواضيع المهمّة أولى من الايجاز ، بل هو الايجاز بعينه . وقبل ان نمسح القلم

نستنهض همة الامة لان تحتاط للناشئة الغضّة الاحتياط الوافي وتصِف لكل داء فيها الدواء الحاسم الشافي ، حتى نُحكم شؤوننا ونضبط امورنا ونتلافى المخاطر التي تُنذر البلاد بالشر المستطير والبلاء الكبير . وليعلم ابناء الوطن اننا ، ما ساد التشوُّش اداراتنا وغلب الخرق على تدابيرنا والفساد على اعمالنا وتصرُّفاتنا ، فنحن في سبات عميق اين منه سبات اصحاب الكهف . ومادام فتياننا وفتياتنا على هذا المسلك الذميم المحفوف بالمعاطب والمكاره فما لنا ادنى بارقة امل بأن ننفض عنا غبار الخمول ونخلع رداء المهانة الكثيف . أوَ ما حان لنا ان نستثير الهمم الضئيلة ونُرهف العزمات الكليلة لحاقاً بالشعوب الحية . أوَما أزفت الساعة التي يجب ان نفتح فيها العيون على ما خلَّف لنا اجدادنا الفينيقيون النبلاء وآباؤنا العرب الالبَّاء من غرائب الآثار مما تحار بهِ الاذهان قبل الابصار . وهذا العصر هو ولا جرم العصر الذي يجني فيه الغافلون الخاملون ثمرات غفلاتهم المرَّة ويضفر فيه المتبصِّرون الناهضون اكلَّة المجد من زهرات نفوسهم الحرَّة . .

التروي والتأني

لا يسلم المرء من غوائل الغرور ولا يأمن مغبَّات الزلل ما لم يكن يقظَ الفؤاد شديد الحذر ، متثبتاً في اعماله متروّياً في اقواله ، تحرُّزاً من مكروهٍ يلم به اذا تعجَّل في امر قبل تدبُّر عقباه ، او فاه بكلمة لم يصُغها لسانه من معدن الروية والفكرة .

والأعمال كلما جلَّت ودقَّت استلزمت من التبصُّر والتأني ما لا يخفى على الحكماء مقداره . ولا يجمل الشروع فيها قبل ان تُرسم لها خطَّةٌ جليَّة تتكفل بوجوه الإحكام والاتقان وتؤدي الى الظفر بالمراد من ايسر سبيل ، على نحو ما يجري عليه العاقل المتبصِّر فانه يحوم حول مسعاه ويتعهده بالنظر الصادق قبل ان يصمِّم النية عليه ، حتى اذا كان على ثقة من النجح أخذ فيه بجزم وضبط وإلَّا عاد الى تذليل صعابهِ ، تحامياً من ان يرتدَّ على اعقابه خائباً لأول شوط يجريه في مجاله . بخلاف اللجوج العجول فهو يقحم في أموره على غير هداية ، ويرمي الكلام على عواهنه بدون تفكُّر في مصيره حتى يلقى من التسرُّع الأمرَّين

ولا يخفى ان المرء اذا أغرق في البحث عن مناحي الصواب لا تختفي عنه المراشد، واذا تأنى في مساعيه فاز برائعات امانيه، واذا استحاط في جميع اموره قلّما يعثر، واذا عثر مرة استدرك الخلل في الآتي حتى يصبح من الحكمة والخبرة بحيث يُرجع الى رأيه في جميع المشاكل. واما الغافل المتسرّع فإنما يهيم على وجهه في ما يعمله ويقوله ويركب مطية الخطل والجهل، فيقول ما لا يعلم ويُجيب قبل ان يفهم ويعزم قبل ان يفكّر حتى تأتي اعماله مختلّة واقواله مشوَّشة.

وبديهيٌّ ان للمحادثة سُنناً يُحظر تعدّيهـا وللمخالقة مُواضعاتٍ لا يُتسامح في تخطّيها، وهي تختلف باختلاف المقامات والاحوال بحيث ان الذي يُعَدُّ من المستملحات في محاضرات الاصدقاء يكون من المخزيات المستقبحات امـام الكبراء والعظماء، والذي يُستحسن في موقف الهزل والإدلال يُستهجن في معرض الجد والتحفظ، والذي يحلو ذكره على مسمع الأوداء يُنكر إيقاعه في آذان الاعداء، الى آخر ما هنالك مما يضيق المقام عن استيفائه.

ومن هنا تُعرف اهميَّة التفكر ولا سيما ان الحديث رائد العقل ومرآة القلب، وهو الدليل على ادب المرء ومبلغه من الحكمة والخـبرة، فاذا لم يتفرَّس فيما يقوله هذر وهذى وكان هُراؤه مسقطةً له من عيون الناس. وربَّ كلمة فرطت من المِهذار تُنزل عليه سيولاً من الويلات، وربَّ عبارة نفثت في الالباب سمَّ البغضاء وغرست بين المتصافين بذور الشحناء. ومتى نزلت الثرثرة في أُمة كثرت عثراتها وكبواتهـا واختلطت امورها، وانتشرت فيها اعضل الادواء العمرانية وأخبث المساوئ الاجتماعية حتى تفسد اخلاقها وتذهب نضارة آدابهـا. واذا دَوِيَت اخلاق أُمة تصدَّعت أُلفتها وصارت الى الاضمحلال، كما اصاب الممالك المنقرضة القوية في الاجيال الغابرة مع انها كانت باسطةً سيادتها على الدنيا بأسرها

وعلى الجملة فان آفات المدنية واصناف الشقاء انما تنطلق سهامها على المجتمع الانساني من كنانة السهو والغفلة، فاذا تغلَّب الطيَّاشون في احد الاصقاع على اصحاب الرصانة والتعقُّل سادت المقابح واستفحل الداء وعظم البلاء. ومهما يكن العمـل طفيفاً وحقيراً فلا بدَّ من تأمّله قبل الشروع فيه، ولعل الاستخفاف به يورث من

الضرر ما ليس في الحسبان ، على حدّ ما يقع للتاجر اذا اهمل ضبط حسابه ' ولربّة المنزل اذا لم تعبأ بالاشياء الزهيدة ، وللرئيس اذا اغضى الطرف عن مرؤوسيه لدى ارتكاب الصغائر ، حتى يتّسع الخرق ولا يبقى من سبيل الى سدّه . ولو تبصّرت هذه الفئة فيما يلحق بها من المخاسر من جرّاء تهاوُنها بالدقائق لاهتمّت بها ايّ اهتمام، ولا سيما بعد اذ تعرف ان علم الاقتصاد انما بُنيت قواعده على الاحتفاظ بأدقّ الامور ' وهو العلم الذي يُعدّ من اقوى اسباب الفلاح واغزر موارد الثروة . .

وكيفما قلّبنا نظرنا في جميع الطبقات نرى التروّي من اقوى دعائم العمران كما ان العجلة هي جرثومة الخراب ومنبع الشقاوة . فلو كان يفكِّر المجرمون في فظاعة جناياتهم والباغون في مراتع بغيهم والمفسدون في نتائج إفسادهم لأقلعوا عن منكراتهم ومعاصيهم وكفَوا الدنيا مؤونة شرّتهم وطيشهم ، وكذا قُل عن الجهّال والضالّين والسكّيرين والمقامرين وكثيرين غيرهم ممن يعبثون بالامن العام ويعكّرون صفاء الافكار

على ان المرء يلزم ان يصحبه التروّي في جميع مراحل حياته اذا كان في قلبه منزعٌ الى الفلاح . فالطالب اذا افتكر في الغاية التي من اجلها انخرط في سلك المحصّلين عانى من الجهد في دروسه وإصلاح نفسه ما يجعله من المبرّزين في مضمار العلم والعمل . والآباء اذا انعموا النظر في محاسن التربية لايدَّخرون وسعاً في تهذيب بنيهم وتنشئتهم على الخصال الشريفة والشِيَم المحمودة التي تُعينهم على ان يكونوا في وطنهم المحبوب من ارباب النهضة والمروءة . والفقراء اذا نظروا الى البلايا التي يتهدّدهم بها الدهر نشطوا الى العمل بثبات وحزم تصوّناً من نكبات البؤس ومفاسد الفراغ ' والاغنياء اذا اختبروا تقلبات الزمان استنزلوا منها لانفسهم العِبر حتى جدُّوا وكدُّوا ولم يتباطأوا في تأديب بنيهم وتنشيطهم الى السعي وراء خيرهم وخير بلادهم .

واذا كان التروي لا بد من ان يتقيَّد به الافراد حتى يحكموا اعمالهم ويتأنقوا فيها ، فلأن يتقيَّد به الذين تتعلق بهم مصلحة الجمهور بالأولى . لان الرجل الفرد اذا اختلّت اعماله انحصر الضرر فيه ، او ربما تطرّق الى نفر قليل من ذوي قرباه ' واما الرجل العموميّ فانه بتقصيره وغفلته يُلحق الأَذية بألوفٍ ممن لهم علاقة بمهنته او منصبه . كالاطبّاء والصحافيين والمحامين والقضاة والاساتذة ، فان هؤلاء وغيرهم

ممن بيدهم الشؤون العمومية ينزلون بالامة اذا غفلوا وشطُّوا مضرات تشذ عن العدّ

ولعل الرجل الفرد اذا كان لكلامه تأثير في القلوب نظراً لعلوّ منزلته عندقومه يَحدث عن بوادر اسانه وعثرات يراعه ما يَحدثُ عن غفلات الرجل العمومي ، وذلك يغلب في البلاد المستحكم فيها الجهل حتى ان اهلها ينقادون انقياداً اعمى الى زعيم فيهم منوطةٍ ادارتهم الضعيفة بارادته القوية ، وهم عاجزون عن تمييز النافع من الضار والصالح من الفاسد ، فان جُرم الشطط مع اشباه هؤلاء الاغرار اعظم من ان يُحدّ واوسع من ان يوصف

ولا مشاحّة ان الرجال العظام الذين يُمثّلون أُمة كبيرة يسيئون بتهوُّرهم وتعسُّفهم الى مجموع تلك الامة ، ويكون ذنبُهم على قدر الذنوب التي يجترحها كل فرد من بنيها في حقها اذا لم يُخلص لها الخدمة ، او خانها من حيث لا يقصد الخيانة بل اذا تعمَّد اذاها لايعادل مُنكرُهُ هفوةً من الرئيس ولو لم تكن منه عن عمد ، وذلك لما عُقد بينه وبين الامة من العهود على خدمتها بأمانة ويقظة واخلاص . فاذا غفل عن الاعتناء بقضاء ما عليه اجترح فظيعة لا تُغتفر ، ونكث بوعده مع كل فرد من ابناء أُمته . .

وهل من مجال للارتياب في صحة هذا القول ، ولنا شواهد عدَّة على ان سقطات أولياء الحلّ والربط هي الضربة القاضية على مجموع الأُمة . فكم من حرب شبَّ وطيسها بين الممالك لعبارة فاه بها عميدُ القوم قبل ان تختمر في فكره . وكم من بلية اذاقت الرعية الصاب والعلقم لزلّةٍ سياسية وقع فيها مُمثِّلُها ومُعتمدها على غير تروٍ . وكم من فائدة ضاعت بين الإغفال والإهمال ، وكم من نعمة ذهبت بين اللهو والهوى . وكم من مقامٍ تداعت جدارنه وتقوَّضت اركانه لخطاب القاه الزعيم على غير هداية ولا دراية

وإن أَبعد الناس في الكون حنكةً وأبلغهم حكمةً الذين تفرَّدوا بالانتباه والتفكُّر والتثبُّت حتى تلقَّنوا من الدهر دروساً اصبحوا بها اساتذة لامتهم وعماداً لها في النائبات . وما من احد معذور عن ترك التجمُّل بهذه الحلية الفاخرة ، فاذا كان لا يريد أَن يُنعم النظر فيما يفعله ويقوله حرصاً على سعادته وكرامته ، فان للامة حقاً

عليه في ذلك ، لانه كما يحق له ان يطالب الحكومة بما فيه راحته وسلامته فلها ان تُلزمهُ المسلكَ الواجب للأمن العام

وما احوجنا نحن الى إعمال الروية في جميع شؤوننا لاننا في اول درجة من مرقاة العمران ، ولا سبيل لنـا للصعود الى ذروتها بدون ان نُحدّ غِرار الذهن ونُعمل الفكر في جميع اعمالنا . فبالتروي نتَّصل الى تهذيب نفوسنا وترويض طباعنا وتفقيه عقولنا ، وبه ننهج المناهج الممدوحة ونحفظ المحبة والاتحاد فيما بيننا ونعيش بسلام ورغد وسكينة ، وبدونه لا نُتقن علماً ولا نُحكم فنًّا ولا نُحسن عملًا ولا نُحدث اختراعاً ولا نُدرك أرباً . فلنحرص اذاً على هذه المزية البهية حتى اذا تحلّينا بها تصرفنا تصرُّف الحكماء ونجحنا نجاحاً باهرًا واوجدنا في موطننا ناشئةً مهذبة تدرّ عليـه خيرات لا تُحصى ' فلا نرى من ثَمَّ امامنا الا نفوساً كبيرة مملوءةً من الحميَّة ' وقلوباً مفعمة من القوة والحزم والنشاط ، وعقولاً مُشبعة من الحكمة والسداد ، وصدورًا مزدانة باجمل المناقب واشرف الاخلاق . فتفرغ السجون من الأَثمة وتخلو الشوارع من السفلة وتمتلئ الحقول من رجال العمل والكد وتنسج ايدينا ومعاملنا منسوجات رائعة ننافس بها ارقى الشعوب ، ونرسل غلال أراضينا الى ابعد الاصقاع ويُقبل التجّار الى شراء سِلعنا من أقصى الأنحاء ، وننير بآثار ذكائنا جميع اقطار العالم . ومـا ذلك بكثير على أُمة تتروّى في اعمالها واقوالها وتسهر على شؤُونها ومصالحها .

الاعتدال

لا مُشاحَّة أن الامور اذا تجاوزت النمَط الاوسط كانت ضرباً من الشطَط وغاية في الخرق ، واذا قصَّرت عنه دلت على خساسة وضعة ولآمة . لان الفضائل بين رذيلتين والمحاسن بين نقيصتين ، فما جاوز التوسُّط خرج عن حدّ الفضيلة فعلِق به العيب وكان بالمذمَّة أحرى ، ولذلك قالت الحكماء : عليكَ بالاعتدال في كل الامور ، فان الافراط عيب والتفريط عجز ، وقالوا : خيرُ الامور أوسطُها . الا ترى الشجاع كيف يُنسب الى التهوُّر اذا خرق حدود الجرأة ، والسخيَّ الى التبذير اذا اسرف في السخاء ، والحليمَ الى الضعف اذا تناهى في الحلم ، والمتدلِّلَ الى القحة وصلابة الوجه اذا افرط في الدالة وانبسط في الصحبة . وكما ان الخروج الى الطرف الاعلى يُعَدّ من المعايب كذلك الوقوف عند الطرف الادنى يُعتبر من المساوىء والشوائب . وربما كان تجاوُز نقطة الاعتدال أضرَّ من التخلُّف عنها ، على حدّ ما يقع للجريء اذا اقتحم المهالك ، فانه يُلِمّ به من فوادح المضارّ ما لا يلمّ بالجبان .

على أن اجتياز الاوساط ، وان يكن في الغالب من ضروب الغباوة ومزالق التطوُّح والتغرير ، فهو يؤثَر على التقصير . اذ كثيراً ما يدل على ان النفس بلغت غاية تُحمَد عليها ، ثم تطرَّقت منها الى شأوٍ اقصى جنَحت به عن جادة الاعتدال ، حتى نالها من مغبات الخسران ما اورثها الندم وعرّضها لسهام القدح والذم . واما التقصير عن الخطة المعتدلة فلا يخلو عن ان يكون إما لكلالٍ في العزيمة ، او صغر في الهمة ، او لؤم في النفس ، او خبث في الطبع الى ما هنالك من الوصمات ، مما يلصق بقلوب الاوغاد ويعلق باخلاق السفلة الغوغاء . ولا جرم أن البشر ، لما فيهم من التفاوت والتفاضل في الاحوال والمقامات ، لا يمكن ان تجري عليهم الاحكام بهذا الصدد على السواء . فالذي يُعدّ من البائس اقتصاداً إنما يكون من الغني شحّاً وحرصاً ، واذا جارى المتوسِّطُ المثري في الترَف عُدَّ فعله من السخافة واستوجب عليه التنديد والتثريب . وكذا القولُ فيما لو تعرَّض المرء لما لا يَعنيه فانما يُلام على تعدّيه طوره ،

على حين ان المقصِّر في ما عُهِد اليه من الامور جدير بالمؤاخذة على تقصيره وليس له فيه ادنى معذرة .

ومهما يكن من الامر فان الحكيم البصير لا يتطرّف في شؤونه ولا يرمي الى أَمد بعيد يسوقه اليه الهوس ، وانما يجري على ما تمليه عليه الحكمة ويقضي به الحزم . وبهذا التحوُّط يسلم من عواقب التهور والتمادي والمخاطرة ويقي نفسه من الاسواء ومقامه من الانثلام ، ويكون عدا ذلك محمود المسعى بعيد العثار . ومن المحال ان يكون المرء على رجاحة في عقله واصابة في رأيه وهو يرضى لنفسه ان تندفع الى مدى يكون بمعزلٍ عن محور الحكمة ودائرة التعقُّل ، لما في ذلك من الاخطار والمعاطب ، وانما ينظر بعين البصيرة الى مواطن الغرور ومجاهل الآفات فيتجافى عنها ، ويرى من عن رابية الاختبار ما حلَّ بالمتطرفين والمتخلفين والمتهورين والمقصرين فيتخذ له من سوء عواقبهم ما يردعهُ عن اللحاق بهم في مذاهبهم المحفوفة بالمكاره

على ان التطرف كثيرًا ما يُوصَم به ذوو المكانة والحظوة لدى اصحاب السلطة والسؤدد ، فيبطرون ويتطاولون ويعمدون الى الوشاية والسعاية ولا يحسبون للدوائر حساباً . فاذا انقلب عليهم الزمان واهله لحق بهم من اصناف الخزي ما ينغِّص عيشهم ويُثير بلبالهم ويُشمت بهم الاعداء ويُطرهم البلاء ويذيقهم مرائر الشقاء . وما كان احراهم ان يتخذوها فرصةً للاكثار من الاصدقاء واستمالة القلوب النافرة وتسكين الاهواء الثائرة . على انه كثيرًا ما تكون المداهنات والتقاريظ الفارغة مدعاةً لهذا التطرف فان المغتر بنفسه اذا حفَّ به المماذقون المدالسون نثروا في مسمعيه ثناءً مموهاً وأَلبسوه ثوباً فضفاضاً ، فيُنزل كلامهم منزلة الصدق ويحمله على محمل الحقيقة بحيث يتوهَّم انه اصبح في المحل الذي احلَّه فيه أُولئك المُداجون المصانعون ، مع انهم لم يُحِلُّوه فيه الا ازدراءً وامتهاناً ، فتأخذه هزَّة الطرب ويستفزُّه العُجب وتستخفه الخُيلاء الى ان يتناهى في الصلف والدعوى ويتورَّط في ورطتيهما حتى يضحك عليه الثكالى . ولكن اذا صحا ، وهيهات ان يصحو من نشوة الكبر وسكرة الإِطراء ، تلهَّف على تخطِّيه قدره واغتراره باقوالِ مَن اتخذهم لنفسه اخواناً واذخرهم حتى يكونوا له

على الزمان اعواناً . وإنَّ العاقل لتربأ به نفسه ان يكون العوبة في أيدي الساخرين ومضغة في افواه المواربين الختالين . فاذا مدحوه على مزية ليست فيه او دفعوه لأمر تُنكره الحكمة او يثير عليه المظنة ، اراهم من رصانته وبعد نظره ما يصدُّهم عن العود الى هذه القحة المستنكرة حتى تتولاهم الهيبة ، فلا يجرأون فيما بعد على ان ينثروا في مجلسه غير الحقائق ولا ينقلوا له الا ما تحدِّثهم به السرائر ، فيأمن مغبَّات الاعجاب بالنفس وتبعات الخفة والتهور ويضع حاجزاً متيناً بينه وبين المدَّاحين الخدَّاعين .

وكيفما قلَّب المرء ابصاره يرى للتمادي والتطرف في هذه البلاد آثاراً محزنة تتقبَّض منها الافئدة الرقيقة وتتزوي عنها النفوس الأَبيَّة . فهناك قصور شاهقة جُبِل طينها بعرق الجبين فجاء من الأخلاف من قوَّض مباني الأسلاف بمطارق الاسراف، فاندكت من اساسها واخذت أنقاضها تندب مُشيِّديها وتلحو مُقوِّضيها . وهناك اسرٌ انتاشتها انياب الفاقة فتململت على اخشن من شوك القتاد بعد اذ كانت تستمهد الفُرُش الوثيرة وتقتعد الاسرَّة اللّيِنة الوطيئة . ولم يحوّلها من حال الى حال الا التبذير والاختلاف الى المقاصف والملاهي والانغماس في الملاذّ والوقوع في حبائل الاهواء . وهنا فئةٌ من ضِعاف الأحلام تَصِل الليل بأطراف النهار في سبيل الارتزاق والاكتداح ثم تبدِّد في وجوه الترف والتنعُّم ما حشدته بشقّ النفس تشبُّهاً في أرباب اليسار الى ان ينتهي بها الامر الى حالة حرجة يضيق معها الصدر . فلو عرفت قدرها لوقفت عنده متمشيةً على سُنَن الاقتصاد بحيث لا يزدري بها الرفيع ولا يمتهنها الاكفاء . أوَ ما كان الأحرى بها ان تعتدل في جميع احوالها المعاشية لئلّا تخطو في ميدان التشبه خطَوات تكلّفها عرق القربة وتُوردها موارد التعس .

ومن العلل المتفشية فينا أننا نغالي في نقل الاخبار حتى تضيع الحقائق في صدوع الاغراض وشِعاب الاهواء كما هو دأب بعض الصحف التي تتحامل على الضعفاء وتشدِّد النكير على من تُبطن له القلى والعداء ، ثم تنثر ازاهر الثناء على مَن تهاب سطوتهم وتُضمر لهم المقة والولاء معما ترى فيهم من المغامز والمظانّ . فتنشطهم بذلك الى ان يلجُوا في غيهم ويُمعنوا في اضاليلهم وتُرَّهاتهم ، وهكذا تذهب الفائدة ويتعذَّر

الاصلاح . وقد فات هذه الصحف أنها بهذا المسلك الذميم تسقط من عيون الخاصة والعامة وتفقد ثقة قرائها، ثم تُعرِّض للسخرية مَن تبالغ في مديحهم او تُثني عليهم وهم بالمذمة احقّ ، وترفع قدر كل من تفتئت عليه الاباطيل اذ تكسبه شهرةً وتزيده نباهةً . وما انفع القدح في هذا المقام فانه ضربٌ من المدح والإطراء

واذا كان الاعتدال من حلى الحكماء فلأن يتحلَّى به ارباب السلطة والادارة بالأولى ، لان عليهم مدار السياسة ومُعَوَّل الأمة ، فاذا تطوَّح الرئيس تهوَّر وتهور معه الوف واذا فسد فسد معهُ الوف . وما اخرق الزعيم اذا خرق حدّ الحزم او وقف في مواقع الاقدام موقف المتهيِّب او مال الى التعنيف في مواضع الرفق الى ما هنالك من سوء الادارة ممـا تتبرأ منه الحصافة والفطنة ولا ينطبق في شيء على اصول السداد والحكمة .

هذا ومما يجب على العموم التقيُّد به ان يراعوا جانب الاعتدال في منامهم وسهرهم وعملهم وراحتهم ، فاذا اطالوا هجوعهم فوق مقدار الحاجـة رقَّ عقلهم وخمدت بصيرتهم وعجزت نفوسهم عن المضاء في الاعمال فضلًا عن ذهاب الوقت هدرًا وإنفاقه فيما يورث الحمق والسخف والبلادة . واما اذا اعتدلوا في جميع ذلك فانهم ينفضون عن اذهانهم العناء ويستردّون القوى التي نهكها طول التروّي واجهدها كدّ الفكر ، فما يُصبحون الا وقد طابت نفوسهم للعمل ونشطت الى استئناف الاشغال باصفى بالاً وامضى عزماً . وكما أنه لا تُحمد المغبَّة اذا طال وقت الفراغ واتَّسع نطاق الدعة والاستراحة كذلك لا يجمل الانصباب الى حدّ ان تكلّ النفس عن متابعة اعمالهـا وتعجز عن النهوض بمهامّها واثقالها ، فان مجاوزة القدر في العناء العقلي تُلجىء بعد حين الى الانقطاع عن العمل واجمام الخاطر إخلادًا الى الراحة . وهيهات أن يعود للجسم ما فقده من قواه وخسره من الصحة ، فيبيت الرجل المجتهد الجليد على احرّ من نار الغضا لحرمانه فوائد كان في وسعه أن يستنزلها من سماء العلم لو لم تبطش به العلل وتولِّد فيه الخَور . وان ذلك يُصيب في الغالب النفوس الكبيرة والهمم المشمِّرة ، فانها بما فيها من الانفة والنزوع الى العلياء تقاسي من المتاعب فوق طاقتهـا ، فلا تلبث ان ترزح تحت اعباء المطالب واحمال الرغائب على حد ما قاله المتنبي :

واذا كانت النفوس كبارًا   تعبت في مرادها الاجسام

واما المأكل والملبس فمن الحكمة أن يلزم المرء فيهما حدّ الاعتدال بحيث لا يُقتِر على نفسه ويقصرها على ما يحطّ من منزلته في العيون ، ولا يخرج بهـا الى حد تنهي عنه شرائع الاقتصاد . وما اقلّ الذين يقصدون في النفقات ولا سيما على الملابس والكسى ، فان السيدات في هـذه البلاد لا يُهمّهن الا اتباع الازياء بالغةً ما بلغت النفقاتُ عليها ، ولا يُشفقن على اموال بعولهن ان تغور في هذه الوهدة العميقة ولا يرثين لما تتعرَّض له أُسَرهُنَّ من خائع الاسراف . وما كان اجدرهنَّ بان يُنفقنَ في وجوه البر او في سبيل تعليم بنيهن قسماً ممـا يُنفقنه على التبهرج والتزيُّن بالمحاسن الوهميَّة . وهنا لا نرى ندحةً عن ان نَلفت الانظار الى المبالغ الفاحشة التي تُبذل على غير طائل في الاعراس والمآتم مما يضيق عنه ذرع متوسِّطي الحال ، فكيف بمن مُنُوا بضيق ذات اليد ، مما حمل القسم الاكبر من الشبَّان على ايثار العزوبة على الزواج ، وفي ذلك ما فيه من الاضرار التي أَقلُّها أنها تقلل النسل وتروّج سوق الفجور والعهارة

ومما يجمل بالشابّ الاعتدال فيه ان يكون في حديثه شيء من الرزانة ولا سيما في مواقف الجـدّ ، فانه لا يليق به ان يكون مكثارًا مِهذارًا يطارح جلساءه الاحاديث المجونية والمداعبات الصبيانية مما يخرق به سور الحشمة والمهابة والاحترام ، فان العيّ والحصَر في مثل هذه المواقف خير من القاء الكلام على عواهنه ، وإطلاق اللسان في ميدان تعثر فيه الأَقدام كانطلاق الانسان في ساحات المكاره والاهوال . والسيداتُ هُنَّ بهذا التنبيه أحقّ من الشبان بهلانهن مفطورات على الثرثرة ، وقلما ترى بينهن من تقوى على ضبط لسانها وكمّ فمها دقيقةً واحدة مهما كان المحضر وايّاً كان المجلس . اجل اننا لا نُريد ان يلزم الشبان والفتيات الصمت ، ولا ان يكونوا في اندية الانس والطرب اشبه بالجلامد التي لاتستطيع حراكاً ، ولا ان تكون مجالسهم كمجالس الشيوخ تسود فيها الرزانة والوقار ، فاذا فعلوا ذلك تخلّقوا بغير اخلاقهم فتُستثقل محاضرتهم وتُغلق الاسماع دون الاصغاء الى احاديثهم . ولكننا نريدهم الّا يُرخوا لأَلسنتهم العنان بدون تروٍ ولا يبسطوها حيث يجب أن تُعقَل .

ومما يستدعي الأَسف أن السواد الاعظم في هـذه الديار قد ألف عادة شرب

التبغ كأنها من مُقتَضيات المدنية او من ضروريات الحياة ، وهو لا يقتصر على بضع لفافات في اليوم بل يتعدّى حدود الاعتدال بحيث لا يكاد يدع فترة بين اللفافة واللفافة. ومعلومٌ ان الافراط في شرب التبغ يفضي الى علل جمة أَخصُّها السلّ الرئوي وداء القلب وأَلم المعدة ، وكفى بها من علل تنغِّص على صاحبها العيش وتقصِّر مسافة حياته . ولو قُصِرت هذه العادة الذميمة على الشبان الذين استوفوا قسطهم من النمو لكانت البلية اخف وطأة مما هي عليه ، ولكنها كثيراً ما يجري عليها الاحداث وهم في طور البلوغ ، ويُفرِطون إفراطاً يوقف نموَّهم ويورثهم النحول والذبول ويُضعف حافظتهم التي هم في امسّ الحاجة اليها حتى يقووا على اقتباس اللغات وتلقُّن المعارف وادخار ما لا غنى لهم عن ادخاره من الفوائد الأثيرة والمحفوظات الثمينة

على اننا اذا استقصينا ما انقضّ على البلاد من الكوارث الدهماء لا نتمالك عن ان نرد ذلك الى الافراط في عادتين مشؤومتين . اولاهما معاقرة بنت الحان وثانيتهما شرب التبغ . ولذلك نرغب الى عقلاء الأمة ولا سيما ارباب المدارس والصحافيين أن يُقبِّحوا في اعين الناشئة هاتين العادتين المؤذيتين للأَجسام والنفوس والأخلاق معاً ويبسطوا لها مضارَّهما البليغة حتى تتحامى استطراقهما فيسلم النسل مما مُني به من العاهات والآفات

ونحن في عداد الذين تضرَّروا من الافراط في شرب التبغ بحيث اضطررنا الى إغماد اليراع في العهد الذي نضج فيه فكرنا وصرنا على حال نقدر بها ان نخدم الأمة بقلمنا الذي وقفناه على خدمتها . ولولا براعة طبيبنا العبقريّ النطاسي المشهور الدكتور ابراهيم افندي مدور وعنايته الشديدة بنا لأُدرجنا في بطن الرمس ولم نقوَ على نشر مجموعتنا الأدبية هذه [1]

---

(١) جئت ذات يوم مستوصفه الذي اصبح وللامراء كعبة الاعلاء . فاذا به قد غادره من هنيهة لمعالجة احد السقام . فاضطررت ان انتظره زهاء نصف ساعة . ولما كنت قد خبرت بنفسي حذقه لفن الطب الكثير المزالق وتبيَّنت عطفه الشديد على المرضى عموماً وعليّ خصوصاً افترصت هذه الفرصة الثمينة فنظمت بيتين من الشعر جادت بهما قريحتي المعتلة ، أُثبتهما هنا تنويهاً بفضله واشادةً بنبيه ذكره حتى يبقيا اثراً خالداً لاعجاب الناس بسعة معارفه وتذكاراً لاقراري بجميله الكبير . وهذان هما البيتان :

فعسى الله أن يجود علينا بشيء من العافية حتى نُردف هذا الاثر الادبي بما كنا قد شرعنا في وضعه من المصنَّفات وتخلَّفنا عن انجازه بسبب العلة التي دهمتنا ، وذلك من مثل كتاب الانشاء ، وكتاب فلسفة اللغة ، وسلسلة الاصول التي وضعنا منها جزئين على احدث اسلوب عصري ، وكتاب البيان وهو الذي اودعناه نتيجة اختباراتنا الطويلة لهذا الفن العويص . . وانما اوردنا هنا ما اوردناه على سبيل النصح لاخواننا الادباء الذين استطرقوا مثلنا عادة شرب التبغ حتى تأثَّلت فيهم واوثقتهم بسلاسلها الحديدية التي لا يقوى على الانفكاك منها الا ذوو الارادة الصلبة والعزمة الراسخة ، ولعلَّهم يعتبرون قبل ان يُصبحوا عبرة لسواهم وهم من احرى الناس بالاعتبار .

ولا يسعنا المقام ان نستوفي المقال في هذا الموضوع المترامي الاطراف ولا أن نستقري احوالنا التي نتخطَّى فيها حدود الاعتدال ، ولذلك نأمل من الخبراء بعلم الاخلاق ومصابيح التهذيب في هذه الربوع أن يُكثروا من الكتابة في هذا الموضوع الخطير إنارةً لاذهان العامة حتى يُقلعوا عن الاسراف ولا يتجاوزوا اطوارهم في شيء من امور معاشهم . وليتحرَّ ارباب الصحافة اعدل المذاهب فيما ينشرونه من المقالات والروايات في تضاعيف صحفهم حتى تكون من اوثق المصادر واصفى الموارد ويكونوا هم حجة راهنة في اقوالهم وآرائهم واسانيدهم ، بحيث لا ينقلون الا الذي محَّصته النزاهة وتجرَّد عن الهوى ، ولا يُثبتون سوى ما يُمليه عليهم ضميرهم النزيه ووجدانهم الصحيح ، ولا يعرضون على القراء الا كلّ ما يخدمون به الحقيقة ليس غير . ومتى توخوا هذا المنحى القويم لقَّنوا العامة بل الخاصة ان يعتدلوا فيما يقولون ويفعلون فتصبح البلاد بمأمن من غوائل التملُّق والتزلُّف والمواربة والمداجاة الى ما يلحق بذلك مما يخنق الحقائق ويحول دون الاصلاح .

ونحن اليوم من افقر الامم الى التحلّي بمحاسن الاعتدال ، لانه اسّ العمران

لو نقَّب الناس عن آسٍ يصول على — اسقامهم وله في الطب آياتُ
لما رأَوا آسياً يحيا العليلُ به — الا المدوّر والباقون حيَّاتُ

ثم نظمت بيتين آخرين في فرصة ثانية فقلت :

يا امير الطب قد عوَّدتني — ان أُعاني الداء من غير وجل
فلينَل من قلبيَ الداءُ الذي — نابني فالقلبُ يشفيه الامل

ومنبع الثروة والسعادة ، وهو انصع دليل على حكمة الرجال وحنكتهم وحسن ادارتهم ولطف تدبيرهم ، فاذا انتهجنا مناهجه المحمودة انعتقنا من عقال الشقاء والبؤس ومهَّدنا للوطن عقبات الفلاح والثراء واليسر .

المنافسة

فُطر الانسانُ وفي نفسهِ نزَعاتٌ الى العز والعلاء ، وفي فؤاده أهواء نشأت عن تنازع البقاء ، حتى لقد يودّ لويستأثر من الدنيا بجميع محاسنها وزخارفها وينزع من يد العلياء اجمل حللها واسنى مطارفها . ولذلك شبَّت المنازعات والمنافسات بين الامم فكان المجلِّيَ في حلَبات الفوز والفتح ذو العزمة الماضية والهمة العالية .

ولولا المجدُ الذي تتدافع في ساحاته المناكب والعزُّ الذي تُحدى الى جنباته الركائب ، لباتت العزائم في نصابها والاسرارُ وراءَ حجابها ، وبقيت الحقائق في خزائنها والمستحدثات في دفائنها ، ولبثت الاذهان الثاقبة في سجن الخمول مأسورة وظلت العلوم والفنون في ظلمات الغيب مستورة ، فضلًا عن مفاسد الترَّهات والعماية ومخابث الطغيان والغواية ، الى آخر ما يتَّصل بها من الموبقات التي ينتثر بها عقدُ الاجتماع ويتقلَّص معها ظلُّ الامن وتنتقض عندها اسبابُ الالفة . .

ومعلومٌ ان المنافسات في طرق الشرف والفلاح هي من أفعل البواعث على نشر اشعة العمران ، ومن اقرب الوسائل الى صنع العظائم ، بل هي اسّ التمدن الوطيد وركن النجاح الشديد ، ومهماز الهمم الفاترة ومفتاح الاكتشافات الباهرة ، اذا انتشرت بين أمة كان السعد لها حليفاً والمجد أليفاً والكمال شعارًا والسؤدد حلية وشوارًا ، ولاغرو فانما بالتنافس يصير الجاهل عالمًا والمعوزمثرياً والذليل عزيزًا والرقيق حرًّا والمسُود سيِّدًا والخامل وجيهاً والمشروف شريفاً . . .

وما من مشروع جليل يستوقف الابصار ويحيِّر الافكار مما اقامته الامم الغابرة او جاءَت به الشعوب الحاضرة إلَّا وقد كان الغرضُ منه التسابق والتفاضل حرصاً على نباهة الذكر وحسن الاحدوثة . وكفى بالاهرام وقلعة بعلبك برهاناً قاطعاً على

حسنات المنافسة ومفاعيلها الغريبة فضلًا عن الآثار التي تحلّى بها جيد هذا العصر مما يفوت الحصر . فحيثما اطلقت بصرك في البلاد الراقية تمثّل لك ان الكون في حركة متواصلة وسعي مطّرد ، فهناك نفوسٌ دائبة في البحث سارحة في مفاوز الاختراع ، تأتيك كل يوم باكتشاف جديد واستنباط مدهش تكاد تُحصيه في مصاف المعجزات ، حتى لقد حلّقت في الجوّ بمركباتها الضخمة فسابقت بها الاطيار ، وتأنّقت في سفنها الحربية فذلّلت بها شكائم البحار ، وحتى ان الافلاك قد اصبحت منها كأنها على قاب قوسين ، فلا يفوتها شيءٌ من أمر ثوابتها وسيّاراتها مع ما بينها من الابعاد الشاسعة ، بحيث تُنبئك عن احوالها واجرامها وحركاتها وأبراجها ، وعن ميعاد كسوفها وخسوفها وعما بينها وبين الارض من الفروق في التربة والحرارة والشكل الى غير ذلك من التحقيقات التي كانت محجوبة عن أفهام الغابرين . وعلى الجملة فانك اذا تأملت في العروش المحفوفة بمواكب الأبّهة والجلال ، والمقامات الرفيعة التي يشغلها اعاظم الرجال ، وتصفحت ما في الخزائن العلمية والادبية من جلائل التآليف وتفرست في المصنوعات وما انتهت اليه من الإبداع والتجود ، ثم سرّحت رائد الطرف في التجارة التي تسلسلت جداولها وجرت مشارعُها في جميع انحاء المعمور ، تبادر الى ذهنك ان الانسانية لم تصعد الى اعلى مراقي المدنية الّا على سلّم المنافسة والمباهاة . .

وما من شيء يحدو الرجال الى التسابق في ميدان المعالي كالإباء اذا تملّك من النفس ، فانه يُحرّكها على استقباح الدنايا والنفور من مواقف الهوان ومهابط الذل ويُزيّن لها تجشُّم الاخطار في سبيل المنعة والترف واليسار ، حتى انها تستبسل وتستقتل في ساحة المباراة ، وتؤثر الاستماتة في معترك المغالاة على البقاء في ربوع الراحة والسعة مع احتجاب الذكر وانخفاض القدر . ولذا نرى الأُباة في مقدمة المفلحين وطليعة الفاتحين لا تكلّ مضارب عزمهم الجبالُ الراسية ولا ينثنون عن الجهاد الا والنصرُ معقود بلواء همتهم والمجدُ مطنِب في أفنيتهم

وانما يصير الأنوف الأَبي الى تلك المنزلة العالية اذا كان بصيرًا بالامور التي يتولّاها خبيرًا بالصناعة التي يزاولها ، وهو قائم بنفسه على شؤونه يرقب الفرص السانحة لمباشرة اعماله بشجاعة وتيقُّظ وثبات ، حتى اذا تروّى في المسلك الذي يأخذ فيه ونظر

في عواقبه ومقدماته ، وتحوّط لما يصادمه من المشاكل الصعاب وهيّأ العدّة اللازمة للفلاح ، اقدم على العمل غير حذرٍ من ان يدهمه في طريقه ما يُضيع حزمه ويذهب بجلده ويورثه الخيبة والفشل . ولاجرم ان الاعمال اذا خلت من الحكمة والفطنة والتحرّز وحسن التدبير أفضت بصاحبها الى الندم واليأس والتراخي والعجز ، وما اجدره والحالة هذه ان يتخلى عن المزاحمة فيما لا طائل من ورائه ولا جدوى . ولكن اذا تأنى في عمله وأَحكم درسه فمن السداد ان يُقدم عليه بعزم وجرأة ، لانه قلما تكون المغبّة غير محمودة مع اجتماع هذه الشروط التي هي من اخص اركان الفلاح

على ان المنافسة ليست بمقصورة على فئة او محصورة في صناعة ، بل تتناول جميع الطبقات في كل علم وفنّ ومهنة . فالأَحداث اذا تباروا وتساجلوا في المعارف والآداب اذّخروا منها ما يكون لهم معواناً على الفلاح في مستقبل الحين ، وإلّا استمرّ المكسال منهم على حضيض التهاون غِرًّا غبيًّا وانقلب عن ساحة الكفاح ذليلًا شقيًّا . واما المجتهد فاذا لم يصادف في وجهه مَن يغالبه في العلم ويُطاوله في التحصيل لم يُرخِ لجواد فكرته العِنان في مجال الاستفادة ، ولا يخفى ما في ذلك من الأَضرار الجسام

واذا كانت هذه منافع المنافسة في الصغار معما هم عليه من قلة الخبرة والحنكة فما رأيك في كبار القوم اذا تجاروا وتسابقوا في مضمار العمران ، فانهم ولا شكّ يستبحرون في الحضارة ويتوسعون في الزراعة والصناعة ويتبسّطون في التجارة ويتفنّنون في العلوم بحيث يتفوّقون على من يجاريهم في كل ميدان .

ولنا كل يوم من الممالك العازمة الأَبية أعدلُ شاهد على فضل المنافسة فانها لاتزال تتنازع مطارف السيادة والسيطرة والمجد متبارية في ترويج مزروعاتها ومصنوعاتها في جميع الآفاق . ولهذه الغاية تبعث من قبلها الى البلاد السحيقة معتمَدين مجرّبين حتى اذا درسوا احوالها واذواقها وتبيّنوا شؤُونها وأخلاقها وأَلمّوا بحاجاتها وميولها رفعوا الى منتدبيهم تقارير وافية تنطق بما ادّت اليه مباحثهم ، قصدَ ان تشهر بين تجّار بلادهم فيستظهروا بها على التفسح في الاتجار والتعمّق في الاختبار . فضلًا عن مساعي كتبتها العلماء وصنّاعها الحذّاق وعُمّالها المهرة وساستها الدهاة المحنّكين ، وعمّا تُمدّهم به من الذرائع القوية للاشتغال باعمال مجيدة تباهي بها مَن يزاحمها في مذاهب التقدم ، حتى

انها لا تضنّ بالمال ولا تبخل بالرجال ولا تُبقي على المهج في طريق التنافس والتسابق، وحتى انها لا تذوق لذة الكرى مالم تستحدث عملًا يزيدها عزًّا على عزّ ومجدًا على مجد. واذا وقع في مسامعها اكتشاف اهتدى اليه أحدُ الاجانب قامت وقعدت ولا يقرُّ لها قرار ما لم تطّلع على اسراره وتنسج على منواله .

وانه ليشقُّ علينا ان نرى في بلادنا التخلّف عن منافسة الشعوب الناجحة ومتابعتهم في طرق العمران ومعرفة المستحدثات التي وُفّقوا لها مما نقرأه في الصحف ولا نحتفل بالوقوف على كنهه . وانما ذلك لانثلام في مضائنا وجمود في اجتهادنا وكلاهما من عقبات المنافسة . واذا لم يكن لنا الآن من متّسع لمسابقة مَن توطّدت في امصاره مباني التمدُّن نظرًا لتفشّي الجهل فينا فلا أقلّ من أن نُعنى باعمالنا وننصرف وراء العمران بما يمتدُّ اليه ذَرعُنا الى ان تربى في بلادنا نابتةٌ جديدة تحيط باطراف المعارف والفنون الادبية والدروس العمرانية ، مترعرعةً على حب الوطن والدأب في تعزيزه متحلّيةً بأبهر الخصال واكرم الاخلاق والمبادئ . ومن ثمّ فلا يكون لنا عذر فيما لو قصّرنا عن حدّ تلك الامم الفائزة . ولا نخال احدًا يتقاعد عن تحقيق هذه الامنيّة ولا عن الانصباب على الاعمال ، حتى اذا ابصرت الناشئة الحديثة مثابرتنا وعكوفنا على الارتقاء تسنّى لها الانكباب على المساعي الجميلة وأتت البلاد من المشاريع المنجحة ما سوف تنافس به ابعد الامم في مذاهب الحضارة بعون الله .

الترتيب

اذا عرفت أن الزمان هو المعدِن النفيس الذي تستخرج منـه الحكماء شذرات الذهب ، والبحر الزاخر الذي يغوص فيه ذوو العزمات الماضية على درره الثمينة ولآلئه اليتيمة , ثم تحقَّقت ان الترتيب من اعون الوسائل على الاحتفاظ بالوقت وبدونه يذهب الزمن ضياعاً ، لم تتمالك عن ان تُنسِّق اعمالك وتضرب لكلّ منها اجلاً تقضيه فيه . وادرى الناس بفوائد الترتيب وأشعرهم بعوائده من اختبروا نتائج البلبلة الوخيمة وذاقوا ثمرات الاختلال والارتباك المرَّة . فكم من تاجر يقضي ايَّاماً في التفتيش عن رسالةٍ انفذها اليه احدُ عمـلائه او عن سندٍ يريد قبضه من احد غرمائه . وكم من عالمٍ ينقِّب ساعات عن شاردة يفتقر الى الإلمام بها في اثناء تأليفه او تحبيره مقالة علميَّة او نبذةً تاريخية . ولو كان التاجر قد افرز لرسائله ووثائقه التجاريَّة مواضع يرجع اليها عند الحاجة ، لعثر على ما تفقدهُ فورَ افتقارهِ اليه ، وكفى نفسه عناء التنقيب المديد الذي يورث الملل ويُفني الجلد . ولو كان العالم قد نظَّم مكتبته عـلى اسهل اسلوب واجلى نمط وكان للكتب التي في خزائنه فهارس وجداول ، لوقع بصرُهُ في دقيقة او اقلّ على ما يريد الوقوف عليه من المسائل في خلال ابحاثه . .

ولهذا السبب ترى الأُمم الضنينة بوقتها تستنفد وسعها في تنظيم اعمالها وتنسيق دوائرها ومخازنها وترتيب دفاترها وقراطيسها ، بحيث يكون لكل شيء موضعٌ يتعهَّدونهُ فيه عندما تدعو الضَّرورة اليه . أولا ترى المكاتب الكبرى عندهم ولا سيما العموميَّة كيف تتجلَّى فيها آيات الترتيب ، فيجعلون لكل علم وفنّ خزائن يضعون فيها الكتب مرتَّبةً على الحروف الهجائيَّة . وعلى هذه الخزائن جيشٌ من المستخدمين لا شغل لهم الا التنسيق والتبويب والتفريع والتفصيل . واللهُ أعلمُ بما ينفقونه في هذه السبيل من النفقات الفادحة التي لا يستكبرها العاقل مهما بهظت ، متى رأى بأُمّ عينه القيّم على هذه الخزائن يأتيه بالكتاب الذي يطلبه منهُ في عشر ثوانٍ او أقلّ .

امَّا نحن الشرقيين فلا شأن للترتيب عند خاصَّتنا فكيف بعامّتنا . وافتح اذا شئت مؤلَّفاً ولا سيَّما من المؤلَّفات التي تقادمَ عهدُ طبعها او نسخها ، ثم انظر الى الزمن الذي تصرفه في التنقير عن ضالَّة تنشدها ، فربمَّا انطوى يومُك بدون ان تهتدي اليها ، فتنقلب وقد نضب جلدك وعيل صبرك ، ثم تطوي الكتاب آسفاً على الوقت الذي أسرفته بدون ادنى جدوى . فلو كان واضعهُ قد حمَّل نفسه شيئاً من العناء حتى رتَّبه وبوَّبَهُ على نسقٍ بيّن ، لما عانيتَ وكثيرين من امثالك ذلك النصب المجهد ولم تضع وقتك الثمين سُدًى . .

ان الترتيب فضلًا عن صيانته للزمان يُورث الراحة ويدفع الملل ويقي اصحابه المشاكل والعثرات التي يتعرَّض لها في الغالب الذين يألفون البلبلة والعرقلة . ولكن ما أقلَّ الناس الذين يَقدرونه قدرَهُ ويُعنون بالجري على طريقته . ترى الطالب يجمع في حقيبته اوراقاً عدَّة ، وفي درجهِ دفاتر شتَّى وفي مكتبته كراريس وكتُباً لا نسق فيها ولاتنظيم . فاذا احتاج الى احدها لا يقعُ عليه الا بجهد النفس ، وكثيرًا ما لا يهتدي اليه حتى بعد التفتيش المذيب ، إمَّا لضياعه بين الأوراق المنثورة المبلبلة أو لاختلاطه بغيره من الاوراق المبعثرة ، فيلتهب غيظاً وربمَّا أقبل على اخوانه يسلقهم بلواذع لسانه بدعوى أنَّهم هم الذين نزعوه من بين اوراقه . ولقد يتَّفق بعد حين أن يعثر عليه فيندم على تسرُّعهِ ، وليت ندامته تؤدّي به الى الإقلاع عن عادة التشويش وهي من أسوإ العادات .

على ان هذه العادة الذميمة كثيرًا ما تسري عدواها الى الصغار من جانب امَّهاتهم اللواتي يُغفلن امر الترتيب إغفالاً يستوجب المؤاخذة ولا سيما المتمدّنات الموسرات منهنَّ ، فانهنَّ يترفَّعنَ عن العمل ويستنكفن أن يُشارفنَ شؤون منازلهنَّ بنفوسهنَّ ، فيعتمدنَ في ادارتها على وُصفاء ووصائف ليسوا على شيء من الخلاق ولا إلمام لهم بتدبير المنازل ، او اذا كان لهم بعض الإلمام فهم لا يحرصون على مصلحة مواليهم حرصاً يحملهم على إحكام الادارة . ومما يجدر بأشدّ الأسف ان اولئك السيدات لا يعرفن ما في خزائنهنَّ من الملابس وفي غرفهنَّ من الرياش وفي مطابخهنَّ من المواعين ، حتى لقد تُسلب من صروحهنَّ اشياء ولا يشعرنَ بالسالب ولا المسلوب . . واماَّ النساء

المتوسّطات الحال فانهنّ اذا اضطُررنَ الى مراقبة بيوتهنّ لا يعرفن كيف يضبطنَ ادارتها . وادخل اذا شئت الى بيت احداهنّ واطلب منها ابرةً او زرًّا ثم انظر الى ما يكون من طول تخلّفها عن إحضار مطلوبك حتى لتتولّاك الملالة مهما طالت أناتُك. واذا ساقك الفُضول لحضرت الى بيتها في الساعة التي توزّع فيها على بنيها ثيابهم النظيفة تعرف وقتئذٍ كَم تضيع من الوقت في البحث عن ثياب كلّ منهم ، وتسمع بأذنيك شكايتها المقرونة بالحدّة والغضب من جهل بنيها بل جهلها هي نفسها لملابسهم ، حتى لقد يتشاجرون ويتصاخبون ويتصافعون ويتلاطمون ويتلاحون ويتنازعون تنازُعاً تحسب نفسك فيه أنك امام معركةٍ تكونُ الغنيمةُ فيها لاشدّ المتحاربين بأساً وابطشهم يدًا . فلو كانت هذه السيدة قد الِفت طريقة الترتيب لأفرزت لثياب كلٍّ من بنيها محلًّا في خزائنها حتى تعثر عليها عند الحاجة اليها في اسرع من لمح البصر.

وما قلناه عن السيدات ينطبق كل الانطباق على كثيرين من ساداتنا الرجال ولا سيما ارباب اليسار ، فانهم بسبب الاختلال الواقع في دفاترهم والاضطراب الحاصل في اداراتهم يكادون لا يعرفون ما يملكونه من العقارات . فيتعدّى على حدود اراضيهم الملّاكون مُجاوِرُوهم فيسلخون قسماً منها وهم لا يشعرون .

واذا كان الناس على تفاوت طبقاتهم في افتقار الى الترتيب فلأن يفتقر اليه اصحاب المشاريع الكبيرة والمهن الخطيرة والأعمال الجليلة بالأحرى . لانه هو الذي يقيهم الزلل ويصونهم من الخلل ويُعينهم على الضبط والسداد والإحكام ، فينجزون مايترتب عليهم عمله في الوقت المعيَّن له ، فلا يُضطَرّون الى إرجائه الى الغد او بعد الغد ، على حدّ ما يقع للذين لم يألفوا عادة التنظيم في ادارة اعمالهم فانهم لا يُفردون لكل منها وقتاً يقضونه فيه ، حتى تتراكم عليهم فيعجزون عن انجازها معاً . وحينئذٍ تقضي عليهم الحال ان يعجلوا في قضائها فتأتي مختلّةً مضطربةً ، وربما وقعوا في محاذير تُعقبهم الملامة وتغضّ من قدرهم عند رؤسائهم فيفقدون ثقتهم وثقة الناس معاً .

وفي ما رواه لنا التاريخ عن القوّاد المحنّكين من الانتصارات المدهشة التي احرزوها في ساحات النزال بسبب تنظيمهم لجيوشهم وترتيبهم لأوقات المعارك ، اسطعُ دليل على فضل هذه الخلّة الحسناء . فان نابوليون مثلًا ذلك القائد العبقريّ

المنقطع النظير كان بخططه الحربيَّة المبنيَّة على الفنّ والدُّربة والدهاء يظهَرُ ببضعة آلاف من الجنود على جحافل اعدائه الجرَّارة ، اذ كان يعرف كيف يُنسِّق جيشه ويقسمه الى كتائب وفصائل وثُلَل وفِرَق ، وكيف يُهاجم به حين تُحمد المهاجمة ، وكيف يلزم خطَّة الدفاع حينما تدعوه الضرورة اليه . وبدُربته الحربيَّة وتفنُّنه الغريب كبَتَ عُداة أُمَّته وثلَّ بضعة عروش وحطَّم عدة صوالجة ودحرج جملة تيجان عن مفارق العُهَّال ونصب لواءه المظفَّر في آفاق مُناوئيه وقذف الرُّعب بين جوانح حُسَّاده وترائب شانئيه . .

ومتى عرفت ان المدارس الراقية ولا سيما في هذه البلاد لم تبلغ ما بلغته من الشهرة الذائعة على حداثة عهدها الا بما تبذله من الهمَّة في ترتيب اعمالها والتدقيق في اوقاتها ، وما تصرفه من المجهود في امتحان طلَّابها قبل انتهاء السنة المدرسية حتى توزّعهم في صدر السنة المقبلة على الحلقات التي تناسبهم ، بحيث لا يكون بين طَلَبة كل حلقة تفاوتٌ يُذكر ' ثم متى رأيتَ هذه المعاهد انما انشأت فيها المحافل الأدبيَّة قصدَ ان يتمرَّن خرّيجوها على فنّ النقد فيعرفوا كيف يُنسّقون افكارهم فيما يُقترح عليهم انشاؤه من المواضيع ، وأنَّها تُفرد لطلَبة البيان والخطابة كل يوم زهاء نصف ساعة حتى يُوقفهم اساتذتهم على ما يرونه من الخلل في تقسيم الموضوع الذي أنشأوه ، ثبت لديك أن الترتيب من امتن دعائم الفلاح وأقوى الذرائع الى التقدُّم . .

وغيرُ خافٍ على أرباب الاقلام ، وهم من أنفذ الناس بصرًا وأبلغهم حنكةً ، ما يجنونه من جلائل المنافع اذا جروا على نهج الترتيب فيما يُنشئونه من المقالات وما ينظمونهُ من اللآلئ الشعريَّة . وحسبهم فائدةً من ذلك أن الصراحة تتجلَّى في سماء افكارهم ومعانيهم وتصوُّراتهم وتخيُّلاتهم ، وأن الفصاحة تتلألأُ في مفرداتهم وجُملهم ، والجلاء يجول بين تضاعيف عباراتهم وأثناء طروسهم مهما تفنَّنوا في تراكيب الكلام وتأنقوا في اساليبه . وحينئذٍ تكون تعابيرهم سهلة المأخذ قريبة المنال يتلقَّفها القرَّاء كما يتلقَّفون الماء النمير والشراب العذب السائغ . ولكن اذا كانت مشوَّشة فانه يتعذَّر على متصفِّحيها إدراك معانيها وفهم مغازيها حتى يتولَّاهم السأم ، وفي ذلك ما فيه من الضرر البيّن للكتَّاب والمطالعين معاً . . واسمع اذا شئت خطبةً مُرتجلةً ارتجالاً

او قصيدةً بنتَ ساعتها ، على لُغة بعض الخطباء والشعراء ، ثم انظر الى ما يكون من التأثير في فوأدك أيّاً كان الخطيب وأية كانت منزلته من البلاغة وذلاقة اللسان وأيّاً كان الشاعر وبالغاً مابلغ من الابداع والإعجاب والاتقان . ثم اشهد حفلةً يلقي فيها احد الخطباء اللّسِنين المِصقَعين خطاباً قد أشبع موضوعه درساً حتى قسَّمه تقسيماً شاملًا جليّاً وأودعه من افكاره السامية مايناسب المقام ويشهد بصحة الذوق وإصابة المرمى ، أفلا يكون هـذا الخطيب المفوَّه الرائع أملَكَ لخاطرك وأصيَد للبِّك من الخطيب المُبتَدِه ولو كان دونه بياناً ومقدرةً على التصرُّف في أفانين الكلام وامتلاك ألباب السامعين . .

على أن الشعراء والخطباء والمنشئين والموَألّفين قداخذوا في ربوعنا من عهد ليس ببعيد يُنسّقون مواضيعهم ويُنظِّمون افكارهم بحيث لا يتناولون اليراعة ولا يجولون في ميدان الكتابة أدنى جولة قبل ان يرسموا للموضوع الذي يريدون ان يكتبوا او يخطبوا او ينظموا فيه رسماً تاماً وصريحاً ، وشرعوا يَنبُون ويُعرضون عن كل مايقفون عليه من التصانيف وما يسمعونه من الخطب والمنظومات التي لا تجزئة فيهـا ولا تنسيق . فصرت اذا تصفَّحتَ قصيدة لأَحد الشعراء المعجزين المبدعين تحكم لأَوَّل وهلة انه قد قسمها الى اقسام توافق المقـام وتلائم الموضوع الذي ينظم فيه ، واذا سمعت خطبة لأَحد الخطباء المتفنِنين تشعر من مقدَّمة خطابه أنه وفّى الموضوع حقَّهُ من الدرس قبل ان يقبض على المِرقم ، وأنه أحاط في تقسيمهِ له بجميع أطرافه بحيث تستدلّ من تلك المقدمة المجملة على ما سيأتيه من التفاصيل في سائر اجزاء الخطبة . وأمّا الشعراء الذين لم تسبق لهم جولات في ميـدان النظم فإنك ترى كلَّ شعر من اشعارهم مستقلًا بنفسه منفصلًا في معناه عن غيره ، وكثيراً مايكون مُنافياً للموضوع بعيداً عن الغرض الذي من اجله نظموا القصيدة . وكذلك قُل عن الخطباء المتحذلِقين الذين لم يجروا شوطاً في مضمار الخطابة ، فإن العرَق يتصبَّب من جبينك قبل ان يأتوا على مقدَّمة خطبتهم . واذا أعانك الجلد على أن تُرعِيَهم سمعك حتى يفرغوا من الخطاب ويستوفوهُ ، أفما كنت تُؤثر ان يكون في أُذنيك وَقراً فلا تسمعا ما سمعتاهُ وأن يكون على مُقلتيك غِشاءٌ فلا تُبصرا ما ابصرتاهُ . ومع كل هذه النكبات ينتظر

أُولئك القوم بعد نزولهم من المنبر أن يخفَّ الحُضور من حَمَلة اليراع وأُمراء القريض الى تهنئتهم بأُرجوزتهم التي تشدَّقوا فيهاماشاؤُوا وبخطبتهم التي تحذلقوا فيهاماشاؤُوا. وما اكثر المتحذلِقين المتنطِّعين في هـذه الايام وما أحوجنا الى الكِمامات والمِضخَّات والمِرشَّات والمكانس والمقاذف والمجارف . .

وهل من حاجة بعد ذلك الى حضّ الكتَّاب والطلَّاب على تنسيق افكارهم قبل ان يشرعوا في الكتابة أيًّا كان الموضوع الذي يكتبون فيه . واذا لم يكن لترتيب المعاني وتقسيم المواضيع من حسنةٍ سوى أنهما يدفعان عن الكاتب والشاعر عناء الارتباك ويخفِّفان عنهما مشاقّ التنقيح والتهذيب بعـد انجاز ما ينشئونه لكفى بها حسنةً لا يعرف قيمتَها سوى العلماء المدقِّقين والجهابذة المحقِّقين . . .

ومن آفات هذه البلاد أنَّ أبناءها لا يُراعون قاعدة الترتيب سواء كان في اوقاتهم أم في اعمالهم . ولذلك لا يكادون يُتقنون عملًا ويذهب الزمن عندهم هدرًا . وما كان ضرَّهم لو نُشِّئوا منذ صغرهم على هذه العـادة المحمودة صيانةً لأَوقاتهم من الضياع وتسهيلًا لما يزاولونه من الاشغال ، وحتى يكفوا نفوسهم مؤونة البلبلة ولا يُحمِّلوها عناء العرقلة ، وحتى يأمنوا العقبات ويتنكَّبوا عن المشاكل المعضـلات التي تنتاب في الغالب مَن يقحمون الأمور على غير تبصُّر ويُقبلون على الأعمال بدون تروٍّ ، فيكون حكمُهم حكمَ من يشرع في بناء قبل ان يختطّ له خطَّة جليّـة فيجيء مشوَّشاً مختلًّا لانظام في غرفه ولا تنسيق في ردهاته ، أو حُكمَ المصوِّر الذي يتناول ريشته ويبدأ في التصوير قبل ان يرسم لما يريد أن يُصوِّرهُ رسماً يُعينه على إحكامه ويمهِّد له الطريق الى التأنُّق به ، او حُكمَ النَّحات الذي تطلب منه أن يصنع لك تمثالاً فيأخذ مِنحتَهُ ويطفق في نحت حجر المرمر الذي يريد ان يسوّي منـه التمثال غيرَ ناظر في هيئتك وملامحك وتقاطيع وجهك وأسارير جبينك ، ولا مُراعٍ شكل الهندسة ولا وجوه التناسُب بين الاعضاء . وتأمَّل كيف يكون هذا التمثال بعد كل هذا الاضطراب .

وإنك لتقدرُ ان تعرف مبلغ كل أُمةٍ من الحضارة اذا جُلتَ في عواصمها ومدنها ودساكرها وطُفت في أحيائها وشوارعها وجوادِّها وسوابلها ، وقلَّبت ابصارك في

جنائنها ومخازنها ومنتدياتها وملاهيها ومعاهدها ومعابدها . فاذا رأيتها في جميع ذلك مستوفيةً لشرائط الترتيب فقُل إنها من الامم الحضريَّة المتمتعة بمحاسن العمران ، وإلَّا فاحكم على تقهقرها حكمك القاسي ولا تخشَ ملامة لائم .

ويسوؤنا ان يُصدر علينا أصِحَّاء الذوق هذا الحكم العنيف متى زاروا بلادنا وتفقَّدوا مدننا وتغلغلوا في اسواقنا وولجوا مخازننا ومنازلنا ووقفوا على دفاترنا حتى عرفوا كيف نقضي اوقاتنا وكيف ندير دفَّة اشغالنا . ثم ما عساه ان يتبادر الى اذهانهم يومَ يدخلون محاكمنا ويُشرفون على دوائرنا ، أو يومَ يطلب رئيس من مرؤوسه سنداً لم يُسجَّل بعد فيقضي المرؤوس بضع ساعات يبحث عنه وهيهات ان يهتدي اليه ، أو يومَ يفتّش احد القضاة عن اوراق دعوى رُفعت الى محكمته ولا يعثر عليها الَّا بعد الجهد الجهيد وبعد ان يقضي بضع ساعات في التفتيش . . إنها لحالةٌ محزنة وأليمة من اجدر الاحوال باللهف والبكاء والرّثاء . . . فالى متى تسود البلبلة في شؤوننا ونحن نذوق منها كل يوم ما يُزعج الخواطر ويُدمي النواظر . أوَ ما حان لنا ان نتشبَّه في الامم المتمدنة مُثبتين للعالم اننا من بنيه الاحياء . وما يفيد المرء ان يجمع القناطير من الذهب وصدرهُ معرضٌ كل ساعة لسهام العاذلين وطعنات المعيِّرين . وماذا ينفعنا ان نتمحَّل لنا اعذاراً في ما نحن عليه من الجمود او ان نُحيل العُذَّال على غيرنا ممن يتولَّون أُمورنا ويتقلَّدون تدبيرنا . ونحن لو كنَّا من المنصفين لوجَّهنا الملامة الى نفوسنا فإننا بها احرى . فليأخذ كلٌّ منا في إصلاح احواله وسدِّ خلله ومتى صلحنا صلحت حكومتنا التي نظلمها اذا حصرنا فيها كل ما يدهمنا من الادواء والآفات . وإلَّا جبهتنا ولطمتنا وأَفحمتنا فأخجلتنا بتلك الحكمة المأثورة « وكما تكونون يُوَلَّى عليكم » وما ابلغها حكمةً تنطبق علينا كل الانطباق حتى كأَنَّ هذه الآية الشريفة لم يُعنَ بها غيرنا من أُمم المعمورة

حسن الادارة وسداد التدبير

الرجلُ الحكيم مَن يُحسن تدبير شؤونه ويُحكم ادارة اعماله ويَعرف كيف ينحو مناحي السداد ومذاهب الصواب ، وكيف يتّقي المخاطر ويتحرَّز من المعاثر ويتحامى المزالق ويتجافى عن المداحض لئلا يرتطم في المغاوي ويقع في المعاطب والمهاوي .

ومتى رأيت امرءًا مُختلّة اموره طائشة آراؤهُ مبلبلةً اعماله مفنَّدةً اقواله ، فاحكم عليه بفساد التدبير والزيَغان عن سواء السبيل وارثِ لحاله وانظر الى ما يكون من سوء مصيره وهول منقلبه .

والرؤساء المنوطة بهم شؤون العباد سواء كانوا مدنيين او روحيّين ، اذا لم يكونوا على جانب عظيم من لطف التدبير ، فأحرِ بهم ان يعتزلوا مناصبهم لمن كان ابلغ منهم حنكةً وأبعد نظرًا وأرشد ادارةً ، حذرًا من ان ينصبوا نفوسهم هدفاً للمذامّ والمثالب ويفتحوا بينهم وبين الذين يَلُون شؤونهم هوّةً واسعةً . وأيُّ سهم أحدّ من ان يُقال عن رئيس انه لا يصلح للمنصب الذي يشغله ' وإنه أعجز من ان يتولّى مَقادة غيره . أم اية جريرة افظع من ان يُعرِّض مرؤوسيه لألوف من الفجائع الموبقات لفيالةٍ في رأيه واختلال في تدبيره وقصر في نظرهِ .

ولنا في بطون التواريخ ما لا يقع تحت احصاء من سِيَر الملوك الراشدين والحكّام العقلاء والزعماء الألبّاء الذين بما أوتوهُ من حسن الادارة وحصافة الرأي ورجاحة العقل قد عزَّزوا دعائم سلطتهم ونشروا ألوية سؤددهم وثبّتوا في قلوب رعاياهم قواعد هيبتهم ، فتهيَّبتهم وخافت سطوتهم بل أحبَّتهم احياناً حبًّا يكاد يكون هياماً لما آنست بهم من العطف عليها وحسن رعايتها ومعاملتها بالرفق والحسنى . ثم جاء من أعقابهم من ساءت تدابيرهم وتشوَّشت احكامهم ، فطغوا وبغوا ما شاؤوا ومالوا الى الغلظة والعنف ، فأتوا من ضروب الفظاظة والشراسة والعرامة ما حمل رعاياهم على ان ينقلبوا عليهم ويثلّوا عروشهم من تحت اقدامهم ، فهووا على الحضيض اذلّاء خاسئين

بعد اذ كانت تتعفَّر امام أعتابهم أجبِنـةُ العظماء ويُحرَق حول ارائكهم بخورُ الآلهة .

على أن حسن التدبير ليس من السجايا التي تُغرز في النفس ولا من المواهب التي تُؤتى عفواً ، وانما هو اكتسابيٌّ ينمو في المرء كلّما نمت معارفه وصقلت خبرته وبعدت رويَّته وكثرت استشارته . ولذلك لا ترى له أدنى أثر حيث يُعشِّش الجهل ويستحكم العُجب والصلَف ويُخيّم الادعاء الفارغ والاستبداد بالرأي ، وحيث يتغلَّب التسرُّع على التأني والنزقُ على الرزانة وضيق الصـدر على الحلم والخفَّة على الرصانة والفساد على الصلاح والتشيُّع على التجرُّد ، وحيث يرجح البطل على الحق وتضيع المصلحة العموميَّة بين تيَّار المصلحة الفرديـة ، وحيث يُعمي الاستئثار البصائر فتنحجب الحقائق وتختفي المراشد .

وما اسعد الأمة التي يكون رئيسها على اوفى نصيب من حسن التدبير ، فهي أشبهُ بالمركب الذي يقوده ملّاح ماهر ، فلا يخشى اصطداماً ولا يخاف ارتطاماً ولا يحذر غرقاً مهما تألّبت عليه العواصف وهبّت من حوليه الأعاصير والزوابع . وتراها قريرة العين ناعمة البال هادئة الخاطر ، لا شيء يفسد امورها او يبلبل احوالها ، وهي اعقلُ من أن يحلّ المُفتِنون عُرى الوئام بين ابنائها ، واحكمُ من ان تدب اليها عقارب النمّامين او تطأ أعتاب بلادها اقدام المفسدين . لان عليها رأساً حكيماً ودماغاً مُفكّراً وطبيباً حاذقاً يعرف كيف يداوي العلل اذا تأصّلت اصولها وكيف يجتاحُ الآفات اذا توشّجت عروقها .

وربُّ الاسرة اذا كان على قسطٍ من الحكمة وحسن الادارة يكون شأنه مع اسرته شأنَ الحاكم العـاقل مع أُمّته ، فهو يسهر عليها اشد السهر ويُراقب حركاتها وسكناتها ويقف حتى على ما يجول في خواطرها ويدبّ في ضمائرها وسرائرها . ومتى قرنَ المعرفة بالخبرة لم يخفَ عليه وجهُ السداد ولم يتعذّر عليه ان يُحكم التصرُّف بين اعضاء اسرته مهما تباينوا أذواقاً وطباعاً واختلفوا مقاصد واهـواء . وانه لأَشبهُ بالقاضي النزيه العادل الذي يعرف كيف يحسم الخصام اذا وقع وكيف يُعيد الميـاه الى سابق مجاريها ، بل هو جرّاحٌ جامع الى المهارة الجرأة ، فاذا رأى عضواً زمِناً

مؤُوفاً مدّ اليه مِشراطه ، واذا رأى جرحاً فيه صديدٌ اخرجه منه قبل ان يمتد الفساد الى سائر الاعضاء . وخيرُ وسيلة لاتقاء الشقاق بين افراد كل مجتمع أن يوزّع الرئيس عليهم الأَعمال بحيث يُلقي على عاتق كل منهم عهدةَ عمله ، فلا يبقى عندهم من وقت للفراغ فيقضوهُ فيما لعلّه يوقع فيما بينهم النفرة ويوسع شقّة الخِلاف .

هذا هو المسلك القويم الذي يسلكه ارباب الأُسَر اذا رُزقوا حظّاً من حسن التدبير ، ولكننا نأسف على أنهم قليلون في هذا البلاد ، ولذلك ترى الفوضى بل الفِتن سائدة بين اعضاء كل اسرة ، فلا تكاد ترى فيهم قلبَين متعاقدين ولا روحَين متآلفين . وزُر اذا شئت اسرة ليس عليها مُدبّر رشيد حكيم ، فترى الأم حرِدة غضبى ومن حوليها بنوها يتصاخبون ويتلاطمون ويتقاذفون ويتشاتمون . فاذا همّت بتأديبهم سخروا بها حتى تتوعّدهم بأبيهم ، فاذا عاد الى المنزل ، وهيهات ان يعود اليه قبل هجوع بنيه ، استقبلته بوجه كالح حتى تزيده همّاً على همّ . وكثيراً ما يَدَعُها وشأنها الى ان يُوغلوا في القحة والتصلُّب ويزدادوا على والدتهم اجتراء وبها ازدراء . ومتى ترعرع هؤلاء البنون انقلبوا على والدهم وأغلظوا له في القول وأسمعوه من قوارص اللسان ما ترتجف له الابدان . ولا حرَج عليهم لأَنه هو الذي اطمعهم فيه وأزلّ مهابته من صدورهم يومَ جرّأهم على أُمهم . فتأملوا في هذه الأُسرة التعسة وانظروا الى ربّها كيف يدبِّر امورها والى ربّتها كيف تدير شؤون بنيها .

واذا كان المرء لا بد له من الحكمة والفطانة والحذق حتى يُحسن تدبير امور نفسه فما يكون اشد افتقاره الى جميع هذه الخلال ليُحكم ادارة غيره ، خصوصاً اذا كان من يتولّى شؤونهم على تبايُن في الاخلاق وتضارُب في الآراء وتناقُض في النزعات والأَهواء واختلاف في المقاصد ، بحيث تقضي عليه اطوارُهم المتنافية ونيّاتهم المتدافعة أن يأخذ لكل نزاع يقع فيما بينهم عُدّتهُ الفعّالة متلافياً اياه قبل وقوعه . ولا يخفى على البُصراء المحنّكين ما يستلزم ذلك من العزم والحزم وبُعد النظر وسعة الاختبار ورسوخ الدراية ولذلك قيل : سيّدُ القوم اشقاهم .

ومن هنا يعرفُ اولياء الامور القائمون بشؤون الجمهور ثقل أعبائهم وخطورة مهامّهم ، وكيف يجب ن يتهيّبوا المناصب التي تُسند اليهم وكيف يلزم ان يعتزلوها

اذا شعروا من نفوسهم بالعجز . فَلأَن يلزموا ربوعهم مُقتصرين على ادارة أُسَرهم أولى من أن يُسيئوا التصرف فيُذنبوا الى الأُمة التي تقلّدوا زمامها وفُوِّض اليهم امرُ تدبيرها فلم يُحكموه بل خبطوا فيه خبط عشواء ، حتى ارتبكوا في كثير من المشاكل فألحقوا بنفوسهم اذًى كبيرًا وبالأُمة التي تولّوا امورها ضررًا بيّنًا . وما كان أغناهم عن التعرّض لما تعرّضوا له ممّا حطّ من مقامهم وكشف عن عوارهم .

وهيهات أَن يتسنّى للمرء ان يُدبّر امور غيره اذا كان هو قاصرًا عن ان يدير شؤون نفسه . فاذا رأى الرئيس الأكبر ان يُسند الى احد مرؤوسيه منصباً فلينظر كيف يتصرَّف في اموره ، فاذا كان على سداد ولاّه شؤون غيره ، والا كفاه وكفى غيره مؤونة خرقه وحمقه . وبذلك يتدارك شرَّ سياسته وسوء ادارته ويتلافى ما لعلّه يرشقه به مرؤوسوهُ من سهام التنديد لتوليتهِ عليهم رجلًا اخرق ليس على شيء من المعرفة بوجوه السياسة وأَساليب التدبير .

بقيَ علينا ان نجول باليراع جولة حول إدارة المال وحسن تدبيره وكيفية تثميره . فان الادارة المالية من أوكد الاسباب لإِنماء ثروة البلاد وتوفير دواعي سعدها ومن خير الذرائع لانهاضها من وهدة الإِملاق وإِقصائها عن هاوية الافلاس التي اصبحت على شفاها . فعلى كل منا اذا نزَعت نفسهُ الى اليسر وطمحت ابصاره الى نَعمة العيش وغضارته أن يُحسن الادارة لما اكتسبه من الأَموال بالوجوه المباحة . لان المرء مهما فاضت ينابيعُ المال عليه لا تلبث أَن تغيض اذا فسُد تدبيره وقلَّ اختباره بتنميتهِ والقيام عليه والمتاجرة به . فكم من ثروة فيَّاضة غارت كما يغور المـاء في صدوع الارض ، لان اربابها لم يتفقَّدوها ولم يسهروا عليها ، فتبدَّدت تبدُّدَ الغمام في الليـالي العاصفات . وكم من مُثرٍ كانت خزائنه ملأى من الدنانير الصفر وكان عقارهُ مما لا يُحيط به الطرف ، فأمسى في شيخوخته عيّلًا على مَن كان يعولهم في طور يسره ، وذلك بسبب ما وقع من العجز في ادارته والفساد في تدبيره . ولذلك قالت الحكماء : سوء التدبير سبب التدمير .

ومن آفات هذه البلاد ان اهاليها على العموم يزدرون بالمال اليسير فينفقونه على

غير ضرورة . وقد فاتهم أن الأَنهر الكبيرة انما تتألَّف من السواقي والسواقي من مسايل الماء والمسايل من الرذاذ والوَشَل . وعمركَ الله هل من مُوسر قُيّض له ان يجمع ثروته الغزيرة الثرَّارة بين ليلةٍ وضُحاها . بل ايُّ غنيّ قويَ على الاحتفاظ بما اذَّخره بدون ان يكون لصغير ماله اكثرَ تعهُّداً منه لكبيره . ولذلك قال عتبة لسعد القصر عندما ولَّاه امواله بالحجاز : يا سعد تعهَّد صغير مالي فيكبر ولا تجفُ كبيره فيصغر . وقال بعض البلغاء : القليل مع التدبير خير من الكثير مع التبذير . وقال آخر في هذا المعنى واجاد : يسيرُ المال مع إصابة التدبير أجدى نفعاً من كثيرهِ مع سوء التدبير ، كالبذر في الارض اذا رُوعيَ يسيرهُ زكا وإن أُهمل كثيرهُ اضمحل .

وما اجدرنا في هذا المقام أن نحثّ أبناء وطننا على التشبُّه في أُمة الفرنسيس المشهورة بلزومها حدّ القصد في الانفاق والمعروفة بصدق نظرها في استثمار اموالها وإربائها بما تنشئه من المشاريع العمرانية حتى تنتفع وتنفع غيرها معاً ، بدلاً من ان يخزن متموّلوها الذهب في صناديقهم بدون ادنى ثمرة ، على حدّ ما يفعل اغلب المتموّلين في هذه الاقطار ، فانهم يتهيَّبون كل مشروع فيه خير لبلادهم حذراً من ان يعود عليهم بالخسران ، فيأتي الأَجنبي ويُسابقهم اليه في عُقر دارهم ويستقلُّ بمرافقه حتى كثيراً ما يندمون على ضياع الفرصة التي سنحت لهم ولا ينفعهم الندم .

فيا ابناء الوطن الذين ورثوا الشمم والأَنفة عن اجدادهم الأُباة اقتدوا بالشعوب الرشيدة في مناهجها القويمة ، وأقدموا ايُّها الأَغنياء على الأَعمال الكبيرة وأَلِفوا منكم الشركات واستثمروا بقاعكم الخصبة واستخرجوا كنوزكم من قلب ارضكم الغنيَّة بالمعادن . واذا فاتكم التدبير فاستظهروا بالأَغيار المشهود لهم بسداد الادارة وسعة الحنكة . وكونوا على يقين أن الأُمة الافرنسية لم تبلغ ما بلغته من العظمة والثروة الا بحسن ادارتها لرؤوس اموالها وإقبالها على العمل بنشاط لا يُجارى وهمة لا تُبارى . ولو أَن ما انتابها في ماليتها من الكوارث الجسام ولا سيما بعد الحرب الكبرى قد وقع على رواسي الجبال لضعضعها ونسفها نسفاً .

فاين نحن من هذه الأُمة النشيطة التي هي من اغنى الأُمم زراعةً واشهرها تجارةً وصناعةً فنعمدَ الى التبذير بدلاً من ان نرعى قاعدة الاقتصاد والتدبير في ما

لدينا من المال اليسير . فاذا كان لنا فيما سلف بعض العذر في تخلُّفنا عن المشاريع العمرانية التي تُرقّي بلادنا وتنهض بها من هاوية العسر والخمول ، فايُّ عذر لنا اليوم وقد فُتحت امامنا ابواب العمل واتَّسع لنا المجال الفسيح لتثمير اموالنا . . فهبُّوا اذًا يا ارباب المال الى الانشاءات النافعة لوطنكم ونفوسكم معاً . والا فلا تلوموا الشركات الأَجنبية اذا استثمرت اراضيكم واستغلَّت بقاعكم واستأثرت بخيراتكم ومنافعكم وزاحمتكم على المكاسب في بيوتكم . فان اصحابها اولى منكم بان يحصدوا ما زرعت ايديهم وأن يجنوا ما غرست يُمناهم . واللومُ كلُّ اللوم على من تلكأ عن العمل مع قدرته عليه ، والذنب كل الذنب انما يقع على من فتحت له بلاده باب النجح على مصراعيه ولم يلجه ، وأَرَتهُ ميدان الميسرة والسعة فسيحاً امام باصرتيه ولم يجترئ على مسابقة الأَقران في حلبات المنافسة ، وقعدت به همته الضئيلة عن ان يكون من فتيان النسور في جوّ المجد والعز والمباهاة

الثبات والادمان

ما اكثرَ الناس الذين ينزلون الى ميدان الجهاد فيجرون فيه مع الفرسان اشواطاً ثم ينقلبون عنه لسأمٍ أوهن عزائمهم وفتورٍ حلَّ عُرى نشاطهم ، فيحرمون نفوسهم اكليل الغلبة ويجمعون عليهم الذلَّين : ذلّ الحرمان وذلّ الفشل . وما كان أحراهم ان يقتدوا بذوي العزَمات الماضية الذين يؤثرون العناء على الراحة إدراكاً لما تنزع اليهِ نفوسهم الكبيرة من نبيل الغايات وجليل المرامي .

ولو كان الذين يستحوذ عليهم الشُّبات العميق من الرَّعاع او من ابناء الجهالة ، لكان للبليَّة بهم في فؤَاد الأمة متَّسعٌ من الصبر ، ولكنه يتغلَّب أحياناً على ذوي العقول الثاقبة والمدارك الواسعة في العِقد الرابع او الخامس من العمر ، وهو العِقدُ الذي تنضج فيه الافكار وتعتدل النزَعات وتنمو الدربة وتتَّسع الخبرة وتأصل الآراء ، بل هو العقد الذي يصير فيه المرء رجلاً أيَّ رجل . فاذا تقاعد العالِم الضليع

والمتفنّن الخبير عن العمل في عهـد الكهولية ضاعت على أُمته ثمراتُ علمه ونتائج اختباراته ، وهي من احوج الامم الى هذه الثمرات ، ففقدت كنزًا كان يتعيَّن عليه لو كان بها برًّا ألّا يحرمها اياه إخلادًا الى الراحة الطويلة التي لا تليق بالرجال العظام .

ولأن يطوي المرء بضع ساعات من نهاره في العمل ، ثم يستوفي حظه من الدعة في الشطر الباقي ، أولى من أن يطويه كلَّه في الدأب والجدّ حتى يزحزح بعد سنوات عاجزًا عن متابعة جهاده . لان العمل القليل مع المثابرة والادمان خيرٌ من العمل الكثير الذي يعقبه تبرُّم شديد او ونًى مديد . ولذلك ترى الفرنجة ولا سيما الذين يُجهدون قواهم العقلية في ما يضعونهُ من التآليف النفيسة ، ينقطعون عند المساء عن العمل فيقضون ساعتين او اكثر في المتنزَّهات المروِّحة للصدور والمحافل المفكِهة للاذهان والمشاهـد المطربة للنفوس والمـلاهي المؤنسة للأَبصار ، حتى اذا نالت اجسامُهم وبصائرهم قسطَها من الدعة نشطوا الى استئناف العمل في الهزيع الاول من الليل . وهكذا تنطوي ايامهم على نمط الحكماء ومنهج العقلاء ، وهم انشط من أن يدبّ في نفوسهم الملل ، وأمضى من ان تخور عزماتهم او يتغلَّب على هممِهم الكسل . .

على ان المرء لا يتسنَّى له ان يُدمن اعماله ويَمضي فيها ويعكف عليها ويواليها مالم يألفها ويسكن اليها ، حتى تُصبح ملكةً فيه لا يُطيق عنها انفكاكاً ، بحيث اذا فاجأه من الطوارئ المقعدات ما يُلجئه الى ان ينقطع عنهـا ردحاً من الدهر ، شعر بمرارة تحلو له معها مرائر الأَدوية المستخبثة وتبرَّمت نفسه من الفراغ وآثر ان يكون في سِجن ضيِّق الجوانب ، وهو دائب في عمله ، على ان يكون تحت سماء الراحـة متفرِّغاً بطَّالاً . ولا يستفزنَّك العجب من ان يصير هذا الرجل النشيط الشحِير الى هذا الحدّ من الحرص على وقته الثمين الذي لا يعادله في عينيه المعدن الذهبيّ ولا المنجم الأَلماسيّ . فمتى ادركت مايشعر به من الملاذّ يومَ يقضي وقته فيمايرفع قدره ويُطيّب ذكره ويُجزل اجره مما يعود عليه وعلى أُمته بالفخر الى يوم النشر ، لايبقى في صدرك من مجال للدهَش والاستغراب ولا داعٍ الى ملامـة مَن يُكبُّون على العمل إكباباً وينصبُّون انصباباً حتى لقد يحرمون نفوسهم الراحة وأجسامهم العافية وأبصارهم النور، ويجاهدون جهادًا يفقدهم الحياة قبل ان يستوفوا حظهم منها ولا يبالون . ألا فلنطأطئ

الرؤوس امام هذا الجيش العامل الذي لولاه لما بلغت الانسانية هذا المبلغ من المدنية والعمران وما أُتيح لها ان تبني هذا الصرح الشامخ من المجد بل الهرَم الباذخ من العز ، وما تيسَّر لها ان تجعل من الأَرض جنَّةً علياء وأن تطارد النسور والبيزان والعقبان في القبَّة الزرقاء ، وأن تغوص في البحار على لآلئها فتستخرجها منها وأن تشقّ قلب الطبيعة فتنتزع كنوزها وتحلّ رموزها .

وبديهيٌّ أن ملكة الادمان والمداومة ليست من الهنات الهيّنات بل هي كسائر الملكات لا ترسخ في النفس دفعةً واحدة ، فلابدَّ لها من المُزاولات المديدة والممارسات الشديدة . ولا يقوى المرء على ذلك بدون صبر اذ كثيراً ما يعترضه في سبيله من العقبات الصعاب مايُفني الجلد ويُوهن الهمة ويثلم غرار العزم . ولكنه يتغلَّب على جميع هذه المصاعب ويُذلِّلها ويدوسها تحت قدميه اذا أَلقى نظرة على ما تجنيه يداه من الثمرات الشهيَّات اللذيذات بعد مواظبتهِ على العمل مما تُستعذب معه المرائر وتُستحلى المكاره . .

وأَصلحُ عهدٍ لغرس هذه الملكة في النفس إنما هو عهد الحداثة الغض ، وهو العهد الذي يكون فيه الانسان أَقبَل للتطبُّع والتروُّض واكثر تهيُّؤًا للنموّ الادبيّ والنشوء العقلي . فاذا غُرس في فؤَاد الحدَث الميلُ الى العمل وأُعينَ على تقويته فيه ترعرع عليه واستمسك به بعد نزوله الى ميدان الجهاد كما يستمسك الشيخُ العَتيّ الفاني برمَقه والعليلُ الدنِف بحشاشته والجريحُ المُحتضَر بمهجته .

وحسبُك ان تتصفَّح سِيَر مشاهير الرجال الذين طووا مراحل الحياة في ميادين العمل حتى تعرف كيف كانوا يقضون ايامهم وكيف كانوا على الزمن احرص من الاشحّاء على الذهب . ومن هؤلاء العظام مَن انتابهم في خريف عمرهم داءٌ عُقام أَلزمهم الفراش وقطعَهم عن العمل ، فكان انقطاعهم القسريّ اشدّ وطأةً عليهم من الداء نفسه ، فغادروا الحياة ودمعةُ الاسف تترقرق في عيونهم والحسرة يتأجج أُوارها في صدورهم . .

على ان بعض الآباء يتوهَّمون ان العلل تنتاب بنيهم اذا أَلفوا من صغرهم العمل وأَدمنوه . ولذلك يَرفقون بهم رفقاً يُحبِّب اليهم الكسل ويفسَح لهم مدى الفراغ

حتى يشبّون على التعطّل ويميلون الى البطالة . فدفعاً لهذا التوهّم نقول لهؤلاء الآباء : إن العمل اذا لزم فيه صغارهم جانب الاعتدال هو ابعد من أن يُضعف اجسامهم النضرة او يُوهي قواهم البدنية والعقلية . ونُريد بالاعتدال ان يقضوا بضع ساعات من نهارهم في الدرس ، وتتخلّل تلك الساعات فترات يطوونها فيما يُلهي افكارهم ويريح عقولهم . وحينئذٍ لا يكون عليهم من العمل ادنى بأس . ولقد تنبّهت اكثرُ معاهدنا العلمية حتى الصغيرة منها لمنافع الرياضات البدنية فأوجبوها على الاحداث بحيث لا يُعفون منها احدًا تفادياً من تلك المحاذير .

وبديهيٌّ ان المرء لا يتوقّف نجاحه على اطِّراد الاعمال ، بل لا بدّ له من ان يختار منها ما تُرشد اليه الحكمة وتقضي به الحاجة . وإلّا فأيّ نفع له من ان يعمل سحابةَ عمره ما لا جدوى فيه ولا طائلَ تحته . واقدس الأَعمال ما أَعان المرءَ على قضاء فروضه المترتِّبة عليه لمُبدعه ولنفسه ولأُسرته ولوطنه ، فاذا خرجت عن هذه الدائرة استوجبت الملامة . وأَولى الاعمال بالثناء ما يُكسب حسن الأُحدوثة ويُنيل جميل المثوبة وينفع الأُمة . فلتكن اذًا اعمالنا مُثمرة مفيدة حتى اذا ظعنّا عن هذه الفانية سُطِّر لنا على صفحات التاريخ والواح الصدور ما يُعلي قدرنا ويخلّد ذكرنا ، وقدّمنا من الحسنات الى دار البقاء ما يُجزل عند الله اجرَنا

الاقدام والاحجام

اذا تروّى المرء في مسعى حدّثته نفسهُ بان يباشرهُ فأشبعهُ درساً حتى تناوله من جميع نواحيه ، ثمَّ احتاط لمـا لعلّه يقف في وجهه من العقبات ويُدركه من الموانع المُثبّطات ، كان من العجز أن يتردّد فيه او يحجم عنه حذرًا من أذًى ينزل به اذا اقدم عليه ، وتفادياً من ان يُخفق او يفشل اذا صادمته المشاكل الجسام التي تُضيق ذرعهُ وتُتلف صبره . وكثيرًا ما يكون الضرر الذي يتوقّعه وهميًّا ، وما اكثرَ الاوهام في قِصار الأَنظار وضِعاف الأَحلام ، وما ابعدَ النجاح عن الهَيُوب الحذِر الذي تسنح له فرص الانتفاع ثم يتباطأ عن افتراصها حتى تفلت من بين يديه . ولذلك قيل . إنَّ الفرص فرَّارة والعاقل الشجاع وثَّابٌ عليها ، واماَّ الجاهل الجبان فانه يُعرِض عنها إعراضَ القنَّاص عن طريدةٍ مرَّت من أمامه لئلَّا يُخطىء مرماها فيأتي آخر يتصيدها ويأخذها غنيمةً باردة .

ان الشجاعة هي ولا جرمَ من مناقب الرجال العظام ، فما من بطل مغوار إلَّا ترَّصع صدره بحلاها ولم يُعقد تاج الغار على رأس قائد مدرَّب الا ضفرته له بسالته في ساحات الهيجاء ، وما من مخترعٍ أسعد أُمّتهُ باختراعاته وعزّز الانسانية باكتشافاته الا كان متجملًا بهذه الخلة الحسناء ، لأن الاختراعات كثيرًا ما تكون بين المصاعب التي ينفدُ دون تذليلها الجلد وتكتنفها المعضلات المُقعدات التي تعجز عن حلّها الحيل . فاذا لم يكن المخترع كبير القلب بعيـد الهمة عيل صبرهُ وتولّى خاطره الملل لأول صخرة يرتطم بها فلا يلبث ان ينقلب عن عمله الذي اخذ فيه فشِلًا جَزُوعاً ، وما اكثر الاخفاق مع الجزع .

ولنا بكريستوف كولومب مكتشف العالم الجديد أدلُّ دليلٍ واثبت برهان على محاسن الشجاعة وفوائد الاقدام ، فانه لولا جرأة جنانه وشدة مضائه لارتدَّ عمَّا رمت اليه ابصاره من المرامي الشريفة يومَ تألَّب عليه الحسدة ووشى به الماقتون المفسدون ، ولم تفتأ فكرةُ اكتشافه في فؤاده تُذيب لفائفه كما تُذيب النار الشمع ،

ورحل عن دار الجهاد يتنفس الصُّعداء ، وهو شاخصُ البصر الى العالم الجديد الذي كان لذلك العهد غاصاً بملايين من اخوانه في البشرية ، وجميعهم متوغلون في سباسب الغباوة والعماية ومتسكّعون في غياهب الهمجيَّة والغواية ، لا عقائد عندهم فتردَعهم عن المنكرات ولا شرائع ولا حدود فتزَعهم عن المحظورات ، وكانوا يعيشون عيشة البهائم يصول بعضهم على بعض ويبطش اقوياؤُهم بضُعفائهم على حد ما هو جارٍ في اليوم القارَّة الافريقية التي لم تطأها بعد اقدامُ الحضَريّين ولم تنتشر فيها انوار المبشرين الراشدين

ومن تصفح التواريخ يرى كثيرًا من الأَمثال على منافع البأس والاقدام ومضارّ الهلَع والإِحجام . فكم من قائد غضنفر غُلب على امره وافلت من بين يديه الظفر لتردُّده في خوض معمعةٍ كان النصرُ له فيها على ادنى من قاب قوسين لو دفع الى ساحات العراك جحافلَهُ اللجبة وزحف على العدو بكتائبه الجرَّارة . ولكنه تهيَّب ان يُنازل مُناوئيه في حين انهم اقلُّ منه عددًا وعُددًا ، فجنى تهيُّبُهُ عليـه وعلى بلاده جنايةً اورثتْهُ العار وكتبت على جبينه وجبين أُمَّتهِ من ذلّ الهزيمة ما لا يدرس رسمُهُ أبدَ الدهر . وكم من امرىءٍ فُتح امام مقلتيه بابُ النجح على مصراعيهِ فولجهُ غيرَ هيَّاب ولم يثبِّط عزيمته الماضية ما صادفه في وجهه من العِقاب . فأصاب في سنوات قلائل ثروة فيَّاضة يعزُّ على المتأني المتردد جمعُ معشارها في برهةٍ من الزمن .

ونحن يُشجينا كثيرًا أن نرى المتموّلين في هـذه الأصقاع ، وقد أنشبت في قلوبهم الهيبة اظافرها الحادة ، يتقاعدون عن المشاريع العمرانية والانشاءات الاقتصادية ويفسحون للشركات الاجنبية أن تُقدم عليها معوِّلةً على ما في صدور اعضائها من همم نهَّاضة وعزائم وقَّادة وما في أدمغتهم من شهُب الدراية والدربة وحسن الادارة وبُعد النظر ، فتستدرُّ منها المرابح الجزيلة والمرافق الجليلة ، ونكتفي نحن بان نجمد امامها ذلك الجمود الشرقي الشائن مقتصرين على التنديد بها والتظلُّم منها والحملة عليها في صحفنا ومجالسنا ومنازلنا ، وأن نستصرخ سكَّان الغبراء والخضراء أن يُقصوا عنا هذا الكابوس المزعج ويحلُّوا من اعناقنا هذا الخِناق المؤلم . وما كان اغنانا عن مثل هـذه الشكاوي التي لا تليق بأباة النفوس لو كان اصحاب الرساميل عندنا ، وكثيرٌ ما هم ، يعقدون فيما بينهم الشركات من كل صنف ثمَّ يقبلون على انشاء المشاريع الحيويَّـة

المفيدة التي ترقّي البلاد وتكفي شبّانها المُعطَّلين مؤونة البحث عن عمل يضمن لهم معايشهم، فيقاسون في هذه السبيل من الهوان والامتهان ما يذهب بما بقي في صدورهم من الأنفة والإباء، وهيهات ان يقعوا مع ذلك على مرتزَقٍ يُغنيهم عن قرع الابواب وطأطأة الرؤوس. ومما يُؤسف له ان الذين يتزاحمون على ابواب الشركات تزاحُم العُفاة المستعطين أغلبُهم من نخبة الشبيبة وصفوة العلم والأدب ممن تخرجوا في المعاهد العلمية الكبرى واحرزوا الشهادات العالية الناطقة برسوخ اقدامهم في المعارف والفنون الجميلة ودرسوا عدة لغات كانوا فيها من المبرّزين. اوَ يجمل بموسرينا ان يُغضوا الطرف عن فتيان البلاد ومحور آمالها حتى يضطروهم الى ان يهرقوا ماء وجوههم امام الأغيار ويخنعوا لهم خنوع العبد لمولاه.

وكيف تكون حال هؤلاء الشبّان يومَ ينقلبون عن تلك الاعتاب أَخسّاء اذلاء يتعثرون في اذيال المهانة والفشل، وهم يتأوّهون من سوء حظهم ونكد طالعهم متلهّفين على المبالغ الباهظة التي انفقها آباؤهم على تعليمهم بدون جدوى متأسفين على السنين الطوال التي قضوها في التحصيل ولم يستثمروا منها سوى الأَسف والالتياع والخيبة. وهل يلومنّهم لائم اذا حرّقوا الأرّم على المثرين الذين يكتنزون الكنوز في مخابىء اخفى من قرى النمل، ويدّخرون الدنانير في انفاق أشبه بالدياميس. ولا يُقدمون على مشروع يفتحون به منافذ الأَمل ومذاهب الفرج لابناء قومهم الهائمين على وجوههم والضاربين في كل بيداء يَبتغون لهم عملًا يرتزقون منه فلا يعثرون عليه..

ايها الموسرون المستقلّون باموال الأمة اعلموا ان الثروة التي اذّخرتموها انما جاءتكم من البلاد التي استخدمتم عمّالها في مصالحكم واستثمرتم اراضيها ولا تزالون تمتصون دماء بنيها. فعارٌ عليكم ان تستأثروا بمرافقها وتدعوا شبيبتها تتضوّر جوعاً وتُوسَعُ ذلًّا، او تضطروها الى الجلاء عنها تعيُّشاً واسترزاقاً. اوَما كان الأجمل بكم ان ترفقوا بأُمّتكم التي تتبهنسون تحت سمائها وتتهادَون بمطارف العز والخيلاء في باحات مدنها وشوارعها، وتنظروا نظرةَ عطف الى بنيها الذين ضاقت في وجوههم مذاهب المعاش فتعينوهم على عيالة نفوسهم بما تنشئونه من الانشاءات العمرانية التي تنفعونهم بها وتنتفعون. ولا يخفى عليكم، وانتم من ادرى الناس بأحوال البلاد،

ان الأُمة بعد ان شعرت بفوائد المشاريع العمرانية قد نهضت نهضة واحدة وانصرفت انظار بنيها ولا سيما في المهجر الى القيام بمثل هذه المشاريع المفيدة . فانضموا انتم الى هذه الفئة الناهضة وأَلِفوا الشركات لانجاز هذه الاعمال الخطيرة حتى يكون لكم يدٌ فيها وتكتب اسماؤكم في عداد المشتغلين بمصلحة الأُمة واسعادها في هذا العهد الجديد . وإِيَّاكم ان تتهيَّبوا المصاعب او تستسلموا للمخاوف والأَوهام فان لكم في الشركات الأَجنبية وما تُصيبه من الأَرباح اكبر منشِّط الى مجاراتها في مضمار العمل ومنافستها في الانشاءات النافعة التي تنتظرها الأُمة من حميَّتكم الوطنية ونخوتكم القوميَّة . فإلى الأَمام يا رجال الإِقدام .

الاحكام والابداع

كثيرون ينصبُّون على العمل انصباباً يحدِّث عن جلد راسخ رسوخ الجبال ومضاء لا يعرف السأم ولا الكلال ، ومع ذلك لا يُفلحون او لا يصيبون من العوائد بقدر ما يعانون ، على حين ان غيرهم ممن يحترفون حرفتهم نفسها يحرزون في بضع سنوات ثروة واسعة وشهرة عريضة مع انهم لا يدأَبون في اعمالهم بقدر ما يدأَب أُولئك . ولعلَّ الناس يعزون ذلك الى الحظوظ وهم لو تدبَّروا لأيقنوا ان اكثر العراقيل التي يصادفها المرء في سبيله وتحول دون تقدمه ونجاحه لا يد للحظ فيها ولا علاقة ، وانما تنشأُ في الغالب اما عن عجلته وغفلته وجهله او عن خرقه وسوء تدبيره وتبلبل آرائه الى ما هنالك من الاسباب التي يتعذر معها الفلاح . على انه اذا جاز لنا ان ننسب شيئاً الى الحظ لا تصح هذه النسبة الا نادراً والنادر لا يقاس عليه . وقابل اذا شئت بين رجلين يتعاطيان مهنة واحدة فاذا استقريت احوالهما وتتبَّعت مجرى حياتهما بانَ لك السرُّ في فلاح الاول وخيبة الثاني وظهر لك السبب ظهور الشمس في رائعة النهار . ترى الاول قد احكم مهنته كل الاحكام حتى اقبل الناس عليه من كل صوب ووثقوا

به كل الثقة ، واما الآخر فلم يتقنها ولذلك لم يفز من الاقبال بما فاز به رصيفه . أوَ يحق لنا بعدذلك ان نقول : هو الحظّ حتى يمهّد عقبات النجح في وجه هذا ويضع السدود المتينة في سبيل ذاك . . ان اكثر النـاس يعتمدون على الحظوظ فيخيبون واما الذين يعوّلون على نفوسهم فهم المفلحون ولكنهم قليلون . .

على ان الاعمال لا يتسنى للمرء ان يُحكمها مالم يُجهد في مزاولتها ذهنهُ ويطيل أناتهُ ويُنفد صبره حتى يصبح من ارباب الحذق والخبرة فيها . وكل مهنة تستدعي من الادمان والنشاط والمعالجة بالقياس الى خطورتها فربما قضى المرء حياته كلها قبل ان يبلغ الغاية التي يرمي اليها من إحسان عمله وإتقان مهنته . ولقد عرفنا كثيرين من اصحاب الحِرف الصعبة المراس وسمعناهم يقولون بعد ان طووا الشطر الاكبر من حياتهم في معاناة حرفتهم : إننا لا نزال نشعر بما نحن عليه في صناعتنا من العجز والقصور ، فاذا كان غيرنا من العبقريّين قد بلغوا قمّتها فنحن لا نزال في سفحها ، ولعله يصير لنا إلمام بها اذا أنسأ مُوزّع الاعمار في اجلنا . .

والعقلاء لا ينظرون الى الاعمال من حيث كثرتها او قلّتها بل من حيث اجادتها والتأنّق فيها . فرُبّ عملٍ كان مدعاةً لاسعاد صاحبه وسبباً في اعلاء شأنه واحياء ذكره ولذلك قيل : قيمةُ المرء ما يُحسنه . ولكم من مكتشف لم ينقل لنا التاريخ عنه سوى اختراع جليل خدم به الانسانية خدمةً دوّى صداها في المعمور حتى تناقلتها القرون عصراً فعصراً ولم تقوَ على طمس اثرها ومحو ذكرها . وكم من عالم علّامة اغنى المكاتب بتصانيفه وشغل المطابع بتآليفه ثم انطوت آثارهُ بعد وفاته كما انطوى جثمانه في رمسه ، وما ذلك الا لانـه لم يُحسن الوضع ولم يحكم النسج ولم يمحّص ما كتب ولم ينخل ما نشر . وهذه آفة اكثر العلماء في هذه الانحاء فانهم يُعنون بأن يكثروا من التآليف في مواضيع شتى ثم ينشرون ما يضعونه بدون تهذيب وتنقيح حتى يموت بموتهم ، وانما يحملهم على هذا الاكثار طمعُهم في نيل الشهرة وتخليد الذكر حتى يقول عنهم الناس انهم من العلماء العاملين الذين تركوا لبلادهم ما لا يحصى من المصنّفات . ويا ليتهم لم يُخلّفوا الا سفراً واحـداً يغذي النفوس ويحيي القلوب ويُنير البصائر بدلاً من ان يضعوا مئة من الكراريس والروايات ، فيتعذّر هضمها

وتثقل على بعد مطالعيها فيطرحوها حتى في حياة اصحابها مع المهملات المنبوذات كأنها من سقط المتاع . ومن الغريب ان يقع بعض الكتّاب في مثل هـذا الغرور وان يعلق في اذهانهم من مثل هذا الوهم الفاضح ، وهم لو نظروا الى من تقدّمهم من الائمة المحققين لعرفوا ان الذين خلّفوا مؤلَّفاً فذّاً ولكنه فريد في بابه رائع في أُسلوبه قد تخلّد ذكرهم وتركوا لمن بعدهم كنزاً ثميناً لا ينفد ومعيناً غزيراً لا ينضب ماؤه ولا ينقطع وُرّاده ، واورثوا أُمتهم فخراً عظيماً واكسبوها مجداً اثيلًا تتباهى به في مواقف المفاضلة والمفاخرة على توالي الاحقاب

وكم من عامل جنى على نفسه بتسرّعه واغفاله فسُدَّت في وجهه ابواب النجح بعد اذ كانت مفتوحة له على مصاريعها ولم يكن عليه الا ان يلِجها عن طريق الحزم والضبط والإحكام .

ومن آفات أُدبائنا في هذا العصر أنهم لا ينزلون الى ميدان الكتابة حتى تطمح ابصارهم الى الشهرة ، فيأخذون في نشر ما تجود به قرائحهم من المنظوم والمنثور قبل ان يصح مذاقهم وينضج فكرهم وتتّسع مداركهم ، وقبل ان ترسخ قدمهم في اللغة ويأمنوا العثرات في مجالاتها المستوعرة ، وقبل ان يتضلعوا من الصرف والنحو والبيان ويتعمقوا في علم المنطق فتأتي منشوراتهم كأنها فاكهة فِجّة او عصيرة مُزّة ، وربما تناهى في رؤوسهم العجب حتى ابرزوا تلك الآثار المشوّهة الى عالم المطبوعات ، فلا يلبثون ان يندموا على تسرّعهم بعد ان تتسع دوائر معارفهم فيطّلعوا على هفواتهم ولا يبقى في يدهم حيلة لتدارك خطإهم . واذا تصدّى لتخطئتهم بعض المنتقدين المدقّقين انثلم حدّ نشاطهم وربما نفروا من مهنة الادب وحوّلوا وجوههم الى سواها فيأذون نفوسهم وبلادهم معاً . ونحن نعرف غير واحد من شبّاننا الاذكياء الذين أُصيبوا بهذا الداء مع أنهم لو تأنّوا في كتاباتهم وأرجأوا نشرها الى ان يستبحروا في العلوم ويصيروا من معرفة اللغة وضوابطها على حال تُعينهم على التفنّن في الانشاء والتصرّف في اساليب الكلام لكانوا من انفع الاعضاء لبلادهم ومن اقوى اركان العلم والادب . وغاية ما نتمناه لهم ان يتشبّهوا في العلماء المحقّقين الذين يحذرون اشدّ الحذر من نشر ما تخرجه اذهانهم المولّدة خوفاً من الانتقاد . وهم لا يعلّقون اهمية

على كثرة التآليف بل على التجوُّد فيها، فربما اقتصروا في حياتهم على مؤلَّف واحد فجاء آية الآيات في الإحكام وغاية الغايات في الإبداع والإعجاز حتى انتفعوا ونفعوا البشرية به وبقي بعد رحيلهم عن هذه الفانية من انفس الآثار التي ازدانت بها خزائن العلم ومن أجمل التآليف التي ترصَّع بها صدر الادب ، ولا يزال حتى اليوم بين ايدينا من مثل هذه المناور الزاهية ترسل الى الالباب اشعة الحكمة والسداد وأضواء الحقائق الساطعة والمحاسن الباهرة والمبادئ الشريفة الحرة . واذا تصفَّحنا سِيَر اعاظم الرجال ولا سيما المكتشفين والمؤلِّفين نرى اكثرهم قد اقتصر على مؤلَّف فرد ولكنه واسطة في عقد العلم ومورد من اعذب الموارد . وهذا ابو بشر عمر الملقَّب بسيبويه لم يضع الا مصنَّفاً واحداً اطلق عليه اسمه نفسهُ ، فكان ولا يزال مرجع النحويين واللغويين ، عليه يعتمدون وبنبراسه يستصبحون . وابن المقفَّع امير المنشئين قد ترك كتابين اوَّلهما اليتيمة وهو عربيٌّ الوضع والثاني كليلة ودمنة وهو معرَّبٌ على وجهٍ ينتهي عنده الاعجاز ويبلغ فيه الابداع اقصى مداه ، وحسبك بشهرة هذين المؤلَّفين ما يغنينا عن الاسهاب في وصفهما ، وأيُّ كاتب عربيّ لا يحوم على هذين الموردين الصافيَين ولا يستعذب ماءهما السلسال . وأسعدُ الكتَّاب حظًّا من يوفَّق الى تحدّي ابن المقفع في اسلوبه الانشائيّ والضرب على غراره . ولكن أنَّى لهم ان يجاروه في هذا الميدان وهو فارسه المغوار الذي لا يُشقُّ له غُبار . .

والعلماء اذا لم يصرفوا قُصارى المجهود في اتقان ما يضعونه من الأَسفار يذنبون الى نفوسهم والى أُمتهم . أمَّا الى نفوسهم فلأنَّهم يعرّضونها للانتقاد ويغضّون من مقامها العلميّ ومكانتها الادبية بركوبهم متن الشطط فيما يكتبونه على غير تروّ وإمعان نظر حتى يجيء مبلبلًا مضطرباً فتخمد انفاسه في زهرة العمر قبل ان يستوفي حظَّه من الحياة . وأمَّا الى أُمتهم فلأنهم بهذه البلبلة يحرمونها ثمرات علمهم ويحبسونها عن نتائج اختباراتهم الطويلة فيؤذونها من حيث لا يشعرون ، والوفاء يقضي عليهم ان يُمحضوها العمل ويُخلصوا لها الخدمة حتى يُفيدوها كما استفادوا منها . وكذا قُل عن سائر ابنائها من تجَّار وعُمَّالٍ وصُنَّاع فإنهم اذا لم يحذقوا مِهنهم ولم يُحسنوا اعمالهم ولم يُتقنوا مصنوعاتهم اسقطوا بلادهم من عيون الاجانب ولحقهم من ذلك ضررٌ

بيّن لا يخفى على العقلاء مقداره . وكل من في فؤاده حميّة وفي معطسه شمم يأبى ان تكون أُمته في مؤخرة الامم علماً او ادباً او صناعةً او تجارةً او زراعةً ولذلك لا يألو جهداً في إحكام مهنته حتى يُحرز شهرةً يعلو بها قدره وقدر بلاده معاً . والذي لا يبالي بوطنه ان يكون غضيض القدر وضيع الشأن خبيث السمعة فأجدِر به ان يُكفَّن حياً . والذي يستثمر ارضاً بدون ان يعمل فيها فهو ألأم من لص ٍ وأسقط من وغد . وما مثله الَّا مثلُ راعٍ قاسٍ يستنزف حليب شاء مولاه بدون ان يُطعمها حتى تهزل وتموت . .

ومن المستغرب ان المرء معما غُرز في طبعه من الميل الى المجد والشهرة والسعادة تراه في الغالب لا يُجوّد عمله ولا يُبرم حرفته . وهذا ناشئ إمَّا عن رضاه بحظه او عن قصر نظره في نتائج الإخلال ، وقد يكون عن وهن في همته وانثلام في عزيمته او قلة خبرة في صنعته او تسرُّع في عمله الى ما هنالك من الاسباب التي يتعذَّر معها التأنق والاجادة . ومتى انتشرت هذه الشوائب في أُمةٍ خبا نجم سؤددها ونضب معين ثروتها ووقف دولاب تجارتها وانحطَّت صناعتها حتى راجت في اسواقها المنسوجات والمصنوعات الاجنبية وبارت المحُوكات والمصُوغات الوطنيَّة وهنا الخراب بعينهِ . وكيف يكون لك أملٌ بأُمة تختنق بيدها متاجرها وتُغلق معاملها وتُكسد ما تنبته اراضيها

على أنه لا يكفي لاحياء البلاد وإنهاضها من وهدة الخمول ان ينشط فيها افراد يُحكمون مهنهم ويُحسنون القيام بأُمورهم ، بل لا بدَّ لها من ان تسير كلُّها على اقوم منهاج من التأنُّق والانقان في جميع ما لديها من الصنائع والحِرف وما تزاوله من العلوم والفنون حتى اذا ادركت الغاية من الاجادة والحذق والابداع اقبل الناس على شراء ما يخرج من حقولها ومصانعها ونما روح المنافسة بين اهليها حتى لقد يتسابقون في كل مجال ويتبارون في كل فن . وخيرُ ذريعة للتنافس والتباري ان تقام في عاصمة البلاد ومدنها الكبرى اسواق ومواسم تُعرض فيها اجود السِلع واحسن الاصناف من كل ما تُنتجه الارض وتصنعه اليد ، وتُعيَّن للمتفوّقين جوائز سنيَّة تُرهف الهمم وتبعث على التسابق في كل مضمار . . .

على هذه الخطَّة السديدة جرت الأُمم الناهضة الرشيدة وكان لها من ورائها

الفلاح الذي ارادته في جميع شؤونها واعمالها ، ولذلك تراها اليوم قابضة على نواصي المدنية والعمران سابحةً في ميدان التفنن والتأنّق محلّقة في جوّ الاختراع تُنبت كل يوم اكتشافاً من ابدع الاكتشافات وتولِّد معجزةً من اغرب المعجزات . وأمّا الشعوب الخاملة فحيثما ضربتَ بنظرك الى مبانيها العلمية والادبية وكيفما سرَّحته في معاملها ومتاجرها لا يقع الا على ثغور واسعة تضيع فيها المنفعة والشهرة حتى تمتهنها عينك ولا يُشفق عليها فؤادك . وما كان ضرَّها لو ضبطت امورها واحكمت مهنها وفنونها وتأنقت في اعمالها تأنقاً يضمن لها اليُسر والاشتهار والعزّ والازدهار . .

وحقيقٌ بالأُمة اذا كانت عند هذه الدركة من الانحطاط أن ينبّهها عقلاؤُها في كل فرصة الى الاذى الجسيم الذي يلحقها من اختلال شؤونها وفساد أعمالها . وليحضُّوها على التشبُّه بالامم الماهرة الحاذقة التي لا تعرف ما الوناء ولا تغفل طرفة عين عن مباراة غيرها من الامم النشيطة في مجالات التقدم وساحات الاتقان . واذا كان تقويم الاغصان الصلبة من المستصعبات فليقوّموا اللينة فانها أقبَلُ للتثقيف وأطوَعُ للتسديد . ونريد بهؤلاء الاغصان أحداثنا النِضار الغِضاض فاذا عُوّدوا منذ نعومة اظفارهم الاقتصار على عمل واحد ، بحيث لا ينتقلون الى سواه مالم يوفُّوه حقَّهُ من التجوُّد ، ألفوا من هذا العهد ان يتأنقوا في اعمالهم تأنقاً يُبشِر بمستقبل باهر ولا سيما اذا عمَّ رجال الغد وسرى في جسم الامة سريان الدم في عروقها .

هذا هو الدواء الحاسم الذي نصفه لداء الاختلال والاضطراب المتفشّي فينا من قرون طوال وهو الحائل دون تقدُّمنا . فعسى ان يحفل رؤَساء المعاهد واساتذتها الكرام بهذا الامر الجلل حتى ترى ابصارنا من ناشئنا الغضَّة الرجالَ الذين تفتقر اليهم البلاد وبدونهم لاتخطو خطوةً الى الامام . وحريٌّ بالمعلّمين وهم من ابصر الناس بفنون التربية واخبرهم بمحاسنها ألّا يثقِلوا على ذاكرة الطلبة بكثرة المحفوظات ولا يُرهقوا أذهانهم ولا يبرموها بوفرة الدروس ولا سيما اذا كانت صعبة المأخذ عسرة المتناول ، فان درساً واحداً اذا فهموه حقَّ الفهم لخير من عشرين مع التبلبل والتشوُّش ، ولغةً واحدة اذا مهروا فيها لأَفضل من بضع لغات لا يُلمُّون بها الا بعض الالمام ، وانشاء رسالة متقنة في عشرة سطور لأجدى نفعاً من نسج رسالة طويلة الاذناب ليس

فيها شيء من محاسن الانشاء . ومعلومٌ ان الاعمال اذا ضاق الوقت عن استيعابها وقع فيها الوهن والخرق والاضطراب . ومتى ألف الصغير السرعة في العمل واعتاد البلبلة كانت أُموره مختلّة وعباراته ركيكة ومعانيه سقيمة مبتذلة ، وجرى على هذه الخطّة العوجاء حياته كلّها فتأمل . . .

على ان في بلادنا عدّة موانع تحول دون الاتقان عدا التي اوردناها وأهمُّها الطمع في الارباح وفي اجور المستخدمين ، فان صاحب المعمل مثلاً بضنّه على عمّاله بالجعائل التي يستحقُّونها يحملهم على التقصير في مهنتهم وقلة العناية بما يعهد اليهم فيه من الاشغال حتى تفسد وتضطرب . وبذلك يكون لنفسه اشدّ إيذاء منهُ لعملته ويكابد من المخاسر اضعاف ما كان يُكابدهُ لو انصفهم في اجورهم .

وعلى اصحاب المعامل قِس التجّار والملّاكين والمزارعين والحاكمين وارباب المعاهد والمصارف الذين ينفسون على المقيّدين بخدمتهم ، فلا يؤدون لهم الوظائف الراضية التي تعادل جدارتهم ومقدرتهم واخلاصهم ونشاطهم وسعة خبرتهم ، ولا يجودون عليهم بشيء من المكافآت المنشّطة الى ان تفتر هممهم وتخور عزائمهم ، وربما بلغ منهم اليأس الى ان يتقاعدوا عن قضاء الواجب ، وفي ذلك ما فيه من المضارّ الفاحشة لكلا الفريقين مما لا يحتاج الى برهان . وهذا على ما نرى من اهم البواعث على وقوع الخيانات في دوائر الحكومات والمصارف والشركات وبيوت التجارة وغيرها . ألا فليتّقِ الله المديرون والرؤساء في مستخدميهم ولا يطمعوا في عرق جبينهم . وليعلم الحكّام ان الأذى الذي يصيبهم انما يُصيب الأُمة الجانب العظيم منه لأن المحاكم اذا تبلبلت ووقع خللٌ في الأحكام او بطء في الدعاوي فتضرَّرت الأُمة ايّ تضرُّر . وفي كل يوم نرى من الحوادث المؤلمة في الادارات العموميّة ما يستوجب أشدّ الاسف .

ومما يدعو الى التشوُّش والاختلال ويحول دون الاتقان ان المرء يتعاطى عدّة اعمال في وقت واحد بحيث يتعذّر عليه ان يتروّى فيها ويتأنى في عملها فيرتبك كل الارتباك وتخفى عليه وجوه الرشد والصواب ، فلو اقتصر على عمل واحد ولم ينتقل الى غيره الا بعد إنجازه لأحكمه أيّ إحكام . ثم ان الكثيرين في هذه البلاد ولاسيما الصحافيين والمنشئين ينكبُّون على الكتابة انكباباً مجهداً حتى تكلّ قرائحهم

وتهن قواهم ، ومع ذلك فلا يتركون القلم قبل ان يفرغوا من تحبير ما شرعوا في انشائه . وكيف يتسنَّى لهم ان يتأنقوا في ما يكتبون مع هذا الاجهاد العقليّ . أوَما كان اجدى لهم أن يدعوا اليراع فورَ شعورهم بالعناء ، أوَما كان من الحكمة أن يجعلوا بين المقالة والمقالة فترةً يُريحون فيها خواطرهم واجسامهم معاً حتى يستأنفوا العمل بارتياح ونشاط . وعندنا ان الاقتصار على منشئٍ واحد لصحيفة كبيرة تصدر كل يوم هو من اهم الاسباب في تأخر الصحافة الوطنيَّة ، لأَننا نعرف كثيرين من منشئيها على بسطة من اللغة العربيَّة ولهم قلم سيَّال وقريحةٌ فيَّاضة ، ولكن ليس لديهم فسحة من الوقت حتى يدبّجوا مقالاتهم ويوفُّوا الموضوع الذي يجولون فيه حقه من الدرس والتفرُّس فيجيء على غير ما يأملون ، ولهم عُذرهم . وكيف تريد ان يُتقن الصحافيُّ مهنته وهو سابحٌ في هذه اللجَّة من الاعمال وكثيراً ما يُضطرّ الى مراسلة المشتركين في جريدته وضبط حساباته ومقابلة زوَّاره وتسقُّط الاخبار واستقصاء الحوادث الى غير ذلك من المهامّ مما يستلزم جيشاً من العاملين . ولو اتفق اصحاب هذه المهنة على نشر ثلاث جرائد في هذه العاصمة وألَّفوا من مجموعهم شركة واحدة لجمعوا قواهم وكان لهم من وراء ذلك الفائدة التي يتوخَّونها ، وليس ذلك بمستصعب مع قليل من التضحية وشيء من التروّي في حسن العاقبة . وحينئذٍ يتفرغ كل منهم للكتابة في الفرع الذي هو ضليع منه وماهر فيه فيقضي نهاره كلَّهُ في تنميق مقالة لا غير . وهذه هي الطريقة الرشيدة الجاري عليها ارباب هذه المهنة في البلاد الراقية وهي التي سمت بالصحافة الى المرتبة التي نراها فيها .

وكنا نودّ لو تختصّ حكومتنا المخترعين والمبدعين والمتفنّنين والمتفرّدين ببعض جوائز جديرة بالاعتبار حتى ينشطوا الى الاكتشافات وترقية المعارف والفنون فان ذلك من اقرب الذرائع الى التقدُّم وتمهيد عقبات العمران . ولا نخالها إلَّا فاعلة بعد أن رأت من نوابغ الأُمة وارباب المضاء والحميَّة فيها هذه النهضة الجديدة التي نعدها من تباشير الفلاح ومخايل المدنيَّة .

واقلُّ ما نعقده على همم العلماء المدّققين والكتبة المتضلّعين والحكماء الراشدين الذين هم اعلام الامة ووجهة ابصارها ان يكونوا خير أُسوة لسواد الناس في الضبط

والتدقيق حتى اذا نمّق الإتقان آثارهم العلمية وحبّرت الحكمة مقالاتهم الادبية ومحّصت الروّية كتاباتهم السياسية والاجتماعية ودبّجت النزاهة مواضيعهم الوطنيّة امست البلاد كالخمائل الغنّاء تستمتع النفوس بريّاها وتتملّى الانظار مُحيّاها . ونحن اليوم في عصر تكسد فيه سوق البضائع والمعارف اذا لم تتلألأ على وجهها مسحة الرونق والرواء ولم تبدُ على جبينها آيات الطلاوة والبهاء . فليتخذّ كل منا اذاً للفن الذي خطّبه ذوقه السليم وليتفنّن فيه تفنّناً رائعاً يسترقّ به القلوب وليُجِد فيه اجادةً تذيع في عالم الابداع ذكراه وتجعل له مقاماً رفيعاً في قلوب رصفائه المتفوّقين الألبّاء . ومتى نهجنا جميعنا هذا النهج القويم نصبح في مقدمة الشعوب العاملة اليقظى ونهدي كل يوم الى المجتمع من نوادر اذهاننا ولآلئ ألبابنا ما تزدان به متاحف العلوم والفنون وترتاح اليه عيون الآداب . وما أروعَ العهد الذي نرى فيه بلادنا الحسناء محجّة الأجانب يختلفون اليها للتفكّه بثمرات عقولنا ومبتكرات خواطرنا وروائع منسوجاتنا ومصنوعاتنا كما نتردّد نحن اليوم الى الممالك الزاهية للاستصباح بأنوار بدورها . وان هذه الامنية المطربة لا نخالها بعيدة العهد اذا اخذنا من اليوم نُتقن شؤوننا ونسدّد اعمالنا ونحكم تصرّفاتنا مقتفين آثار الحكماء الذين يضعون الامور في مواضعها ويُجرون الاحكام في مجاريها ويتأنّقون فيما يعملون وفيما يقولون حتى يأتي محكم الصنع جامعاً لاطراف الإعجاز غاية في التأنق والإبداع .

تصفح الاعمال والاقوال

اعقلُ الناس من تصفح كل يوم اعماله وتدبَّر اقواله ولم يدع منها كبيرة ولا صغيرة، جليلة ولا دقيقة، الا اجال فيها فكرته، حتى اذا بدا له فيها خلل سدَّه في الغد تفادياً من اتّساعه، او عنَّ له فساد أصلحه قبل استفحاله، وتحامى فيما بعد ان يقع فيما وقع فيه من العثرات وتحرَّز من الأسباب التي توررّطه في الورطات وتعرضه للمعضلات والارتباكات.

واغبى الناس من يغفل اموره ولا يعبأ بما يورثه الاغفال من المضارّ الجسام، حتى تتوالى هفواته وتتعاقب غفلاته وزلّاته وتتألَّب عليه المشاكل فتسد في وجهه المراشد، والله اعلم بما يكون من مآله وكيف يكون سوء حالهِ. ولما كان المرء مفطوراً على اللهو كان سريع الزلل كثير العثار. فاذا لم يتروَّ فيما يعمله ويقوله، ثم لم يتصفح في المساء ماباشره في النهار من الأعمال وما فاه به من الاقوال، ازداد كل يوم ضلالاً على ضلال وفساداً على فساد، والف الخطأ والخطَل وأغرق في الخرق وأفرطَ في الحمق حتى يتعذر عليه ان يرأب في ما بعد صدوعه ويسدّ ثُلَمه.

ومن الحقائق الراهنة ان ابعد الناس مدى في ميدان النجح ومذاهب السداد اكثرُهم تصفُّحاً لما يعملون واوفرهم تفقُّداً لما به ينطقون. لان المرء اذا اجال كل يوم فكرته فيما فعل وراجع ما دار على اسلات لسانه قلما يعثر، واذا عثر مرةً لا يعثر أخرى، لانه بهذه الطريقة السديدة يعرف اين زلّت قدمه فيتجنب المزالّ والمزالق، ويرى كيف هذر وهرأ فيتجافى عن الهذيان والثرثرات ويحترز من البوادر والنزقات.

والليلُ هو من خير الأَوقات لتصفُّح الأَعمال واجالة الروية فيها، اذ يكون المرء قد انقطع عن مشاغله ومهمّاته وتفرَّغ لمناقشة نفسه الحساب على ما تولّته من الاعمال وما نطقت به من الاقوال. وبناءً عليه فاذا نشر الظلام ثوبه المخمليّ فمزّقه ايها المستيقظ المستبصر بانوار نبراسك، ثم اعرض على بصيرتك الثاقبة كل ما اتيته وتفوَّهت به في نهارك، حتى اذا عثرت على شيء يُفسِد سمعتك او يزعزع الثقة بك بادرت في

الغد الى تدارك الخطإ واصلاح ما افسدتَ ، فرارًا من ان تتمرّغ نفسك في حمأت المكاسب المحظورة والمطامع المنكرة التي اقلُّ ما فيها أَنها تُفقد ضميرك الطمأنينة وتجمع عليك التبِعات .

وبديهيٌّ ان الحكّام والرؤساء هم الى هـذه المزية الباهرة احوجُ من سواهم اليها ، اعتبارَ انهم اذا زلُّوا مرة قولاً او فعلًا كانت زلّتهم وبالاً عليهم وعلى امّتهم التي يَلُون امورها . ومن المحال ان يُحكموا ادارتها ويُحسنوا تدبير شؤونها على ما تقتضيه الحكمة اذا لم يُفردوا كل ليلة ساعةً من ساعات فراغهم ، يُمرّون فيها على محكّ النقد والتجرُّد والنزاهة كلَّ ما انفذوه وامضوه ، وما جرى عـلى السنتهم من الاحاديث سياسيَّةً كانت او اداريَّةً ، معما اتخذوه من التدابير الرشيدة لتنظيم ما اختلّ ومداواة ما اعتلّ وتقويم ما انحرف عن جادّة الصواب والعدالة من الأَحكام والإِجراءات ، حتى اذا لاح لهم شيء من فيالة الرأي وسوء التدبير في ما انشأوه ووطَّدوا العزيمة عليه ، تلافَوهُ في الغد واحترسوا ايَّ احتراس من معاودته لئلا تزلق بهم القدم في الأَيام المُقبلات ، فتهوي بهم الى حيث لا يأمنون وبيـل المغبات ولا يسلمون من نبال الانتقادات والنخزات النافذات .

وكلُّ من يشغلون مهنة من المهن التي لها صلةٌ بمصلحة الجمهور لامندحة لهم عن ان يتفرَّسوا ويتثبتوا في ما يعملون ، لان خطأهم انما يقع ضرره عليهم وعلى مَن استنام اليهم ووثق بهم من سواد النـاس ، فالطبيب مثلًا مهما طال امر مِراسه للطب ومهما اتسعت خبرته به ، قد يخطىء حيناً الداء والدواء معاً وان اصابهما احياناً ، فكان عليه والحالة هذه ان يدقق ايَّ تدقيق في استبانة ادواء أعلاَّئه ، حتى اذا بدت له شبهةٌ في علة احدهم ارجأ وصف الدواء الى الغد لعله يقف على تلك العلة وعوارضها في المطوَّلات من كتب الطب التي بين يديه ، او يرجع في ذلك الى طبيب امهر منه فيهديه السبيل الأَمين . على انه اذا بقي بعد كل هذه التحوُّطات على شي من الريبة فليُحِل المريض على طبيب احذق منه لئلا يوبقه بعلاجه . ولَأَن يُقال عنه انه قاصر في مهنته أولى من ان يغرّر بعليله ويعرّضه للهلكة . وليت شعري ايَّة خيانة افظع من

ان يؤمّن المرء على الارواح ثم يخاطر بها كأنها من الحشرات التي لا قيمة لها والهوامّ التي لا يُؤبَه لها .

ومما يؤسف له اشد الأَسف أَن بعض الأَطباء اذا استُدعي لمعالجة مريض يصِف له الدواء قبل ان يتحقَّق الداء ، فاذا استُعين بغيره من الاطباء فعارَضَهُ في تشخيص المرض اخذ يكابر وأبى ان يُذعن للحقيقة ولو مسَّها بيديه وأبصرها بأُمّ عينيه ، بحيث يوقع المريض واهله في حيرة وارتباك ، فلا يدرون كيف يتصرفون ولا أَيَّ رأي يتبعون . افما كان الأَجدر بهذا الطبيب الصلب الرأي ومن كان على شاكلته من المتطبِّبين المكابرين ان ينظروا الى ضميرهم في هذا الموقف الحرج ، وان يُحكموا مهنتهم قبل مزاولتها ، او لا يعارضوا على الأقلّ مَن هو انطَس منهم من رصفائهم الحاذقين اذا دُعوا جميعاً لمداواة احد الأعـلّاء تفادياً من ان يقتلوه بمكابرتهم او بجهالتهم . ألا فليعلموا ان ارواح العباد هي ثمينة عند اصحابها ولذلك يتعين عليهم ان يستفرغوا مجهودهم لاتقان حرفتهم الخطيرة ، ولا يقتصروا على الحدّ الذي بلغوه في عهد الدراسة . فان الاكتفاء بهذا القدر يحول دون احكام مهنتهم والتفنّن فيها ، وفي ذلك ما فيه من الأَذى لنفوسهم وللأعلّاء الذين يداوونهم . اوَ ليس من اللؤم والجور ان يُرهق الطبيب عليله باجرته الباهظة وسيّان عنده أكان له من المُبرئين ام من القتّالين . اوَما يكفي السقيم الهزيل من بلاء الدنيا أنه حُرم العافية ، وهي لديه من اسنى النعم بعد الحياة ، بل هي والحياة في نظره متكافئتان متعادلتان ، وربما آثرها احياناً عليها ولا سيما اذا يئس من الشفاء او كانت علته مما يُعال معها الصبر ويضيق عن تحمل مضضها الصدر . ألا فاتَّقوا الله ايها الاطبّاء العاجزون المتمخرقون في مرضاكم السيّئي الحظ ، فلا تزيدوهم ضنًى على ضنى وألماً على الم .

هذا وما سقناه الى الاطبّاء من النصح نسوقه الى كل ذي مهنة حرّة لها علاقة في الناس بوجه العموم كالمحامين والصيدليّين والصحافيّين والمؤلّفين والمؤرخين والخطباء والأساتذة ، فان كلّاً من هؤلاء وأضرابهم تقضي عليه مهنته الشريفة ان يوفّيهـا حقَّها من الأمانة والجدارة والنزاهة والصدق ، بحيث يتأنّى في ما يكتبه ويقوله ويعمله وينشره ، وينظر فيه مليّاً خصوصاً في المساء اذ يخلو الى نفسه فتنجلي له الحقائق

في مرآة صافية لا غبار عليها . لان مَن عاهد الناس على ان يمحضهم الخدمة ويُخلص لهم قولاً وعملاً عارٌ عليه ان يُواربهم ويُخاتلهم ويُكاتمهم الحق الصراح ويُخفي عن ابصارهم وبصائرهم ما يُرشدهم الى محاجّ الهدى ومناورِ السداد .

وأحرِ بالتجَّار أن يتصفحوا في الليل اعمالهم ويراجعوا حساباتهم ناظرين في ماعقدوه في النهار مع عملائهم من المعاملات والمعاهدات ، فانهم بذلك قلما يركبون متن الشطط ويكونون غالباً في مأمن من الغفلة والذهول والغلط . وليتحرَّزوا ان يؤجّلوا ذلك الى الغد اوالى مابعد الغد لئلا تتراكم عليهم الأشغال فيعجزوا عن ضبط إداراتهم وتدارك ما فات والتنبُّه لما غفلوا عنه وتجنُّب ما سقطوا فيه . وحقيقٌ بمن تهمُّهم معالجة مسائلهم بالحيطة والحزم ان يلزموا هذه العادة المحمودة التي تكفيهم مؤونة الاهمال وتدفع عنهم اجسم المضرات وتسكب عليهم اغزر الخيرات .

وأجمِل بالصغار ان يألفوا منذ حداثتهم هذا المسلك الأمين حتى اذا اعتادوا ان يتصفحوا اعمالهم واقوالهم مساء كل يوم بعد انصرافهم الى اسِرَّتهم أمِنوا مدى حياتهم الزلل وسوء مغباته وكان لهم الفلاح مضموناً والرشاد ملازماً .

وانت ايها الفتى المائس عجباً واختيالاً انفرد بنفسك كل ليلة لترى كيف قضيت نهارك ، فاذا قرأت على لوح ضميرك ما يُبكّته وينخسه من شوائن الأعمال وفواحش الأقوال ، فاندم على ما اقترفت وكفِّر عنه في الغد ولا تُضيفنَّ مساوئ الى مساوئ ومنكرات الى منكرات . وانتم ايها الآباء اطلقوا انظاركم في ما ارتكبتموه من التفريط في تربية بنيكم حتى اذا لذعتكم ضمائركم لافراطكم في الرفق والحنان آخذتم نفوسكم على تقصيركم وتلافيتم في ما بعد ان تعودوا الى مثله لئلا تُدهوروا اولادكم وتقذفوا بهم في مهاوي الشقاوة والغيّ .

وحبذا يومٌ نرى فيه الأمة دائبةً في تصفُّح ما تعمل وما تقول ، فانه اليوم الذي ينبثق فيه فجر العز والمجد وتتألَّق شُهُب الرشد وتفيض ينابيع الرغد والسعد ، وحسبُك به يوماً غزير البركات كثير الحسنات .

الامانة

هي الأُسّ الوطيد الذي قامت عليه صروح المدنية والدرّة اليتيمة التي راع جمالُها الفتّان فؤاد البشرية ، ولولاها لتبلبلت المعاملات وتشوّشت الادارات ونقضت العهود وهُضمت الحقوق وهُتكت المحارم وانحلّت عُرى الائتلاف وغارت الثقة وانتكث حبل الامن وتكدرت مجاري الراحة حتى لا تُطعَم العيون الكرى ولا تعرف الضمائر السكينة ولا تشعر القلوب بالدعة والطمأنينة .

ومهما اختلف الناس في الاعمار والاطوار ، ومن اية طبقة كانوا واية مهنة احترفوا ، وبأي خدمة تقيّدوا ، فلا بد لهم من ان يتحلّوا بهذه الحلية الرائعة التي بدونها لا تستقيم لهم حال من احوالهم الاجتماعية والسياسية والادارية والعمرانية والاقتصادية ، ولا غنى لهم عن ان ينهجوا منهجها السويّ في افعالهم واقوالهم وتصرُّفاتهم ومواثيقهم ، والّا تنغّص عيشهم ولم يهدأ لهم بال ولم يقرّ لهم قرار

واذا نظرنا الى الامانة من جميع وجوهها نراها ذات خمسة قيود لا يحلّ المرء عنقه من احدها حتى يجترح جرم الخيانة ، وهو يتفاوت في الجسامة تبعاً للضرر الذي ينجم عنه .

اما القيد الاول فقد جعله الله في اعناق عباده يوم سنّ لهم شرائع اوجب عليهم ان يرعوها ووضع لهم حدوداً نهاهم عن ان يتعدّوها ، فاذا اقترفوا المعاصي كانوا خُوّاناً وحمّلوا نفوسهم تبعاتها الفادحة وجشّموها عقوباتها القاسية .

واماً الثاني فهو يقضي على المرء ان يرعى عهد الامانة لنفسه وذلك بأن يكون لها مخلصاً وبسمعتها ضنيناً وعلى شرفها حريصاً ، فلا يرتكب دنيئةً تُشوّه محيّاها ولا يجترح خيانةً تغضّ من مقامها ولا يألف عادةً تسترقّها ولا يأتي عملاً يُخزيها ولا يُقدم على شيء يؤذيها .

وأعقلُ الناس الناصحون لنفوسهم الساهرون على محارمها الأَوفياء بعهودها الحراص على مصالحها المترفعون بها عن الخسائس والمطامع المرغّبون لها في المعالي المحلّقون معها

في جوّ الشرف والمجد الموفّرون لها دواعي السعدوالعزّ المنطلقون بها الى مروج الخير ومناجع الهناء ...

وأجهلُ الناس مَن يقذف نفسه في مهاوي الغرور ويُقحمها المهالك ويُلبسها العار ويطوّقها اطواقَ الذلّ والهوان ويجعلها غرضاً لنبال الملامة والتثريب وعرضةً للطعن والذمّ والتعيير. ومتى غرّر المرء بنفسه ينقض ذمامها، فيخوض بحور المنكرات وتتقاذفه الاهواء حتى تخنقه الرذائل وتلقيه في قعر الشقاء حيث لا منفذ للأمل ولا مذهب للفرج. وأيّ خير يُرجى من امرئٍ يخون نفسه وكيف تأمل ان يكون وفيًّا بعهود غيره وهو لا يفي بعهد نفسه، أَم كيف يكون لأَبناء وطنه ثقةٌ به وسهامهُ لا تزال مسدَّدةً الى صدره وسيفه لا يفتأ محكّماً في رقبته ويده لاتبرح قابضةً على روحه، يُهِمُّ كل ساعة بالانتحار ولا يطيب له الا مهابط المهانة ومصارع الشنار والبوار.

وأَمَّا القيد الثالث فهو يُلزم المرء ان يكون مخلصاً لمهنته، فلا يعرّضها للامتهان والمذمَّة ولا يقصِّر في قضاء مايترتب لها عليه من الواجبات السامية والحُرُمات المقدسة

وأَمَّا الرابع فهو يحتم عليه ان يصدق قريبه الخدمة ويقوم بما له عليه من الفروض ويُفرغ في نفعه جهده ولا سيما اذا كان من بطانته ومن اقاربه الأَدنين. فاذا شحَّ على أُسرته بما يضمن لها الراحة في معيشتها أَو حبس عن اخيه في الوطنيَّة والانسانية خيره و إحسانه، أَو فرَّط في شيء من الواجبات التي تُلقيها على منكبه سُنَنُ العدالة والنزاهة والوفاء، ارتكب اثم الخيانة وخرق اقدس الحقوق ونقض أَشرف العهود..

وأَمَّا الخامس فانه يوجب عليه ان يبرّ وطنه ويحسن خدمته ومراعاته في السرَّاء والضرَّاء، ويفديه بماله وروحه كلما دعاه الواجب لفدائه، ويَقف على تعزيزه قلمه ولسانه وكل ما يملكه من المواهب العقلية والطبيعية، وأن يكون غيورًا على شرفه وطيب احدوثته، فلا يأتي عملًا يشينه ولا منكرًا يلطِّخ جبينه، ويصرف مجهوده كله في توثيق روابط الولاء والالفة بين ابنائه ..

هذه هي القيود التي يتعيَّن على المرء ان يتقيَّد بها حتى يُعد من الابناء الأُمناء والخُدَّام الأَوفياء. وما اسعد حظَّه اذا دقَّق في صيانتها كل التدقيق فانه يُرضي

مبدعه الازلي ويتجنَّب مساخطه ، ويجعل لنفسه مقاماً رفيعاً في القلوب ويُكسبها الثناء الخالد ، ويُشرّف مهنته ويعزّزها ويُعلي شأنها بتحاميه كل ما يعيبها وتحاشيه عن المطامع التي تُدنّس بُردها ، ويكون له في صدور ابناء وطنه اسمى مكانة وفي أفئدة اهله أعلى منزلة بما يصطنع عندهم من الصنائع وما يُفيضه عليهم من الحسنات . واما وطنه فانهُ بعد ان يرى منه ما يرى من آثار الغيرة والمروءة والحميَّة يُنوّه بفضله في كل منتدى ويباهي بمفاخره في كل محضر ويرعى له في صدره اجمل ذكر . وكفى بذلك باعثاً على التجمُّل بهذه الحلية الحسناء . ولكن ما أقلّ الامناء في الدنيا وما اكثر الخوَّان .

واذا داخلك ريبٌ في ذلك فأَرعِني سمعاً لاسرد لك حديثاً يُوقفك على ما هو جارٍ في هذه البلاد مما يصدع فؤاد الامانة ويكشف النُّقُب عن وجوه الخيانة . وهاك شيئاً مما يقع في معابد الله ، وهي المواضع المقدَّسة التي يجب على الورى ان يطأطئوا فيها الرؤُوس تهيُّباً وتعظيماً ويُعفِّروا الجباه تيمُّناً وتكريماً . فاذا جئت احدها في أيّ عيد او أيّ موسم شئت فقف هُنيهة امام رتاجه فتُبصر بعينيك ما يُدميها من مؤلمات المناظر وتسمع بأُذنيك من المناسمات ما تشمئزّ منهُ الالباب وتنقبض عنه الخواطر . هناك ترى الأوانس مُقبلاتٍ على هذا المقدِس المهيب وهنَّ من الزينة على أوفى نصيب ، في اثواب شفَّافة تكاد تستر من اجسامهنَّ ما دون الصدور وفوق الرُّكب ، وسواعدُهنَّ عوارٍ حتى في البرد القارس ، وعلى وجوههنَّ الصقيلة نِقابٌ من الطلاء قد أُشرب حُمرةً وبياضاً مُمتزجين امتزاجَ الماء بالراح ومُؤتلفَين ائتلاف الفرقدين ، لا يُطيق احدهما عن الآخر انفكاكاً ، وعلى شفاههنَّ القرمزية ما تتفاقم به البليَّة ، وقدجززنَ عِقاص شعورهنَّ من القِذال كما طلَّقن الحياء وخلعنَ العذار . والشبَّانُ الغواة واقفون في تلك الساحة على احسن هندام يُجيلون انظارهم الوقحة في تلك التماثيل المتحرّكة والدُّمى المموَّهة والغصون الميَّاسة ، وربما تبادلوا واياهنَّ نظرات الهيام وبسَمات الغرام . وإني لأَعجب كيف يجسر عباد الله ان يخونوا الله حتى في مقادسهِ ومعابده ويخرقوا أقدس محارمه . وأيُّ فرق في عيون هؤلاء الخُلعاء بين بيوت الصلاة والسجود والعبادة ، ودور التمثيل والملاهي ومغاني الخلاعة . أَوَ يلومنا لائم بعد هذه

الفواحش اذا قلنا لتلك الفتيات: الزمنَ خدوركنَّ ولا تُدنِّسنَ المساجد، ولأُولئك الفتيان تهيَّبوا بيوت الله ولا تجعلوها مغاوِر للصوص واسواقاً للاهواء.

ودونك شيئاً مما يجري في الأُسر بين رجل خليع شرس الطباع بذيء اللسان وقرينةٍ جسُور قد أَلف لسانها الهجراء واعتاد الهُراء وزلّت هيبة زوجها من فؤَادها وكرهتهُ كل الكره، وطاب هو عنها نفساً ونفر منها اشدَّ النفور. فاذا عاد في المساء الى بيته دخلهُ وشِرارُ الغضب يتطاير من عينيه والبغض ثائر في صدره يحاول الوثوب من بين شِدقيهِ، وامرأته الحمقاء واقفة في زاوية بيتها تتحفَّز للنزاع وقد أعدَّت له العُدَّة، فلا يفوه احدهما بكلمة حتى يقع بينهما العراك والبراز واللِّكام والشِّتام لأَقلّ سببٍ او لغير ما سبب، واولادهما الصغار يشاهدون هذا المنظر المحزن والدموع تنهلّ من عيونهم، وعويلُهم يشقُّ حجاب السماء، فاذا شبُّوا أفلا يذكرون عرامة ابويهما وخشونتهما وشراستهما، أَوَ ما يتطبَّعون بطباعهما ويسلكون مسلكهما، أَوَ ما يستخفُّون بهما كل الاستخفاف حتى لقد تسرع ايديهم الى لطمهما كلما اخذتهم الحدَّة عليهما. فما اجهل الوالد الذي يلقِّن بنيه في صغرهم هذا الدرس الضارّ حتى يترعرعوا على القسوة والفظاظة، وما ابلَه الزوج التي لاتداري زوجها ولا تعرف كيف تستميله اليها بالمراعاة والملاطفة والملاينة فانها من أسوإ النساء حالاً وأشقاها مآلاً. وحسبها من عذاب الدنيا أنها لا تذوق في حياتها طعم الراحة ولا يصفو لها عيش. أَوَ تظنّ هذين الأبوين على شيء من الامانة لوطنهما او لأبناء وطنهما وهما يدوسان عهد الزواج المقدّس وكل ما يقضي عليهما به من تبادل الحبّ والوئام وتربية بنيهما على مخافة الله وغرس المبادئ السامية في قلوبهم وتنشئتهم على الاخلاق الكريمة والشمائل العالية والمناقب الجميلة. أَوَ يحسن بهما ان يجعلا من بنيهما لبلادهما ذئاباً خطفة ولصوصاً مكرة وأفاعي سامّة وعقباناً كاسرة ووحوشاً جارحة، أَوَ يزكو بهما ويليق بشرفهما ان يطبعا على جبين أُمّتهما عاراً لا يُمحى يومَ تتوغَّل بناتهما في ميدان الخلاعة ويروّجن سوق الدعارة والعهارة..

ثم انتقل معي الى مصرف على رأس ادارته رجلٌ لئيم خائن لايبالي بشرفه ولا يحفل بسمعتهِ ولا بسمعة مصرفه، ولا يهمّه ان يُخاطر بأموال الناس معرّضاً إيَّاها

للتلف والخسار ، فيخوض ميدان المضاربات والمراهنات والمقامرات ويُطلق لنفسه العنان في مذاهب الاسراف والتبذير حتى يُنزف ما في صندوقه من المال ، واكثرُهُ لليتامى والقُصّر والارامل وبعضُهُ ودائع وامانات . وربما اشرك في سرقته بعض مستخدميه الذين هم على شاكلته لؤماً وظلماً . ولا تسل عما يُقدمون عليه بعد ذلك من ضروب الاحتيال متى آنسوا من مديرهم الخيانة والمكر . واحضر الى هذا المصرف يوم يُعلَن افلاسهُ وشاهد بمقلتيك كيف تتساقط البصقات واللعنات على وجوه صاحبه ومديره ومستخدميه الذين هم أشبه باللصوص والسفّاحين يغتصبون اموال الناس ويهرقون دماءَهم ، وربما كانوا اشدّ من السفّاكين ضرراً اذ كثيراً ما يخنقون الامل في صدور اصحاب الاموال، فيخنقون معهُ ارواحهم ويُفقدونهم الراحة في دنياهم ويعرّضونهم للشقاء والعذاب . وأية خيانة افظع من ان يُبذِروا في وجوه اهوائهم اموالاً ائتمنهم عليها اصحابها، وهم بين يتيمٍ قاصر وأيم عاجزة، وشيخٍ هَرِمٍ وعليلٍ ضنيك، ومُقعَدٍ مُنزَوٍ في بيتهِ ، وكسيحٍ يعتمد في مشيهِ على عكّازهِ وفي معيشتهِ على مالٍ اودعهم اياه ، على امل ان يعيش مع التقتير برباه الزهيد ، فطمعت فيه نفوسهم النهمة الساقطة واسرفته بدون شفقة .

ثم اصحبني الى مخزن كبير مشحون ببضائعَ اكثرُها لأرباب المعامل في اوروبا، وقد اضرم صاحبه فيه النار بعد أن استأمن احدى شركات الضمان على سِلَعِهِ ومحتوياته بمبلغ فاحش يفوق قيمتها أضعافاً . ولو انحصرت النار في مخزنه لانحصر الضرر في الشركة الضامنة وكانت البلية محتملة، ولكنها اندلعت السنتها الى المخازن المجاورة فالتهمتها بما فيها واكثرُها غير مضمون . فتأمل في الخسائر التي انزلها هذا التاجر السافل بالتجّار جيرانه حتى افقدهم رؤُوس اموالهم وسدَّ في وجوههم ابواب الامل. وكلُّ ذلك طمعاً في مال حرام يريد ان يختلسه من شركة الضمانات اختلاساً فلا يهنأ به عيشه ولا يسكن معه ضميره . ولكن كثيراً ما يثبت عليهِ جرم الحريق عمداً فتقتصُّ منهُ الحكومة اقتصاصاً عنيفاً هائلاً يجعله من ازجر العِبَر لأمثاله الطمّاعين الانذال

على أن الخيانة الفرديَّة وان كانت من افظع الجرائم فهي لا تزال اصغر جرماً من التي يجترحها المتولُّون شؤون الأمة المؤتمنون على مصالحها، وقد عاهدوها على ان

يخلصوا لها الخدمة وينصحوا العمل ويدافعوا عن حقوقها ويذودوا عن حياضها ويهتمّوا بمنافعها ويوفروا اسباب سعدها ويُنموا موارد ثروتها ويمهّدوا عقبات نجاحها ويوطّدوا قواعد عزها ويثبّتوا دعائم الأمن والراحة فيها. والزعماء الذين بايديهم ازمّة البلاد تقع عليهم كل التبعات ولا تطالب الأمة غيرهم بما يقع من الخلل وما يحصل من الضرر.

وكيف يكون حالها اذا ابتُليت يوماً بحاكم او رئيس يقضي بالجور ويتحامل على الضعيف ولا يعمل الا بما يُمليه عليه الهوى ويلقّنه اياه الغرض ويوحيه اليه الأصفر البرّاق حتى تضيع الحقوق ويسود العسف وتتفشّى الرشوة وتُدفن النزاهة.

على ان الضرر يبلغ آخر حدوده اذا قلّد الحاكم مناصب القضاء والادارة رجالاً عُرفوا بالعجز والضعف وسوء التدبير، ولهم ماضٍ مُلوّث بالرّشى وملطّخ بالمظالم يشهد عليهم بما انزلوا ببلادهم من الخسائر الفادحة والأضرار الفاحشة. ولا ريب ان الأمة التي لا ينبو جنبها عن مقاعد الذل والعار وتُغضي طرفها على الضيم هي من الامم المنحطّة الجديرة بان يطمع فيها القوي ويحتكم في شؤونها المستبدّ الجائر، والحريّة بان لا يفارق عنقها النير وقدميها القيد. اما الأمة التي يسري في عروقها دم الشرف ويخيّم في صدرها الإباء فهي لا تطيق الهوان ولا تصبر على الظلم. ونحن لا نتصدّى بكلامنا هذا لرئيس بعينه ولا نعرّض باحد من القضاة بل نريد كل متسلّط خائن يبيع قومه بدينار ويجعل ضميره العوبةً في ايدي الاهواء. فاذا كان لدينا من امثال هؤلاء الخوَنة فأخلق بالأمة اذا كانت على شيء من الشمم ان تناهضهم بمجامع قواها وتكرّ عليهم الكرّة بعد الكرّة حتى تدحرجهم عن كراسيهم، ومتى فعلت ذلك تمحّصت مجالس القضاء والادارة من كل خائن لئيم ومرتشٍ ذميم.

ومهما يكن إثم الخائنين فهو دون الإثم الذي يرتكبه الآباء اذا قصّروا في تنشئة بنيهم على المبادىء القويمة والأخلاق الكريمة، لان ضلوعهم تنطوي على حنو طبيعيّ بالغ من الشدّة مبلغاً قصيّاً، بحيث اذا لم يحرصوا على خير اولادهم كل الحرص ولم يصرفوا جميع قواهم الى تهذيبهم على وجهٍ يضمن لهم السعادة ورخاء العيش، خالفوا ميلهم الطبيعيّ وعصوا العوامل القويّة التي تدفعهم للتهالك في منفعة حشاشات مهجهم

وحلّوا الرابطة المتينة التي تربط الآباء بالبنين . . ولا يخفى ما يقع من الضرر الجسيم على المجتمع اذا اغفل الوالدون تربية اولادهم او فرّطوا فيها، فانهم يعرّضونهم للأدواء الاجتماعيــة الوبيلة ، فتتعاظم الشرور وتتفاقم الآفات وتكثر العاهات حتى يهبط في وهدة الشقاء وتتضافر عليه عوامل الدمار والفناء ، وايّ مصير اسوأ من هذا المصير ام اية عظة ابلغ من هذه العظة . .

وان الأمانة لتُستحسن على الخصوص عند الخلّان المرتبطين بعهود الولاء، فانهم اذا اتخذوا لهم الأمانة في حيــاتهم دليلاً دامت مودتهم وثبت ولاؤهم وغزرت مناهل انسهم وصفت ايامهم من كل كدورة وتعزّز جانبهم وقويت شوكتهم ، لان الأَمانة تُوجب عليهم ان يتناصروا في جميع حاجاتهم وشؤونهم ، وأن يؤيّي احدهم الآخر اذا نابته ملمّة ويهديه سواء السبيل اذا ضل،ويعينه اذا نزل به ضرر ويحذّره اذا رآه على خطر،ويشاطره بلاياه ويقاسمه رزاياه ويؤنسه في خلوته ويقوّيه في محنته، ويعزيه في علته وينصح له عند تهوّره وتورّطه ، ويُقصيه عن شفير المهالك ويدافع عن عرضه وسمعته ويفديه بماله وروحه الى ما هنالك ممــا تقضي به الأَمانة ويرشد اليه الوفاء .

وهنا نثني اليراع عن تتبُّع ما بقي من ضروب الخيانات واساليبها الفظيعة مما أشبعنا فيه الكلام في ما سلف لنا من المقالات ولا سيما التي عنوانها «الثقة والنخاسة» . فاذا اعدنا ذكره هنا كنا كمن يُعيد الضرب على وتر واحد ولو كان النغم مرقصــاً مطرباً والصوت شجيًّا رخياً .

وما احسن الجولان في مجالات الأمانة والنزاهة والانفة والشرف والصــدق والوفاء والاستقامة والاخلاص، فان القلم ليهتزّ بين اناملنا جذلاً اذا اجريناه في هذه الحلبات المجيدة ، وفؤادنا يتمايل فخراً وطرباً اذا حلّقنا به في سماء المفاخر والمآثر حيث تتجلّى نجومنا الثواقب وتتألّق بدورنا الدوارى . ولا يتبادرنّ الى الاذهان ان بلادنا قــد اصبحت من العقم بحيث عجزت عن ان تُنبت رجلاً عبقريًّا ، او تُنشىء بطلاً صنديداً كميا او تولِد وطنيًّا نزيهاً اريحيًّا ، فان فيهــا والحمد لله حكّاماً اعفّاء وقُضاةً نزهاء ونواباً شرفاء وشيوخاً نبلاء وصحافيين اوفياء وتجّاراً أمناء وفلاسفة حكماء

واطباء ألبَّاء وآباء عقلاء وشبَّاناً اذكياء نُجباء . وفيها عقائل ابيَّات مصونات واوانس خفِرات محصَّنات وسيدات مُحسنات متبرّعات وأُمَّهات رصينات حصيفات . ولو لم يكن عندنا من امثال هؤلاء الفضلاء والفاضلات لنعب غراب البين في ربوعنا وصروحنا ونعق البوم في معاهدنا ومحاكمنا .

فكم عندنا من أب راجح النُهى عزيز النفس مثقَّف الاخلاق حسن الادارة ، والى جانبه سيّدة أديبة لبيبة مروَّضة الطباع لطيفة التدبير خبيرة بفن التهذيب رقيقة الشواعر ، تشاركه في تربية بنيهما على وجه يضمن لهم السعادة في الدارين . فاذا زرتهما يوماً في منزلهما رأيت الاتفاق محكماً في قلبيهما سائداً في اسرتهما ، والغيرة الابوية متلألئة في اعمالهما متجلية في اقوالهما ، وعاينت الحنان الوالدي مقروناً بالحكمة والسداد بحيث لا يرفقان باولادهما إلا حيث يحمد الرفق ، واذا اتى احدهم ذنباً ادَّباه عليه تأديباً يردعه عن ان يعود اليه ، وهما لا يغفلان طرفة عين عن حركات افلاذ كبدهما وسكناتهم لئلَّا يدبّ في قلوبهم شيء من الفساد او يألفوا عادةً ذميمة او يعلق في اخلاقهم عيب يشوّه نفوسهم . وهما خير مقتدى لهم قولاً وعملاً ، والقدوةُ أفعل في النفس من الكلام وأثبت اثرًا في الجنان . الأقل لي رعاك الله كيف تكون هذه الدوحة المباركة متى بَسقت وتهدَّلت اغصانها وزكت ثمارها وتضوَّعت انوارها . واي شأن يكون في الوطن لعميدَي هذه الأسرة متى اهديا اليه شبَّاناً من اقطاب العلم وارباب الحنكة والسياسة واركان النهضة القوميَّة . ولا يقولنَّ احدكم كيف يَتهيَّأ لي ان أُربّي لبلادي رجالاً كبارًا وابطالاً عظاماً . فليُعنَ بتربية بنيه عنايتَه بجمع المال جارياً فيها على اقوم المناهج فيتمّ له ما يُريد . والتربيةُ فنٌّ من الفنون مبسوطة مسائله في الكتب النفيسة التي وضعها الخبراء بعد درس دقيق وبحث عميق ، فننصح للآباء في هذه الانحاء ان يتصفحوها بامعان نظر وتثبُّت حتى يُحسنوا تهذيب بنيهم إحساناً يتوقف عليه نجاحهم ونجاح الأمة وإصلاح احوالها

وكم من رجل ارشده حسن الحظ الى فتيان أُمناء استخدمهم في منزله او في مخزنه ، فنصحوا الخدمة واخلصوا العمل ، وكان لهم على مصلحته ما لهم من الغيرة على مصلحة نفوسهم حتى وثق بهم كل الثقة واصبح اذا اضطرَّته اشغاله ان يبرح

محله مدةً مديدة لا يمرّ في باله طيف الريب ولا ينشب في فؤاده القلق ، ولا تمرح في صدره الظنون ولا يفتقر الى ان يقتل اوقاته الثمينة في مراقبة القائمين بأعماله وتعهُّد المتولّين ادارة اشغاله ومهامّهِ ، ولا خطر عليه أن تمتد يد المكر الى سلعه وأمواله او يطمع طامع في أثاث منزله ورياشه ومواعينه ، فان هناك خدّاماً نُصحاء لا تغفل عيونهم عما هم عليه مؤتَمنون ولا تحدّثهم نفوسهم النزيهة الأَبيَّة ان يُقصِروا في خدمتهم اقل تقصير او يكونوا اقل حرصاً عليها ووفاء لهـا من مولاهم عينه . وايّ فرق بين هذا المولى المحظوظ وذاك التاجر السيّيء الحظ الذي ليس لهُ اقلّ ثقة بأعوانه ، اتراه يطمئن الى احدهم نفساً اذا غادر مخزنه لقضاء ما بدا له من المشاغل ممـا لا يحتمل الإرجاء والتأجيل . وكيف تكون حاله يوم يتصفَّح دفاتره ويرى الخيانات والاحتيالات قد جالت جولاتها بين السطور كما طافت طوفاتها بين مطاوي الصدور . وكيف يكون موقف هؤلاء الخوَنة امام مولاهم بل امام اولئك المستخدمين الأُمناء الذين يبرزون يومئذٍ الى مضمار المفاخرة وجباهُهم مرتفعة وأُنوفهم شامخة ورؤُوسهم عالية ووجوههم منبسطة وابصارهم ثَمِلة واعناقهم مشرئبَّة . فما اجمل الأَمانة وما اعزَّ بنيها ، وما اقبح الخيانة وما اذلَّ ذويها . . .

وكم من جنديّ يدعوه الواجب للذود عن حياض وطنه فيستبسل ويستقتل ، فإما ان يكبت العدو ويدوّخه ، او يموت في ساحة الشرف مؤثرًا مِيتة الابطال على الحياة التي يحياها الجبناء الانذال .

وكم من صحافيّ لا يرهب احرج المآزق ولا يتهيَّب انتقاد العظماء والكبراء ، ولا يخاف أن يتعقَّب حتى ولاةَ الشؤون ولو تعرَّض هو وصحيفته لمساخطهم ، ولا يبالي بما يلحقه من الأَذى ماديًّا كان او ادبيًّا رغبةً في قضاء الواجب الصحافيّ وهو من اقدس الواجبات ، وكثيرًا ما يعمد بعض الزعماء الى قطع لسانه وردّه عن ميدان جهاده بما يؤدّون له من النقود ، فتأبى نفسه العزيزة ان تتلوّث بالخيانة اغترارًا بالدنانير الصُّفر التي يعلق في حبائلها اللئام ، ولا يزداد الا مضاء في خطته الجريئة ، وكفاه مايناله من الفخر يومَ تمحِص الأمة الصحافيين في بُوتقتها ويكون هو من الذهب الإبريزي .

وكونوا على يقين أن الصحافيّ الجريء يكون في عيون مَن ينتقدهم من الحكّام

والأعيان ارفع قدرًا من الذين يُداهنونهم ويتزلّفون اليهم، ولا سيما اذا اندفعوا لهذه المداهنات لمآرب في النفس او لطمع في حظوة او لانخداع بمال . وحسبهم ذلاً أن الأمة تُقبّح عليهم خيانتهم وتُسرف في عذلهم وتنقطع عن صحفهم وتعتبرهم من الخوَنة الاوغاد ، وهل من عقاب افظع من هذا العقاب .

وكم من قاضٍ شرّف كرسي القضاء بعفافه وعزز السنّة بعدله وصان للقانون هيبته بنزاهته ورفع للمحاكم مكانتها بحكمته واستقامته، فصار اذا قضى في دعوى تنحني امامه الرؤوس ولا يجرؤُ حتى المحكوم عليه ان يتّهمه بالميل والحيف او يَزِنّهُ بالرشوة ، لان ماضيه نظيف شريف وكعبه عالٍ وصحيفته نقيّة ومرآة حياته لا غبار عليها . وقد عرفه الناس على اختلاف طبقاتهم أنه لا يراعي ولا يُحابي ولا تؤثّر فيه الشفاعات ولا الوصايات ، ولا يُذعن ضميره الا للحق ولا ينطق لسانه الا بما يوحيه اليه وجدانه . وقد عرفنا في هذه البلاد من امثال هذا القاضي الظليف النفس الحرّ الضمير غيرَ واحد من رجال العدالة ، وعرفنا منهم في الحرب الكبرى من أنشبت فيهم المجاعة مخالبها حتى تقلّبت أُسَرُهم على حضيض العسر والضيق وتململت على قتاد الأزمات والفاقات، فصبروا مع ذلك عليها صبر الرجال الكرام وعاركوا الشدائد وغالبوها مغالبة الابطال، وهم لو ارادوا أن يقبلوا الهدايا التي كانت تقدم لهم حلالاً لقضوا تلك الايام العسِرة بالترَف واليسر كما قضاها غيرهم من رجال الحكومة حتى صغارهم في ذلك العهد البائد الظالم ، لا اعاده الله ومحا من النفوس ذكراه .

فعسى ان نرى في الوطن الوفاً في الوف من امثال هؤلاء الرجال الأُمناء، وعسى ان يبقوا لناشئتنا العزيزة مناجع خصيبة وموارد صافيـة حتى اذا تغذّت بمعارفهم واستقت من ينابيع آدابهم وتخلّقت بمكارم اخلاقهم بلغنا الغاية التي نرمي اليها من مجاراة الشعوب الحيّة في مضمار الحضارة والعز والمجـد . وحينئذٍ لا يقع في آذاننا مايقع اليوم من الحوادث المشؤومة، ولا نعاين ما نعاينه من المشاهد المُخزية مما ينقبض اليراع من تسطيره وتنبو الانفة عن ذكره . كيف لا ونحن نسمع كل يوم بسرقـة وقعت إما في دائرة البريد او في بيت المال او في نظارة النافعة او في نظارة الصحّة ، وبخيانةٍ ارتكبها رجال الشحنة والدّرك وهم المؤتّمنون على ارواح العباد، وبرشوةٍ

يتلطَّخ بها الجالسون على منابر القضاء ، وبدنيئةٍ تلوَّث بها الذين يمثِّلون الأُمـة وينطقون بلسانها .

فيا ابناء البلاد ان الوطن امانة في ايديكم ، فحافظوا عليه ولا تدنّسوا سمعته ولا تخفضوا رأسه ولا تدوسوا شرفه ولا تهتكوا محارمه ولا تنقضوا عهوده . فاذا وضعتموه هُنتم واذا عزَّزتموه تعزَّزتم .

وانتم ايها الآباء ان بنيكم ودائع ثمينة في ايديكم ائتمنكم عليها الله والوطن، فربُّوهم تربية ترضي الله وترفع قدر الوطن ، والشرفُ قائم بحفظ الامانات ورعاية العهود وصيانة الذمم ، واشرفُ الناس انفعهم لعباده وخير النَّاس مَن اخلص الخدمة لأُمَّته وبلاده

الاعتماد على النفس

وانما رجل الدنيـا وواحدها   من لا يعوِّل في الدنيا على رجل

مَن قلَّب صفحات التاريخ بعين نقَّادة وبصيرة وقَّادة ذهبت في فكره الحيرة كلَّ مذهب ، تجاه المخترعات الغريبة التي أَنتجتها الاذهان وأَبرزتها الفطن من مكامنها عصرًا بعد عصر ، ولا سيما اذا تفرَّس في بعض الاكتشافات التي أدمنَ مُزاولتها جمٌّ غفير من العلماء المحققين ، حتى افنوا الاعمار في استخراج الدفائن من صدر الطبيعـة وإبراز المخبَّآت من فؤَاد الكون . فراضوا الصعوبات وذلَّلوا المعضـلات وذهبوا بالعلوم والفنون الى آخر ما تبلغه المدارك البشرية وتتطاول اليه الفكَر الطمَّاحة

ومن الاختراعات ما استنزفت معالجتهُ قروناً في قرون كان يبني في خلالها الخَلَف على أُسّ السلف ، وربما تصرَّمت الحِقب وكرَّت السنون ، والباحثون في حَيِّز واحد، لم يرمِ احدُهم حجرًا على ذلك الأُسّ ، وهم مع ذلك دائبون في السير الى غايتهم المرقوبة ، حتى اذا ظفروا بها ودَّعوا الدنيا بقلوبٍ ملوُّها العزاء والاستبشار . وإلَّا

أَلقوا مهمّتهم على عواتق مَن يعقبهم من العلماء ، على رجاء أنهم يحلّون الأُنشوطة التي لم يُفسح لهم في حلّها . وعلى هذا النحو لا يفتأ رجال العلم والعمل يضربون على التعاقب في بيداء التنقيب والاستقراء والتبحّر والاستقصاء ، الى ان يُفتح لاحدهم باب النجح فيلجهُ الى مقصده المنشود بعين قريرة وثغر بسّام ، حتى كأَني به قد نفض عنه غبار الأَتعاب الجاهدة وذهل عما لقيه في عمله الشرس المقادة من المشقّات الناهكة . ولا بدع أن يكون عند هذا المبلغ من الابتهاج والاستبشار بنجاح مسعاه فلقد خدم به الانسانية خدمة جليلة وفاز بأُمنيَّةٍ يعذب معها العذاب في معترك الجهاد .

وغيرُ خافٍ أن المصاعب كلّما تجسّمت وتألّبت في وجه الساعي أمالتهُ الى الفشل والاحجام ، وهدمت جانباً من حصن نشاطه وثباتهِ وأقعدتهُ عن الاقدام . فاذا كان صبورًا على المكافحة والمجاهدة ، جليدًا لدى مفاجأَة المحن قويًّا على مقاساة الصدمات ومعاناة الخيبات ، أَمن عواقب اليأس والضعف والملالة ووطّن النفس على تهجّم المهلكات واقتحام الأَخطار والأَهوال ، بحيث لا تكلُّ عزيمتهُ ولا يني جهده مهما اعتورَه من المشاكل والخطوب ، ومهما بَذل من النفقات وقتل من الايام في جنْب مطلبه . وبدون ذلك لا تُستقاد الرغائب ولا تُدرك المقاصد ، لان الأَعمال اذا كان مأخذها على جانب من الصعوبة استدعت من العناية والجرأَة والحكمة والادمان على حسب دقتها وغموضها وشدَّة مراسها . وأيّ عمل لا يخلو طريقهُ من المزالق والمداحض ، وأية غاية بعيدة الشقّة يُنتهى اليها بدون عناء ، وأيُّ منهل يتسابق اليه الوُرّاد ولا يكون النصيب الاوفر منه لأَجرإهم اندفاعاً وأصلبهم جلدًا وأمضاهم عزماً وأبعدهم نظرًا . . .

ولا ريب ان إعراضنا عن مجاراة الامم النبيهة واللّحاق بها في مدارج العمران انما ناشئٌ عن كلال في مضائنا ووهن في عزمنا ، لاعن خمود في حميتنا وقصور في مداركنا ، اذ فينا والحمد لله من خيار رجال النخوة والنبل والذكاء من تتيه بهم المحافل ويشار اليهم بالبنان . واذا بحثنا عن العلّة التي ولّدت فينا الفتور والتردُّد والتراخي والتواكل أمام المساعي المهمّة ، لا نتمالك عن ان نردّ ذلك الى الاعتماد على سوانا في جميع مراحل الحياة ، بحيث ننخرط في العقد الثاني او الثالث من العمر ، ونحن مُعوّلون على من

يُدير أُمورنا ويتولى زمام مقادتنا ، حتى اذا تداعت جدران البناء الذي نأوي اليه في النائبات ، وسقط العماد الذي نستند اليه في الحادثات ، هبطنا معه وأصبحنا ولا ملاذ لنا ولا مرجع ، فنقنط كل القنوط ونرتبك أيَّ ارتباك

فلو كنا ونحن في عهد الصِغَر نتدرّب في ادارة بعض شؤُوننا على قدر ما تتحمَّله الحال ، ثم نتدرَّج في هذه السبيل بعد الانتقال الى ربع التحصيل ، بحيث لا نرجع الى أُستاذنا الَّا في المشكلات التي لم نُوَفَّق لكشف معمَّاها بعد افراغ المجهود ، لما كنا نقف ، وقد برحنا المعهد العلمي واستوفينا حظنا من المعارف ، موقفَ الحائر إزاء المستغلقات التي نصادفها في اثناء مطالعاتنا ، وما كنَّا نُكبَّل بقيود السآمة والقنوط ونتبرَّم من الانكباب على الاستفادة والاستزادة ، الى ان تتهوَّر وتنهار صروح آمالنا وتُضعضَع أطواد عزائمنا . ولا عجب في ذلك فان الطالب اذا لم يتعوَّد شحذ الذهن بالتروي والتبحُّر ، بل عوَّل في تفهُّم المسائل الغويصة على شرح استاذه ، انقضى وقت الدراسة والعقلُ مقيَّد لا ينطلق ابدًا في لِجَاج التفكُّر والتدبُّر

ومن الحقائق الراهنة ان الرجل ابن التربية ، يجري في شيخوخته على ما تلقَّنه في المهد واقتبسه في طور الرشد . فاذا نشأ على الجبن وضعف العزيمة والصريمة حتى توكَّأ في جميع مهماته على غيره ، نزل الى ميدان الجهاد والعمل ، وهو كليل الهمة سقيم الرأي عاجز عن إدارة اموره وتدبير شؤُونه ، هيَّابٌ للمساعي المكتنفة بالصعوبات ، حتى يسير ببطء ومهابة وقصور مع اترابه الذين حنَّكتهم التجارب وبلتهم الايام . فاذا عرضَت له عقبة في طريقه انقلب على قدم الفشل خاسرًا خاسئًا ، على حين ان اقرانه الشجعاء لا تلوي أعنَّتهم الجبال الرواسي ولا يحلُّ عُرى جلدهم الضربُ في الفيافي ، بل يزدادون بأسًا واقدامًا كلما تراكمت المصاعب وعزَّت المطالب . وانما الفضلُ في ذلك لتنشئتهم على الإِقدام بثبات جنان ، والتعويل على النفس في كل حادثة معضلة ومسألة مشكلة

على أننا لا نُنكر أن استشارة الحكماء قبل مباشرة الاعمال واطلاق النظر في مجاريها من ادعى الاسباب الى النجاح وأبعثها على تجنب المعاثر وتلافي المخاطر . لان المرء اذا استقلَّ برأيه كثرت معاطبهُ وتمادى شَططهُ وبرهن عن ادعاء في النفس ،

والادِّعاء نهاية الخرق والحماقة ، يُفضي بصاحبه الى مهاوي الخطَل ومصارع الزلل . ولأن يضرب المرء عن العمل صفحاً أولى من ان يُقدم عليه بدون مصباح يستضيء به في دياجر الشبهات وحنادس المعمَّيات . امَّا اذا استنار واستهدى فلا يبقى عليه الا إجراء ما قرَّت عليه آراء الالبَّاء بدون ريبة ووجل ، خوفاً من ان تفوتهُ فرصة الانتفاع فيندم ايَّ ندم .

ومن المحال أن تتوغَّل أُمة في مذاهب الحضارة وتُثبِّت قدمها على قمة المدنية ما لم يتوفَّر ابناؤُها على التذرع بما يضمن لها العمران . وانما يستقيم ذلك بأن يعتمد كلٌّ على نفسه في مسعاه حتى كأنما عُهد اليه وحدَه ان يشيد في وطنه معالم العز والسعد ، أو كأنما الفلاح لا يتأتَى بدره في سمائهِ ما لم يتأنَّق هو في عمله ويحكم مهنته ويمهر في صناعته . وبهذا الاعتبار تُفلح الامم وتنهض الممالك وتتوافر لها موارد الثروة واسباب الرغد . ولكن اذا وقع بين افراد الامة التواكل والتخاذُل ، حتى لم يقم بتلك النهضة العمرانية الا نفرٌ قليل من ذوي الحزم والمضاء ، فان البلاد ترجع القهقرى وتكون هدفاً للبلاء والشقاء وتصبح طعمة سائغة لأرباب القوة والطمع ، على حدّ ماهو جارٍ في كل قُطر تفشَّت فيه جراثيم العجز حتى امسى صاغراً وضيعاً لا يتجرَّأُ على ان يلتفت الى تلك اليد القوية القابضة على زمامهِ الا بعين المهابة والصغارة

الا ترى مملكة اليابان على طول عهدها بالهمجية والخمول كيف نهضت من وهدة الذل وافلتت من وثائق الرق ، فتمدنت وتمنَّعت وحلَّقت في جو العز والسيادة حتى اصبحت اعز من بيض الأَنوق ، وباتت الممالك الضخمة تشخص ابصارها الى رايتها الخافقة في فلك المجد ناظرةً اليها بالإجلال والتعظيم ، على حين انها كانت من عهد نصف قرن مطمحاً لانظار الغربي وملعباً لمطامعه الاشعبية ، يُدير دفتهـا على هواه كما يدير اليوم مملكة ابن السماء على بسطة اطرافها وكثرة جيوشها وسكانها وخصب اراضيها . واليابانيون لا يُنيف عددهم على معشار اهل الصين ومع ذلك فقد دوَّخوهم وفتكوا بهم فتكاً ذريعاً يوم انتشب القتال فيما بينهم من اجل غير بعيد ، ثم لم يلبثوا ان ادهشوا المغرب بدهائهم وبسالتهم في الحرب الروسية اليابانية الهائلة التي ضعضعت اركان الروس وغرَّقت ماليتهم واودت بجحافلهم الجرَّارة حتى ارتجَّ المعمور من

اهوالها . ومن وقف على حياة الياباني وصبره على النَصَب وعكوفه على العمل ورباطة جأشه في ساحات العراك وتهالكه في ترقية بلاده، لا ينظر بعين الاستغراب الى القدح المعلّى الذي اصابته دولته في باحات العلاء . فهناك نفوس عزيزة يلذ لها أن يتوفّروا على خدمة موطنها وتأييده . وهنالك ارواح متمازجة لا يشغلها شاغل عن حماية ملكها من مخالب الطمّاعين ولا همَّ لها الا انماء قوته وتوسيع نطاقه . وعلى الجملة فان اليابانيين ليس في عيونهم اقدس من وطنهم ولا يحلو لهم غير ذكرهِ . ولذلك يتهالكون في خدمته ويدأبون في انجاحه سواء كان بصناعتهم او تجارتهم او زراعتهم وسواء كان بسيوفهم أَو اقلامهم أو اموالهم أوارواحهم حتى اذا تضامَّت تلك الخدم الفردية حصل عن مجموعها تلك القوة الادبية المهيبة التي لا تُدفع .

اما نحن السوريين فاننا على شدة محبتنا لبلادنا ورغبتنا في تعزيزها واسعادها نرانا في وناءٍ وفتور وقنوط وانقباض، فلا يقدم احدنا على مشروع مفيد لأمته بل نسلك مسلك الهيوب الحذِر مترددين عن الاقدام مخافةَ ان يعترضنا في سبيلنا مايخيّب امالنا ويُلجئنا الى الاحجام . وذلك ناشيء عن ضعف الثقة بنفوسنا وبلادنا ، شأنَ كل شعب لا يعوِّل على نفسه في مهماته ، فانه يتوقف عن التقدم لاوهامٍ تعلق في فكره وتولِّد في لبِّه الخوف واليأس .

ومن العجب العجاب ان معظمنا يتربَّص عن السعي فيما تستوجبه المصلحة القومية، توهُّمَ انه عاجزٌ بنفسه عن صياغة حلقات العمران ، او ان الاصلاح العام ليس من شأنه وانما هو من شأن حكومته او غيرها من طبقات المجتمع . وبهذا الاعتبار لا ينعقد نجاح ولا تسد ثلمة . ولقد غرب عن هذه الفئة ان الحكومة لا يترتب عليها سوى ان توطد في البلاد اركان الراحة والامن وتقضي بين الرعية بالعدل وتحتاط لمايضر باخلاقها وكيانها وما اشبه ذلك مما يمتنع على الافراد الاضطلاع باعبائه . واما سائر المشروعات كاستنبات الاراضي وفتح المصارف وانشاء المعامل لكل فنٍ من الفنون وتشييد معاهد خيرية وصنع سفن تجارية وتأليف لجن ادبية فجميع ذلك من المنشآت التي يتعين على الشعب القيام بها. فاذا كان محنكاً عزوماً غيوراً على النفع العام معوِّلاً على نفسه في تنجيح بلاده نهض ونهضت بنهوضِه ، لان كل مملكة يكون مبلغها

من العز والمهابة والقوة مبلغ رعيتهـا من الثروة والتهذيب والمعرفة . فاذا شئت ان تختبر قوة دولةٍ فانظر الى شعبهـا ، فهو مرآتها كما هي مرآته عدلاً وطباعاً وحكمة وحنكة .

على ان الرعية يحقّ لها ان ترجو من حاكمها ما خلا الوجبات العمومية ما يروّج تجارتها ويجعلها بمأمن من المنافسات الاجنبية ، مع تنشيط رجال العمل والنباهة منهـا بمكافأتهم على ما وُفِقوا له من الاختراعات الحديثة وعلى اجتهادهم في خدمة الأمة ، فان ذلك من اكبر بواعث الفلاح . ولا يخامرنّا ريب في ان حكومتنا اسوةً بسائر الحكومات الحازمة لا تدّخر وسعاً في احياء روح النشاط في رعاياها حتى يتسنى لهـا أن تباري الاجانب في كل مضمار

الا فانشطوا اذن يا اعلام الأُمة وسادات البلاد واحملوا بنود الحزم والعزم امام الشعب الذي انتم وجهته وبكم يأتسي وعلى آثاركم يسعى ، وعلِّموه كيف يعوّل على نفسه في اعماله بعد ان تهدوه السبل الامنية التي يسير فيها والى جانبه الفلاح ، وبيِّنوا له كيف تداس العقبات وتُتحرَّى المشاريـع الكبيرة ، وليخلع كل منكم حلّة السيادة فانها اكبر حاجز في سبيل الاعتماد على النفس ، ولا تخزنوا اموالكم في الصناديق بل ابذلوها في سبيل المساعي الخطيرة قدوةً باغنياء الامم الراقية ، فتستدرّوا من تقليب المال في هذه الوجوه ما استدرّوهُ هم من المكاسب الطائلة والمنافع الجليلة لانفسهم وبلادهم معاً . فلقد حقَّت الحاجة الى رجال عمل تتحرك بحركتهم الهمم الوانية ، وهبَّ الوطن يستتهمُ ابناءه القديرين مالاً وعلماً وخبرةً بان يعقدوا شركات من اهل الثروة والمعارف يتوقف على مشاريعها مجده وشرفه وفلاحه . فاذا فعلتم كنتم من المفلحين والا تقاعد ابناؤكم عن كل عمل استناداً الى اموالكم المكنوزة فيألفون الكسل والبطالة . ومتى قبضوا على تلك الثروة اسرفوا في انفاقها ومزّقوها كل ممزّق . وبذلك تخسرون ايَّ خسارة وتحرمون البلاد نتائج سعيكم .

واما انتم يا ذوي الجيوب الفارغة فلا تقنطوا من التقدم ولا تعفوا نفوسكم من خدمة وطنكم ، فان التاريخ ينبئنا ان عدداً وافراً من امثالكم احرزوا بفضل جدّهم جاهاً عريضاً ومناصب رفيعة ، فخدموا الانسانية خدمة كبيرة خلّدت ذكرهم في

الدنيا وجعلته كنفحات الخزام في كل منتـدى . فاذا اتقنتم اعمالكم وسلكتم في معاشكم مسالك الاقتصاد واعتبرتم ان سعدكم لا يقوم الّا بسعيكم، أفلحتم اي افلاح وكنتم قدوةً حيّة للمتباطئين في الاعمال والمتغاضين عن تحقيق الامال. وما اشدّ فرحكم اذا ادركتم هذا الخصل حتى يترقى بمساعيكم الوطن المحبوب الذي يُنيط بكم من الآمال ما يُنيطهُ باغنيائكم. وحبذا يومٌ نفتخر بكم وباختراعاتكم، ونعمَ ساعة يصبح فيها الضعيف قويًا والخامل نشيطاً والجبان شجاعاً والمتردد مقداماً والمثري عاملاً هماماً، انها لقريبة باذن الله .

المروءة

ما من مزية اشرف من المروءة محتدًا واطيب عنصرًا ، فهي تنتمي الى اكرم الآباء واحنّ الامهات ، ولا تستقي الا من اصفى المشارع واعذب الموارد ، ولا ترتضع الا من اطهر الاثداء . كيف لا وان اباها الندى وامها الحنان وأخواتها المحبة الحميمة والوفاء المحض والعطف الصرف ، وإخوتها الشجاعة والاقدام والاستماتة وإفناء الذات ، وكل ذلك في سبيل البشرية المنكوبة ليس غير . وهي تتلقّن الحكمة من ربّ الحكمة يُنزلها عليها من سماء الالهام ، فتهتدي الى مناحي الخير ووجوه الاحسان، وتتفنن اي تفنُّن في ما يخفّف عن الانسانية كوارثها ويضمّد كلومها، وتأتي من غرائب الاعمال مايعجزعنه أبطَلُ الابطال . ولولاها لاصبح الانام في طوفان من الآفات وفوق خضمّ زاخر من العاهات ، وكانت الحياة البشرية سلسلة من النوائب الفادحات، وكان أَبناء الشقاء وسط أتُّون يعانون فيه اقسى الأعذبة . فللّه درُّكِ ايتها الفضيلة الملَكيّة وبارك الله صدرًا تنشأين فيه وفوَادًا تستوين على عرشهِ . فما انت الا ملكة وسيمة رائعة زينتُكِ الرحمة وحليتُكِ البرّ ، ولكِ في كل صدر اريكة ذهبية تحفّ بكِ مواكب الابهة والجلال. وتنحني امامكِ الرؤوس مُحيّيةً اياكِ تحيّات تشفُّ عن

احترامها العميق لشخصكِ المقدّس . انتِ اشبه بالزهرة الذكيّة الانفاس تنشرين في كل افق ريّاكِ الفوّاحة ، وتحيين بنسماتكِ العطِرة كل من دارت عليه الدوائر واستهدف للمعاطب والمخاطر . . ولو اقتُرح على البشرية ان تنصب للفضائل تمثالاً لما وقع اختيارها ، ايتها الزنبقة العلوية ، الا عليكِ لانكِ احقّ به من سواكِ . وحسبنا ان نلقي نظرة على ما يتجشّم ابناؤكِ من بواهظ المشقات ونوادر التضحيات في جنب اخوانهم المتألّمين حتى نحكم لكِ بالمزية على سائر شقيقاتكِ . كيف لا وهم لا يشفقون على اموالهم ان يبذلوها ويُسرفوها حيث يُحمد البذل والاسراف ، ولا على اجسامهم ان يرزِحوها تحت افدح الاعباء ، ولا على ارواحهم ان يُعرّضوها للهلكة انقاذاً لمن تتقاذفه الاخطار ، ولا على عيونهم ان يحرموها لذة الكرى تخفيفاً لعذاب المسهّدين وألم الموجوعين . ولذلك قال العلامة الماوردي وهو من اكبر المفكرين : المروءة لا ينقاد لها مع ثِقَل كُلَفها الا من تسهّلت عليه المشاقّ وهانت عليه الملاذّ .

ومن هنا تُعرف منزلة هذه الفضيلة السامية وشدة افتقار الناس اليها ، فهي ولا جرم من انفس الحلى واشرف المناقب ، اذ تصدر عن فؤاد رقيق يتألم لكل ذي ألم وينتفض لكل منكوب ولا يعبأ بشدة يقاسيها ومحنة يعانيها ، فاذا رأى بائساً او يائساً شجعه وعزاه ، واذا سمع مُتأوِهاً خفّ اليه يداويه لعلهُ يسكّن انينه ، واذا صادف عليلاً يتقلّب على سرير الاوجاع عالجه حتى يخفّف آلامهُ المبرِحة المذيبة ، واذا ابصر موبوءاً هفا اليه يمرّضهُ بكل حنوّ ، وهو لا يبالي بالعدوى ان تسري اليه ولو افقدته حياته

واسعد الناس من تناهت مروءته واشتهرت حميته بحيث يصبح ملاذاً لقومه ووجهة لآمالهم ونجعة لروّادهم ومشرعاً لورّادهم ، ولا بدع ان يكون كذلك فقد قال الشاعر :

« والمورد العذب كثير الزحام »

واشقى الناس من وقف ازاء اخيه الحائر اللهفان وقفة الجلمود ، فلم يؤاسهِ في بليتهِ ولم ينصرهُ في ظلامتهِ ولم يفرجه في شدتهِ ولم يمرّضه في علته ، ولم يمدّ له يداً في مواقف جزعه ومواطن يأسه ، ولم يبكِ لبكائه ولم يحزن لحزنه ، ولم يلتعْ للوعته

ولم يهتز لندائه . يرى النيران تلتهم منزله فلا يأبهُ لها، ويبصرهُ على شفا الخطر فلا يُبصِّرهُ بسوءِ العاقبة ، وينظره فوق متن الخضمّ الثائر يعارك تيّارهُ الغَضوب ولا يُهرول الى تنجيته ، ويستصرخه الخائف الوَجِل فيقابل صراخه بأذن صماء ، حتى كأن قلبه قد خُلق من الصخر الصَّلد او قُطِع من صحيفة فولاذية او قطعة حديدية .

ألا تبّاً لامرىءٍ لا يُقاسم اخوانهُ فجائعهم ولا يشاطرهم اساهم ، ولا يرثي لهم ولو كانوا بين براثن الاسود وانياب الضواري ومخالب الكواسر . ومتى كان المرء عند هذا الجمود تجاه اخيه اللهِف المكروب فما احراهُ ان يُخذَل اذا نابته نائبة او دهمته علة ، وأخلِق بجفوته ان تُقابَل بمثلها فيدعه الناس وشأنه في الملمّات القاسيات

ولا تستغربنّ ان ترى ارباب المروآت يتنافسون في مجالات الحميَّة ومذاهب النخوة ، فاذا استحكمت المروءة من فؤاد صاحبها فكلما اتى محمدة او اصطنع عند اخيه صنيعة شعر بلذة تسكر بها نفسه حتي لقــد يهتزّ للمبرَّات اهتزاز النشوان للمسكرات ، ولا يطيب له الا ان يخلِّف كل يوم اثرًا يُجزل له عند الناس الشكر ويُفيزه عند مولاهُ بجميل الاجر . وهذه اللذة التي تصحب في الغالب اصحاب النخوات انما هي بمثابة جزاء دنيوي على ما كلّفوا نفوسهم من الضيم في جنب من خفَّفوا عنهم الضيم، وكأني بها مقدَّمة لماسيحرزونه في دار الخلد من عظيم المثوبة على ما قدَّموا من الزكَوات وسلّفوا من المبرات

ولا تسل عمّا يأتيه ذوو المروآت من الغرائب اذا رسخت في قلوبهم النخوة ، فانهم يستصغرون في سبيلها ما يستكبره اصحاب الهمم العالية، ويُقدمون على اعمال تكاد تعدّهــا من المعجزات. فاذا تفشّى في بلد وباء مشؤوم فتك بالنفوس فتكته الهائلة ، حتى اضطُرَّ اهلوه ان يغـادروه حذرًا من أن تنتقل اليهم العدوى ، ترى ملائكة الرحمة وهنَّ في ميعة الشباب يقتحمنَ المخاطر بدون ادنى وجل ، فينقلنَ الموبوئين وهم على أسوإ حال الى المستشفيات وهناك يأخذنَ في تمريضهم كما تمرِض الام الرؤوم وحيدها السقيم، غير مشفقات على صباهنّ الغض، ولا حذِرات من الداء ان يحمل عليهنَّ بجراثيمه الفتّاكة ، بل يلزمنَ الاعلّاء ليلَ نهار مفرغاتٍ قصارى الجهد في مداواتهم وخدمتهم وتخفيف اوجاعهم . ومعما يذُقنهُ من المرائر والمكاره ويتحمّلنه

من الأنصاب ، ومعا يحيينهُ من الليالي الطوال الى جانب أسرَّة أولئك المتألمين ' فلا تزال ابتسامة اللطف تتلألأ على ثغورهن ، تحدّث عن نخوتهنَّ المنقطعة النظير وتنمُّ عن حنوّهنَّ الراسخ رسوخَ الجبال ' وجلَدِهنَّ الذي يتغلَّب على جيش السآمة والفتور ويطأُ تحت قدميه النصَب والكلال . وكثيرًا ما يشفى هؤلاء السِقام من اسقامهم ويُنشِب الوباء اظفاره الحادة في اجسام ممرّضاتهم اللطيفة فيذهبنَ شهيدات المروءة . فاذا وقفتم يومئذٍ أمام نعوشهنَّ فطأطئوا الرؤوس واخفضوا الابصار هيبةً واجلالاً ، وودّعوا ملائكة الشفقة اللواتي هنَّ خير قدوة لابناء المروآت ، وانظروا بطرف خاشع الى اجسامهنَّ المكفَّنة باكفان الحمية والحنان ، وقولوا جزاهنَّ الله الثوَّاب خير جزاء ولاحرم الانسانيَّة ثمرات رأفتهنَّ ونخوتهنَّ .

ولكم من مرَّة شبَّت النيران في احد الأحياء فتساتل ذوو المروءة من كل ناحية لاخماد انفاس اللهيب ، قاذفين بنفوسهم بين الحمَم ومعرّضين اجسادهم للذعاته المحرقة . وكم مرة اشفى مركب على الغرق فبادر الملّاحون اليه يخوضون الامواج الجامحة ويصادمون الزوابع الهائجة ، حتى ينقذوا ركّابهُ من لجج اليمّ وينجوا ارواحهم من اشداقه الواسعة . وكم من موسرٍ ناوأه الدهر بعد مهادنته له فذهب برأس ماله ، فجاء الغرماء يتقاضونه ديونهم عليه ولزموه كما يلزم المرء ظله ، وتوعَّدوه بان يشهروا افلاسهُ اذا تخلَّف عن قضاء ما لهم في ذمته ، فاخذ عرَق الحياء يتصبَّب من جبينه المصفرّ ، ودم الأنفة يفور فائره في عروقهِ ، والقنوط فاتح امام عينيه هوَّته العميقة ليقذفهُ فيها ، وقد تجافى عنهُ حتى اقاربهُ الأدنون ، واذا بذي مروءة قد ولج باب منزله ، وكان من بني الجِدة والثراء ، فقال لدائنيه : اموالكم في عهدتي ، دعوا الرجل وشأنهُ . ثم التفت اليه التفاتةً أشعرتهُ بعطفه وحنوه وقال له : طب ياصاحِ نفساً وقرَّ عيناً ، اليوم أؤدّي ما عليك ، وغدًا أقدّم لك ما يُعينك على استئناف عملك ومتابعة متجرك . فاذا كتب لك الله التوفيق اعدت إليَّ ما اسلفتُك اياه وإلّا فهو حلّ لك

وكم من عليل ابتُلي بداء عُقام استنزف ما اذّخره من المال حتى عجز عن شراء ما يتداوى بهِ ، وكان له صغار قد اجهدهم الجوع ، فتجمعوا من حول سريره

يتضاغون و يُعولون، وهو يتململ على أحدّ من القتاد، وليس عنده ما يُمسك ارماقهم ويُزيلُ غُصصهم، وكانت قرينته ماثلة ازاءهُ تُذرف العبرات السخينة مكتوفة الايدي شاحبة اللون كسيفة الوجه قلقة الخاطر، لا يقع نظرها المترجرج الحسير إلَّا على حُسام المنيَّة مسلولاً فوق رأسها، وشبح ِ اليأس منتصباً أمام مخيلتها، وهي شاخصة الابصار الى السماء تستغيث برب ّ المراحم لعله يمنّ عليها بالمدَد والفرج، واذا بأريحيّ ٍ كبير قد اقبل على العليل يعوده، وكأَن الله الرحيم قد انفذه اليه ليُسرّي عنه ويُزيح عن صدره صخرة همومه الثقيلة، فشاطره تباريح دائهِ ولوعات كربه، وجعل يمسح جراحه الثخينة بمرهم المجاملة والملاطفة ذارًّا عليها ذَرُور الرحمة وهو انجع دواء. وبعد ان أَسَّاه وكفكف دمعه وطيَّب خواطر أُسرته الكبيرة نفحه بنقود ذهبية، ثم ودَّعه على ان يعود اليه، وبقي يَعُدُّه بصِلاتهِ المالية حتى برئَ من علّتهِ

هذا ولعلّ الذين في قلوبهم جفاف، وبين ضلوعهم قسوة، وفي جوانحهم صلابة لا تخرقها أشعَّة الرأفة، يقولون: لقد ضربت لنا امثالاً تكاد تكون من المستحيلات، فهاتِ بعض شواهد على صحة ما تقول، وأورد لنا اسم رجلٍ من ارباب المروءات ممن جرَوا على هذه الوتيرة، ونكون من اسرع الناس الى التأسّي بهم ومجاراتهم في ميادين الندى والاريحية والتبرع. فنحن نقول لهؤلاء المستغربين المنكرين: انكم ولو رأيتم بأمّ عيونكم البرَرة يتبارون في ميدان البذل والسخاء، لا تجودون على اهل الفاقة بكسرة خبز قفار ولا بثياب أطمار. وهل يتفجّر الماء الزلال من الصخرة الصلدة، أوَ يملك المُمسِكون من قلوبهم الجلمديّة أَن تحنو على مكروب او تحدب على ذي بؤس او تتوجّع لمتوجع او تتفجّع لمتفجّع

ومع ذلك فليتصفحوا اذا شاؤوا حكاية السموأَل بن عادياء يوم آثر قتل ابنه نصبَ عينيه على ان يسلّم الوديعة التي استودعه اياها امرؤ القيس الكندي، وليطالعوا ما جرى لخزيمة مع عكرمة الفيَّاض في حكاية يضيق المقام عن سردها، وهي من اغرب الحكايات وأَصدقها وأَشهرها وأدلّها على المروءة والحمية. وليقرأُوا ما وقع لابن المقفع وعبد الحميد الكاتب اذ اراد السفَّاح التنكيل بعبد الحميد. ومُحصَّلُ الخبر ان السفَّاح سخط ذات يوم على عبد الحميد واراد ان يمثّل به، فاستخفى عبد الحميد

منه في احد المنازل وكان معه ابن المقفع ، فلما فاجأهما الطلب قال الذين دخلوا عليهما : أيكما عبد الحميد ، ولم يكن لهم سابق عهد بأحدهما ، فقال كلٌّ منهما « انا » خوفاً على صاحبه أن يناله مكروه . وخاف عبد الحميد ان يُسرعوا الى ابن المقفَّع ويُلقوا القبض عليه فقال : ترفَّقوا بنا فان كلًّا منا له علامات ، فوكِّلوا بنا بعضكم ويمضي البعض الآخر ويذكر تلك العلامات لمن وجَّهكم . ففعلوا ثم عادوا فاخذوا عبد الحميد وقتلوه . وهي من اندر المروآت وأعجب الحكايات . .

هذا بعض ما نقله لنا الثقات عن أسلافنا الأكارم الأماجد من القصص البديعة الحريَّة بأن تُسطَّر بماء الذهب ، مما نوشك ان نعدَّه اليوم من الغرائب او نعزوه الى الغلوّ في سرد الحوادث . فأين نحن من أُولئك الابطال الانجاد الذين بلغوا من المروءة غاية الغايات حتى استرخصوا ارواحهم فبذلوها في سوق النخوة والحميَّة ، فخلَّفوا لهم من خوالد الآثار وروائع الاخبار ما ينطق بما فُطروا عليه من رقة الشعور والوفاء على توالي الاعصار ، وتركوا على صفحات تاريخهم المجيد الماتي الخطيرة والاعمال الجليلة التي هي خير أُسوة لمن يأتي بعدهم من الاخلاف . فعلامَ نحن جامدون هذا الجمود الشائن ، وحتَّامَ لا ينبض فينا عرق الحماسة والمروءة ولا تتلجلج في صدورنا عاطفة الشفقة على الانسانية المتألمة . نرى الكسيح مرمياً على قارعة الطريق يستعطي مستجيراً ولا نجود عليه بفلس يدفع به جوعه . و نسمع الاعمى يستصرخ ويستغيث بكلمات تكاد تفطِر الصخر القاسي ، ونحن نضنّ عليه بما لعلّه يُخفِّف شيئاً من بلايا عماه . ونمرّ بالمعدم المُدقع فلا نعطف عليه اقلّ عطف ، وربما زجرناه اذا قرع باب دارنا كما نزجر الكلب الوَقاح حتى نزيد لوعته تأجُّجاً وقلبه تصدُّعاً ، مع اننا نبذل ماتشاؤه اهواؤنا من الدنانير الصفر في سبيل ملاذّنا الحيوانية وملاهينا الجنونية . ويقرأ اغنياؤنا وموسرونا في الصحف ان بعض اصحاب المبارّ في اميركا واوربا قد اوصوا قبل مغادرتهم هذه الفانية بنصف تركتهم او بما ينيف ، إمَّا على بناء مستشفيات للاعلّاء الفقراء ، او تشييد دور للقطاء ومباني للعجزة ومياتم لليتيم والالطيم ، ومعاهد مجَّانية لتعليم من عُرف بذكائه من بني الاكواخ الى غير ذلك من الآثار الكبيرة التي ترفع أقدار أممهم وتزيد تواريخها النبيلة شرفاً على شرف ومجداً على مجد . وهم أي

اغنياؤنا يموتون كما عاشوا لا يقفون شيئاً على مثل هذه الوجوه المحمودة حتى اذ دهمهم نذير المنية استقبلوه بوجوه كالحة وعيون دامية وقلوب يائسة ، اذ لم يأتوا في حياتهم عملاً مبروراً يُنيلهم حظوة عند مبدعهم ، فيُغمضون ابصارهم على شبح التبعات الهائل وتُكفَّن اجسامهم باكفان الشقاء والخمول وتُطوى في الرموس كما طُويَت بين قومهم ذكراهم ، وتذهب ارواحهم الى عالم الخلد ، وهي مكبَّلة بقيود المعاصي والمنكرات ..

واكثر ابناء اليسر في هذه البلاد هم من ذوي الإمساك والشحّ ، فاذا جئتهم تستقطر أكُفّهم لمناصرة مشروع خيري او معاضدة أُسرة منكوبة تصامُّوا وتعاموا ، وربما حُبس لسانهم وأُرتج عليهم بعد ان تضيق في وجوههم الحيَل وتفرغ كنانة المعاذير ، وما أصدق قول الشاعر فيهم :

مررتُ على المروءة وهي تبكي فقلت عـلام تنتحِبُ الفتاةُ
فقالت كيف لا ابكي وأهلي جميعاً دون خلق الله ماتوا

الوطن نعيم ارضي

اذا بسطنا الانظار على المعمور واجلنا الفكرة في ممالكه الفسيحة الاطراف، معا فيها من السكّان الذين لا يتناولهم عدّ ولا يدركهم طرف، لا ينعطف قلبنا الى بلدة من بلاد الله انعطافه الى بلادنا ، على حين اننا نرى اقطاراً كثيرة في الدنيا اخصب من قطرنا واوسع منه حضارةً واعرق مدنيةً وارغد عيشاً واوفر أُنساً وامنع جانباً . وكثيراً ما يكون الوطن خبيث الهواء رديء التربة قبيح المنظر كثير الوحشة ،وهو مع ذلك في عيون بنيه خيرٌ من كل موطن طاب به المقام لخصب موارده وجودة موقعهِ وتمدُّن اهاليهِ وعدالة حكّامهِ . واذا قضت الحال على امرئ بأن يغادر مسقط رأسه تولّته الكآبة واعترته الهموم ، وتغلّبت عليه الوحشة ولذعته تباريح

الاشواق حتى لا يطمئن له بال ما لم يعد اليه ولو عاش فيه بعسر وعناء . وربما كان في المهجر بحالة يغبِطه عليها اهل بلاده فلا تلذ له الاقامة فيه بل يحسد الطيور التي تسبح في جوّ وطنه، ويتمنى لو اتيح له الحظ ان يؤوب اليه ليجتمع بمن ألف طبعُه طباعهم وامتزجت نفسه بنفوسهم . وليت شعري ما الذي يولِّد في القلوب هـذا العطف وما يحملنا على ان نوثر وطننا على كل موطن . هل الجبال والأَودية والينابيع والأَبنية والحقول والجنائن التي نراها فيه، ام آباؤنا واخوتنا واقاربنا واصدقاؤنا ومعارفنا . فلا ريب ان هؤلاء الذين نشأنا معهم على الحب الصـادق والاخلاص الحقيقي، وتبادلنا واياهم اجمل شواعر الولاء في السراء والضراء ، هم الذين يحملونا على محبة البلاد التي وُلِدنا فيها وتنسَّمنا هواءها وارتشفنا ماءها وتفيَّأنا اشجارها وعشقنا سماءها .

فالوطن اذًا هو شمل الاهل والاحبـاب ومجموع الانس والمسرات ، بل هو الجنَّة التي تحيي افئدتنا بريَّا ازهارها والمرفأ الذي نحتمي به في المحن والشدائد، والسور الذي يقينا الصدمات والمصباح الذي يجعلنا بأمن من العثرات ، بل هو الميدان الذي تجول فيه امانينا والدائرة التي تطوف حولها آمالنا، بل البلاد التي نتعزز بعزها ونتقدم بتقدمها ونفتخر بعلو شأنها ونتمتع بمحاسن تمدُّنهـا ونترفَّه ببديع مناظرها ، بل هو الأُستاذ الماهر الذي رقّى نفوسنا وانار اذهاننا وقوَّم اخلاقنا وفتح لنا ابواب الارتزاق وأوردنا مناهل السعد والهناء، بل هو مسقط رأس اجدادنا ومجال اعمالهم ومضمار مآثرهم ومرآة اخلاقهم وعاداتهم . ولا نعرف فضله الا في المهجر حيث لا اب يحنّ علينا ولا امّ ترقُّ لبلوانا، ولاصديق يُعيننا في المحنة وينبّهنا في الغفلة، ولا شقيق يأخذ بيدنا ولا نصير يستجيب نداءنا ولا غيور يحرص على تقدُّمنا ويهتم براحتنا . فليُحبَّ اذًا كلٌّ منا هذا الوطن المحبوب وليفدهِ بالنفس والنفيس وليخلص له الخدمة ، فانما بذلك يخدم نفسه لانه اذا كان وطنه عزيز الجانب رفيع الشان عزَّ بعزه وارتفع بارتفاعه، واذا كان خامل الذكر وضيع القدر خجل بانتمائه اليه وذلّ بمهانته

على انه لا يكفي ان نُبطن الحب لوطننا العزيز بل يلزم ان نبرهن عن محبتنا له بما نأتيه من الاعمال الجميلة التي ترفع قدره وتعزّز مقامه . وما الفائدة من حبّنا له اذا كنا لا نُعنى بانهاضه وترقيته ونشر ذكره الطيب وتشييد مباني مجده ورفع الوية عزه

وانما يتهيأ لنا ذلك اذا نهض كل منا بواجباته، وأحكمَ مهنته وتوفَّر على ايجاد الذرائع التي تساعد على انجاحه . فالحاكم يكون مخلصاً لوطنه ومحباً له اذا اعتصم بجانب العدل والنزاهة، ولم يدخر وسعاً في صيانة الأَمن والراحة بين الرعية ولم يتقاعد عن المساعي الكبيرة التي تُعزّز الوطن وتسعد اهله . والعالِم يحب وطنه اذا اعتنى بتهذيب الشبيبة وتنشئتها على الخلال المحمودة والمناقب العاليـــة ، او نشر مؤلفات نفيسة وتصانيف مفيدة يرقي بها الافكار ويُنير الاذهان . والصحافي يكون من المخلصين لوطنه اذا خدم بصحيفته الحقيقة وانار الشعب، وحبَّب اليه الاخلاق الحميدة وكرّه اليه العادات السيئة، واطلعه على الضار والنافع وقدّم له العلاجات الشافية للعلل المتفشّية فيه . والتاجر يخلص لوطنه اذا كان اميناً في تجارته صادقاً في معاملاته مستقيماً في اعماله قنوعاً بأرباحه، لا يغبن في البيع ولا يستعمل المكر والخداع . والوجهاء يكونون من النُّصحاء لوطنهم اذا كانوا خير قدوة لغيرهم في المحافظة على روح التصافي والائتلاف . والاغنيـاء ينصحون له اذا تضافروا على انشاء المشروعات الكبيرة التي تولّد فيهِ الحياة وتبثّ روح العمران، ولم يبخلوا بامداده كلّما احتاج الى المدد ولم يتخلّفوا عن اسعافه بما يوفِر له دواعي التقدم والسعد والفلاح . وصفوةُ الكلام أنّ كلّاً منا في وسعه ان ينفع وطنه بعلمه او رأيه او تجارته او مهنته ، فاذا تقاعدنا عن ذلك كنا من الخوَنة له بل لانفسنا . فلننشط اذاً الى ترقية هذا الوطن العزيز باحسان اعمالنا وصناعتنا، ولانتوهَّمَنّ اننا نعجز عن انهاضه لقلة عددنا او تعــذُّر وسائلنا ، فالتاريخ يعلّمنا ان شعوباً جمة نهضت الى اوج العلاء بفضل احد نوابغها الحكماء . وكفى بنابوليون امبراطور الافرنسيس انصع دليل على صحة مقالنا، فانه ارتقى بهمته من رتبة الجندية الى عرش الامبراطورية، وقد زيّن تاريخ مملكته بآثار حزمه وبسالته وغيرته ودربتــه . واذا كانت ابصارنا لا تُدرك المدى الذي انتهى اليه ذلك النسر المحلّق في سماء العبقريَّة والمجد فوق النسور في كل عصر، حتى يُعَدّ من نوادر الزمان واكبر المعجزات التي وقعت عليها عين الانسان، فلا أقلّ من ان يكون لنا أُسوة في ما تفرَّد به من المحبة لبلاده، والغيرة على رفع لواء هيبتها في الخافقين، حتى كادت تحسدها على اشعة عظمتها مقلة النيّرَين .

ولو سألت الناس من اية طبقة كانوا هل لوطنكم منزلة في صدوركم ، لأجابوك أنّهم يُحبُّونه حبّاً يقرب من العبادة ويهوَون له كل فلاح ،وذلك ميل فطريّ رُكِّبت عليه النفوس حتى قيل : محبةُ الوطن من الايمان . ولكن اية فائدة للوطن من تلك المحبة اذاقصّرنا في خدمته بما يؤول الى تعزيزه واعلاء شأنه . أوَ يحقّ لنا ان ندّعي بمحبته ونحن متغاضون عن ترقيته في مصاعد العمران والذهاب به الى غايات المجد . فلا ريب ان المحبة اذاكانت على هذه الصفة لا يصحّ ان تُدعى محبة، لان المحب يهتمّ بامر حبيبه ولا يدّخر وسعاً في تأييده وعضده في جميع المواقف ، فاذا ناله مكروه ولم يمدّ يداً لانقاذه منه كان حبُّه له مموّهاً خدّاعاً

كثيرون من اهل بلادنا يحملون شعار الوطنية ويفاخرون به في كل نادٍ،ولكنهم يأتون من الاعمال ما ينفطرُ له قلبُ الوطن. افيليق ان نحصي هؤلاء بين الوطنيين الغُيُر الِحراص على شرف وطنهم و إنجاحه . وما اكثرَ الذين يعبدون وطنهم بلسانهم فاذا دخلت الى قلوبهم لا تجد للوطنية فيها اثراً ، بل ترى هنالك للأهواء اصناماً يسجدون لها في الاسحار والآصال، وقد نحتَها الاستئثار والطمع والكبرياء والنزوع الى الوجاهة والعلاء

ان المحبة الوطنية لا تألف صدر الخائن الماكر ولا تصافح يد الرشوة والتخاذل والتباغض ، ولا تسير الى جانب النميمة والسعاية والتزلّف والمصانعة ، ولا تقف مع الصغارة والذل والهوان ، وانما تستوي في القلوب على عرش رفيـع تحفّ به حرية الضمير والغيرة وعزة النفس والصدق والنزاهة والعفاف والشرف والمروءة. الا فليدخل كلّ منا الى باطنه فاذا رأى فيه هذه الخلال الكريمة كان وطنياً حرّاً ابيّاً ، والا فليدَع هذا اللقب الشريف لأربابه المتهالكين في انهاض بلادهم فانهم احقّ به منه

ولا يتوهمنَّ احد انه يعجز عن القيام بواجبه الوطني، فمهما كان المرء وضيعاً يمكنه ان ينفع بلاده على قدر طاقته . فالقرويُّ اذا اعتنى بانماء زرعه وضرعه وأتقن فن الزراعة والحراثة كلَّ الاتقان يخدم وطنه خدمة تبرهن عن حبه له . والفقير اذا كسب لاهله حتى كفاهم مؤونة التسوُّل، ثم اعتنى بتهذيب اخلاق بنيـه وتعويدهم الصفات الحميدة ، يكون أحبَّ لوطنه من غني يُطلق لاولاده العنان في ميدان الاهواء حتى

يُمسوا وفي ايديهم مطارقُ يهدمون بها شرف وطنهم وعزه الباذخ . والمرؤوس متى قضى واجباته بامانة ونشاط يكون لوطنه انصح ودادًا من رئيس متقاعد لا يحفل الّا بان يحشد الاموال ويبذّرها في غير الوجوه المفيدة لعباد الله

ولسائل ان يسأل ما بالك تنعَى الوطنية وتُعدّ لها الأكفان ، أليس في بلادنا العدد الاوفر ممن وقفوا النفس والنفيس على تنجيح وطنهم ونشر ذكره الطيب في الخافقين . فنحن نقول لمن يوجه الينا هذا السؤال : هاتِ لنا عداد انامِلك ممن هم على هذه الوتيرة حتى نبشِّر اهل البلاد بالتقدم العاجل . فلو كان عندنا في كل ناحية رجلان غيوران لا يفكِّران الا في خدمة وطنهما ولا يسعيان الا وراء نفعه لما كنا في هذه الدركة من الانحطاط . فاين جامعتنا الوطنية واين اخلاقنا من اخلاق الامم الراقية وعاداتنا من عاداتهم . واين موارد الثروة ومظاهر التمدن والحضـارة ، واين التهذيب والتربية الصحيحة ، وأين الناشئة الناهضة والشبيبة المقوَّمة . واين اطباؤنا الاجتماعيون الساهرون على مداواة عللنا وجمع قلوبنا وترقية افكارنا وتمصير بلادنا . نرى المظلوم يستصرخ وما من مُجير ، والضعيف يستنصر وما من مُعين ، والضالّ يسترشد وما من هادٍ حتى كأن سنَّة تنازع البقاء قد انحصرت فينا . قاتلها الله انها نذير البوار والانقراض

فبالله عليكم يا ابناء الوطن الكرام ان تنتبهوا لسوء المصير الذي يتوعَّدنا به الزمان ، فانكم فروع لاصول حسيبة لم تألف الضعة والمهانة ولم تدع للعدو مجـالاً للشماتة ، بل عاشوا اعزّاء كبراء وماتوا شرفاء نُبلاء بما كانوا عليه من التعاون والتناصر والتصافي ، حتى حرصوا على نفوسهم أن تمسّ بدنيئة ، وعلى مقامهم ان يخفضه عدو صوّال . فاقتفوا انتم آثارهم الحميدة واتّسموا بسيمائهم الشريفة حتى تسترجعوا مجدهم الباذخ وعزهم الشامخ ، وبذلك تبرهنون على ان قلوبكم ملتهبة بالمحبة الوطنية ومزدانة برسمها الكريم . اما اذا استمررتم على حالكم لا تحسبون للزمان حساباً فسوف يدهمكم من الشدائد ما يزجُّ بكم في لجج التعس ويطرحكم في مهاوي الخمول . وانا لنُجِلُّكم عن الرضى بهذا المآل الوبيل والمنقلب الشائن .

الغيرة الوطنية

ما اكثر الذين يدَّعون الغيرة على بلادهم وهم عن مصالحها لاهون ، فلا يُجدونها نفعاً ولا يصدّون عنها ضيراً ، وانما يستخدمون أهلها لإدراك أمانيهم وقضاء اوطارهم الذاتيَّة ، فيصعدون على اكتافهم الى مراتب المجد ويتنقَّلون في مناصب السؤدد ويحلِّقون في جوّ الشهرة ، وهم بدلاً من ان يقدروا النعمة التي ظفروا بها بقوة قومهم يعبثون بقومهم ويزدرون ، لانقياده اليهم انقياد العميان ووقوعه في أشراك دسائسهم وقصوره عن فهم اغراضهم ، وربما تعمَّدوا اذاه من حيث لا يدري ، فيحملونه على ركوب المهالك ويرمون به في مهاوي العار والشقاء ، وهو غافل وسنان كأنَّه لم يشعر بما اصابه حتى يتابع مسيره وراء ساداته الدهاة ومواليه القساة ، الذين يسوقونه الى المجازر ويدفعونهُ الى المعاطب ، ويلقونه بين تيَّارات الهموم حيث يذوق من العذاب ألواناً .

ثم لا يزالون مع ذلك على مدَّعاهم متظاهرين بالغيرة على مصالح وطنهم تضليلاً للأفكار وتسكيناً للخواطر ، حتى اذا غفلت عنهم العيون ورقد الرقباء فاجأوا بلادهم بما تكره وخانوها من حيث لا تشعر ، وباعوها مجازفةً ووضعوا في عنق سكَّانها نيراً ثقيلاً يتظلَّم منهُ الرقيق ، وألقوا على عواتقهم اوقاراً باهظة تئنُّ تحتها متون الهضاب . فما كان اغنانا عن هذه الغيرة المموَّهة المقرونة بالمكايد ، وما كان الأخلق بعقلاء الامة وحكمائها ان يطاردوا ادعياءها الافَّاكين واصحابها المواربين الخدَّاعين ، حتى اذا كشفوا عن سرائرهم الخبيثة النقاب تجنَّبهم الشعب كما يتجنَّب الوباء القتَّال . .

أجل ان الذين يضعون على صدورهم شعار الغيرة الوطنية في بلادنا يشذُّون عن الحصر ، ولكنَّ الذين يستأهلون هذه السِمة الشريفة لا يتجاوز عددهم الأنامل ، ويمكنك ان تعرفهم من اعمالهم وآثارهم ، لان الغيرة قِوامها الاعمال لا الاقوال ، فأيُّ امرىءٍ اتى مَكرُمةً مفيدة لوطنه فهو الغيور على إسعاده ، وأيّ رجل دفع بَلية

عن بلاده فهو الحريص على راحتها، الساهر على أمنها وسكينتها . واذا وُصِف بعضهم بالنخوة الوطنية وليس له من مأثرة في جنب أُمته فانزعوا عنه هذا اللقب الشريف' لئلا يُكلَم صدرُ الوطن بتكريم مَن يجدر به التحقير ومدح من تستحق أفعاله التسوئة والتثريب

فلو كان في موطننا عدد كبير من الذين يحرصون على فلاحه لما رأينا الخلل متفشِيًا في اغلب شؤونه، والفسادَ مخيّماً في الصدور والحزازات ثابتة في القلوب، والضغائن كامنة في الضلوع والاعوجاج ممتدًّا الى الاخلاق والعادات ، ولما رأينا دَخلًا في النيّات وأوهاماً في الافكار وسمًّا في دم الشبيبة وورماً في فؤاد المجتمع ، ولما ابصرنا التواءً في دور القضاء وضعف همة في رجال الاصلاح ووناء عزيمة في اهل الحلّ والربط ، ولما شاهدنا هذا الجهل الفاضح والانقسام المخجل والتعارك المبيد . فاتّقوا الله ياحملة لواء الغيرة ' ان الغيرة تتبرّأ منكم لأَنها لا تنزل مع الاستئثار والاستبداد والجور والقسوة ' ولا تألف الخيانة والمكر واللاّمة ' ولا تنضمُّ الى البخل والطمع والكبرياء والعظمة ' ولا تأوي الّا الى القلب الشريف والضمير السليم ' ولا تُؤَاخي الا النزاهة والصدق والامانة والاخلاص ' ولا تماشي الّا القناعة والعدل والشفقة والحنان ' ولا تصافح الا الكرام الأَفاضل والودعاء السلمي الاخلاق . .

فأين المعاهد المجانية في بلادنا لأَبناء الاكواخ النابغين ' وأَين المشروعات الكبيرة التي تفتح لنا ابواب التقدم والعمران ' وأَين المعامل والمصانع ' وما هي الآثار التي كتبناها على جبين العصر الذهبي بل عصر الاكتشاف والابداع ' وما هي التذكارات المجيدة التي سطّرناها على صفحات التاريخ . أَوَ يظنّ احدنا انهُ اتى عملًا خطيرًا يضمن له الثناء الخالد ' أَوَ يقدر اعقابُنا من بعدنا ان يستدلُّوا على وجودنا من مآثرنا وآثارنا . فاستيقظوا من غفلتكم ايها النيام . .

ان وطننا في دركات الخمول ' ومن المحال ان ينهض الى قمة الفلاح مع هذا السُّبات العميق . فتضافروا على انهاضه بجميع ما لديكم من الذرائع ولا تدَعوا الاجانب يهزأون بنا وينظروا الينا بعيون الامتهان ' فاذا تمهّدت لكم الاعذار في العهد السابق ففي هذا العهد لا تسمعون الا كلمات التنديد والتعيير والاستخفاف، لانه قد تحطَّم الحاجز الذي كان واقفاً بينكم وبين الجري في ميدان النجح ' وأُطلِقت

لحريتكم العنان ، ولم يبقَ عليكم الَّا ان تُرهفوا الهمم وتُحدُّوا العزائم للعروج في سلَّم الفلاح والنزول في روابي العز . فكسِّروا جميع السلاسل التي تمنعكم عن مجاراة الامم الراقية ، وتجنَّدوا لاصلاح ذات البين فيما بينكم ، لانهُ يتعذَّر عليكم ان تخطوا خطوة الى غايات النجاح مع التحزُّب والتخاذل والتنابذ والتفرُّق ، واعتبروا انكم أمة واحدة لا تُقسِّمكم المذاهب ولا تميّزكم العناصر ، وانما انتم تحت اجنحة الوطنية اخوان وأخدان ، فبذلك تفوزون بما تشاؤون ولو كان في جبين الاسد ، ولا تلبثون ان تصيروا موضوعاً لإعجاب الأعاجم ، بما تُنشئونه من المشاريع الجليلة والاختراعات الكبيرة التي تفسح لكم مقاماً بين خُدَّام الانسانية وترفع لكم شأناً عند جميع الشعوب . ومتى حقَّقتم هذه الآمال اضفتم الى مفاخر اجدادكم اجمل الآثار.

الجرأة الادبية

لا يفوز المرء بالاماني التي تموج وتمور في صدره ، ولا يكون من عُلّيَّة قومه في نباهة الذكر وجلالة القدر ، إلَّا اذا كان قويَّ النفس ثَبْتَ الجنان ، لا تُذيب الشدائد بأسهُ ولا تَثلِمُ المصاعبُ همتَهُ ، لان جلائل الاعمال لا تخلو من عقَبات صعبة المُرتقى ومُعضلات خشنة المركب . فاذا لم يكن من الجرأة بحيث لا يصدُّه عن الإقدام تيَّار ولا يَثنيه عن عزمه الصادق الصارمُ البتَّار ، جبُنَ وجزع وخالطهُ الدهش وصرَعهُ اليأس لأوَّل صدمةٍ ، وهيهات أن يُعاود الكرَّة بعد تلك الكبوة .

وكثيراً ما يكون الرجل من صحَّة العزيمة على اعظم جانب ، غير أنه بركوبه المشقَّات وخوضهِ الغمرات على غير رويَّة يتصدَّى له في طريقه ما يوقعه في الفشل والارتباك ، حتى يرجع على عَقِبَيهِ رجوعَ اللهيف الخائب . فلو بالغ في تدبير مسعاه وتجاهد في درسه والتفكير فيه ، قبل ان يرمي بنفسه في حوماته ، لما انتابه من الاهوال ما يكسر الحِدَّة ويُغرق الجلد . واغلبُ ما يكون هذا المُنقلب للفارس الجريء

القلب الذي يجول في الميدان جَوَلان المستبسل ويقحمُ قُحومَ المستقتل بدون تدرُّب سابق ، فلا يكاد يحمل الحملة الأُولى حتى تزلّ به القدم ويَركن الى الفرار متحسّراً على تهوُّره وخوضه المقاحِم .

فتفادياً من أن تسطو الفواجئُ على بسالتنا وتستأصلها من صدورنا لا بدّ لنا ان نتأنى في ما نعمل وندقِق النظر فيه قبل مباشرته . وليكن تفرُّسنا في اعمالنا بالقياس الى غلاظة شقَّتها وشدَّة مراسها . فاذا فعلنا كان التردُّد فيها من فساد الرأي كما ان مقاساتها قبل مُعالجتها ضربٌ من التطوُّح والاغترار . واذا كان هذا المنهج الاحتياطي لا يُعفى العُرَفاء المجرَّبون من انتهاجه احترازاً من الغيّ والمضلَّة ، فأَخلِق بالأَحداث الأَغرار والشبَّان غير المتخرجين أن يلتزموه بتيقُّظ وتحرُّز حذراً من سوء المصير .

ومما يجب التنبُّهُ له ، وهو من الأَهمية بأسمى منزلة ، أنَّ الجرأة على مثال سائر المحاسن الادبية ، تُغرَسُ في النفس في عهد الحداثة . فعلى الآباء اذا شاقهم تمهيدُ سُبُل العلاء لبنيهم أَن يُنموا فيهم منذ الصغر هذه المزية الرائعة التي هي المدخل الاوحد لجميع المساعي الكبيرة ، وذلك بأن يُدرّجوهم هم واساتذتُهم الى معاناة المسائل الصعبة تمريناً لأَذهانهم ، حتى اذا هالهم الموقف لأَول نظرة أَزاحوا عن بصيرتهم الوهمَ وكشفوا لهم جانباً من الغطاء، الى ان يقووا من أَنفسهم على جلاء الغامض بغوصهم على المعاني وذهابهم في شعاب الاستدلال كلّ مذهب . ومن الُخرق أن يطارحوهم أَسئلةً أرفعَ من ان تمتدَّ اليها بصائرهم مهما اجهدوها بالتأمل . لان هذه الطريقة المستوعرة مَدرجةٌ للضجر والقنوط ومُتلِفةٌ للجهد والجلَد . وانما يجمُلُ بالمربّين والمدرّسين ان يثبتوا للمتخرّجين على ايديهم أنَّ الانسان، بما اوتي من القوى العاقلة، لا يستعصي عليه شيءٌ من المباحث والمسائل العلمية مهما كان عليه من الوعوثة والتوعُّر على شريطة ان يجمع بين حِدَّة الذهن والمضاء ، وبين التروّي والتأني ، وبين الحزم والإحكام . وليضربوا لهم على ذلك امثلة من الرجال العظام اصحاب المبتكرات الأُلى انما تفرَّدوا بالمشروعات الرائعة لتفرُّدهم بالحزم والصبر والاقدام ، فانَّ ذكر هؤلاء المجاهدين ونظائرهم من ارباب النهضة والاصلاح من شأنه ان يُرهف العزائم ويكبّر الهمم ويقوّي النفس على التجلُّد وينشِّطها الى توخّي المقاصد البعيدة المرمى .

وأيضاً فليمرّنوهم على الكتابة والخطابة في جميع المواضيع ، حتى اذا برزوا الى حقل العمل لم تَذعرهم الاشواك ولم يعقل لسانهم التهيّب. ثم من الحكمة ان يُشرفوا بهم ، وهم في سور التأدُّب والتخرُّج ، على ساحـة الحرية والكِفاح حيث يُلقي الدهر دروساً من العِبَر ، ويُلقِن العالَمُ فوائدَ لا تُعرَف الا بالاختبار والتجربة ، وحيث تتبارى النفوس في مضمار التنافس والتنازع ، وتتجارى العقول في ميدان الاختراع والتصنيف والاستنباط . وحيث يتعارك الحق والبطل ويتبارز العدل والجور وتتقاتل المحاسن والمقابح والفضائل والرذائل ، حتى اذا صـار لهم المامٌ بالمسالك التي سوف ينتهجونها ، اقبلوا عليها بعد انجاز الدروس وهم عارفون بمداخلها ومخارجها ومنعطفاتها ومنحدراتها ، وفي يدهم مصباحٌ وهّاج يقيهم العثرات ، وفي اخلاقهم ريحانةٌ عبّاقة يستميلون بريّاها القلوب ، وتوطّن نفوسهم على الآتي الجلّى والاعمال المُثلى .

على ان البصائر بالغاً ما بلغت من الحدّة والمضاء ، ومهما أمعن اصحابها في بيداء الخبرة ، لا يُقدمون على الامور الجسيمة اذا تعرّى فؤادهم من الجرأة ، والمتهيّبون لا ينتفعون ولا ينفعون ، تسنح لهم فرص الاستفادة وهم عنها مُعرضون . وربما تصدّى لاختلاسها مِن امامهم مَن لا يُضاهيهم خبرةً وحذقاً ، فيغنم اجمل مغنم ويكسب انفس مكسب .

واذا ارتبتَ في فضل الجرأة فدونك البيوت التجارية تُخبرك عن منافعها الجمة . فان التجارة تحتاج الى الشجاعة كما تحتاج الى الامانة والاختبار والتروّي واليقظـة ، وما من تاجر جبان فسحت له ارادته الضعيفة محلّاً بين اصحاب الثروة ، لان خوفه يمنعهُ عن المنافسات التي هي عماد الربح ومنبع الكسب . ثم حوّل نظرك الى المنابر التي ترفرف عليها الجرأة الادبية فترى كيف تنتثر من أعوادها لآلئ الحقيقة وتتجلّى في سمائها كواكبُ الصدق والهداية ، وكيف يكون لأقوال خطبائهـا الأَجراء جولاتُ إعجابٍ في النفوس ومواقعُ حمدٍ في القلوب ، بل انقباض في الضمائر المختلّة واصطكاكٌ في المسامع المعتلّة ، وموجاتُ استحسان في صـدور المظلومين ، وهزّاتُ طربٍ في اعطاف المهضومين ، ومهامز حادّة في جوانب المستبدين المعتّتين ، ونبضات هلع في افئدة الخائنين الافّاكين . ثم وجّه نظرك الى حيث سادت المداهنة والمداجاة والمراوغة والتمليق والرثاء تتمثّل لك الخيانة باقبح صورها ، وتحسب نفسك بين تيّارات المصانعة

والمديح الكاذب الختّال الذي يتدفق من افواه الخطباء المدالسين كالسيل المدرار ، فتمجّه الاسماع وتستنكف منه النفوس الحرّة وتَنبذه نبذ النواة .

واذا كانت الجرأة من ابدع حلى الخطابة وأبهر محاسن الخطباء فلأَن تكون من حلل الصحافة وشِعار محرّريها بالأحرى ، مِن وجهٍ أنَّ هذه اعمُّ انتشارًا وأدعى للتروّي والتثبُّت من تلك ، فضلًا عن ان الخطيب اذا اطال نفَس الكلام ملّه السامعون ' ولا يتهيأ له ان يجمع تحت منبره كل من يقصد مخاطبتهم إمَّا لتعذُّر الانقياد الى دعوته ، او لامتناع الاجتماع من الاطراف البعيدة ، او لضعف صوته عن ان يخرق مسامع الشهود ، ولو كانت العيون نطاقًا عليه . وأمَّا الصحافيُّ فله ان ينقر على اوتار الانتقاد كلما وجد للقول منصرفًا ، وأن يتفنَّن في النغمات بما يراه أملكُ للطبع واخفُّ على الروح واوفر ملاءمةً للاحوال . وصحيفتُهُ في بلاد الله سيَّارة تهذِّب القلوب وترقّي العواطف وتُقوِّم الطباع وتُرشد الى سواء السبيل .

ان الجرأة سلاح الصحافيّ بل هو أحوج اليها من الجندي في صميم المعامع ، كيف لا وان الصحافة اذا كانت جريئة المقدَم يتسنَّى لها ان تولِّد في بلادها جنودًا متحمِّسة باسلة تقتحم المكاره ، ويسهُلُ عليها ان تُنشئَ قُوَّادًا من اقطاب التدبير والحنكة ' ورجالاً دهاةً من عيون السياسة والخبرة ' وفي وسعها اذا استفرغت قوَّتها الادبية ان تُصلي الجهلَ والبُطلَ حربًا عوانًا وتُثير عواصف حُججها في جوّ الاقناع فتنقضّ على مباني الحيف والفساد صواعقَ قتّالة ' وتستطيع بمجذاف النزاهة ان تصدَّ عن مركب الفضائل امواجَ الاهواء ' وتبثَّ في صدر المجتمع روحَ التآخي والنخوة والإباء . ولكنها اذا خلت عن هذه المنقبة الشريفة فخيرٌ لها ان تكفَّن وتُدفن في ارماس البلاء من ان تكون مُستنقعًا للأَوبئة الفتَّاكة ' وحوضًا للاراجيف والمداهنات السامَّة ' ومصدرًا للتمليقات والمدائح الغرَّارة . ولو لم يكن للجرأة من فضل سوى انها تدفع المرء للتعويل على نفسه ' وتُصبّره على مُكابدة المصاعب ، وتدفع عزائمهُ للغوص في بحار الاختراع وخوض ميدان التنافس ' لكفى بها مزيةً تُزري بالدُّرر اليتيمة . على انها ابعد مرمى من ذلك وافسح دائرة واقصى غاية . كيف لا وهي التي حرَّرت الأنام وهدَّت مظالم الحكَّام ' وقطعت سلاسل الاستعباد وضعضعت أُسُس

الاستبداد ، وسوّت بين القدير والضعيف والغنيّ والبائس . ومكّنت الرعية من معرفة ما لها وما عليها تجاه القانون والمجتمع . وسحقت اصنام الترلّف ونسخت آيات التقاليد المموّهة ، وأبعدت النفوس عن أقدام السادات الذين أبطرهم المجد واعماهم السؤدد وطبّق بصائرهم الأصفر البرّاق ، حتى كان لهم به مشغلةٌ عن النفع العام . ولولا سطوتها لدبّ الفساد في اخلاق الامم وتأثّلت فيها العادات الذميمة والاهواء الدميمة ، فرحلَت عنها الآداب وجفَتها المفاخر وافلتت منها المكارم والمآثر ، ولو لا صولتُها لاستقرّ العالم ملعباً للمطامع وغاباً للذئاب الخاطفات ، فسلامٌ على محيّاها الوسيم والف تحيّة لابنائها الأُباة الاحرار .

ولقد كنا نودّ ، بعد انحلال عقدة اللسان وعقال اليراع ، ان يدرأ في سمائنا الصافية بدرُ الجرأة الوُضّاء حتى نبدِد بانواره الوقّادة ما تلبّد في جوّ مجتمعنا من مخجلات الغياهب . غير اننا نأسف ملءْ الاسف على ان تلك الظُّلمات المتراكبة طباقاً فوق طباق لم ينتشر في أفقها الا شرارات ضئيلة لم ينفجر معها صبحُ الاصلاح . وما وطننا بَمُلوم في ذلك لانهُ كان ولم يفتأ في اعتقادنا عرين الاسود وأجمة الاشبال ، وانما الملامة كلها على الايدي الضاغطة التي شدّت علينا الخِناق حتى اوهنت هممنا وثلمت عزائمنا .

وثقتُنا بعُمدة الفضل والحمية أنهم يشقّون بعزماتهم الماضية العقبات الكأداء ، ويسيرون امام الشبّان في معترك الجهاد بحيث يجمعون الى الجرأة الحكمة والنزاهة والدراية والاعتدال التي بدونها لا يكون للحماسة نفع ، بل ربما غرّرت بالنفوس واوردتها مواردَ الهلكة . وعلى هذا الامل الوطيد وبناء على غيرة ارباب الصحافة الجريئة النزيهة نرّحب سلفاً بهلال العمران والمدنية الذي سيتكامل في فلكنا الى ان يصير بدراً تمّا لا يُعقِبه سَرارُ ، والله المسدّدِ الرشيد

الانتقاد

الانتقاد صِناعةٌ خطيرة تُنبِّه الأذهان الغافلة وتُنير البصائر الزائغة، وتُثقِّف النفوس المعوجَّة وتلجمُ القلوب الجامحة، ناشرةً في اطراف المعمور اضواءها الوهَّاجة هدايةً للضالّين وتشهيراً للغواة وتنبيهاً للعاملين

وهي تجيل مسبارها في جميع العلوم والفنون وتُمرُّ على مِحكّها كلَّ المباحث والشؤون، وتُعيّر في ميزانها العادات والاخلاق والاعمال، ولا تغادر مِرصادها قبلَ أن تتجلّى الحقائق بابهى مظاهرها. ولذلك وسَّعت نِطاق العُمران ونشرت أشعَّة العرفان وسدَّت ثُلَم الرئاسة وقوَّمت ملاوي السياسة، وزادت موارد الزراعة وروَّجت سوق التجارة والصناعة، وعلّمت وجوه الاقتصاد وقوَّضت دعائم الاستبداد الى ما هنالك من جلائل المنافع التي لا يقع عليها الحصر

وحسبُها فضلاً أنها تُبينُ قدر الرجال وتكسر مخالب الطمع، وتُمهّد عقبات الأُلفة وتصدُّ عن الأمم ما يتوعّدها من الغوائل وتزحزحها عن مهاوي العار والوبال

ولولاها لاستمرَّت الانسانية في مفاوز الهمجية ولما انبسطت على ابنائها انوارُ المدنية، ولولا سطوتُها لبقي الضعيف مُهاناً ذليلاً والقويُّ محتكماً واللّينُ اسيراً والشرسُ الجافي أميراً، ولبات الغبيُّ يجر على العالِم اذياله والظَّلومُ يُلقي على مناكب البشرية اثقاله، وكانت الناس فوضى لا فضل للراجح فيهم على المرجوح ولا مزيَّة للفاضل على المفضول، وبذلك تفتر العزائم وينثلم حدّ النشاط ويسود الخمول ويعمُّ التقهقر.

وبديهيٌّ أن المجتمع البشري مهما اندفع الى غايات الاصلاح لا يخلو من عيوب تُشوِّه مُحيّاه وعللٍ تحولُ دون نموِّه الادبي. فاذا لم يكن له من الاطباء النُطُس مَن يُضمِّد جراحه ويداوي اسقامهُ استعصى الداء وعزَّ الدواء، واستفحل الامرُ واتَّسع الخرقُ ونتجت عن الغفلة اسوأُ المغبات ..

ولذلك نشط في كل عصر ارباب المروءة والحميَّة يُعاركون الاهواء ويطاردون

الأسواء ، ولم تنقطع نَبَرات اصواتهم من عـلى منابر الغيرة ، حتى فازوا بضالتهم المنشودة، فادّوا لبلادهم خِدَماً جُلّى حبّرت صفحات التاريخ، وأورثتهم مجداً خالداً لا تمحو الايام آثارَهُ ولا تطوي تذكارَهُ .

ولصناعة الانتقاد في البلاد المغربية الشأنُ الخطير اعتبارَ أنها سُور الأمة ومرمى آمالها ومصدر تقدمها ومدارُ سعدها . فهي التي رصدَت جوّ مجدها فبدّدت عنـه الغيوم السوداء وشيّدت معالم عزها فشلّت دونها يدُ الاعداء . ولذلك عقدت لكل فن لجنةً انتقادية مؤلّفة من جهابذة العلماء ، وألقت على عاتقها أن تحرصَ على تمحيصه من الشوائب، وتسهر على إبلاغه الشأوَ البعيد من الاحكام مع صيـانته من كل ما يشينه او يحول دون ترقيه.. وبفضل هذه المساعي الجميلة توفّرت أسبابُ العمران وغزرت مواردُ الثروة ، وجرت العلوم اشواطاً في مضمار الفلاح واشتدّ ساعدُ الدول العظمى حتى بَسَطت اجنحة سيطرتها على اطراف المعمور ، وثبّتت قدم سؤددها بين الدول المتقهقرة ونشرت تجارتها في جميع القارّات ، واستخرجت مناجمهـا واستبدّت بمنافعها ومَرافِقها ، واستخدمت اهلها في مصالحها .

وما من شعب أحوجُ لمزاولة هذه الصناعة من شعبنا اللبنانيّ ، لانه لم يبرح في الدرجة السفلى من مراقي الحضارة ، وفي نفسه آمالٌ جِسام يرجو تحقيقها من دُعاة الاصلاح وحُذّاق الكُتّاب وأصحاب الهمم العلية والاراء الاصيلة . غير أننا نأسف اشد الأسف على ان في صدورنا أرواحاً ميّالة الى الاطراء ، مستنكفة من إماطة النقاب عن عيوبها ومساوئها ، وهي توثر التهوُّر والتورُّط في غيّها على تقويم ما انآدَ من طباعها وعاداتها ، وإصلاح ما اختلّ من اعمالها وفسد من نيّاتها واعترض دون رقيّها، على حين أنها تستصرخُ لرأب الصدع وتتأوّهُ من تفاقم الخطب ، وهنا العارُ كلُّ العار. وهذه الارواح السابحة في جو العُجب لا نراها في الامم الراقية ، بدليل انهـا تُنزل كتّابها في منزلة الخوَنة اذا انتهجوا فيما يكتبونه بشأنها مسلك التدليس والمداهنة . وهي تحمل عليهم حملة هائلة وتُصليهم حرباً طاحنة الى ان يتنكّبوا عن خطتهم المنحرفة التي تعدّها من مزالق الضلال ويتفرّغوا لخدمتها بصدق ونصح وامانة

فأين نحن من تلك الامم الحيّة التي لا تُستدرَجُ بعبارات المدح ، بل تحسبها سمّاً

زُعافاً وتستاء من صاحبها أيّما استياء . واين كُتَّابنا من كتَّابهم الذين يفتخرون باذاعة الحقائق ولو اثارت عليهم السخط العام ، ويروقهم أن تُنحي الائمّة على مصنفاتهم بالتنديد والانتقاد ، تداركاً للخلل وتلافياً من ان يركب القُرَّاء ما ركبوا هم من الشطط ، فيدبَّ الفساد في جسم الأمة وتتغلَّب عليها الاضاليل

اما نحن فاذا اطلقنا اليراع فانما نطلقهُ في ميـدان الاغراض الشادةً بذكر مَن نهواه ، وتسوئةً لافعال مَن نُبطن له الحسد والعداء ، حتى كثيرًا ما ننكرّ على من كُتِب لهم التوفيق من ابناء بلادنا الاماثل كرَّةً جائرة تُعرقلُ مساعيهم وتولِّد في نفوسهم الفتور وتُطفئ من افئدتهم المحبة الوطنية . فكأنما قُضِيَ علينـا ألّا نرى فينـا رجالاً نوابغ نتباهى بهم في مواقف الافتخار ونعوّل على نجدتهم في آونة المحن .

ومن أَجسم البلايا أنَّ احدنا اذا نشر موءلّفاً ولم يُفسح له في المجلات والصحف مجالٌ رحيب للتقريظ انقلب عليها بلسانه الذَّرِب ، وحَمَلَ سكوتها على غير محمله وجاهرها بالعداء . حتى كأنما لم تخطّ يدهُ تلك الاساطير إلا على قصد ان تصادف من كلمات الإِطراء عدادَ حركاتها وسكناتها ، مع ان مصنَّفهُ كثيرًا ما يكون غير حريٍّ بالمطالعة إما لاختلال نسقهِ وابتذال موضوعه ، او لركاكة الفاظه وتعقُّد معانيه الى غير ذلك من الاسباب المزهّدة المنفّرة . .

وما عساه ان يفرط منه اذا تفرَّغ احـدُ المحقّقين لنقد مقاله بُغيةَ ان يأمن الاحداثُ معاثرهُ ويتحاموا كبواتهِ ومظانَّهُ . فلا ريب انه يُزبِدُ حدّةً ويفور غضباً ويُوسع الناقدَ طعناً وتثريباً ويقبِّح عليه اعماله تشفياً وانتقاماً ، وكثيرًا ما يستظهر بامثاله من نُصراء البطل حتى يتشيَّعوا له ، وبذلك تضيع فوائد الانتقاد

فكفى بنا غفلةً وفتورًا ايها القوم،فقد أزفت ساعة النهوض من ورطة الانحطاط ، وحان ميعادُ الوثوب الى ذروة العز . ألا جرّدوا الأقلام وانزلوا الى ساحة الجهاد ولا تدعوا في الكنانة سهماً حتى تُسدِّدوهُ الى ما تفشَّى فينا من المساوئ ، ولا تتركوا في حصن الحقيقة قنبلةً حتى تُطلقوها على مباني الجهالة فتُدكّ من اساسها . فالوطن الان سقيمُ البنية خائر القوى ، فعالجوه بالادوية الناجعـة حتى اذا تماثل وسرت في عروقه

الحياة تاه ببنيه اصحاب الهمم الشمّاء ونوّه بذكرهم في جميع المحافل . وانّ فينا والحمد لله رجالاً من خيرة الرجال مشهورين بسعة المدارك وغزارة المادة وطول الباع في الفنون الادبية . ولهم خبرة وافية باحوال البلاد ومعرفة واسعة بمذاهب تقدمه . فاذا كان لا يتسنّى لنا أن نؤلّف لجناً لكل علم وفن فلا أقلّ من ان ننشر افكارنا على صفحات الجرائد ، حتى اذا أجرينا القلم في كل مضمار تجلّت الحقيقة من احتكاك الافكار واستنارَ بها الاغبياء الاغرار، ورفعت عن بصائرهم غشاوة الترّهات والاوهام . وبذلك يكون لنا في النهضة الجديدة اليد الطولى وفي سجلّ مفاخرنا الآثار الخالدات .

آداب الانتقاد

ألمعنا فيما سلف الى منافع فن النقدّ وشيوعهِ بين الامم العريقة في التمدن ، وتطرّقنا الى بيان ما له في نفوسنا من الانقباض والنفار على كوننا في امسّ الحاجة اليه ، ثم استنهضنا همم مشاهير الكتّاب وبُلغاء المنشئين للخوض في جميع المسائل العُمرانيّة والاجتماعية على الطريقة الانتقادية، رجاءان ينهضوا بنامن الدرك الادنى الى قمة المجد ونباهة الذكر ، فيكون نصيبُنا من العلياء نصيبَ البلاد النّاشطة النجيبة . والآن نسرد للناشئة الوطنية أصول هذه الصناعة وآدابها بُغيةَ أن تحلّها من القلوب محلّها الأسنى، فلا تمجّها بعدئذٍ الاسماع ولا تنبو عنها الطباع ، بل تُرحّب بها النفوسُ ترحيبَ الروض بأنواء الغمام ، وتحتفي بأربابها كما يحتفي السّاري تحت اكناف الظلام بالبدر التمام

ولا جرم أنه لا يتأتّى لنا الظفر بتلك الأماني المرجوّة من هذا الفن ما لم نتقيد باحكامهِ وآدابه وتُخلص القصد والنية عند ولوج ابوابه ، ولا يخفى ما في هذه القيود من خشونة المركب وتوعّر المسلك ولا سيّما أن هذه الصناعة ، على ما سبق لنا في صدر مقالة الانتقاد ، تجول في كل ميدان وتحوم على كل هيئة من هيآت المجتمع

الانساني ، وتضمّ في دائرتها كل ما ينتجه العقل ويُولِّدُهُ القلب وتُبرزه الارادة الحرّة على تنوّع مواضيعه وتشعّب اغراضه ، بل تتناول جميع المسائل التي تسرح فيها الابصار وتطمح اليها الافكار مما تستبطنهُ الطبيعة او يرفّ فوق المادة

ومن المحال ان يستوعب المرء جميع هذه المدارك ويحيط بأطراف المعارف من معقولة ومنقولة مهما كان مبلغهُ من الحصافة وصفاء الذهن وقوة الحافظة، ومهما تناهى جدّه وتمادى كدّه وبعُد نظره وامتدّ اجلهُ ، فكان الخليقُ بأرباب النقد ألّا يُجيلوا اقلامهم إلاّ في المباحث التي توغّلوا في درسها وتعمّقوا في تفهّمها حتى استجلَوا اسرارها وحلّوا مشاكلها واقتنصوا شواردها وأوابدها ، ووقفوا على دقائقها وجلائلها، وتبيّنوا مقدّماتها ونتائجها واستقصَوا أُصولها وفروعها، لطول عهدهم بممارستها واستقرائها ، لئلا يخبطوا في مجاهل البحث على غير هدىً ، فيتطوّح معهم كلُّ من اقتصّ آثارهم واقتفى معالمهم

ومن العلوم ما هو عرضةٌ للتغرير والتضليل أكثرَ من سواه، ولا سيّما ما استبهمت مذاهبه واستغلقت طرائقهُ، او كان له علاقة بالحياة الادبية والطبيعية ، مما لا يتهيّأ تداركُ شرّ خطإه بعد وقوعه . فكان من الحكمة وقواضي الذمّة ألاّ يخطو الباحِثُ خطوةً في مجاله قبل ان يتدبّر معناه ويحلّ مَعمّاه ، فيُفرغهُ في قوالب البيان ناصعاً جليّاً

وهذه المضارّ التي تنتج عن ضعف القدم في مذاهب الانتقاد يغلبُ وقوعها اذا كان للمنتقِد عند القرّاء المنزلة العاليةُ، وهم قاصرون عن تمييز الغثّ من السمين بحيث يتوهمون الدسَم ورَماً والورم دسَماً، فيندفعون وراءه على غير رويّة ، وهذا الضلالُ بعينه . فاذا لم يكن في القوم مَن يرفع الحُجُب عن تلك المزاعم والأوهام هزلَ الحقُّ وسمنَ البطلُ ، وظهرَ الغيُّ على السَّداد في مُعترك الجدل والمناظرة ، ونال الامة من المغارم المعنويّة ما ليس في الحسبان

ولكن اذا كان هناك ذو نيرة ثاقبة ، جامعٌ الى قوة الحُجة سعة المعرفة وملكةَ الاقناع ، لا تلبث ان تضمحلّ تلك السفاسف والاشباح وتتلاشى كاضغاث أحلام . وحينئذٍ يُصيب المنتقَد الضلول والمباحِث المكابر ما يجعلهما من زواجر العِبر للمعجبين

AMERICAN UNIVERSITY LIBRARY CAIRO

بنفوسهم المغترّين بأقدارهم .

على أننا ننزّه كُتّابنا النبلاء عن الاسترسال الى مرامي الاستغواء والمكابرة والتخرّص، ثقةً منا بأنهم من أحرص الناس على اذّخار الحقائق والذود عن ذمارها، وأبصرهم بالعواقب اذا تحكّمت المغاوي وشاعت المخازي ، وانما يشقّ علينا ان نرى بعض المتشدّقين يتاجرون بالاعراض السليمة ويلذعونها بقوارص اللسان، استنامةً الى المطاعن والمثالب التي تحيي الضغائن والحزازات وتولّد الفتن والمشاغب وتورث الشقاء، وكان الحقيقُ بهم ، لو عثروا على عيب في افراد الأُمة، ان يصفوا له الدواء الناجع لا ان يتشفّوا بتعيير صاحبه وتقريعه حتى تستحكم العلة وتتفاقم البلية . وربما تطرّقوا الى ما يندى له وجهُ الأدب فيختلقون عليه من الأراجيف ما تُبرّأ ساحتُه منه ويُجلّ طبعه عنه . وما ذلك بالامر اليسير في عُرف الادباء والمتأدبين

والانتقادُ إذا علتهُ هذه المَسحةُ الافكيّة، أو تُذرّع به الى الغضّ من مقام المنتقَد عليه، كان من ضروب الامتهان وجرّ على المجتمع تيّارًا جارفًا من العار والدمار وَحريٌّ بمن جرى على هذه الوتيرة الذميمة أن يتجند لمكافحته رجال الحميّة والغيرة بحيث لاينثنون عنه الا وقد غرّقوه في لجة الهوان ، حتى لا يتجرّأ هو واشباهُه في مستقبل الايام على هضم الحقوق وهتك المحارم تحاملًا على ذوي المناقب الغراء والآثار البيضاء . ومتى وُجّهت سهام المذمة الى امثال هؤلاء الأسرياء الاكارم ثم أُشيد بذكر السفلة اللئام الاوغاد فقدَ هذا الفنّ فوائده وكسدت سلعته، حتى يصبح مستهجنًا مكروهًا بل حملًا فادحًا على الانسانية، وعشًّا للبطل وجعبة للقدح والتشنيع وأحبولة تُصطاد بها وجاهة الكبراء، بل أخلِق به ان يكون بلا تأثير في القلوب بداعي أن الاعمال اذا شابتها المقاصد الملتوية ظهرت بمظهر لا يُعبأُ به مهما كانت طبقتها من الرونق والبهاء ، فكيف بها وقد نشأت على خلل في مبناها وفساد في جوهرها

وتفاديًا من ان تُلطّخ هذه الصناعة الشريفة بتلك المفاسد والمغامز نستهمّ الكتبة الأُباة لمطاردة المتطرّفين الذين اعمتهم الاهواء ، حتى لا يدسّوا في الصدور سمًّا قتالًا ناقعًا يتضاءل به جسم الجامعة ويتصدّع عظمُها الى ان تحلّ اعضاؤها ويسقط هيكلها. واننا على ثقة وطيدة بحمَلة الأقلام في بلادنا أنهم يستفرغون الجهد في تحرّي الحقائق

فيما يكتبونه أيّاً كان مجالُ بحثهم ، مراعاةً للنفع العام الذي يُؤثر على النفع الفردي بين الأمم الناهضة ، فاذا مسَّت الحاجة الى نقد طبقة من طبقات المجتمع كان عليهم أن يتدبّروا الموضوع الذي يبحثون فيه بعين مجردة عن الغرض ، غير ملتفتين الى الكاتب بل الى مقاله ، وليكن دليلُهم الحقّ ومنارتُهم أُصولَ الفنّ الذي يُناقشون فيه وغايتُهم خدمةَ العلم وتجريدَهُ من الوهم

وليحذروا من مِهماز الحسد وشيطان البغضاء ونَشوة الكِبْر وسورة الادعاء.. فانها جميعها من مُفسدات هذه الصناعة . ومتى شعر المنتقِد من نفسه انها نافرة من المنتقَد عليه جمُلَ به أن يكسر يراعة النقد خشيةَ ان تُملي عليه الضغينة ويوحي اليه الغضب والانتقام ما يُعقب الندم والاسف ويفتح عليه باباً وسيعاً من الملام . لان المرء اذا قاده الهوى فالى هاوية العار والشنار ، والقلبَ اذا دبت فيه عقاربُ البغض والشحناء تعامى عن الحسنات بل ربما حسبها سيئات

وغيرُ خافٍ أن هذه الصناعة تدور على المحاسن والشوائب ، وتستلزم النظرَ في وجوه التجوُّد والتأنُّق والاصابـة قبل ايراد مغامز الخلل والتعقيد والركاكة . ولذلك كان على الناقد أن يُبين مواطن الحسنات بدون مبالغة وتفريط ، ويُظهرَ العثرات خلواً من تحامل وافراط وتعنيف ، واذا تهيّأ له وجهٌ يشفعُ في المخطىء الحائر حَسُنت إبانتهُ إخلاصاً للعمل . وليعتمد في انتقاده على الأُصول المألوفة بحيث يرجعُ في كل عيب الى القاعدة التي شذّ عنها مع الاشارة الى طُرق الاصلاح ومناحي الصواب .

ومما يجب التحرُّزُ منه في هذا الصدد أن تُلبسَ عبارة النقد ما يُفصِح عن الاستهانة والازدراء بقدر المنتقَد عليه ، او تبدو بمظهر العُجب والعصمة والتعنُّت حتى يُخال المنتقِدُ كأنه على اريكة المجد او كرسي القضاء ، والمنتقَدُ عليه كأنه مجرم بين يديه يحتكم فيه على هواه . وكيف يُرجى والحالة هذه جبرُ الوهن وإقامة الأَود ، ام كيف تسلمُ العاقبةُ من الغوائل ، ام كيف لا ينشَطُ المنتقَد عليه الى المحاماة عن نفسه ودرء الشُبهات عن مقاله ، وتسديد سهم اللوم الى خصمه ورد كيده الى نحره

على أنه اذا توفّر المنتقِد على رعاية سُنن هذه الصناعة وآدابها المحمودة باتخاذ جانب الصدق والانصاف والنظر الى المنتقَد عليه بعين الكرامة والاعتبار عملاً بفروض

الاخاء والعدل لا يبقى من ثَمَّ سبيلٌ للاعتراض والاستياء ، خصوصاً أن المنتقَد عليه لم يدركه من الناقد ما يكرههُ سوى أنه هذَّب كلامه وقوَّم معوجَّهُ ' وهي محمدةٌ جديرةٌ بالشكر ويدٌ خليقةٌ بالحمد ، اذا غفل المنتقَد عليه عن اداء حقِّها من العرفان لم يغفل نصراء العلم والادب ، لان خدمة الحقيقة من الخِدم العامة التي تتقاضاها البشرية من مصابيح الهداية وارباب المعارف ودُعاة الاصلاح .

الوقت اثمن من الذهب

حكمةٌ باهرة هبطت من سماء الخبرة على أذهان الفلاسفة الذين حنَّكهم الدهر واحكمتهم التجارب ، فأودعوها سفر الحِكَم وأخذت الأجيال تتناقلها من بعدهم جيلًا فجيلًا ، حتى انتهت الينا على رونقها الوهَّاج . وأيُّ امرئٍ يُنكر ان الوقت هو كنزٌ غايةٌ في النفاسة ، يستخرج منه الحكماء ما هو أثمن من النُضار وأنفس من الإلماس . ولو كان للبحار مقلةٌ ترى وبصيرة تُدرِك بها قيمة الاشياء لخجلت ان تُبرز لآلئها اليتيمة ' بعد وقوع عينها على تلك الجواهر الغوالي التي ولَّدتها قرائح الرجال العظام وأنبتتها فِكَرهم المولِّدة المُمرعة . بل لو قابل الفلك الدوَّار شُهُبَهُ الثواقب بما اكتشفه العلماء العبقريُّون من الاختراعات المدهشات لآثر ان يغشى أديمَه ليلٌ أبديٌّ دامس ، وشَعِر في باطنه ان الكُرة الارضيَّة على صغرها قد اصبحت اسمى منه قدراً وأنبه ذكراً . بل لو عرفت الطبيعة ان الانسان المخترع العامل سيحلُّ رموزها ويطَّلع على اسرارها لقلَّدته زمامها قبل ان يُسيطر عليها بما أُوتيه من حدَّة الذهن ومضاء العزيمة ورسوخ الجلَد .

أجل ان الانسان المقترح المكتشف قد فتح في هذا العصر فتوحات غريبة عجز عنها البشر فيما سلف من الاعصار ، حتى لو نُشِر احدهم في هذه الايام ووقعت باصرتاه على المخترعات المستحدثة لظنَّ ان البشر العائشون اليوم فوق ظهر البسيطة هم من غير

جبلته ، أو ان باري الكائنات قد آثرهم بمواهب ضنَّ بها على من تقدَّمهم من اسلافهم في القرون الخوالي .

والمقامُ هنا أضيَقُ من ان نفصِّل فيه تلك المستنبطات ونُشبعها وصفاً وبياناً ، فان كلًّا منها حتى أبسطها يضيق عن شرحه مجلَّد ضخم ، فأنَّى لنا اذاً في هذه العجالة أن نتبسَّط في الكلام عليها ونشرحها بأجمعها أوفى شرح . ونحن لا نرمي في ما اوردناه الى ان نبيّن عبقريَّة ابن هذا القرن وبلوغه في ميدان الإحداث والإبداع اقصى مدى بلغه العقل البشريُّ المقترِح المولِّد ، بل نريد ان نُثبت للقراء ان الانسان لم يصِر الى ما صار اليه من الفتح العلميّ المُبين الَّا لحرصه على الوقت وانصبابه على العمل ، لأن المرء مهما ثقب عقله وقويت فيه ملكة الاختراع ، يتعذَّر عليه ان يخطو خطوة في مذاهب الاستنباط اذا بذَّر اوقاته في الملاهي او لم يعرف كيف يستثمرها . وهذه الحقيقة تظهر لنا بأجلى مظهر لدى تصفُّحنا سِيَر الأئمة الأَعلام ، الذين اغنوا البشرية بمصنَّفاتهم اليتيمة ، ووقوفنا على تراجم المخترعين الذين شرَّفوا أوطانهم بما خلَّفوه من المستحدثات العجيبة ، بل الآيات المعجزة والغرائب الفريدة . وأيٌّ منهم لم يقض حياته في الجدّ والادمان ، ولم يحرم نفسه ملاذّ الدنيا حتى يُسعد اخوانه ويوفِّر لهم دواعي الرغد والهناء . ومَن منهم لم يصادف في سبيله عقبات كأداء قد ذلَّلها بصبره وأناته ، أو لم يعترضه عوارض قد نفذها بمواضي عزَماته .

ولا يعرف قيمة الزمن الَّا مَن اشتار من خليَّتهِ الشهد وسما به الى اعلى مراتب المجد ، وأحرز بحرصه عليه الثروة التي ارادها وفاز بالأَماني التي نزع اليها . وكيف لا يظفر المرء بما تُحدّثه به النفس من جلائل الرغائب ، ولا يجني ما يهواه من الاطايب ويتوق اليه من جسائم المطالب ، وهو يضنّ بوقته ضِنَّ الجبان بروحه والشحيح بماله ، ويدأب في عمله كلَّ الدأب حتى لا ينثني عنه الا بعد الكلال ، وحينئذٍ يأخذ قسطاً من الراحة استئنافاً لنشاطه وشحذاً لغرب همته .

واذا روى لك راوٍ عن رجل مكسال أنه كان في دنياه من المفلحين فلا تصدّقه ، لان الفلاح والتواني لا يأتلفان ، كما ان العلم والجهل لا يتآخيان ، والظفر والجبن لا يجتمعان . وهل الدنيا إلَّا طريدةٌ يقتنصها الصيَّاد الماهر النشيط ، وهل المجد سوى

كنزٍ لا يستخرجه المرء ما لم يغادر سرير الدعة وينزل الى ميدان العناء والكفاح .

وكلُّ من يتصفَّح التاريخ يرى ان احرص الامم على وقتها أسبقُها الى العلاء وابعدُها في مضمار الحضارة شأواً ، وأرسخها في العلوم قدماً ، واسماها في سماء الاقتراح والاكتشاف تحليقاً . وأن اذلّ الأُمم وأشقاها أُمةٌ لا قيمة للزمان عندها ، تقضي ايَّامها في ما يُفسد اخلاقها ويهدم شرفها ، ويقوّض عزها ويُنفد ثروتها ، فلا تروج فيها سوى سوق الملاهي ، ولا تنفق بين اهليها غير سِلَع المفاسد والأَباطيل ، ولا تسبح الا في بحار الترّهات والاضاليل ، ولا تعبد غير الاهواء ، ولا تعرف سوى الاسواء . وهل وراء هذه الأُمة المتعطِّلة الاَّ الانقراض والدمار ، بعد ان رزحت تحت جبال العار ، وتعرَّضت لما تعرَّضت له من اسباب الثبور والبوار .

تلك حقيقةٌ لا ينكرها الا المكابرون ، ولا يُماحك فيها ولا يُماري الا المتشدِّقون المتعنِّتون . وليت شعري كيف يتسنَّى للمرء ان يمتطي غارب المجد ويقتعد مركب السؤدد ويكون من انفع الرجال لأمته ، اذا لم يحتفظ بنفائس وقته احتفاظَه بالدرر الغاليات . وكيف يتهيَّأ لشعبٍ ان يكون سبَّاقاً في حلبات المعالي قابضاً على ناصية العزّ مستقلّاً بكنوز الارض ، اذا لم تفشُ في صدره الحميَّة ولم يسرِ في عروقه الإِباء ، ولم يكن في فؤاده اهتزازٌ للمكارم والمفاخر ، حتى يربّي في احشائه نفوساً كباراً تنفر من الدنايا ولا تُطيق الضيم ولا تُطبق الاجفان على ما يُقذيها ، ولا تتنافس إلَّا في المحاسن ولا تتسابق الاَّ في ميدان الشرف ، ولا تسير الاَّ في طرق الفلاح ، الى ان تبلغ مداهُ متضافرةً على اعلاء شأن وطنها وخدمة مصالحه . فلا ينعم لها عيش ما لم تَرَهُ في بروج الأُبَّهة والمنعة والعلاء ، ولا يغمض لها جفن ما لم تجرِ فيه انهار الرفاهية والسعة والرخاء ، وما لم يستوِ على عرش العزّ ، حتى يصبح فوق عنان السماء .

أجل انه ما من شيء يقي المرء غوائل الاهمال والتواني ومغبَّات الطيش والنزق مثل الأَنفة اذا رسخت في صدره وجالت مع دمه في عروقه ، فانها تربأ به عن مصارع المهانة والضعة ، وتستحثُّه على ان يسعى وراء ما يُعلي مكانته ويسمو به الى ارفع مراتب الشرف والسناء . فاذا تجرَّد من عزّة النفس ألف الخسائس ولم يُبالِ بالخمول والغضاضة ونقص القدر ، ولم يأبه لما يُعرّضه له توانيه من سوء الثناء وخبث الذكر .

ومَن نشأت في صدره نفس كبيرة كان طمّاحاً الى المعالي وَلُوعاً بغُرر الاماني ، فلا يُرخي لأهوائه العنان في ميدان اللهو خشيةَ ان تفترس اوقاته الثمينة فتعترض الحوائل دون تقدمه ، وتحبسه في دائرة ضيقة لا يقوى معها على مجاراة الاقران في مجال الفلاح . ومهما تفرّد به المرء من مضاء الذهن وشهامة الخاطر ، وتوفّرت لديه مُعدّات التقدّم واسباب الارتقاء ، لا يصيب من النجاح حظاً وفياً ما لم يكن صحيح العزيمة مُحلِّق الهمّة نشيط النفس لا يهاب المصاعب ولا يتحامى المتاعب ، لأن الذكاء اذا لم يُقرَن بالجد والجلَد كان حكمهُ حكمَ النبراس في ايدي العميان ، او حكم الكنز الدفين في ارض يملكها المتقاعس الكسلان .

وكثيراً ما يدور في خَلَد المتقاعِد الخوّار الهمّة ان المطالب الجليلة صعبة المراس ، فيقف عند أول عقبة جَزِعاً يَئِساً . وقد فات هذا الجبان ان الهمّة اذا نشطت ذلّلت الصِعاب ، والعزيمة اذا مضت داست العِقاب ، وأنه لو جرى الى غايته بشجاعة وثبات لانتهى اليها ظافراً غانماً ، ولكنه يهوله الإقدام في اول مسيره فيفشل ويقنط ويرتدّ متعثِّراً في ثوب الخيبة والاخفاق ، ويقضي عمره على مهاد الراحة قانعاً بالخمول ، وما اقبح القناعة به .

كثيرون يُصابون بهذا الداء العقام ، فيتهيَّبون في عُنفُوان شبابهم العقبات ، ويُحجمون عن كل مسعى فيه شيء من العناء ، فيألفون الفراغ والفراغُ مفسدة . واذا أمدّهم بعض اقاربهم او اصدقائهم برأيه او مالِه ، حتى ينشّطهم الى العمل ويعوّدهم المضاء فيه ، فكأنه يداوي مفلوجاً زمِناً اشلّ اليدين ميّت الركبتين . وكيف تنفع النُصرة مَن كان ضئيل الهمّة كليل العزيمة واقفاً على شفا اليأس ، والقوةُ الادبيّة انما تُستمدّ من الاعتماد على النفس . فمهما التفّ حول العاجز الفاتر من الاعوان والظُّهراء لا يُنعشونه من عثرته ، واذا انعشوه منها لا يلبث ان يهوي .

على ان الدأب في الاعمال والصبر عليها والجدّ فيها وإن تكن من امتن قواعد العُمران فهي لا تُفيز صاحبها بمرامه ما لم تكن اوقاته على نظام مطَّرد ومجرًى متتابع ووجهٍ مثمرٍ نافع ، لان الانقطاع المديد عن العمل لا فائدة فيه ، فضلاً عن انه يبلبله ويُفضي بالمرء الى التراخي ، واما الجري في الوقت على خطّة واحدة فانه من

ادعى الاسباب الى صيانته واستثماره وعدم انفاقه في وجوه مؤذية او لا خير فيها . وكثيراً مايكون ترتيب الاوقات سياجاً للمجتهد يمنع عنه الزوّار والندماء والجلاس في الوقت الذي افرده للعمل . ويعرف قيمة هذه الفائدة الخطيرة كلٌّ من قدرَ الزمن قدرَهُ وشعر بمنافعه الجليلة ورأى بأُمّ عينه كيف تذهب اوقاته هدراً اذا لم ينسّقها او فتح ابوابه للزائرين في اية ساعة جاؤوه

ويحضُرنا نُكتةٌ لا بأس من إيرادها هنا تفكهةً للقرّاء وحضّاً لهم على الاحتفاظ بأوقاتهم واوقات غيرهم اذا كانوا من الحراص على الزمن وممن يكلفون به :

كان نسيبنا المغفور له المعلم بطرس البستاني من أضنّ الناس بالزمان وادراهم بفوائده ، وكانت مشاغلهُ تستغرق وقته كلّهُ فلا يدع القلم الاّ لعمل ينفع به قومه . ولذلك سمّاهُ العلامة الشهير فنديك بالجبّار . ولما كان متولّياً ادارة مدرسته الوطنية كان الاهلون يزورونه في ايّ وقت ارادوا مُسرفين اوقاته الثمينة حتى اضطُرّ ان يُعيّن للمقابلات ساعةً من نهاره ، واذاع في صحيفته « الجنّة » بياناً يرجو فيه من ابناء وطنه ألاّ يقابلوه إلاّ في تلك الساعة . واطّلع على هذا البيان والي سوريا وكان له صديقاً حميماً ، فجاء ذات يوم بيروت يتفقّد شؤونها وكانت يومئذٍ متصرفيةً تابعة لولاية سوريا ، واراد أن يزوره جرياً على سالف عادته فأتاه في الموعد المضروب للمقابلات . ولما استقرَّ به المقام قال له : انما زرتك في هذا الأجل حرصاً على وقتك الثمين ، ولقد احسنتَ بتعيينك ساعة للمواجهات ، فألقيت بذلك على ابناء وطنك درساً ضرورياً لهم كل الضرورة ، لأن اكثرهم يجهلون الوقت ولا سيّما وقتك المفيد لهم وللبلاد . فشكر له لطفه وذوقه وشعوره الرقيق وأثنى على حسن ظنه به .

هذا واذا تصفّحنا تراجم اعاظم الرجال الذين افادوا الانسانية بمشاريعهم الرائقة ومصنّفاتهم الرائعة واستنباطاتهم النافعة انبثقت لنا انوار جلدهم واتّضح لنا أن الكنوز الادبية التي اتحفوا بها الجامعة البشرية في كل علم وفنّ انما استخرجوها من معدن الثبات والتثبُّت والمواظبة على العمل والتدقيق في الوقت وحرصهم عليه في جميع مراحل حياتهم . ولولا هذه العصابة النشيطة الحازمة لاستمرت الأسرار التي اكتشفوها في خاطر الدهر ومكثنا نحن على ما كان عليه السلف في القرون

الغابرة المظلمة .

ولا نزال نرى في كل قُطر مدنيّ من امثال اولئك الرجال ينكبُّون على العمل في بطن الارض ومجاهلها وفي متن النجوم ومنازلها ' بحيث يُلطِفونا كلَّ يوم بحمدةٍ علميَّة ومأثرةٍ ادبية ومسعاةٍ فنيَّة ومكرمة اصلاحيَّة ، ونحن لاهون عن احتذاء مثالهم قانعون بما قُسِم لنا من الحظوظ ، راضون بأن نتمتَّع بثمرات اقتراحاتهم واختراعاتهم بدون ان نحمّل نفوسنا شيئاً من العناء . أوَ ليس من العار ان نجمد امام مآتيهم المدهشة ، او ليس من الخمول ان نقتصر على الاعجاب بآثار ذكائهم ومولَّدات افكارهم ، وأن نتحدَّث بتهالكهم في نفع ابناء قومهم ، وانصبابهم على مايعلي شأن بلادهم . ولو انصفنا نفوسنا لتأثَّرناهم وتقفَّينا خُطاهم الواسعة الفسيحة في منهج التقدم والعمران حتى نؤدي لوطننا ما له قِبَلَنا من الدين وما له علينا من الحقوق المقدسة .

وكنا نودُّ لو وقف بنا الوناء عند هذا الحد بحيث تنحصر تبعاتهُ الهائلة فينا ، ولكنه سيتخطَّى احداثنا النُجباء الذين هم رجال الغد ، فيسري في عروقهم سَرَيان الدم وتفتك جرثومتهُ القوية بهيكلهم المعنوي النحيل كما يفتك الوباء القتَّال بالجسم الهزيل ، وحينئذٍ يترعرعون على الخؤُور والوَهَن ويشبُّون على ما رُكِبنا عليه من الطباع السيئة وأَلفناهُ من العادات الذميمة ، وتطيب نفوسهم عن العمل فتذهب اوقاتُهم الغالية بين لهوٍ وقصفٍ ومَرَحٍ وهَذَرٍ وغناءٍ وطربٍ الى ما هناك من المُوبقات . وهم قد خُلِقوا في عصرٍ لا يرضى فيه أَبناؤُهُ النَّشاطى الأُباة بما نحن راضون ، ولا يكتفون من مطاليب الحياة بما نحن مكتفون ، فاذا لم ينشطوا الى العمل ولم يضنُّوا بالزمن عجزوا عن ان يُنفقوا حتى على ضروريَّات المعاش . وايُّ ذلٍ أكبر من ان يعيش المرء مكتوف اليدين غضيض الطرف فارغ الوِفاض مع اترابه العاملين السابحين في بحر الترف ، بل اية رزيئة أجسم من ان يكون عَيِّلًا على حكومته وأُمَّتهِ قاصراً عن الاكتداح لعيالهِ والإنفاق على نفسه .

ومن اكبر بلايانا أننا اذا رأينا في قومنا أُناساً ينفسون بالزمن نَفَسَهُم بالذهب نُعَيِّرهم في ذلك كما نُعَيِّر الشحيح بشحِّهِ ، وربما وضعنا في سبيلهم أمتن السدود حتى لا يتقدَّموا الى الأمام ، فنحرمهم ونحرم الوطن ثمرات عملهم ونجني جنايةً أعظم

من ان يُسدل عليها ستار الصفح . وما أجدرنا ان نتشبَّه في الامم الناهضـة التى اذا تفرَّست في احد بنيها النابغين خيرًا أمدَّته بجميع الذرائع التنشيطية، ومهَّدت في وجهه جميع العقبات، حتى لا يعترضه في طريقه مايُعرقل مسعاه، او يُفسد عمله او يحول دون مرماه . وهذا هو السرُّ في تقدُّمها وفلاحها والباعث الأكبر على تعزيز مقامها ورفعة شأنها واستوائها على عرش السؤدد والمجد ، لان الأمة برجالها العاملين النابهين لا ببنيها المتعطِّلين الخاملين .

وانا لنعجب العجب كلّه من ان يبلغ منا الحسدُ لذوي العبقريّة فينا الى ان نبذِّر اوقاتهم كما يُبذِّر المبذرِق اِتلاف امواله ، بدلاً من ان نُعينهم على متابعـة مَسيرهم بجميع ما لدينا من الوسائل الأدبيَّة والماديَّة .

على ان السواد الأعظم من أبناء وطننا يُضيعون اوقات رجال العلم والعمل عندنا على غير سوء قصد ، فيؤذونهم من لا حيث لا يشعرون ، فكم من مرة يكون احد العلماء في غرفته منصبًا على المطالعة استجلاء لمسألة غامضة او منكبًا على انشاء مقالة مفيدة او مشتغلاً بوضع مؤلَّف نفيس ، فيأتيه من الزوَّار مَن يصرفه عن عمله باحاديثه التافهة ومجاملاته الكاذبة ، ولا يغادره الا بعد ان يُحرج صدره ويُتلف صبره ويشتِّت خطرات افكاره التي لا تمرُّ بباله الا في ساعات التوفيق ، لان فُرص الاجادة فرَّارة يندر سنوحها عند اكثر الكتَّاب ' والمعـاني كالطرائد الشوارد لا يقنصها المنشئون الا وقتَ الانفراد بنفوسهم ' اذ تكون سماء الإلهام صافيةً امام عيونهم ' واشعَّةُ الحقائق متدفقةً في صدورهم ' والافكار الساميـة حائمةً على بصائرهم ' والألفاظ الرقيقة مسخَّرةً لأقلامهم ' وعرائس الشعر مستويةً على منصَّات قرائحهم ' وآيات الابداع والاعجاز مُتجلِّيةً في خواطرهم ... في هذا الوقت الذي لا تعدلهُ الذخائر النفائس يُقبل المتفرِّغون من الاعمال على مَن يُقدِّسون الاعمال ' فيقتلونهم بحديثهم ويقتلون وقتهم معاً ' وهم يتوهَّمون أَنهم يؤنسونهم بمُلَحهم ويُروِّحونهم بنكتهم ويفكِّهونهم بنوادرهم ويُطربونهم بمُستظرفاتهم ويُسكرونهم بأطاريفهم ' ومن البليَّة انهم اذا اعتذروا لهؤلاء الجلساء الثقلاء عن ان شواغلهم المتراكمة ومهامَّهم المتراكبة لا تفسح لهم في ان يُجاذبوهم اطراف الاحاديث ويندفعوا معهم في المسامرات

والمناسمات العقيمة هزأوا بهم واوسعوهم ملاماً وقاطعوهم مقاطعةَ الخصم اللَّدُود ونفروا عنهم كما ينفر الحسود الكَنُود

وربما اسمعَنا الشكوى نفسها كثيرون من اصحاب الأَشغال المهمَّة الذين يرون اوقاتهم اثمن من ان تُسرَف مع المجَّان وانفس من ان تُصرَف بالمفاكهات والمحادثات التي لا طائلَ من ورائها ولا فائدة منها . اوَ ما كان الأجمل بهؤلاء البطَّالين اذا ضجروا من العزلة ومالت نفوسُهم الى العِشرة ان يقضوا ايَّامهم في مجالس الأُنس واندية اللهو لا في غُرَف اولئك القوم العاملين الذين يعزُّ عليهم أن تُطوى اوقاتهم فيما لا نفع لهم ولا لأُمَّتهم به ، أوَ يليق بهم أن يجبَهِم المزور او يستقبلهم بوجه غيرِ طَلِق او يُلمِح الى استيائه متى اطالوا عنده اجل الزيارة الى ان يُبرموه . اوَ يحسن بهم ان يُعلِّق على بابه صحيفةً يُعلِن فيها ان شغله لا يسمح له بأنْ يواجه الزائرين الا في الساعة المعيَّنة . ولكن مَن يتجاسر من ابناء البلاد مهما علا مقامه ان يعامل زُوَّاره بهذه الغِلظة او يقابلهم بعبوسة ، لاننا لم نألف حريَّة الفكر ولا حريَّة اللسان فنُقدمَ على بدعةٍ تُثير علينا الحفائظ ، ولذلك نُضطرّ ان نعضّ على جُرحنا مُعانينَ أَلمهُ بما خوَّلناه من جميل الصبر ورحابة الصدر . .

ومن عاداتنا المضحكة أن اكثر الناس في هذه البلاد ينظرون الى المدَّة التي يقضيها الزائر عندهم ، فكلَّما طالت وثقوا بمحبَّته لهم وسموِّ منزلتهم في فؤاده ، وهذا الوهم هو ولا ريب ناشبٌ في افكارنا من كثرة ما لدينا من اوقات الفراغ حتى تميل نفوسنا الى قضائها بالمذاكرات المؤنسة والقصص المسلِّية . فلو كنا من اصحاب الأعمال الجدّية لأسفنا على الوقت الذي يذهب سدًى واحتطنا عليه كل الاحتياط .

وعلامَ لا نغار على حماية وقتنا من مهلكات الضياع ، فنُلقِن عامَّتنا ان الوقت نفيس وأَن الاحتفاظ به من اسرار النجاح ودواعي التقدُّم حتى اذا انتصحوا ضنُّوا به ضنَّهم بشذرات الذهب ، والا ردعناهم عن اختلاسه منا على غير رضانا . ولا يتوهَمنَّ احدٌ ان الاصلاح ينتشر في البلاد بدون ان تتضافر الهمم على تقديس الوقت واحترام سُوَيعاته ودقائقه وثوانيه ورفع منزلته في القلوب على اختلاف الطبقات . فاذا تيسَّرت هذه البُغية استخرجنا من معدن الأيام كنوزاً تزري بمنثورات

الجبان ، وحقَّ لنا ان نتكهّن بالفوز والفتح ، والا كنّا من رهائن البؤس والعسر ورجعنا أدراجنا وانقلبنا عن ميدان الكفاح اميالاً في هـذا العصر الذي هو عصر النور . والعياذُ بالله من سوء هذه الحال ومن شرّ ذلك المآل .

فمتى نتلقّى عن الاعاجم ما هم جارُون عليه من التدقيق في اوقاتهم والاحتفاظ بها احتفاظَهم بقلائد الدرّ ، ومتى نرى في البلاد الحركة الدائمة من أصغر عامل الى اكبر مدير ، ومتى نُبصر عقائلنا واوانسنا عاكفات على العمل ضنينات بالوقت، لايقضينَ نهارهنَّ وشطراً كبيراً من ليلهنَّ في الملاهي والمراقص والمقاصف والزيارات والثرثرات والمحادثات بالملابس والازياء ، ومتى تتأصَّل في شبَّاننا عادة الحرص على الزمن ، فلا يُتلفوه في المنادمات والمسامرات الغرامية والمداعبات والمفاكهات الصبيانية . ومتى ينشأ أصغارنا على حبّ العمل والهُيام بالوقت حتى ينكبُّوا على دروسهم ويُدمنوا النظر في ما يوسّع مداركهم ونُطّق معارفهم . ومتى يقدر العامة قدر الزمان كما يقدرهُ الخاصة فينشط كلٌّ منهم الى إتقان مهنته والتجوُّد في صناعته ، ومتى يصبح وقت العمل مقدّساً عند المقلَّدين أزِمَّة الاحكام ومَن يؤَازرهم من الاعوان، فيحضروا الى دوائر شغلهم وينصرفوا عنها في الأجل المضروب ، ولا يتغيَّبوا عنها الا لضرورة ماسَّة او لعلَّة صوابيَّة . أوَ ليس من العار ان تُعقد الجلسة في الندوة النيابيَّة ثم تقضي الحال على رئيسها ان يحلَّها لتخلُّف اكثر الاعضاء عن حضورها ، واذا بحثتَ عن سبب تغيُّبهم اكبرتَ الامر أيَّما إكبار ، كيف لا واكثر هؤلاء الاعضاء انما يتوجَّهون الى بلادهم في اوقات العمل لإنجاز اشغال يرجع اليهم نفعُها ، ولا يبالون بما يُلحقون بالامة من الضرر ، بل يهمُّهم ان يقبضوا وظائفهم ولو لم يخدموا الأُمة فتدبَّر . .

على ان المرء لا يكفي ان يواظب على عمله ويحسن تنظيمه ، بل لابدَّ له من ان يكون ذا خبرة واسعة باستثمار وقته والاستفادة منه ، وإلَّا كان نجاحه مستوعراً . ويمكنك ان تعرف هذه الحقيقة اذا قابلت بين رجلين نشيطين يتعاطيان مهنة واحدة ، فيقضي احدُهما حياته مثابراً على عمله ولكنه لا يفوز بالنتائج التي يفوز بها الآخر ، ولا ريب ان ذلك ناجمٌ عن انه أقلّ من رصيفه درايةً بوجوه الانتفاع من وقته .

ونحن لا سبيل لنا الى اللحاق بالامم العريقة في الحضـارة النامية في المعارف المستبحرة في الفنون ، الكثيرة الموارد الغزيرة المرافق ، ما لم نكن على الوقت اشدّ حرصاً منا على الجواهر الكريمة ، ومالم ننسّق اوقاتنا تنسيقاً يُعيننا على رعايتهـا والتدقيق فيهـا ، ومالم نعرف كيف نستثمرها كما يستثمر الزّرّاع حديقته . فاذا جرينا على هذه الطريقة الرشيدة تفجّرت في بلادنا ينابيع الثراء والهناء ، وادركنا المدى الذي نرصده من الفلاح . وما اسعد الأمة التي تهيم بالعمل قبل هيامها بالمال ، وتعرف كيف تضنُّ بأوقاتها وكيف تنظّمها وكيف تستثمرها ، إنها لمن اثبت الامم عزّاً وأعلاها كعباً وأرسخها مجداً . وما اشقى الأمة التي تبذِر اوقاتها او تصرفها في اهوائها ، فانها تلحق بالامم المنقرضة التي اندثرت وامّحت من صفحة الوجود بسبب تهافتها على المخزيات وإضاعتها الزمان في المفاسد المُتلفات والمعاصي المهلكات المجحفات .

العزم والحزم

هما نتاج الحكمة والجرأة وعنوان المضاء والخبرة ، لا يأتلفانِ في مطلب حتى تسهل عقابه ولا يتعاونانِ على مسعى حتى تذلّل صعابه ، ولا يجريانِ الى مغنم الا وقد قبضا على نواصيه ، ولا ينزعانِ الى مطمع حتى ينتهيان الى اقصى مراميـه ويصعدان الى اعلى مراقيه . بل هما المسلك الاقوم الى بلوغ الاماني والمصعد الاوحد الى ذروة المعالي . ما تحلّى بهما احد حتى فاز بقصبات السبق على الاقران ولم يسبق له غبار في كل مجـال وميدان . وما سار امرؤ على منهجهما السوي حتى ذهبا به الى ابعد غايات العز والفلاح وجعلاه بأمن من الخطل والضلال والهذر والهوان ، وصاناه من نبال الطعن والملامـة وابعداه عن مواضع الازدراء ومهاوي الغضاضة ، بحيث لا يخفق له سعي ولا تزلّ به قدم ولا يُخطىء له سهم ولا تأخذه في اموره حيرة . ولا بدع فان الحـازم يضبط جميع شؤونه ويضعها موضع الصواب ويُقدّرها على قياس الحكمة ويُمرّها على

بمحك العقل قبل ان يعقد العزيمة على مباشرتها، حتى اذا لاح له وجه الفلاح اقدم عليها بدون تخلُّف وتردد، فلا يلبث ان يفوز بمراده ويظفر بثمرات كده وجده ونتائج تبصره وبحثه .

ولا بد للنجاح في جميع المشاريع والاعمال من ان يقترن العزم بالحزم، فاذا انفصل احدهما عن الآخر لم تُدرَك ادنى بغية ولم يتم اقل مقصد . بل ربما حصل عن انفصالهما ضرر كما لو امضى الرجل امرًا او اتى عملًا ولم يرسم له خطة تتكفل بضبطه واحكامه، فانما يخبط فيه على غير هداية حتى يأتي مشوَّش النظام مزعزع الاركان كثير الشوائب مختلّ الجوانب. شأنَ الطيَّاشين الذين لا يفكرون فيما يفعلون ولا يتروون فيما يصممون النية على اجرائه، فيذهب تعبهم ضياعاً ويتجشَّمون من المخاسر ما يُلهب صدورهم اسفاً ويولد في قلوبهم الهيبة . فتضعف هممهم عن ركوب الجسائم ومعاناة العظائم بحيث لا يقدمون بعد ذلك على مسعى حذرًا من ان يخيبوا ويعانوا المشاقّ على غير طائل .

على اننا نرى السواد الاعظم في البلاد ممن رُزقوا حدة الذهن ويقظة الفؤاد وأُوتوا الرصانة واصالة الرأي وحسن التدبير اذا اقتُرِح عليهم مشروع وطني مفيد تتملكهم المهابة ويأخذ منهم الخوف كل مأخذ، اذ يضعون في وجوههم من المصاعب ويتصوَّرون من المضارّ والخسائر ما يغلّ اقدامهم عن الاقدام . فيبيتون بين قيود الونية والفتور، طاوين ايَّامهم تحت خيام الدَّعة والسكينة والقناعة بالحظ، فيدفنون مواهبهم العقلية ومعارفهم الاختبارية بحيث لا يستفيدون ولا يفيدون . فيكون حكمُهم حكمَ الجهال البلداء بل هم اوفر منهم ذنباً واشد ملامةً لتغاضيهم عن امرٍ كان في وسعهم ألاَّ يحجموا عنه، وتهاونِهم في واجب وطني لا يُتسامح في اغفاله ولا سيما في عصرنا هذا الذي تتسابق فيه الامم الناهضة في مضمار المدنية والعمران . ومن الناس من لا ينقصهم حسن التدرب والخبرة والادارة، فاذا همُّوا بسعي خطير عرفوا نهجه الوضَّاح وتناولوه من ايسر طرقه واقرب سبله، غير انهم يتقاعدون عن انفاذه او يتباطأون في امضائه لعدم تعوُّدهم الاقدام على المساعي الجليلة، فينشط غيرهم من ارباب النهضة والهمة ويقدم عليه بعد احجامهم عنه، حتى اذا جنى منه المنافع

الغزيرة والمرابح الجزيلة ندموا على فوات الفرصة اي ندم . والموسرون هم اكثرُ الناس تردُّدًا في المشاريع الكبيرة ، اذ انهم يؤثرون ان يكنزوا اموالهم في الصناديق او يتصرفوا فيها تصرُّفاً يراعون فيه مصلحتهم الخاصة ، على ان يبذلوها في المشروعات العمومية الآئلة الى ترقية البلاد وعمرانها . فلو كانوا من ذوي الغيرة والحزم لما احجموا عن خدمة وطنهم بما فيه نفع لهم ولها بل كانوا يدوسون جميع العقبات ويعقدون الشركات غير هيَّابين حتى يستدروا من ذلك ما يكتسبه الاجانب منا ونحن مُرغَمون .

وبديهيٌّ ان إحجامهم عن المشاريع العامة خوفاً من الوكس والخسران انما هو مجرَّد وهمٍ لا يعلق في ذهن اصحاب الهمم الناهضة والعزائم الصحيحة . ولو صح ان يكون للانشاءات العمرانية هذه النتائج السيئة لما اقدم عليها احد، واستمرت الارض على الطور الاول من البداوة والهمجية ، وبقي الانسان في ظلمات الجهل والشقاء وسجون الضيق والفاقة . على اننا نرى الامر بخلاف ما يزعمون فان اصحاب الشركات هم اغزر الآنام موردًا واوفرهم كسباً بل هم حياة العمران ومصدر التقدم ومنبعث اشعة التمدن واليسر . وكنا نتمنى لو يقتدي بهم اغنياؤُنا فينهضوا بالوطن نهضة عالية تضمن له المجد والرغد، ويجعلوه مرجعاً للأغيار وكعبة لطلّاب الآداب والمعارف، ومحطاً لرحال العلماء والوجهاء ومقصداً للتجار والمصطافين من كل حدب وصوب .

ولا ريب ان الزعماء والحكام هم الى الحزم والعزم احوج من سواهم اليهما، لانهم يوطّدون بهما اركان مهابتهم ويعزون مقامهم ويرفعون شأنهم حتى تأتمر الرعية اوامرهم وتنتهي بنواهيهم . فاذا تجرَّدوا من هاتين الحليتين لا يقوَون على صدّ شر ودفع سوء، ولا يتمكنون من المآتي الكبيرة التي تُسعد أُمَّتهم

وما اسعدنا لو كثر عدد اهل الحزم والعزم في البلاد فاننا نحدث فيها حركة حيوية تنهض بها التجارة وتتعزز الصناعة وتتأيَّد الزراعة حتى تصبح مجمعاً لاشعة الاختراعات ومنارة وهاَّجة يستصبح بانوارها القاصي والداني . قرَّب الله منا هذه الامنية ووفقنا الى ما به الخير والفلاح

العفو والحلم

مهما كان عليه المرء من الحطَّة والضَّعة ، ومهما ألفهُ من ضروب الذل والمهانة ، لا تخلو نفسه من بعض الأَنفة التي يأبى معها الصغارة والضيم ، ويستنكف من أغلال الضغط والاستبداد ، وينفر من الاهانة ان تنزل بعرضه وتغضّ من قدره ، لان الانسان خُلِق حرًّا وما من شيءٍ أبغضُ اليه من ان تُخنَق حريّته ويُحتكم فيه . واذا أعرضَ عن الاساءَة وأغضى الطَّرف على القذى وامسك عن الانتقام ، فانما يكون في الغالب عن ضعفٍ او عجز ، ولا فضل للضعيف اذا لم يقابل الاهانة بالاهانة خوفاً او عجزاً ، ولا يصح ان يُسمَّى سكوته عن الأَخذ بالثأر صفحاً وحلماً ، لان عاطفة البغض لا تزال على توقُّدها في صدره تحضُّه على الاقتصاص ممن اذنب اليه متى امكنته الفرصةُ تسكيناً لغلواء غيظه وتشفِّياً من عدُوّه

على ان العفو انما يصلح ان يكون عفواً ، اذا كان المهان قد محا من صدره آثار الضغينة ونسخ الحزازات ، حتى كأنما لم يلحقه من المسيء اليه ادنى اذية . فهو يصفح له من القلب قبل اللسان ، فلا يقابله بعين ساخطة بل بثغر بسَّام ، ولا يقطع عنه احسانه ولا يحبس عنه صنائعه ، فاذا عامله هذه المعاملة لا طمعاً في جزاء دنيوي ، كأن يخافَ من ذمّ يُصيبه اذا طابت نفسه الى الانتقام ، او يرغبَ في مدح يناله اذا عرف الناس منه إعراضاً عن ادراك الثأر ، بل كان ذلك منه عن سماحة طبع وسلامة قصد ، بل حبًّا لله الآمر بكظم الغيظ والمعاملة بالحسنى والرفق بالمذنبين ، فحينئذٍ يصحّ ان يعدّ حليماً ويُصيبُ جزاءً علوياً على رفقه وحلمه . ولا ريب ان المرء اذا قوي على سلطان غضبه وكبح جماح غيظه ، واطفأ جذوة حقده ولجم نفسه الامَّارة بالسوء والانتقام ، اتى مأثرة بديعة تصغرُ عندها كل صنيعة ويقصر البيان عن ان يوفّيها حقها من الثناء . لان عصيان القوَّة الغضبية ليس بالامر اليسير ، والتمرُّد على شوكة الهوى لا يقوى عليه الّا بنو الفضيلة وارباب التُقى الذين رُزقوا جلَداً كبيراً وأُوتوا قوة شديدة ، حتى تهيَّأ لهم ان يقاوموا ميولهم ، ويصادموا تيَّار النقمة في

ميدانٍ لم يُخلق لارباب الحسام وأصحاب البأس والبسالة ، بل لرجال الحلم والصبر

ولا مُشاحّة أن العفو يكون مقياسهُ من الكمال على نسبة فظاعة الاهانة والجُرم ، وبالاضافة الى نية المُهين ومضرَّة المُهان . فأن تصفحَ عمن قتل ولدك عمداً أوقعُ في النفس من صفحك عمن يقتله اتفاقاً ، وأن ترفق بمن سلبك شيئاً من مالك احطُّ منزلةً من أن تتغاضى عمن اثخن فيك الجراح ، او قتلَ احد بنيك ، اواسقطك عن مقامك لتهمةٍ اختلقها عليك وجريمةٍ لطخك بها ، وانت منها بريء الساحة . وعلى ذلك قياسُ سائر السيئات ، ومنه تُعرف منزلة العفو عنها

بقي علينا غيرُ اعتبارات لابدَّ من مراعاتها ، سبراً لغور الحلم ووقوفاً على مبلغ صاحبه من الفضل . فان مُلاينتك لغرس نُعماك ، وغضَّك الطرف عنه بعد خيانته اياك ، وانقلابه عليك ورشقه اياك بنبالٍ حادَّة ، لأَ دخلُ في مذاهب الحلم والأناة ، وأفعلُ في القلوب من ان تَسدل نقاب الصفح على اهانات مَن ليس لك عليه فضل ، وعفوكَ عمَّن غدروا بك وأوقعوا الاذى من ذوي قُرباك ، بعد اذ تقلّبوا على مهاد نداك ، ونشأُوا تحت ظلال حنانك وربوا في كنَف عنايتك ، لأَوقعُ في النفوس من عفوكَ عمن ساقتهُ المنافسة الى منازعتك أطراف الوجاهة وهو اجنبيٌّ عنك ، ليس بينك وبينه وشيجة قربى ولا صلة نسب .

ثم تختلف درجات الحلم باختلاف درجات الانعطاف والحب ، وطبقات الاشمئزاز والكره ، فاذا عفوت عن ولدك لاختلاسه بعض دراهم من صندوقك ، لا يكون لك فيه فضلٌ مثل ان تعفو عمن ابتزَّ منك هذا القدَر من المال جبراً واكراهاً ، كما أن صفحك عن اخيك لطمعهِ في بعض ملكك لا يكون له شأنٌ مثل أن تصفح عن قريبك بعد ان تعدَّى عليك بالشيء نفسهِ .

وهنالك عدَّة أحكامٍ لابدَّ من مُراعاتها سبراً لغور الحلم ، وذلك كأَن يكون الجرم قد تقادم عهدُهُ ، او كُفِّر عنه بعض التكفير ، أو كأن يكون المسيء قد اصبح بحالة لا يقوى معها على التعويض ثم جاء المهانَ يستغفرهُ ذنبه ، الى غير ذلك مما نُمسك عن ذكره اليراع حذراً من الملل الذي يورثه التطويل .

ومما تقدَّم يتبيَّن لكل ذي شعور فضلُ الحليم خصوصاً اذا صفح عن مقدرة ورأفة

وبطيبة نفس ، وكان الذنب مما لا يحتملُ الصفح ويضيق عنه الصدر ، فانه خيرٌ ممن يفتتح الممالك ويقتحم ساحات العراك ، وأفضل ممن يجود بماله ويعاني المشاقّ في سبيل الخير . لإن الاقدام على المبرّات كثيرًا ما تصحبه اللذة ، ولا سيما اذا كان الجوّاد ممن استحكمت في فؤاده الاريحيَّة . وأمَّا الصافح عن الاهانات الجسيمة فانما تشبّ بينه وبين الانتقام حربٌ عوان ، لا يخوض غمراتها الا القلبُ الشفيق ، ولا ينتصر فيهما سوى الكريم الفاضل ذي الصدر الرحيب والعقل الراجح ، الذي رسخت في جنانه خشية الله ، حتى تغلَّب على هواه وكبح جماح نفسهِ ، وقمع ثورة الغضب فيه ، وتعرَّى عن المادة وطار الى العالم الروحاني ، حيث لا مهبّ للسخط ولا مجرى للحقد ولا مجال للانتقام والوتر . ولا ريب أنه أحقُّ من كل مفضال بعقد الثناء واكليل الجزاء ، وأجدر الناس بأن يغبَّط على قيادة نفسهُ بلجامٍ يكفُّها عن الركون الى النقمة والثأر ، ويردعها عن الاستسلام الى السخط ، والاستنامة الى كيد العدوّ وقهره وتذليل المجرم وتدويخهِ . .

على انه مهما كان عليه الذنبُ من الفظاعة ، وأيًّا كان مبلغ اذاهُ ، فلا ندحة عن مغفرته ، عملًا بسنن الديانة والانسانية ، واحتفاظاً بالامن والسكينة ونهوضاً بواجب البشرية . لان البشر ، بما تسرَّب في طباعهم من المفاسد وتطرَّق الى صدورهم من المطامع ، لا بد من أن تقع بينهم الشرور والتعدّيات والمظالم ، فاذا فشَت رذيلة الاثئار في القوم انحلَّت اسباب الألفة ، وتقوَّضت اركان المجتمع ، وغلت في القلوب مراجلُ البغضاء ، وتطاير شرر الحزازات ، وعمَّت الفتن والشحناء ، ونعوذ بالله من هذه الآفات . وليعلم الساخط انه بسخطه يُسيء الى الله والى نفسه والى البشرية معاً ، ويجرح كلَّ قلبٍ فيه مُسكةٌ من الحنان والرأفة .

على اننا لاننكر أن الحلم اذا وقع في غير موضعه حصل عنه اذى وكان التعنيف اولى منه ، وذلك كأن تعفو عن لئيم فيجرّه عفوك الى ان يتمرَّد عليك طمعاً في حلمك ، ولا سيما اذا كنت حاكمًا او رئيساً ، فان مقامك يقضي عليك اذ ذاك ان تصونه من الابتذال حرصاً على مهابتك من ان تسقط في عيون الخاصة والعامة . ولذلك قال الشاعر :

ولا خيرَ في حلم اذا لم يكن له   بوادر تحمي صفوه أن يُكدَّرا

وفي غير هذا الموضع يُحظر على المرء ان يحبس سحابة العفو عن مستدرّها خصوصاً اذا كان الذنب من صغار الذنوب . وهَبْهُ على جانب من الجسامة فانه لا يبقى على جسامته اذا قابلتَه بالتذلّل الذي يتقدَّم به اليك مَن جاءَك يلتمس منك ان تُغضي الطرف عما اذنب به اليك بعد ان تاب عنه توبةً نصوحاً . .

ومن الناس من يلبث مُصِرّاً على العقوبة والتنكيل مهما وقع في مسامعه من العبارات الرقيقة التي تلين الصخر الأصمّ ، فلا يرقّ فؤاده لمن اساء اليه ولا يدركه ادنى شفقة عليه ' بل يبقى على صلابته كأني به نشوان من العبَرات السخينة ، يداوي بها جراحه ويُروي غليله ويشبع شهوة انتقامه . فان هذه الفئة الحريّة بأشد اللوم والتنديد تتبرأُ منها الانسانية كأنها عضوٌ زَمِن لا يصلح جسمها مالم يُبتر منها .

ألا فلينتبه قساة القلوب وجُساة العواطف ، وليخافوا الله اذا اصرّوا على المثول باخوانهم في البشرية . فلسوف يأتيهم يوم تُسَدّ فيه ابواب الرحمة في وجوههم ، يقرعونها وليس من مجيب . واننا نحض الآباء على ان يغرسوا في قلوب بنيهم منذ الحداثة أصول العطف والرأفة محبّبين اليهم الحلم والصفح حتى اذا مسّهم احد بسوء عرفوا كيف يصفحون عنه بقلب يفيض رقةً وحنوّاً ' ونفسٍ تعفو كرماً ولطفاً ' ووجهٍ يتدفّق هشاشةً وبِشراً . فان العفو من خير ما تحلّى به الانسان وافضل ما استقرّ في باحات الجنان .

ونحن اليوم في اشد الحاجة الى ممارسة هذه الفضيلة نزعاً للأَحقاد من صدورنا واطفاء للحزازات من عروقنا ' حتى تتمهّد امامنا عقبات الاتفاق والتضامّ ' ويحيا في قلوبنا روح الوطنية الشريفة التي يتوقّف عليها ترقّي الوطن في معارج الفلاح والعلاء ' وبدونها لا نُدرك ارباً ولا نبلغ امَداً ولا نفوز بأمنية ولا سيّما في هذا العصر الذي تتبارى فيه الشعوب في مضمار المجد والنجح وتتسابق في مذاهب المدنية والعمران .

منافع الاتحاد

ما من أمة أمعنت في مذاهب العمران وحلّقت في جوّ المدنية، وشدّت اطناب عزها في قلب المعمور واطرافه، ورفعت اعلام مجدها على روابي السوءدد، وضمّت تحت اكناف سيطرتها الوفاً من الملل والنحل، الا وقد كانت متحدة العواطف موءتلفة القلوب متضامّة الايدي متعاقدة الارواح، تسعى سعياً حثيثاً الى مقصد واحد يسمو بوطنها الى قمّة الفلاح، وتتجه الى مرمى شريف ومطمح عفيف يعزز شأنها ويوطد اركان مهابتها، ويبسط رواق فخارها ويعلي بين الامم منارها. لان الأمة اذا لم تتعاون افرادها على تثبيت منعتها وسطوتها، ولم تتضافر على تأسيس عزتها وتمكين مكانتها، بل تفرّقت اقساماً يهدم كل فريق منها ما بناه الآخر، لا تلبث ان يدبّ في جسمها الضعف ويستحوذ عليها الهزال، الى ان تتساقط اعضاوءها وتتخاذل اجزاوءها ويتفانى ابناوءها، فيهوي ذلك الهيكل الوطيد ويصبح اثراً بعد عين، على نحو ما جرى للممالك المنقرضة، فانها كانت في اول عهدها على اوثق جانب من القوة واوفى نصيب من الشدة والبأس وارفع منزلة من العظمة والسوءدد واجمل حظ من الثروة وخفض العيش، ثم قضى الدهر بان تشعّبت شعباً وتفرقت فرقاً، فاحتدم فيها العراك واشتد الخصام واستحكمت المنازعات والمضاغنات، الى ان تلاشت وحدتها وتبددت جامعتها واصبح كلٌّ من بنيها يعمل لمصالحه نابذاً وراءه منافع وطنه، حتى أنزل في بلاده من الشدائد الباهظة ما اشترك بعد ذلك في مقاساة لوعاته وتحمّل فوادح وطآته وندم على ما فعل اي مندم. فلو نشطت تلك الأمة برمتها الى خدمة شوءونها العمومية واقتلاع جرثومة الشقاء من جنباتها وخضد شوكة المفسدين، ثم جرت الى غاية واحدة لبلغت ما شاءت من جسام الآمال وصعاب الاماني، وما صارت الى ذلك المصير المخزي وما انقادت صاغرةً لمن ملك قيادها واستلم زمام امورها حتى امست طوع بنانه ورهينة امره ورقيقة اشارته وخادمة افكاره، يستخدمها في منفعته ويستعبدها للمحافظة على هيبته والذود عن حياض عزه وذمار مجده.

والأُمة مهما كانت قليلة العدد سيئة الحال ضعيفة البنيان فانها اذا تناصرت قواها وتجمع شملها وتآلفت فكراً ورأياً وقولاً وعملاً وسارت على منحى واحد تكون معزَّزة الجانب مصونة الحرمة مرعيَّة العهود، تحتفظ بحقوقها وتدفع عنها صولة المظالم وكرَّة المطامع، وتسحق كل حاجز يحول دون تقدُّمها وسعادتها . وكيف بها اذا كانت مع هذا الاتحاد غزيرة العدد كثيرة العُدد مستجمعة لاسباب الرقيّ ومعدَّات التمدُّن مستكملة اشرائط الحضارة مستوفية لذرائع السيادة . فانها ولا ريب تثلّ عرش كل جائر وتجتاح كل اصل مفسد وتهيض كل جناح يخفق فوق رأسها كبرًا وخيلاء وتُشِلّ كل يد تمتد للاجحاف بحقوقها وتذليلها ، وحبس موارد الهناء عنها ' حتى لقد يتهيَّبها العدو ويتعزز بها الصديق ويأمن في ظلها المستجير، ويفزع الى رايتها الضعيف ويلوذ بحماها الخائف ويستغيث بها المظلوم، وحتى لا ترى في ربوعها مستبدًّا صائلًا ، ولا حاكمًا متطاولاً ، ولا زعيماً قاسياً ، ولا سيداً شامخاً ، ولا وجيهاً مستقلًّا ، ولا غنيًّا بَطِرًا ، ولا وغداً معزّزًا ، ولا لئيماً مكرماً ، ولا مجرماً مستعصياً . وعلى الجملة فانها تكون على اسعد الاحوال واجمل الجدود والحظوظ ، لا يدهمها غمّ ، ولا تكدّر صفاءها نائبة ، ولا تحط من قدرها منقصة او شائبة ، وانما تبسم لها الايام عن ثغور الامال ، ويهش لها السعد كما يهش الساري لطلعة الهلال .

وللائتلاف منافع لا يحصى عددها ولا تُجمع شواردها ، فهو الذي يحمل الامة النشيطة على الافتكار في ما يلقي بين يديها أعنَّة المجد والزعامة وازمَّة العز والفلاح، ولذلك ترى ابناءها يعقدون الجلسات تباعاً للبحث في شؤونهم الاجتماعية والعمرانية' فلا يدعون عيباً في عاداتهم ولا اعوجاجاً في اخلاقهم ، ولا منقفاً في وطنيَّتهم ، ولا خللًا في مدنيَّتهم ، ولا عقدةً في حبل انضمامهم ، ولا عقبة في سبيل ارتقائهم ، ولا مطعناً في ادارتهم ، وانما يسلكون أعدل السبل ، وينتهجون أسهل المناهج ، حتى ينزلوا في اسمى المراتب وأشرف المنازل . فهناك تلتقي العلم وُضَّاء المطالع وهَّاج المشارق ، يبسط أضواءَهُ الوقَّادة على الاذهان فينتشر في سمائها اشعَّة التمدن باوضح مظاهرها . وهناك تري الحقائق منصورةً على الاضاليل ، والعدل متغلِّباً علي الجور ، والاخلاص على الرئاء ، والانفة على اللآمة ، والمساواة على الاستقلال ، والحرية

الناصعة على الاسترقاق . وهناك يُضحّى بالمصالح الفردية على مذابح المصالح العمومية ، ويُذبح الاستئثار بسيف المروءة والاباء . وهناك تجد الحاكم اسير الشريعة رقيق الحق خادم الرعية متوفّراً على إسعادها ، يُنفّذ فيها الاحكام بدقّة وضبط وانصاف ، ولا يُعنَى الا بنشر الأمن وتعزيز السكينة وبثّ روح السلام ، والحث على الاعمال العمومية النافعة ، ومساعدة اصحاب الهمم الناهضة على إنتاج ما تمخّض في اذهانهم من المساعي الحيويّة ، وهو لا يُعجَب بفكره ولا يستقلّ برأيه ، ولا يحتكم في امور العباد تنفيذاً لغرض او سدّاً لمطمع او اشباعاً لهوًى . وهناك تشاهد الرئيس الى جانب المرؤوسين العقلاء يتبادلون الآراء ويتجاذبون اطراف البحث عن ترقية الوطن ، فلا ينفرد عنهم بالعمل ، ولا يترفّع عليهم بالقول ، ولا يزدري بما يبسطونه من الآراء ويُبدونه من الانتقادات ، وانما يلقي اقتراحاتهم على بساط المذاكرة ، حتى اذا تمحّصت الآراء وتبيّنت وجهة صوابها وسدادها ، أمضى عليها وعقد العزيمة على إبرازها الى حيّز العمل . وهناك ترى الاعيان والاغنياء يحرصون على معاونة المعوزين بما ينتهي اليه الذرع من الوسائل ، فيعتنون بتلقينهم المعارف والفنون التي تكسر من حدّة شقاوتهم وتسكّن من فوران كآبتهم وخفقان قلوبهم ، وينظّمون الشركات على انواعها قصدَ ان يدخلوهم في مصاف العمّال في ما يأتونه من المشاريع الوطنية . وعن هذه النهضة تنشأ حركة مباركة تتّسع بها مذاهب العمران ، وتنبثق انوار العز ، وتتدفّق سيول الخيرات .

على أننا لسوء الحظ لا نرى للاتحاد في بلادنا أثراً يُذكر فيُشكر ، على حين أن شُهُبَهُ تتوقّد متلألئةً في افلاك الامم الراقية تنير الالباب والابصار ، وتنسخ من صفحاتها آثار الغباوة والضلالة . ولا حاجة الى ان نُدلي بالحجّة لاثبات صحّة هذا الحكم ، فان مواقع الاختلال وأمائر الانحطاط والتقهقر وشبوب المخاصمات والمشاحنات ونشوب الحزازات والضغائن ، وتعارُك الاحزاب وتواكل العناصر والاستبداد بالرأي ، حتى بعد وضوح سَقَمِهِ ، واختلاف النَزعات والمقاصد ، كل ذلك مما يدعم الدليل على استحكام الخلاف واستفحال الشقاق ، حتى لا تكاد ترى قلباً على قلب ولا يداً في يد ولا روحاً مع روح ، وحتى توشك ان ترى الحسد كامناً بين اضلاع الأبوّة

والأخوّة والنسابة والقرابة ، وتُبصر الخيانة والغدر بين جوانح الاصدقاء والاولياء واكناف المعارف والاصفياء . فنحن اذا اتحدنا فانما نتحد على التنابذ والتنازع والتعصب والتشيُّع . واذا اتفقنا فانما نتفق على تذليل وجيه نحسده وغنيّ نُبغضه ورئيس نمقته ، الى اشباه ذلك مما يجف المداد دون احصائه . فكم اسمعتنا الخطباء ونقلت الينا الصحف والمجلّات التحريضات الصادقة والنصائح الفعّالة للتجرُّد عن الاهواء ، والترفُّع عن الاغراض الذاتية ، والابتعاد عن الاختلافات ، والانضمام تحت اعلام الائتلاف الباطني الوطني المقدَّس ، ولم نُعِر نصحها أُذناً واعية حتى استحجرت قلوبنا , وانثلمت مسامعنا ، وسقمت نفوسنا ، واستكرهت ارواحنا ذلك النداء اللطيف ، وما هو الا دواء شافٍ نفرنا منه لمرارته ، ولم ننتفع به حتى اعضَلَ الداء واشتدَّت العلّة . . .

ولا يسعنا المقام ان نسرد الحوائل المعترضة دون ائتلافنا ، وانما ترجع جميعها الى الاستئثار والعجب والصلف وضعف الرأي والتعصب الذميم ، وتأصّل البغض في الصدور والجهل الاعمى ، وسعي المفسدين ، ومحافظة الزعماء المستبدين على ولايتهم ونفوذ كلمتهم ورفعة مقامهم ، الى ما ينجم عن هذه النقائص من الطمع والظلم والغش والقهر والنكاية والعسف ، مما يُفرّقنا احزاباً ويولّد فينا التنافر واللجاج ، ويُنشئ فينا الضعف والهبوط ، ويجعلنا عرضة للمهانة والذلّ والتأخر والعسر . الا فلينتبه الغافلون , وليستيقظ المتضاغنون ، وليرتدع المستأثرون ، وليخف الظالمون المتعسفون ، ولينشط كل غيور على احياء وطنه الى توطيد مباني الوئام بين اهليه ، حتى ننسف جبل النزاع والنفار الذي طالما حال دون تقدمنا الى ربى الحضارة وعروجنا في مصاعد المدنية ومدارج العمران . فان في الاتحاد قوة لا تُدفع ، وفي الانضمام منعة لا تُقهر وهيبة لا تُدحر ، وفي التناصر اليسر والعلاء ، وفي التخاذل البوس والشقاء .

على أن لنا الامل الوطيد في عقلاء الامة وقادة افكارها ألّا يألوا سعياً في ضم القلوب المتنافرة ، وتقريب العناصر المتباعدة ، وتسكين الخواطر الجائشة ، حتى ندرك الأماني التي تدور في صدورنا ، ونُحقِّق الاحلام التي طالما خطَرت في افكارنا .

ولا نرتاب في ان اللبنانيين على تباين نزعاتهم ، واختلاف مذاهبهم ، يساعدون بجميع

قواهم على تمهيد عقبات الوفاق ، وعرقلة مساعي المفسدين المتوفّرين على القاء بذور الانقسام والشقاق في الالباب ، حتى يصبح جسم الوطن صحيح البنيـة سليماً من الخبائث والمفاسد . وبذلك ينفعون وينتفعون ، ويؤسّسون لسلائلهم من بعدهم صرحاً من المجد والسؤدد ، تتقاصر عن مسه ايدي الطمّاعين ، ويُفجِّرون لهم ينابيع ثروة تتدفق من جوانبها اسباب الخير والرغد ، وتُفضي بهم الى نيل الاستقلال الذي ينشدونه

عرفان الجميل

هو اشرف عاطفة تجول في الفؤاد واجمل شاعرة تمرٌ في النفس واطيب ثمرة يحملها الصدر، لدلالته على شرف الفطرة وكرم الطبع وصفاء السريرة ورقة الشعور . فاذا تجمّل الانسان بجميع الحلى البشرية وكان خالياً من هذه الحلية الرائعة علِق في سُمعته غبارٌ يُشوِّه محاسنهُ ويذهب برونق فضائله . ولا غرو ان يكون لها هذه المنزلة العالية في النفوس، فانما هي تنتمي الى نسب شريف يرجع الى أبهر الخصال وتتفرَّع عن اصل كريم تتشعَّب منه اكثر الخلال الحميدة والسجايا الوُضَّاءة . الا ترى صاحب هذه المزية كيف يُعظم قدر الاحسان وان كان طفيفاً ويصدع به في كل نادٍ مؤرّخاً المجالس بمآثر المحسِن اليه مشاركاً له في السراء والضَّراء حتى اذا اصابته نعمةٌ فكأنما اصابته هو، واذا مسَّته بلية فكأنما مسَّته عينَهُ . وهو يتجنَّد للمدافعة عنه كما يدافع عن نفسه ويحرص على صيته ان يثلمه الغمَّازون ، وعلى عرضه ان ينال منه المُرجفون، وعلى شرفه أن يلطِخه العيَّابون ، وعلى اهله ان تغتالهم أذيّة او تُلِمَّ بهم مظلمة . وعلى الجملة فان المرء الشَّكُور لا يغفل عن مجازاة من اصطنع اليه المعروف ولا يدع ذريعة الا يتذرع بها نهوضاً بأعباء الجميل وقياماً بمفترض الصنيعة حتى لقد يُنسي صاحبَ الفضل ما قاساه من الاتعاب في جنبه ويحمله على مواصلة احساناته اليه . لان الشكر مجلبةٌ للنعم والكفر مَخبثةٌ للإحسان

ومن هنا يظهر ما هي عليه هذه الخَلّة الشريفة من علو القدر ورفعة الشان، وما لها من المزيّة على سائر المحاسن الادبية والكمالات البشرية فضلاً عما ينجم عنها للمجتمع البشريّ من الفوائد الجمة والعوائد الاثيرة . كيف لا وهي من اكبر عوامل الخير واعظم بواعث الفضل، وأرسى دعائم التقدُّم واقوى اسباب العمران ، وانجع وسائل الوئام وامتن روابط الائتلاف ، من حيث إنها تحدو البشر الى التعاون والتآزُر في معترك هذه الحياة، وتدفعهم الى تخفيف بلايا الدهر وسدّ حاجات المعاش ،لان النَّاس على ما يخفي لا غنى لبعضهم عن بعض في جميع الاحوال مهما فاضت ثروتهم وامتدَّت وجاهتهم، وعلا مقامهم واتّسعت خبرتهم، وحلّق مجدهم وبذخ عزهم . فاذا ألفوا الكفر بالنعم تقاعدوا عن التضافر والتناصر وعرّضوا نفوسهم لأَسواء لا تُـدفَع ونوائب لا تُغلب . ألا ترى الكَنُود كيف يُخذَل في آونة المِحن فيعاني شدائد الفقر ونكبات الجهل وكوارث الدهر، ولا يرقُّ احد لمصابه ولا ينعشه اذا تهوَّر ولا يُرشده اذا ضلّ، ولا يُقيلُه عثرته ولا يرثي لحاله يومَ تثِبُ عليه جيوش البلايا وتخيِّم في صدره جحافل البلبال . ولا عجب اذا صادف من مُعاشريه الخذلان ومن اعدائه الشماتة، فانه بكُنوده يحصدُ الكراهية والمقت والنفور والجفاء ، ويحمل القلوب على معاملته بالقسوة والغلاظة، حتى ان الوالدين اذا صادفوا من بنيهم جحوداً لفضلهم وغمطاً لحسناتهم ، اشمأزّت نفوسهم منهم اشمئزازاً يقطعهم عن العناية بهم والقيام بشؤُونهم ، فكيف بالأجانب اذا طوى الكنَّادون صنائعهم ودفنوا مبرّاتهم فانهم ولاريب يرشقونهم بنبال التقريع ويُعرضون عنهم كل العمر وينبذونهم من مجتمعاتهم ومحاضرهم نبذ النواة، ويحضُّون معارفهم وخلّانهم على تجنُّبهم ومقاطعتهم ، ويذيعون بين الملإ ما هم عليه من الكنود حتى يتحاموا معاشرتهم ويتحاشوا عن مناصرتهم ويتغاضوا عن إسعافهم .

واذا كان هذا جزاء من يكفر بالنعمة ويكتم الجميل فما يكون جزاء من يقابل الحسنة بالسيئة والخير بالشر ، وما تكون منزلته في المجتمع ومقامه في قلوب ابناء قومه . ان من يرتكب هذه الفظيمة يعدُّ ولا ريب من اكبر الخوَنة والأم الاوغاد ، وهو جدير بان تنقضّ عليه صواعق التعيير والتثريب من كل جوّ، لان جرمه أفظع من ان يُوصَف وذنبه لا يقوى الطبع البشري على تحمُّله . ومَن تكون هذه

حاله فمهما وقع عليه من الاهانات فهو قليل بالقياس الى جريمته التي لا تُغتفر عند اصحاب الشعور اللطيف، وما احراهُ أن يُنفى من المجتمع المدني ويكفَّن باكفان العار ويوسم بميسم الشنار حتى تتملّص البشرية من اقذاره وتتخلّص من لآمته وخساسته. وانما يُقدم على هذا المنكر مَن خبث اصله وهانت عليه نفسه ولؤمت طباعه وفسدت سريرته. ومَن جمع كل هذه الشوائب فلأَن يستبطن صدوع الارض اولى به من ان يكون مستنقعاً للؤم والدناءة وغرضاً للمطاعن والمثالب.

على انه قد يتّفق ان يَعرى المرء من عدة خصال محمودة، كأن يكون هيّاباً في مواقف الخطابة أَو متردّداً في مواضع الحزم والاقدام او رعديداً في ساحات النزال، ومع ذلك يبقى له منزلة عند قومه وحرمة عند معاشريه، لأَن جميع هذه العيوب لا تخسف سائر مناقبه ولا تستأصل كرامته من النفوس. واما اذا كان كَفوراً فانما يسقط مقامه وتضعف الثقة به، ويَعدَم النُّصراء والظهراء ويُحرَم الأَعوان والإِخوان، ويعيش وحيداً شريداً ممتهناً مخذولاً، يستصرخ وما من مُجير ويسترشد وما من دليل. والعياذ بالله من شائبة هذه نتائجها ومنقصةٍ يهولك سوءُ عواقبها

وبديهيٌّ ان الشكر يجب ان يكون على قدر النعمة بل على حسب نية المُفضِل وفرط رغبته في اسداء المعروف، فاذا رجح الفضل على الشكر وقع التفريط في المكافأة واستحقّ المُفرِّط بعض اللوم.

وهنا مجالٌ لان نُحرِّز من المداهنة والمدالسة، فان كثيرين اذا أَسبغتَ عليهم نعمةً ضافية يشكرونَ الك بلسانهم، وقلبُهم خِلوٌ من شواعر العرفان، وربما كان شكرهم مشوباً بالازدراء الباطني، وهنا منتهى اللآمة. فخيرٌ للمرء أن يطوي الاحسان ويجحد حسن الصنيع من ان يلبس ثوب الرئاء ويتاجر بالمواربة والمخاتلة والتملّق.

ومن الذنوب التي لا تُغتفر أن يسدل المرء ذيل الغموط على سوابق الحسنات وسوالف المِنح، اذا تخلّف المُحسن مرّةً عن إجابة سؤله وتحقيق امله، لعذرٍ صوابي او داعٍ مقبول. فان سَتر النعم والانقلاب على المنعِم في هذه الحال لضربٌ من القحة واللآمة، واكثرُ ما يقع ذلك ممن لهم دالة عليك وحظوة عندك، فانهم يطمعون في

كرمك وحلمك ويحسبونك كأنّك موقوفٌ على خدمتهم . ولذلك يجمل باصحاب الندى والاريحيّة ان يزرعوا عوارفهم في ارض منبات مخصاب تنمو فيها عواطف الشكر والعرفان فلا يضيع برُّهم ولا يُلقى في زوايا النسيان .

ومن المقرَّر ان الفضل الأدبي هو اسمى من المادي لانه يتناول النفس والقلب والاخلاق ، فالذي يُنير ذهنك ويوسع نطاق افكارك ويهذّب طباعك ويغرس في صدرك اكرم المزايا واشرف الخلال هو افضل ممن يجود عليك بالمال ، لان التهذيب يُعينك على العروج في مصاعد المدينة ويُدنيك من غايات الفلاح ، ويُمهّد لك عقبات العلاء . واما المال فاذا كنتَ جاهلاً لا يُجديك نفعاً وربما اوقعك في مهاوي الشقاء وعرَّضك لسهام البلاء . ولذلك يتعيّن عليك ان ترعى في فؤادك اجمل اثر للمحسنين اليك مُلهَجاً بمحامدهم في غدواتك وروحاتك ومردّداً آيات فضلهم في كل منتدًى مع تصميمك على مكافأتهم لدى سنوح الفرص . واننا نسوق النصح ولا سيما الى طلّاب العلم ان يذكروا جميل رؤسائهم الافاضل واساتذتهم الاماثل الذين هم محجّة هداهم وأسّ نجاحهم ونبراس بصائرهم ودعامة سعدهم ، ولولاهم لتكاثفت غمائم الجهل في اذهانهم وتراكمت جراثيم الفساد في البابهم واستوطنت الترّهات عقولهم حتى اصبحوا من آفات المجتمع وعاهات الوطن .

وكذلك نحضّ الأبناء على ان ينطلقوا في ميدان الثناء على مكارم ابائهم الذين مهّدوا لهم عقبات الفلاح بما بذلوه في جنب تربيتهم من الهمة والغيرة ، وماتحمّلوه من النفقات الباهظة على تعليمهم . وانما يقومون اليوم بهذا الواجب المقدس اذا شمّروا عن ساعد الجد التقاطاً لدرر المعارف وفرائد الشمائل ، وبرهنوا بحسن مساعيهم انهم من اطوع البنين واخضعهم لاوامر والديهم واحرصهم على مرضاتهم واغيَرهم على سعادتهم وراحتهم ، فان الشكر اصدقُهُ ماكان مؤيّداً بالعمل ومقروناً بحسن الجزاء ، ولا خير في العرفان اذا كان مصدره اللسان لا الجنان ، وما اقبح الشكران اذا زال بزوال النعم وانقطع بانقطاع الاحسان .

الصحة

هي من أجلّ النعم التي منّ بها الله على الانسان ، اذ عليها مدار الراحة والهناء ، وبدونها لا يطيب عيش ولا يصفو بال . والمرء لا يعرف قيمتها الا متى فقدها ، فتنتابه العلل وتُذيقهُ الأمرّين . فكم من ليلة يطويها العليل بدون ان تذوق عيناه طعم الرقاد ، لما يقاسيه من الآلام المبرحة التي يضيق معها الصدر وينفد الصبر . وكم من نهار يكون في عينيه اشدّ سوادًا من لحمة الظلماء ، لما يشبُّ بين أضلعه من نيران الاوجاع المذيبة التي تُفقدهُ الرشد والصواب .

ولو دخلتَ الى فؤاد احد الموسرين بعد اعتلاله ، لرأيته يذوب حسرةً علي فقدانه صحّته الغالية التي اصبحت في نظره اثمن من الذهب الوهّاج المُودَع في خزائنه ، بحيث كان يؤثر ان يخسر ماله على ان يخسر صحته ، اذ عرف بالاختبار ان المال لا يُجديه أقلّ نفع بعد تضعضع ركن عافيته . ولا تعجب اذا غبّط المُثرون اهل البؤس الاصحّاء الاجسام السليمي البنية ، ولو كان في طاقتهم ان يشتروا صحتهم الناضرة بكل ما لديهم من النقود لعدُّوها صفقةً رابحة . كيف لا وهم كلّما ألقوا نظرة على ما لديهم من الاموال يتلهّفون أيّ تلهُّف ، اذ لم يبقَ في مكنتهم ان يصرفوها كما كانوا يصرفونها بالامس في سبيل ملذّتهم وترفهم ، بل اضطرّتهم الحال الى ان ينفقوها في التطبُّب والتعالج وتناول الأدوية التي تنفر من مرارتها نفوسهم المعتلّة وقلوبهم السقيمة . فالى جميع هذه المغبّات نظر العقلاء بأذهانهم النفّاذة فارتفعت منزلة الصحة في عيونهم واشتدّ حرصهم عليها . .

ومّما يجب التنبُّه له أن العلل متى نهكت الاجسام ، وأوهنت القوى ، وأحرجت الصدور ، تسوء اخلاق العليل ، فيتجنّب الناسُ معاشرته حتى اهله وخلّانه ، مما يزيده بلاءً على بلاء ، وغمّاً على غمّ ، فيقضي أوقاتهُ معتزلاً ، وما اصعب العزلة مع تباريح العلة . واذا اراد ان يدفع وحشته بمطالعة ما يُؤنِسهُ ، فهيهاتِ ان يفهم ما يتصفّحه ، لان العقل يعتلُّ باعتلال الجسم ، ولذلك جاء في المثل المأثور : ان العقل السليم في الجسم السليم

وانّنا لنأسف أشدَّ الاسف على ان السواد الاعظم من اهل وطننا لايرعى القواعد الصحِيَّة ، بل يُسرف عافيته كما يسرف المتلاف ماله بدون شفقة كأنها لا قيمة لها . ومن الناس مَن يُنفقون هذا الكنز الثمين في ميدان أهوائهم ، ولا يصحُون من سكرتهم الَّا بعد ان تكون قد حملت عليهم الاوصاب والأَدواء بجيوشها الجرَّارة ، فتدخل اجسامهم الواهنة بدون ادنى معارضة وتفتك بها فتكاً ذريعاً .

ومنهم مَن يَنكبُّ على حشد الاموال انكباباً مُجهداً ، فيجمع منها نصيباً كبيراً لا يلبث أن يُنفقه على مداواة العلل التي بطشت بجسمه ، بعد تجشُّمه الأَنصاب والمشقَّات في سبيل الأَصفر الرنَّان ، حتى يصبح صفر اليدين . وهَبْ أنه لم يصرف كل ما جمعه على معالجة أدوائه ، فان النقود التي تبقى في صندوقه لا تزيده الا تفجُّعاً ، اذ يرى نفسه عاجزةً عن التمتُّع بثمرة تعبه الطويل . وأَيَّة غصَّة أشدُّ من هذه الغصَّة بل أية نغصة أوجع من هذه النغصة .

ومنهم مَن يفقد صحَّتهُ في معاناة الاعمال العقلية على غير تبصُّر بالعواقب ، فلا يُولي جسمهُ قسطَهُ من الدعة والراحة حتى ينزل به الداء فيُقعده عن كل عمل ، ويحرمه كلَّ لذة ، فيدفن معارفه في صدره ويقضي بقيَّة ايامه بالعذاب والأَلم . ولو أَنَّ هذه الفئة راعت النظام المنطبق على الحكمة في ما زاولته من الاعمال الفكريَّة المُذيبة للدماغ لتسنَّى لها ان تُفيد بلادها بمعارفها الغزيرة ومداركها الواسعة ، وما ذوَت أغصانُها الناضرة في ربيع الحياة ومَيعة الشباب .

على أننا نرى عدداً كبيراً من المجاهدين في سبيل الله او خدمة بلادهم يُضحُّون بصحتهم وراء ما يتوخّونه من نبيل الغايات وشريف المقاصد . ومنهم من يجود بروحه دفاعاً عن شرف دينه او ذوداً عن حوزة وطنه ورفعاً لشأنه . فهؤلاء هم الجديرون بكل إطراء وإِعجاب ، بل الحريُّونَ بان يُخلَّد ذكرهم على صفحات التاريخ حتى يقتصَّ آثارهم ويقتفي معالمهم مَن يعقبهم من الاخلاف . وأية ضحيَّة اعظم من ان يبذل المرء انفس ما عنده في ساحة الجهاد او في جنب مصلحة الجمهور .

ونحن نقف عند هذا الحد من البيان في هذا الموضوع الخطير لضيق المقام على امل ان نعود اليه ونوفّيه حقه من الإِسهاب في المقبل ، اذ لا يغرب عن بصيرة احد

ان الوطن لا يرقى الى رابية العز والمجد الا على سواعد الشبّان الاقوياء البنية الناضري العافية الصافي الذهن الناهضي الهمّة . وبهذا القدر غنى للمستبصرين الالبّاء .

المدرسة

منبت الرجال العظام

المدرسة هي مقياس كل أُمةٍ من الحضارة والعمران ، وعنوانها من المجد والعز والسؤدد والعرفان . فاذا بلغت حدّها من الترقي والكمال ، وأتحفت العالم بعدد كبير من نوابغ الرجال ، أدركت الأُمة المدى البعيد من الشهرة ، واستقرّت قدمها على قمة المجد والفلاح ، وعزّ جانبها في كل صقع ، ونظرت اليها الابصار بعين الاعجاب والاحترام . ولنا بما ورد على صفحات التواريخ من تراجم العظماء الاعلام أعدل شاهد على ما نحن بصدده . فان الغزاة الابطال الذين دوّخوا الارض وسادوا في الدنيا وصالوا ، انما جنوا ثمرات النصر بفضل الدربة التي بلغوها ، والبسالة التي نشأُوا عليها في المعاهد العلمية . وكذا قُل عن الجنود الانجاد البواسل ، فان الوطنية التي غرسها اساتذتهم الأُباة في صدورهم هي التي حبّبت اليهم تجرُّع كأس المنيَّة في ميادين القتال ، ذودًا عن شرف بلادهم ودفاعاً عن ذمارها .

وبديهيٌّ أنَّ لكل أمة مزيَّة تمتاز بها عن سواها ، فان الفرنسيس مثلًا يشهد لهم تاريخهم المجيد بالبطولة ومضاء العزيمة والجرأة والاستماتة في سبيل الشرف ، حتى لقد يستصغرون المنون في هذه السبيل ، ولا يعبأُون بالاخطار والاهوال ، وذلك بفضل الحميَّة التي تجري في عروقهم والحماسة التي تمتزج بدمائهم ، مما توارثوه نسلًا فنسلًا حتى اصبح من مزاياهم المميّزة . ولا مرية ان الذي انشأ فيهم هذه المناقب الفريدة انما هو المدرسة التي من ثديها يرتضعون لبان الإِباء ، ومن معينها يستقون مكارم

الاخلاق. واذا رأينا في أُمة اعوجاجاً في طباعها وخللاً في عاداتها وفساداً في تربيتها، فانما منشأ ذلك المدرسة التي يتخرج فيها بنوها. ولذلك تبذل الدول الرشيدة قصارى مجهودها في اصلاح مدارسها اذا رأت فيها شوائب تشينها ومفاسد تُشَوِّه محيّاهـا وتكدر صفائها، فلا يمر زمن حتى تسدّ ثلمتها وتتدارك علّتها وتصلح ما اختلّ من نظامها. ومن المعلوم ان الامم الحيَّة يكون مبلغها من التقدم بقدر صفاء مناهلها العلمية التي هي مرآة مدنيتها ومظهر احوالها..

وانه ليروقنا ان نرى المعارف قد اخذت تتأ لّق بدورها في سماء بلادنا من نصف قرن ونيِّف، فرأينا فيها المنشئين البلغاء ومصاقع الخطباء والعلماء المحققين والشعراء المفلقين وارباب الصحافة النابغين والمؤلفين المدقّقين الذين خلّفوا في خزائن العلم والآداب آثاراً رائعة تحدِث عن مقدرتهم العلمية عصراً بعد عصر، غير اننا مع ما عُرفنا به من الذكاء الفطري لم نقوَ حتى اليوم على مجاراة الامم النجيبة التي حلّقت في سماء الاختراعات، فأحدثت فيها كل غريبة مدهشة بل كل معجزة تقف الاذهـان عندها حيارى. ولقد رأتنا الحرب الغشوم التي طوينا صفحاتها السوداء بأيدٍ مرتجفة بعض تلك الاكتشافات الغريبة التي يكاد لا يسلّم بها العقل لولا ثقته بمقدرة الغربي العجيبة الذي خرق ببصيرته النفّاذة حجب الحقـائق، وشقّ ستور الاسرار وحلّ رموز الطبيعة، وكاد يأتيك بالآيات البيّنات فضلاً عما ابدعه من الاستنباطات العصرية التي لم يكن يحلم بها العقل البشري قبل القرن العشريني الذهبي. وانّ المجال لأَضيق من ان يستوعب تلك الغرائب التي انبتتها فكرته المخصاب وهمته الناهضة ونفسه البعيدة المرامي. على انه اذا فاتتنا معرفة جميعها فلم تفُتنا معرفة بعضها، وهو كافٍ لان يخلب بصائرنا قبل أبصارنا حتى لا نتمالك عن ان ننظر الى اولئك المخترعين وهم من أَبناء جنسنا، كأَنهم قد جُبلوا من غير طينتنا، او أُوتوا من المواهب الفائقة ما لم نُؤتَهُ نحن. ولو سبرنا غور عقولهم لرأينا في ربوعنا المشرقية من امثالها بل أثقب منها، كيف لا والغربيُّون أنفسهم يشهدون لنا بالذكاء المتوقد، وانما نحن تفوتنـا الوسائط المتوفرة لديهم، وأَخصُّها العلم الذي بلغ عندهم ابعد مبلغ من الكمال، في حين انه لا يزال عندنا في مهده. فاذا ربي الشرقي تحت سماء المغرب، وارتضع افاويق

المعارف في كُلِيَّاتها العاليـة بزَّ الغربي ورجح عليه ، وكان بين اقرانه من المبرِّزين السبَّاقين الذين لا يُشقُّ لهم غبار ، كما يؤَيّد ذلك كل من أُتيح لهم الحظ لأَن يتلقوا العلوم والفنون في مدارس اوربا الراقية وهم اكثر من ان يُحصوا .

ومن الاسباب التي قضت علينا بالتقهقر والتخلُّف في ميدان العمران والمدنيـة الصحيحة ، وكان حائلًا بيننا وبين التبحُّر في مذاهب العلاء ، والعز والترّقي الحقيقي ، انما هو الخلل البيّن الواقع في تربيتنا الاجتماعية الناشئ عن الخلل الذي نراه في تربيتنا المدرسيَّة ، وهو الذي اورثنا تلك الادواء العُضَالة المتفشِّية في اخـلاقنا وعاداتنا واذواقنا وميولنا بحيث اصبحنا ، ونحن من وطن واحد ، شعَباً شتَّى وأحزاباً متفرقة ، لا تُفكِّر الَّا في خراب البلاد وتقويض دعائم الالفة والوئام فيهـا ، وإضرام نيران التحاسد والتباغض والتنافر بين اهليها ، حتى أمسينا وكأَننا خارجون من برج بابل من عهد قريب ، لا تفهم الفئة منا لغة الأُخرى ، بل تأبى ان يقع فيما بينها التعارف الموجب للتآلف . ولا جرم ان الكوارث الدهماء التي تُعدُّ من الفجائع الموبقات ، انما حلّت بنا بسبب التعصُّب الذميم الذي درج وترعرع في أحضان المذاهب الدينية ، بحيث ينظر ابناء كل مذهب الى أتباع المذهب الآخر كما ينظر العدوُّ الى عدوه . وكيف تتآخى القلوب المتنافرة ، او تتعاقد الارواح المتصارمة ، أم كيف تتصافح تصافُحَ الولاء والاخاء تلك الايدي التي تحرّكها عوامل الكره والحسد والعداء ، أم كيف تسعى الى المصلحة الوطنية العمومية تلك الأَقدام التي تغلي في صدور اصحابها مراجل النفرة والبغض من عهد عهيد .

ان الاصلاح في بلادنا هو في الوقت الحاضر من اشقّ الامور وأوعر العقبات ، ولا قِبلَ به الا للمدارس التي يديرها رجال حكماء عقلاء ، قد استوفوا نصيبهم من الاختبار وربوا على مبادئ الديمقراطية السليمة ، التي تعلّمهم كيف يبثُّون روح الاخاء بين طلَّابهم المختلفي المذاهب حتى ينشأُوا ، وهم اخوان في الوطنيـة ، لا يشعرون بمذهبهم الديني الَّا في معابدهم وجوامعهم ، وليس لهم رابطة الا الوطن وحده . ومن العبث ان نرمي بأبصارنا الى هذه الغاية التي هي غاية الغايات ، بدون ان ننهج هذا المنهاج القويم ، نابذين من قلوبنا كل ما يدعو الى النفور والانقسام . ونحن الى الاتحاد

أحوَجُ منا الى العلم، لانه أية فائدة لنا من المعارف اذا وهت بيننا اسباب الولاء، وانطوت احناء صدورنا على الشحناء والبغضاء ' أفلا يكون الجهل مع التحزّب الديني الاعمى أولى من العلم وأخفّ ضرراً ' لأن المتحزّب يتخذ من علمه سلاحاً يحارب به مَن يخالفه في المذهب الى ان يستحكم النزاع بينهما ويتطاير الشرر الى الرَّعاع ' وهنا الطامَّة الكبرى .

فاتقوا الله يا ارباب المعاهد في الناشئة الموكولة رعايتها اليكم ' واعلموا ان مهمتكم خطيرة يناقشكم الوطن عليها الحساب . فلقد دخلت البلاد اليوم في عهد جديد ' ومن الضرورة ان تُرِونا نابتة جديدة متخلِّقة بغير اخلاقنا ومترعرعة على غير عاداتنا وخِلالنا ' وإلّا فأقفلوا مدارسكم ' فلأَن تُقفلوها خير من ان تُعرّضوا الملامة العقلاء في أُمتكم ' فينظروا اليكم نظرهم الى الخَوَنة المارقين . .

هذه هي نصيحتنا نسوقها الى روؤساء المدارس واساتذتها ومديريها ' لافتين اليها انظار خطبائنا وعلمائنا وأرباب الصحافة فينا الذين هم قادة الرأي العام ' يتصرَّفون في أعنَّة الخواطر على ما يشاؤون . فاذا كانت المعاهد لا ترينا في صدر نهضتنا المخترعين والمكتشفين والمستنبطين ' فلا اقلّ من ان تُوَحد قلوبنا وتُؤلِّف عواطفنا ' وتجعل منا على اختلاف مذاهبنا وطبقاتنا وترعاتنا ' كتلةً واحدة تعمل لخير الوطن وتعزيزه وانهاضهِ من دركات الخمول الى رابية الشهرة والنباهة . وما من شيء على ذوي الهمم الشمَّاء وارباب النخوة القوميَّة بعزيز .

المهنة

لا يكفي الوالد ان يَعُول بنيه على وجه لائق بمقامه موافق لحاله ، بل عليه ان يعلّمهم من المِهَن ما يُعينهم على الارتزاق والتعيُّش بطرق شريفة ويُقوّيهم في المستقبل على القيام بنفقات عيالهم مما يستدرُّونه من المهنة التي اقتبسوها . ومهما بلغ المرء من بسطة اليد والخفض والسعة فـلا مندوحة له عن ان يحبّب الى بنيه العمل ويعوّدهم السعي وراء الرزق ، ولا عذر له في ما لو اغضى عن تعليمهم احدى الحرف التي تفتح في وجوههم ابواب الاكتساب اعتمادًا على ما لديه من الاموال ، فان الله قد حتم على البشر جميعاً بالسعي وراء معيشتهم اذ قال لابينا الاول : بعرق جبينك تأكل خبزك .

وجميع الحكماء في الدنيا لا يدخرون وسعاً في حثّ بنيهم على النشاط والدأب في العمل علماً منهم بما ينجم عن ذلك من الفوائد الجليلة لهم ولاولادهم ، فضـلًا عن عن انهم بهذه الطريقة يحتاطون لامر بنيهم بحيث اذا دارت عليهم الدوائر فأفقدتهم اموالهم لم تُغلق في وجوههم ابوابُ الارتزاق بل ربما تمكّنوا بفضل الحِرَف التي تعلموها من ان يستردّوا الاموال التي خسروها ويسترجعوا المقام الذي كانوا عليه في المجتمع المدنيّ . ولذلك نرى عليّة القوم بل الملوك والامراء وارباب الثروة العريضة يبذلون قصارى المجهود في ان يعلِّموا اولادهم الفنون الجميلة والمهن العالية حتى اذا قلب لهم الدهر ظهر المِجنّ لم يعدموا وسيلةً يتسببون بها الى الارتزاق خوفاً من ان يصبحوا على عاتق البشرية حملًا فادحاً او ينظر اليهم الشامتون بعين الازدراء . ولأَن يكفَّن المرء ويدفن في ظلمات الرموس خيرٌ له من ان يحتاج الى غيره ولا سيما في الشؤون المعاشيَّة . وانه ليأخذنا العجب العجاب من ان اغلب المُثرين في بلادنا يتقاعدون عن تعليم بنيهم احدى الحِرَف حذرًا من ان يُنسبوا الى البخل والطمع ، أو خوفاً من ان يقال عنهم انهم يزاحمون الطبقة العاملة في ميدان الكد والكسب ، وقد فات هذه الفئة الغبيَّة ان العار كل العار في اهمـال شأن اولادهم الى حدّ أَن يشبُّوا اغرارًا ولا شيء يشغلهم عن ملاهيهم واهوائهم ، فيصرفون ايام الشبيبة في ما يُنزل عليهم المحن

والشدائد ويكسبهم الخزي والوبال، وربما انفدوا ثروة آبائهم في سوق التعطُّل والبطالة، فيعيشون فقراء تطحنهم انياب الفاقة وتنهشهم مخالب العوز، ولا مورد لهم يرتزقون منه ولا مهنة تدرُّ عليهم، فيتضوَّرون جوعاً، ثم ينقلبون على والديهم ويسدّدون اليهم سهام التعيير والتبكيت لاغفالهم تربيتهم في عهد حداثتهم وصرف النظر عن امر مستقبلهم.

فماضرَّ هؤلاء الاغنياء لو علّموا اولادهم في صغرهم مهنة ربما اضطرّوا الى الاستعانة بها في الايام المقبلة، اما يتحوَّطون بذلك لامورهم ويبنون سدّاً منيعاً يحول بينهم وبين العُدم والعسر. وهَبْ انهم لا يفتقرون اليها فايُّ اذى يلحقهم من تعلّمها. اوَ يخفى عليهم ان الدهر لا يسلم احدٌ من كوارثه مهما علا مقامه وغزرت ثروته وتوطّد عزّه. فكم من بيت عريق في الحسب بعيد المدى في الغنى قد دُكَّ في هذه البلاد من أُسّهِ لتغاضي اربابه عن تعلُّم الحِرَف، وكم من بيت كان الفقر مخيّماً عليه والشقاء مكتوباً على جدرانه والخمول مشدود الاطناب في زواياه، قد احرز اهلُه بفضل المهَن التي زاولوها ثروةً لا تُحدُّ، وجاهاً بعيد المتناول ومقاماً باذخاً لا يُطاوَل. واذا كان المتموّلون واصحاب اليسر لا يُعذرون في عدم تعليم بنيهم الحِرَف فما قولك في اهل الفاقة والعوز، وهم من احوج الناس اليها واشعرهم بفوائدها. فكم من الآباء السيئي الحال يتركون اولادهم في الازقّة كالهَمَل التي لا راعي لها، فيتشرَّبون من الرّعاع سم الفساد ويربون على المخازي ويترعرعون على الاخلاق اللئيمة والخلال الدنيئة. فاذا احوجهم الامر الى التعيُّش ضاقت في وجوههم الحيَل فيلتجئون الى النهب والسلب او غيرهما من ضروب المنكرات، توسُّلاً الى المعيشة حتى تتساقط اللعنات عليهم وعلى آبائهم من كل فم. فايٌّ اصلح لك ايها الوالد أتعليمُ ولدك حرفة تغنيه عن التسوُّل وتكفي الناس مؤونة شره، ام اهمال امره حتى يعيش لصّاً لئيماً شريراً ويموت ذليلاً خسيساً. رُوي ان حكيماً مرَّ بغلام بطال متعطِّل فقال له: يا هذا دع البطالة فان الله يحب من يعمل، وماتعطَّل احدقط الّا ذاق من تعطُّله شر المصائب.

فاعتبروا ايها الاباء واخشوا سوء العواقب وارحموا صغاركم ومهّدوا لهم اسباب الراحة والسعد في هذه الدنيا وذلك بتعليمهم مهنة توفّر لهم اسباب المعيشة وتقيهم

غدرات الزمان وتقلُّبات الايام . ولأن تورثوهم مهنة ملائمة لحالتهم اصلحُ لكم ولهم من ان تُخلِفوا لهم مالاً لابدَّ من ان يبذّروه في المحظورات آجلاً اوعاجلاً اذا لم يكن عندهم مهنة تُلهيهم عن المذاهب الموبقة والمناحي المخجلة . فاذا انتصحتم جنيتم ثمرة الانتصاح والا حصدتم شوك الندم وذقتم الحنظل . ولا اخالكم الا منتصحين رحمةً لبلاد انتهى بها التواني الى شفير الذل والفقر، وانقلب بها الكسل ايَّ منقلب حتى باتت تنظر الى هاوية التعس والاستعباد بطرف هيَّاب وقلب خفَّاق .

وهنا لا بدَّ لنا من كلمة نوجّهها لكل والد لا تساعده حاله على تعليم بنيه العلوم العالية : ايها الوالد متى انهى ولدك دروسه في المدارس الابتدائية ولم يكن في وسعك ان تدخله المدارس الكبرى لضيق ذات يدك، فابذل الجهد ان تعلّمه مهنة يرتزق منها في المستقبل وتؤهله لان يكسب لأسرته المقبلة ، وإلَّا تُذنب اليه ذنباً تشعر بفظاعته عندما يصبح عَيِلًا عليك وعلى بلاده . وايَّاك ان تضعه في محلّ لا يتعلم فيه شيئاً يُصلح حاله ويضمن له النجاح في المستقبل، كما يفعل بعض الآباء الاغرار الذين يُقيّدون بنيهم بالخدمة في بعض البيوت او الفنادق طمعاً في اجرة زهيدة يُصيبونها في مقابلة عملهم ، فيقضون هنالك بضع سنوات حتى اذا بلغوا السنة الثامنة عشرة تعذر عليهم ان يحترفوا حرفة تفتح امامهم مذاهب الارتزاق الفسيحة ، فيقضون عمرهم في الاستخدام بدون ثمرة ويعيشون في الضنك والتقتير . وهل من غباوة اعظم من غباوة الاب الذي يضيع اوقات ولده في مثل هذه الخِدَم الوضيعة . أوَ يليق به ان يصرف ولدُهُ ايام حداثته في ذلك المحل الذي تقيَّد بخدمته حيث يقضي نهاره بين كَنسهِ ورفع الغبار عن سلَعه ، وبين استيفاء ديونه وقضاء اغراض لا فائدة له منها . . تلك حال اكثر الاولاد الفقراء في هذه البلاد ' فانهم ينخدعون بالمبلغ الزهيد الذين يؤَدَّى لهم ولا ينتبهون لخطإهم الا حين لا ينفعهم الندم .

فاذا اردتم ايها الآباء ان تؤسسوا لبنيكم مستقبلاً سعيداً فعلّموهم من صغرهم حرفة تُغنيهم عن الالتجاء الى غيرهم ، وتُقوّيهم على عيالة اسرة كبيرة يُربّونها على طريقة تنفع وطنهم . ورُبَّ حُرفة اورثت صاحبها الشرف ودفعت عنه آفات العسر وأقصته عن مهاوي التلف .

اقسام المهنة والحكمة في اختيارها

المهنة قسمان يدويَّة وعقلية ، فاليدوية ما استلزمت مزاولتها عمل اليدين ، بل ما اشترك فيها العقل والجسم معاً من مثل فن التصوير والموسيقى والنحت والجراحة والصياغة والحياكة وغير ذلك من الحرف . واما العقلية فهي التي ينفرد بتعاطيها العقل كفن المحاماة والهندسة وعلم الفلك والفلسفة والرياضيَّات وما شا كل ذلك . وكلا القسمين لم يبلغ في بلادنا مبلغ الاتقان ' ولذلك نرى النجاح بطيئاً فيها والثروة زهيدة وارباب الاعمال يشتكون من كساد تجارتهم وعدم الاقبال على مصنوعاتهم ومنسوجاتهم ، في حين ان الامم الراقية هي القابضة على اعنَّة التجارة وقد ذهبت في عالم الاختراع كل مذهب ، ونحن مقيَّدون بالأساليب القديمة ' ينسج الولد في صناعته على منوال ابيه ولا يتقدَّمه خطوة في ميدان التفنن والتجود . وكان علينا بعد ان انتشرت المعارف في هذه الاصقاع ان نجاري الشعوب النَّاهضة في مجال التأنُّق والابداع ، ونحلّ ايدينا من أغلال المحاكاة المُقعِدة عن التقدُّم ' ولكن تمسُّكنا بالقديم هو الذي اوقفنا عند هذا الحد حتى بتنا ننظر الى الغربي بعين الدهشة وهو لا يفوقنا ذكاء ولا جلَداً . واذا تقصَّينا في البحث عن جمودنا تبيَّن لنا ان هنالك ما عدا التشبُّه الأعمى اسباباً جمَّة اخصُّها عدم اتقان مِهننا ، ودفعُ اولادنا الى تعلم المهن التي ليس لهم ميل اليها ، فيُقبلون على تعلُّمها بكره ، وهم خالون من الاستعداد الفطري حتى لقد يقضون السنين الطوال في مزاولتها بدون ان يجروا شوطاً في ميدان النجاح . فاذا سألت احد الآباء ماذا يريد ان يزاوله بنوهُ الصغار عند بلوغهم سن الرشد اخذ يعيّن لكلٍّ مهنة على ميله هو ، ولا يلبث ان يُبرز عزمه الى حيز الفعل ، فيعلِّم هذا الطب وهو ميَّال للتصوير ' وذاك فن المحاماة مع رغبته في فن الموسيقى . واذا اتفق ان ساق احد اليه النصيحة ليترك كلًّا من بنيه وشأنه ، فيختار المهنة التي له كلَفٌ بها قابل نصحه بالازدراء

على ان بعض الابناء الموسرين ينتهي بهم الحمق الى ان يحسبوا من الغضاضة

والعار ان يتعلّموا احدى المهن تحوّطاً لتقلّبات الدهر ، فيصرفون أيام الصبا والشباب في اللهو معتمدين على ثروة آبائهم، حتى اذا انقلب عليهم الزمان ونسف بناء غناهم عضّوا اصابعهم ندماً . ومن السيدات المثريات مَن يحملهنَّ الكِبْرُ على تنفير بناتهنَّ من تعلّم الخياطة وفن الطبخ والادارة المنزلية وعلم الاقتصاد اتّكالاً على ان البائنة (الدوطة) التي يَرِثنها عن والديهنَّ تُغنيهنَّ عن هذه الفنون التي لا غنى للمرأة عنها مهما اتّسعت ثروتُها ، فيُزيِّنَّ لنفوسهنَّ أنهنَّ بالمال يُمكنهنَّ ان يستخدمنَ مَن يشأنَ من الخدم والخادمات لقضاء حاجاتهنَّ البيتية ، حتى اذا تزوجنَ كنَّ جاهلات للامور المنزليَّة ، فيصرفنَ حياتهن بين آلات الطرب وفي اندية الانس متقاعداتٍ عن تدبير منازلهن ملقينَ تبعة ذلك على الخدم والحشم ، والله اعلم بما يكون وراء ذلك من سوء العواقب ولا سيما اذا غادرت السيدة منزلها وانصبَّت على موائد القمار تاركةً الدار تنعى من بناها . .

وكنّا نتمنّى لو انحصرت الكبرياء في نفوس هذه الطبقة الغنية ولكنا نرى كثيرين من الاباء الفقراء تترفّع نفوسهم عن تعليم بنيهم المهن اليدوية ، كأنَّ هذه المهن تغضّ من قدر اصحابها او تكسبهم عاراً ، فترى الزرّاع يستنكف من ان يكون ولده مثله زرّاعاً، فيعمل الليل والنهار في كسب الاموال حتى اذا تهيأ له مبلغ يستعين به على تعليم ولده في احدى المدارس العالية وضعه فيها سنة او سنوات ، ثم يشعر من نفسه بالعجز عن القيام بالنفقات اللازمة لولده حتى يُنجز دروسه، فيُخرجه منها وهو لم يتلقَّ من اللغات والعلوم ما يساعده على تحصيل معاشه ، فيضطر ان يُعيده الى الحقل وهناك لا تسل عما يقع بينهما من الخلاف اذ يتصوَّر الولد انه اصبح ارقى معرفةً من ابيه ، وان العلم الذي ادَّخره في صدره يُجلّه عن ان يُمسك بيده المِعول، فيقضي أيامه والخيزرانةُ تهتزُّ في يده ' ويمشي على الارض وهي تئنُّ من وطأة كبريائه . فما ضرّ هذا الاب لو انفق الاموال التي اقتصدها على تعليم بنيه في احدى المدارس الزراعية حتى اذا أتقن علم الزراعة عاد اليه حاملاً من نتائج معارفه ما يُنمي زرعهُ وضرعه وتؤتيه الارض ذهباً ونضاراً . ألا ترى القرويّ في الغرب كيف يستنبت حقوله على افضل الطرق الفنية مجتنياً منها ريعاً كبيراً يضمن له ولبنيه سعة العيش.

فاذا جلت في اكواخ القرويين رأيتَ من حولها رياضاً غنّاء حافلة بانواع الطيور والمواشي ، وهم بحالة هنيئة يحسدهم عليها كبار الاغنياء . . . ومن اكبر آفاتنا اننا نتشبه في اقتباس المهن بسوانا الى حدٍ يورثنا البلاء . فاذا رأينا احدنا قد نجح في دراسة فن الطب مثلًا نشط اكثرنا الى تعليم بنيه هذا الفنّ ، حتى تصبح البلاد وفي كل قرية منها اطبّاء ، والسعيدُ فيهم مَن قام بنفقات معاشه ، فيُضطرّون الى الجلاء عن اوطانهم . وكذا قل عن سائر الفنون التي كسدت أَسواقها في انحائنا ، بسبب اقبال الطلّاب عليها . على اننا لا ننكر ان هـذا التشبُّه طبيعي في البشر ، الذين دأبهم التنافس والتحدِّي ، ولكننا نحن نسيء التصرُّف فيه ، اذ نكتفي بأن نقتصّ آثار غيرنا بدون ان نتفنن ونتأَنق في المهنة التي انصببنا عليها ، فيحصل من هذا التزاحم لجميع ارباب هذه المهنة أَبينُ ضرر . أَما الغربيُّون فاذا رأى احدهم تاجرًا اصاب ثروة من الصنف الذي يتَّجر به ، واراد ان يفتح محلًا للمتـاجرة في الصنف نفسه ، بذل مجهوده في مسابقة اخيـه في تحسينهِ ، او اقتصر على جلب الصنف العالي ، في حين ان زميله يتاجر بالصنف العادي . فبدلاً من ان نتمشَّى نحن على هذه الطريقة المثلى ، نأخذ في التزاحم حتى يشملنا الاذى جميعاً . وكان الأَولى بنا لو كنا من العقلاء ، أَن نبحث عن غير صنف او نزاول فنًّا جديدًا ، فنصيب من ذلك ارباحاً طائلة . وهكذا تعمّ الفنون في البلاد ، ويجزل المكسب بدون ان يُمسّ احدنا بأذى .

ومما يوجب الأَسف الشديد ، ان كثيرين من الآباء الاشِحَّاء يُقلعون عن تعليم بنيهم مهنة لائقة بحالتهم ومقامهم ، ضِنًّا بالدنانير التي في ايديهم ، فيكتفون بوضعهم في مكتب عاديّ ، حتى اذا أَلمُّوا فيه ببعض العلوم اخرجوهم منه ، وهم عاجزون عن المتاجرة بما تلقّنوه ، فيسدُّون في وجوههم باب الفلاح . فبئس المسلك الذي يسلكه هؤُلاء الآباء ، فانه غاية في الخرق ومضارُّهُ اكثر من ان تُوصف . فلو كان عندهم شيءٌ من الحكمة ، لبذلوا الاموال في تعليم بنيهم بكفٍّ نديَّة ، لانه خيرٌ للولد ان تورثه علماً من ان تورثهُ مالاً ، لان العلم يجلب المال والجهل يبدِّده مهما كان غزيرًا

فاذا كان في قلوبكم أَيها الآباء شفقة على بنيكم فلا تتغاضوا عن تعليمهم مهناً توفر لهم اسباب الارتزاق . ولتكن هـذه المهن موافقة لحالتكم ، ولا تبالوا

بالنفقات التي تُنفقونها في هذه السبيل ' فانهم اذا ترعرعوا ونزلوا الى ميدان العمل كافأُوكم اضعافاً على ما كابدتم في جنبهم ' وذكروكم بالحمد والثناء ' واستنزلوا عليكم بعد مماتكم غيوث الرحمات . فان بلادنا يتعذَّر عليها ان تجاري بقيَّة الامم النجيبة بدون ان تُتقن الفنون والمهن . فعسى ان نرى في فلكها بدر التقدم الوهَّاج ' بعد اهتمامكم بالناشئة الجديدة وتربيتكم اياها على طرق الشعوب النبيهة .

الزراعة حياة الامم

أولُ فنّ اقبل عليه الانسان في ميدان هذه الحياة هو فن الزراعة ' لانه من ألزم الفنون للمعاش حتى لا يستقيم امره بدونه .

وقد كانت الارض في الدور الاول مخصاباً ' تؤتي غلالاً غزيرة لأقلّ جهدٍ يُصرف في سبيل تنبيتها ' فلما امست عرضةً للآفات فسدت وقلّت محاصيلها ' واصبحت في حاجة الى مداومة العمل فيها وتعهُّدها بالعلاجات الواقية من الجدب . ولا ريب ان الحكمة الإلهية انما قضت على الارض ان يعتورها المَحل مرةً بعد مرَّة حتى يعلم الانسان انه لم يُخلق في هذه الدنيا الا للعمل والعناء . فلو كانت الارض تكفيه مؤُونته كلَّ حياته بدون نصَب لاستغرق في سبات التواني وجنى من ثمرات الفراغ ما يُلقيه في مهواة التعس ووهدة البلاء . وما من نكير ان الزراعة هي من ارفع المِهَن واجدرها بالاعتبار ' اذ عليها يتوقَّف نجاح الامم ' وبدونها لا يكون لأُمة حياة . فمهما اتسع نطاق التجارة ' ومهما بلغت الصناعة من التقدُّم والإحكام ' فاذا لم يكن للزراعة شأنٌ ولا نصيب من العناية بأمرها ' أفضت الحال الى التأخر عاجلاً او آجلاً . ولاتعجبنَّ من ذلك ' فان التجارة تستقدم سلَعها من المزروعات والمصنوعات ' واكثرُ المصنوعات تستخرج موادَّها من ثمرات الارض ومعادنها ' فاذا ماتت الزراعة ماتت الصناعة ' وبموتها تموت التجارة .

ومن هنا يُعرف قدرُ جهالة الذين لا يُعلِّقون على الزراعة ادنى اهمية ، حتى ينظرون الى الزرَّاع بعين الازدراء ، كأنهم جُبِلوا من غير جبلته . الا فليعلم هؤلاء ان الأُمم القديمة ، كالفراعنة والفينيقيين والكلدانيين والاشوريين واليونانيين والرومانيين لم ترفع اعلامها المهيبة في المعمورة ، ولم يستتبّ لها الحكم قروناً الا لاهتمامها بالزراعة وتعزيز اربابها . وأمَّا الامم الحاضرة فان الزراعة عندها من الخطورة بأجلّ مكان ، حتى انها تنظر الى المحراث في يد الزرَّاع كما تنظر الى السيف الماضي في يد الجندي ، والقلم السيَّال في يد العالم الشهير ، والجوهرة الثمينة بين يدي الصائغ الحاذق .

ولنبحث الآن عن اسباب انحطاط هذا الفنّ المفيد في وطننا المحبوب ، فهي ترجع الى الفقر وقلة الخبرة والتنشيط . امَّا الفقر فانه من اكبر البواعث الحائلة دون تقدُّم هذه الصناعة النافعة . ترى الزرَّاع يعجز عن استحضار الادوات اللازمة لحراثة ارضه ، وتنقيتها ، وتسميدها ، وقطع نباتها ، وحصاد زرعها ، على الطرق المألوفة اليوم في البلاد الراقية . فاذا اراد ان يحرث قطعة ارض عنده لا تتجاوز مساحتها فدَّاناً ، صرَف على ذلك اكثر من يوم بالمشقَّة ، ولم يشقّ من قلب الارض بمحراثه اكثر من ثلث ذراع . فلو كان لديه آلة للفلاحة كالآلات الحديثة الاختراع ، لفلَح قطعة ارضه في اقلّ من ساعة ، وتهيأ له ان يقلبها الى اعمق من ذراعين او اكثر

وأمَّا قلَّةُ الخبرة فهي مسبَّبة عن جهل قواعد هذه الصناعة واسرارها الدقيقة . والجهلُ ناشئٌ عن الفقر ، لان الزرَّاع لا يدخل له من ريع ارضه ما يُربي على نفقات معاشه ، مع انها لا تتجاوز حدود التقتير والاقتصاد المفرط . ولا يخفى ان الفلَّاح مهما اقبلت مواسمه ، ينوءُ أزرُه تحت اعباء النفقات التي يستلزمها تعليم اولاده في المدارس الزراعية . فما من احد يقوى الآن على سدّ هذه الثلمة الَّا الحكومة ، وهو خير ما تصطنعه اليوم من الحسنات الى بلادنا الخصيبة البقاع المتسعة الاراضي . ومتى غزرت مواد القرويّ في المُقبل ، يقوم هو بهذا العمل وحده ، ويكفيها مؤونة الاهتمام بشأنه . وما أجدرها أن تُعيِّن من الآن ، في جميع اعمالها وولاياتها ، رجالاً خُبراء بفن الزراعة ، يجول كل منهم في الناحية المعيَّن لها ، حتى يُلقي على القرويّين دروساً تُرشدهم الى الخلل الواقع في مِهنتهم ، والى اتخاذ الوسائط الفعَّالة لتحسين اراضيهم ، وتهيئتها للزراعة

على وجهٍ يضمن لها الاقبال .

وأمَّا عدم التنشيط فلا نخاله الا عقبة في وجه هـذه المهنة الحرِّية بالتشجيع والالتفات ، فلانرى احداً يمدُّ الى القروي يد المساعدة في جميع حاجاته ، وربما صادف مع الخذلان امتهاناً لشأنه ، حتى يتملَّكه اليأس . فما ضرَّ الحكومة لو اسَّست مصرفاً يستدين منه القرويُّ عند مسيس الحاجة ، في حين انها قديرة ان تستوفي منه الدين لدى استغلال موسمه . وأيُّ أذى يلحق بها اذا تبرَّعت بجوائز ، تجود بها على مَن يبهر رصفاءَهُ بإتقان مهنته ، ويبزّ أقرانهُ بالتأنُّق في حرفتهِ . وأية خسارة تُصيبها لوأعفت الفلَّاح بضع سنوات من الرسوم والضرائب الفادحة ، رغبةً في تنشيطه وترغيبه . بل أية مصيبة تنزل بها لو حثَّت الاغنياء على تأليف شركات ، تُعنى بمعاونة القرويين وتوفير اسباب ارتزاقهم ، حتى يقف تيَّار المهاجرة ، الذي كادت بسببه تفرغ البلاد من السكَّان والعمَّال . أترى يبقى عندنا مال اذا فقدنا العَمَلة والصنَّاع ، اوَ يقوى الموسرون فينا على استثمار اموالهم واستغلال اراضيهم ، متى نزحت هذه الفئة الناهضة النشيطة الى البلاد الاجنبية . فاذا كنتم لا تكترثون ، أيها الملَّاكون المُثرون ، للفلَّاح عن غيرة ومروءة ، فلا أقلّ من ان تستحيطوا في امره ضنًّا بمصالحكم ، وحرصاً على ثروتكم التي اذخرتموها من عَرق جبينه . فأنصفوهُ اذاً يا ابناء الجدة والميسرة ، وتلافوا الطوارئ قبل حلولها .

شرف المحراث

اذا مللتَ الحضر وسئمتَ من المدَر ، وكرهت ضوضاء المدن وجَلَبة سكانها، فهيّاً الى المزارع والحقول وروّح صدرك بنسماتها اللطيفة ونفحاتها الذكيَّة ، وفكّه عينيك بتلك البُسُط الخضراء التي نسجتها يدُ الطبيعة ويدُ الزرّاع معاً . هنالك ترى السنابل تتمايل طرباً وترقص جذلاً كأنها نشوى بما في قلبها من البُرّ الذي بدونه لا يحيا الانسان ، او كأنَّها هائمةٌ بمداعبة النسيم وخرير الماء وثُغاء الشاء ، أوكأنها تريد أن تشكر لمبدعها الذي أنبتها وتبرهن للفلّاح الذي تعهّدها وربّاها منذ كانت بذرةً الى أن صارت سنبلةً على إقرارها بفضلهِ وقدرها لأَتعابه . .

وايُّ مشهدٍ اطيبُ للنفس واقرّ للعين وأَدعى الى الأُنس من ان ترى القرويّين يتساقلون عند انبثاق الفجر الى حقولهم زرافاتٍ زرافاتٍ ، وعلى منكب كلٍّ منهم سِكَّته ومعوله وفي يديه مِهمزتُهُ ومزادتُهُ وخريطته ومزمارهُ وقيثارتُهُ وامامه قطعانه وثيرانه ، وفي صدره همّة شمّاء للدأب في العمل ، وفي فؤاده املٌ كبير بان موسمه سيكون مقبلاً كل الاقبال بعد اتكالهِ على مولاه الجوّاد وتعويله هو على نشاطه وكدِه . وحينئذٍ يقوى على عيالة اهله الذين يُعينونه صغاراً وكباراً على حراثة أرضه وزرعها . .

يمرُّ النهار ولا شاغل يشغله عن عمله ولا همَّ يُقلق باله ، وضميرُهُ مطمئنٌّ لم يُلوَّث بدنيئة ولا بمال حرام ، ونفسه ساكنة شريفة لا تطمح الى المناصب والمراتب العالية ، ولا تُحدّثه الا بأن يعمل في حقله حتى يستغني عن الناس ، واكرهُ الاشياء اليه ان يطمع في مال غيره ، او يحسده على نعمته ، او يُزاحمه على رُتبته ، او يغبنه في بيع مزروعاته ، اوببيعه الحليب مشوباً بالماء . وابغضُ الرذائل الى قلبه ان يثلم عرض قريبه ، او يُبطن له المقت ، او يضمر له الشر ، او يحتال عليه ، او يمكر به الى ما هنالك من المفاسد التي يتنزّه عنها ، وربما لا يعرفها ، لانها من مقترحات المدنيَّة ولا أثر لها في العيشة الحقليَّة . .

هذه هي السعادة بعينها ، وما اقلَّ المتمتعين بها ، ولا سيما في المدن حيث تسود المطامع وتجول المخابث وتكثر الافتراءات وتتوالى الخيانات ، وحيث ترى الضمائر سابحة في بحر المنكرات والمُخزيات على غير مبالاة ، وحيث تنازُع البقاء معقودٌ غبارُهُ ، والحسد مشبوبةٌ نيرانُه والاثثار هائجٌ بركانُه ، والجورُ موطَّدةٌ اركانه ، وحيث لا يطيب للتاجر الا الخداع والغبن ، وللمستخدم الا الخيانة والمكر ، وللحاكم الا الحيف والضغط ، وللقاضي الا الرشوة والظلم ، وحيث لا يحلو للزوج الا ان يخرق حرمة الزواج ، وللشاب إلَّا ان يتمرَّغ في الحمآت ، ويسبح في بحر الشهوات ، وللفتاة إلا ان تذهب في ميدان التهتُّك كل مذهب خالعةً إزار الحياء ، مواريةً العفاف في نعش القِحة بعد ان نسجت له كفناً صفيقاً من الاستهتار .

فبئس الحياة المدنيّة ونعمَ العيشة البدويَّة ، فاذا راقك أن ينعم عيشك ويهنُؤ طعامُك وتطيب حياتك ويطول عمرك ، وأن تطوي اياءك بالشرف والنزاهة والإباء والاستقامة ، فعليك بالحياة الحقليَّة فهي منزَّهة عن شوائب المجتمع وخالية عن العيوب اللاصقة بنفوس اهل الحضَر . .

وما اجهل الذين ينظرون الى المحراث نظرة ازدراء ، حتى كأن الزراعة مهنة وضيعة زَريَّة وكأن الفلَّاح هو من نفاية الناس ورعاع القوم . ولا ريب ان الذين يذهبون هذا المذهب هم جديرون بالامتهان ، لانهم يبرهنون عن قصر نظر وضعف رأي في الحقائق ، فلا ينظرون الى الجوهر ، ولا الى النفع الحقيقي ، بل تُعمي بصائرهم الظواهر الخدَّاعة فيبنون حكمهم على الزخارف الختَّالة والمحاسن الغرَّارة ويعلقون بالأوهام. كيف لا وهم يزعمون ان المرء قائم شرفُهُ بمنصب رفيع يُسنداليه ، او برتبة سامية ينالها ، او بثروة طائلة يرثها من أبويه او يفوز بها بجدِّه ، او بحسن طالعه الىماهنالك من المزاعم التي لا تنطبق على الحقيقة . والذي نراه ويراهُ كل عاقل أن اجدر الناس بالاحترام من كان أنفعهم لبلاده . والزرَّاع هو في نظر الحكماء اجدى من السياسيّ والتاجر والمُثري ، لان يده العاملة تُنزل على البلاد الخيرات ، ومحراثُهُ الحديديّ الذي يعزق به قلب الارض يلقي بين يديها الكنوز الذهبية . فلولا الزراعة لشلَّت يدُ الصناعة وكسدت سوق التجارة . ولله درُّ مَن قال ، وهو من اكبر فلاسفة

هذا العصر « ان أداة الغِنى الحقيقيَّة هي المحراث ، والبلاد التي تعتمد على ذهبها بدون ان تعتني بحرث ارضها وزرعها و إنماء أغراسها، يتعذَّر عليها ان تُطعِم سُكَّانها» وقال احد علماء الفرنسيس من امدٍ غير بعيد « يجب على الحكومة ان تمدّ الفلاّحين بجميع ما لديها من الذرائع حتى يتسنَّى لهم ان يستخرجوا من ارضنا ما نحن في أَمسّ الحاجة اليه ، فنستغني عن استيراده من البلاد الاجنبية . ومامن واسطة انجع من هذه الواسطة لرفع منزلتنا المالية وتحسين حالتنا الاقتصادية ومقاومة اعدائنا الذين يجدّون ايَّ جدّ في ان ينقصوا من قدر اوراقنا النقدية حتى يزعزعوا دعائم ثروتنا ويُضعفوا ثقة الاغيار بنا » .

وان روكفلر ذلك المثري الاميركاني الشهير بعد ان ساح في اوربا بضعة اشهر عاد الى بلاده ' فسأله اصدقاؤه عما رأى في رحلته من المشاهد الجديرة بالعجَب والاعجاب , فقال على الفور « اناعظم مشهد رأته عيني هو رؤيتي القرويّين الفرنسويين يعملون من الشفَق الى الغَسق بجدّ لا يعرف الملل حتى يصلحوا اراضيهم ويُرَمّموا منازلهم التي خربتها الحرب الكونيَّة . ولا جرم ان هذا العزم المعروف به الشعب الفرنساوي هو الذي جعل فرنسا في المقام الذي نراها فيه » .

فلو زار روكفلر او غيره من السُيَّاح هذه البلاد وتفقَّد بيوتها التي لا تزال حتى الان خَرِبة ، ورأى حقولها الجرداء ، واراضيها الجلحاء ، وانقاضها البالية ، واطلالها الباكية، ودِمَنها الدامية ، لرثى لحالتنا ، ورقّ لجمودنا وخمولنا ، وعاد الى وطنهوفي نفسه اسوأ أثر . فاين الصبر الذي عُرف به الشعب اللبناني ، واين الهمة التي رافقت آباءنا واجدادنا حتى نقروا الصخور ، وحفروا الجبال ، وجعلوا من تلك الاراضي الصلدة حقولاً خصيبة ' ومن تلك الآكام الغامرة قرى عامرة ' ومن تلك المستنقعات حدائق غنَّاء . فكأنَّ السواعد القويَّة في وطننا العزيز قد اعتراها الشَّلَل حتى تركت الشبيبةُ ارزاقها بوارًا ' ونزحت عن هذه الديار الى المهاجر حيث تذوق المرائر ' وهنا الضربة القاضية والطامَّة الكبرى . .

أَلا التفاتةً الى هذه البلاد المنكودة ' فان الخراب يتهددها من كل جانب . أوَ ما كفاها ما قاسته من البلايا الفادحات في تلك الحرب الظالمة القاسية حتى تنكأوا

اليوم قُرحتها بجلائكم عنها . . تأملوا ايها الشبّان الاحبّاء بسوء مصيركم وأقلعوا عن مهاجرة اراضيكم كما كان شأنكم قبل الحرب . واحرثوا بقاعكم حتى تعود الى حالها الاولى ' فتكفيكم مؤونة الهجرة المُرَّة ' والا جنيتم عليها وعلى نفوسكم جناية لا يغفرها لكم حفدتكم . وانتم ايها الاغنياء ساعدوا الزرّاعين على إحياء أملاككم وأنجدوهم بالمال واعطفوا عليهم حتى تُحيوا بقيَّة الأَمل الضئيلة الباقية في صدورهم ' فيبقوا من حولكم يعملون في سبيل مصلحتهم ومصلحتكم معاً . فانتم لا تستغنون عنهم وهم لا يستغنون عنكم ' والنجاحُ مضمون بالتضافر والتناصر ' والفشلُ واقع مع التواكل والتخاذل . وما اسعدَ الزرّاع الذي يُعَوّل على زرعه وضرعهِ ' ويعتمد في معاشه على المولى الرزّاق ثم على عرق جبينه ومتانة ساعده ونضارة عافيته ' ولا يتّكل الا على رأس معوله ونفاذ محراثه وقوّة فدّانه .

الشفقة البشرية

اشرفُ عاطفة تنبت في فؤاد الانسان أن يشفق على ابناء جنسه الذين عضّهم الدهر بنابه وحكّم سيفه الماضي في رقابهم ' ولا سلاح لهم الا الصبر على مقاساة المحنة وهيهات يكونون من الصابرين ' وهم يتقلبون على احرّ من الجمر وأَحدّ من شوك القتاد . فاذا لم تمسّ الرحمة قلوب اخوانهم في البشرية باتوا يصعدون الزفرات ويُذرفون العبرات ' وعيونهم شاخصةٌ الى السماء تلتمس منها فرجاً ' وتبتغي سلواناً . فما اجملَ الشفقة وما احمدَ مساعيها ' وما اغزرَ منافعها واعذب مجاريها ' فانها تُعرب عما في الصدر من مكارم الاخلاق ورقة الشعور ' وعما في النفس من التجرُّد والصبر والنشاط ' وبُعد الهمّة وكمال المروءة والغيرة . ولذلك انزلوها من الفضائل بمنزلة الواسطة من العقد ' وعدُّوها بين المحاسن كالجوهر الفرد . كيف لا وهي الدرّة اليتيمة التي لها في اندية الانسانية ارفع مقام ' والوردة الذكية التي تأرّجت المجالس بشذاها ورُوِّحت الصدور

بطيب ريّاها ، حتى كانت لجراح المنكوبين مرهماً ، ولقروح المصابين بلسماً ، وفي حماها لقي المعدمون ملاذاً والاعلّاء ملجأً والمنكوبون عماداً ، وفي مساكنها ربي اليتامى واللقطاء ، وفي ساحتها ابصر العميان نور العزاء ، وفي مستشفياتها صادف المسلولون فرجاً ، والموبؤون شفقةً ، والمطعونون راحةً ، والمقعدون أنساً ، والحزانى تعزيةً . فهي اكبر مُعين على خطوب الزمان ، واقوى نصير على الكوارث والحدثان ، واصفى مورد لابناء العسر ، واعذب منهل لأصحاب البلاء . ومن مزاياها انها لاتنزل صدراً خشنت عواطفه ولؤمت طباعه ، ولا تأوي الى قلب خبثت طويّته وسفلت خلاله ، ولا تمازج خلقاً شرساً ، ولاتألف الدناءة والحسد والطمع والبخل ، ولاتلامس نفساً اعماها الاستئثار ودبّ بها الحقد ، وتورّطت في الخيانة والمكر ، ومالت الى التعنيف والظلم ، ولا تؤاخي العُجب والكبرياء ، ولاتصاحب عشّاق الترفّه والتنعم ولا تُرافق طُلّاب العظمة والمجد ورُوّاد المدح والجزاء الدنيوي . وانما هي نعمةٌ علويةٌ يُؤتيها الله من يتوخّى وجهه الكريم في أعماله ، ويُفيضها على النفوس التي أعرضت عن الدنيا طمعاً في مرضاته ، وفُطمت عن ملاذّها حرصاً على ثوابه ، وتجرّدت عن جميع الاهواء وتفرّغت للمبرّات والحسنات ، ولم يكن لها من مقصد سوى أن تدّخر الصّالحات ليوم المعاد .

أجل ما من شيء أدلّ على كمال المرء ورسوخ فضيلة الرحمة في فؤاده مثل ان يحنو على من تربطهُ بهم روابط الانسانية ، ممايمثّل للعيون ما انطوى عليه لبّه الشفيق من الشواعر الرقيقة ، وتجافيهِ عن الاخلاق الحيوانيّة التي لا تعرف للعطف مسلكاً ولا للبرّ منهاجاً . واي امرىءٍ اعظم فضلاً من الذي يتجرّد لمؤاساة اخيه المنكوب تخفيفاً لبلاياه وتسكيناً لآلامه المبرّحة ، حتى انه لا يبالي بما يقاسيه في هذه السبيل من المشقّات النّاصبة ، ولا يلتفت الى دَعته وراحته ، ولا يُشفق على مقلتيه من طول السهاد ، ولا على قدميه من شدّة العناء ، ولا على نفسه ان يسومها جهد البلاء ، وانما يطيب له ان يُجهِد جسده ليُريح غيره ، وان يَضيم نفسه رغبةً في ان يفرّج الغمّ عن المتضايقين من اخوانه ، وأن يخفّف الألم عن الاعلّاء من ابناء نوعه

على ان الشفقة الطبيعيّة بالغاً ما بلغت لا يكون لها ما للشفقة المجرّدة من سموّ

المنزلة وشدَّة التأثير في القلوب ، اذ يندفع صاحبُها بعوامل فطريّة تكاد تكون قَسريَّة أي اضطرارية ، وذلك كما لو اقدمت الأمُّ على تمريض ولدها المصاب بعلَّة وبائية وبيلة ، فان الحنوّ الوالدي يتغلَّب اذ ذاك على ارادتها ، فيدفعها الى تحمُّل جميع المكاره والتعرُّض لأَشدّ المخاطر ، حرصاً على حياة ابنها الذي هو بضعة من جسمها ، وفلذة من كبدها وقطعة من روحها. ولهذا السبب لايرى الناس بعين العجب والدهش ماتعانيه الأُمَّهات من الأنصاب المذيبة في خدمة بنيهنَّ ومعالجة السِقام منهم ، وانما يتعجَّبون اذا قصَّرنَ في هذا الواجب الطبيعيّ ويرمونهنَّ بسهام الملامة الحادَّة .

والشفقةُ البشرية لاتَعدَمُ في كل بلد جنوداً بُسلاء ، يرفعون منارها ، ويحملون لواءها ، ويخوضون غمارها . واقصد اذا شئت أحد المستشفيات الحافل ببضع مئات من الموبوئين والمشوَّهين بعاهات عديدة ، مما تتقزَّز عن منظره النفوس ، وتشمئز من دمامته العيون ، فهناك تتجلَّى لك ملائكة المحبة ، مُلقية عليك دروساً كبيرة لا تتلقَّنها على غير أيديهنَّ . تراهنَّ واقفاتٍ الى جانب الموبوء يغسلنَ جراحه التي يسيل منها الصديد ، ولا تفارق الابتسامة ثغورهنَّ ، ولا تمحي البشاشة من صفحات وجوههنَّ ، حتى كأنهنَّ إزاء حديقة غنّاء ، لا إزاء اجساد تنبعث منها الروائح الكريهة ، ولا تجاه قروح تتأفَّف منها النفس وينقبض الصدر. ومع ان تلك الممرّضات الفاضلات تسري الى اكثرهنَّ العدوى ، وأغلبُهنَّ يموت في ربيع الحياة ، ومعما في خدمتهنَّ هذه من النصَب والضيم وقمع النفس وإفناء الذات ، فلا يزال عددهنَّ في نموّ مطَّرِد ، بحيث لا تغتال المنيَّة احداهنَّ حتى يحلّ غيرُها في محلّها بطيبة خاطر ، على حدّ مايقع للجنود في ساحة الهيجاء ، فكلما حصدت المدافع منهم صفّاً يخلفهم مَن يسدّ مسدَّهم. ولكن شتَّان ما بين هؤلاء وأُولئك ، فان ابن الحرب ربما اندفع مُكرهاً لا مُخيَّراً ، وغايتهُ أن يقتل اخاه وهي شرّ الغايات . وأمَّا بنات الرحمة فانهنَّ يتجنَّدنَ بهزَّة نفس ولا يقصدنَ الا مجد الله ، ولا همَّ لهنّ الا أن ينقذنَ المرضى من مخالب المنون ، أو ان يلطِّفنَ اوجاعهم ، ويسكِّنّ آلامهم ، عملاً بمفترض البشرية التي هي من اسمى الفضائل واجدرها بالمثوبة وأحراها بالاعجاب .

ولا جرم ان الذي يدفع أُولئك الوَرِعات الى ذلك المعترك الهائل ، المحفوف

بالمعاطب والمهالك ، انما هو امرٌ علويٌّ ، ليست الدنيا في شيء بالقياس اليه ، ونعني به الجزاء العظيم المعدّ في دار الخلد لمن يخدم اخوانه ، ولاسيما اذا كانوا من اهل البؤس والشقاء ، ويُمرّض مَن أُصيب منهم بالاوبئة القتّالة . ولا فرق بين مَن يهرق دمهُ على مذبح الاستشهاد ، ومَن يُذيب جسده ويُذوي زهرة صباه في ميدان الجهاد . بل ان الشهداء انما يتجرّعون كأس العذاب المُرَّة مرة واحدة ، وأما تلك المجاهدات فانهنَّ يقاسين المكاره كل يوم مرارًا ، حتى ان حياتهنَّ هي ولا ريب سلسلة من المرائر ، بل استشهادات متتاليات .

وحسبُك أن تتعهَّد مستشفيات الأوبئة وتُلقي نظرة على البرص والمسلولين والمطعونين والمجدورين ، والمصابين بالهيضة وحمَّى التيفوس ، وغيرهم من الممنوين بالامراض الوبائيَّة ، حتى تعرف فضل أُولئك البطَلات الباسلات اللواتي يُنسِين العليل آلامه ، بطلاقة وجوههنَّ ، وابتسامات ثغورهنَّ ، الناطقة بما هنَّ عليه من مزيد الارتياح الى قضاء مُهمَّتهنَّ الشاقَّة .

ومن ثم أفما يحقُّ للانسانيَّة وكل من يحنو على المنكوبين من بنيها ان يتباهوا بأُولئك الجنود الابطال ، الذين يتطوَّعون في خدمة الموبوئين المتجسِّمة فيهم الشقاوة البشرية ، وهم لا يرونَ لهم موئلًا يلتجئون اليه غير حمى الرحمة . وكم من ذي مروءة يُقدم على المخاطر قياماً بواجبات النخوة والرأفة ، فيعود المرضى المصابين بالأوبئة المُعدية ، وكثيرًا ما يذهب ضحية غيرته فيموت شهيد الواجب ، وما احلى الاستشهاد في هذه السبيل . كافأ الله هذه الفئة الفاضلة وأكثر من امثالها وابقاها خير قدوة للشفقة والرحمة ، واقوى عضدٍ لمن لا عضد له من ابناء البشرية . . .

هذا واذا كنا نحن لا نبلغ في ميدان الشفقة الى هذا الحد فلا اقلّ من ان نمدّ للمتضايقين يد المعونة حتى نفتح لهم ابواب الفرج وننقذهم من نيران العذاب . ولا يحسبنَّ احد ان اختلاف المذاهب او المواطن يمهّد له العذر في التغاضي عن مناصرتهم . فان الشفقة تقحم كل الحواجز وتخرق كل الحوائل ، فلا يقف في وجهها بعد المسافة ، ولا يصدُّها عن مجراها غرضٌ من الاغراض ، ولا حاجز من الحواجز ، وانما تسكب سحائبها على جميع اطراف المعمور حتى تُحيي بها النفوس الكئيبة ، والقلوب المكلومة ،

والصدور المتّقدة ' والجوانح المحترقة ، فلا يقرّ لها قرار ما لم تؤاسِ البائسين ' وترفع الاثقال الباهظة عن عواتق التعِبين .

واليوم مجالٌ واسع لاصحاب الشعور الرقيق للانطلاق في ميدان الشفقة لمساعدة اخوانهم الذين نُكبوا في هـذه البلاد فذهبوا ضحايا الفظاظة والقساوة ودُكّت منازلهم ونُهبت أموالهم ، ولم يبقَ منهم الا شيوخ يندبون الأطلال ، وارامل ينُحن على من فقدنَ من الرجال ، وثواكل يبكين على اولادهنّ ، وصغاراً يتفطّرون اسفاً على فجعهم في آبائهم ، وقد عضّهم الجوع وأذابهم الحزن ، وهم اليوم يستغيثون بالاسخياء الرُّحماء ، مستهيبينهم لمناصرتهم بما تسمح به نفوسهم الكريمة . فنستحثكم يا ابناء الاريحيَّة ان تُقبلوا على نجدتهم بما يكشف عنهم الغُمّة ويلطِّف البليّة ، واللهُ لا يُضيع لكم أجراً .

ولابدَّ لنا هنا من ان نُقبّح على بعض النساء قسوتهنّ على بعولهنّ يوم يُصابون بمرض مستكرهٍ ، او داء مُزمنٍ مُقعد ، فانهنَّ يُظهرنَ لهم من التبرُّم والتأفُّف ما يضاعف أوجاعهم ويُجهز على صبرهم . وكثيراً ما يَدعنَهم يتململون على فراش الألم منطلقاتٍ الى مجتمعات الأُنس ، غيرَ مُباليات بتقصيرهنّ في تمريضهم ، ولا حافلات بما يسمعنهُ من الملامة في تقاعدهنَّ عن خدمتهم وتخلُّفهنَّ عن مساعدتهم في محنتهم . ولا يلقينَ احداً في الطريق الاَّ يُصارحنهُ بهمّهنّ وشكواهنّ ونفاد صبرهنّ ، ويشرحنَ له ما هنَّ عليه من سوء الحال وضيق الصدر . افما تخجل هؤلاء النساء ان يتبرَّمنَ من مُكابدة بعض العناء في خدمة ازواجهنَّ الاعلاء ، او ما يخفنَ ان يبلوهنَّ الله يوماً بداء عضال ' ويحرمهنَّ كلَّ نصير وكلَّ مُوسٍ . اوَ ما يوبخهنَّ ضميرهنَّ على تفريطهنَّ في اقدس واجب . واكثرُ الناس انما يتزوَّجون على امل ان تُفرّج نساؤهم الغمَّ عنهم وتخفِّف عذابهم وتلطِّف الامهم في اسقامهم ، ولولا ذلك لاقلعَ اغلبُهم عن الزواج وأبوا أن يضعوا في اعناقهم هذا النير الثقيل .

وما عسى ان تكون حالُ هؤلاء النساء القاسيات القلوب يومَ يمثلنَ بين يدي القاضي العادل ويسمعنَ منه اقسى كلمات السخط على توانيهنَّ في خدمـة ازواجهنَّ السِقام ، وما يدور في خلدهنَّ اذا حضرنَ يوماً الى احد المستشفيات ورأينَ مئات من

الممرّضات المتطوّعات الى جانب أسِرَّة الموبوئين ، والبشرُ يتلألأ عـلى جبينهنَّ والابتسامة لا تفارق ثغورهنَّ . فأين المروءة ، واين الحنوّ ، واين الإخلاص ، واين الأمانة . أوَ فات هؤلاء السيّدات انهنَّ لو أُصِبنَ باعضل الأدواء وابعثها على النفور والاشمئزاز لا يتردَّد ازواجهنَّ عن أن يوفّروا لهنَّ جميع الأسباب التي تُريحهنَّ وتُعين على شفائهن . وكيف يكون موقفهنَّ أمامهم اذا أبرأهم الله من ضَناهم ، أم كيف تكون احوالهنَّ اذا اضنتهُنَّ احدى العلل الكريهة ، أوَ يجسرنَ يومئذٍ ان يطلبنَ منهم أقل مَدَد . ونحن نعرف غير واحدة من أمثال هؤلاء الزوجات ، اللواتي بلغ منهنَّ اللؤم الى ان يخذلنَ ازواجهنَّ في مرضهم المُقعِد ، مع انهم كانوا قبل انتيابه لهم من اسخى الرجال على نسائهم ، وأوفرهم عنايةً براحتهنَّ . ولكن « قُتِل الانسانُ ما أكفرَهُ »

وإنه ليُشجينا ان نرى القسوة مُخيِّمةً في قلوب بعض السادة الأغنياء ، حتى لقد يُعرضون عن خَدَمهم أيَّ إعراض ، يومَ تدهمهم علّة ، اوتُساورهم محنة . فينسون اذ ذاك ما لهم في جنبهم من الِخدم الكبيرة ، ويطوون كل حسناتهم ، وكثيراً ما يكون هؤلاء الخدم قد قضوا الشطر الاكبر من حياتهم في خدمة مواليهم ، وقد برهنوا في كل موقف وفي كل ساعة عن صدقٍ في العمل ونشاط اليه ، وحرصٍ شديد على مصالح مَن تقيّدوا بخدمتهم . أوَ يليق بأُولئك السادة أن يُهملوا شأن مستخدميهم ويغضوا الطرف عنهم في إبّان ضيقتهم ، أوَ يزكو بهم ان يخنقوا من صدورهم روح الأَمل ، وهم في آخر خريف حياتهم . وكيف يُقدِم غيرهم على خدمتهم ، متى رأى منهم هذه الجفوة ، لمن وقف عمرَه على السعي في سبيل منافعهم . فاذا كانوا لا يُطيقون ان يكون مستخدموهم العجزة في منازلهم فـلا أقلَّ من أن يُدخلوهم احد المستشفيات ، او يمدُّوهم بمبلغ من المال يُعينهم على التداوي . . هذا ما تقتضي به النخوة البشرية ، وما أندرَ بنيها ونصراءَها في هذه الايام .

وليُوجّه ، هؤلاء السادة القُساة ، انظارهم الكليلة الى البلاد المتمدِّنة ، حيث يتسابق الموالي في ميادين المكافآت ، فلا يقتصرون على انصاف مستخدميهم في اجورهم بل يزيدونها سنةً فسنةً تشجيعاً لهم ، وربما جعلوهم شركاءَهم في بيوتهم التجارية .

ومتى انتهوا الى العمر الذي يفتقرون فيه الى السكينة والدعة يُعفونهم من العمل ، ويُؤدُّون لهم جُعالةً راضية تضمن لهم ان يعيشوا هم وأهلهم بيُسر وسعة ما بقي من ايَّام حياتهم . واذا أُصيبوا في غضون الخدمة بضرر او عاهة ، او بلية او علّة وما اشبه ذلك ، حتى عجزوا عن الارتزاق ، كانوا من اسبق الناس الى مؤاساتهم وتعزيتهم مكافأةً لهم على خِدَمِهم السالفة الصادقة .

ألا حيَّا اللهُ ارباب الحميَّة والشفقة ، وحيَّا بلاداً تُنبت من اشباه هؤلاء الرجال العظام الرِقاق الشعور الكِبار النفوس ، واكثِرَ من امثالهم في هذه الربوع التي لا تزورها الشفقة الَّا لِماماً ، ولا يعرف اهلُها النَّصفة ما هي ، واذا عرفوها كان من أكرهِ الامور اليهم ان يستنُّوا بسُنَّتها ويتقيدوا بقيودها . ولذلك يندُر عندنا الخدَّام الأَوفياء والعاملون الأُمناء ، وهيهات ان نرى بين السيِّد والمَسُود صلةً متينة تُشرِكهما في المصلحة بحيث يُصيب احدهما ما يُصيب الآخر نفعاً كان أوضرًّا .

وكنا نتمنَّى لو يكون عندنا من العطف على إخواننا في الوطنية والانسانية ما عند أولئك القوم منه على العجماوات ، فنكون من اسعد الناس حظًّا وأرقِّهم شعورًا . وأيُّ امرئٍ في بلادهم ، مهما كان عليه من الغلاظة والفظاظة ، يجرؤ أن يُؤذي او يُعذِّب بهيماً ، وإن يكن البهيم أجنبَ حروناً . والحوذيُّون في هذه الديار اذا حرَنَ جواد عجلتهم يسلقونه بسياطهم الخشِنة ، واذا عجز عن أن يجرَّ المركبات الثقيلة برَّحوا به أيَّ تبريح ، وعنَّفوه كلَّ التعنيف ' ولا ينفكُّون يضربونه حتى يكشطوا جلدهُ او ينزعوا روحه من صدره . وكيف تأمل ان يكون لهؤلاء الأَجلاف الجُفاة ادنى رأفة بالناس ، وهم اغلظ كبداً واقسى قلباً من الخنَّاس .

فمتى نرى الشفقة ساريةً في عروقنا ' مُخيِّمةً بصدورنا ' راسخةً في قلوبنا ، متجلّية في عيوننا ' بادية على وجوهنا ، بحيث لا يقع نظرنا على يتيمٍ ذليل حتى تنهلّ العبرات من مآقينا ' ولا نبصر فقيرًا حتى نخفّ الى سدّ عوزهِ ، ولا نسمع صوت مستصرخٍ متألِّم حتى نسرع الى إنجاده وتخفيف كربه ' ولا يبلغنا خبر عن عليل مهجور حتى نبادر الى تمريضه او تلطيف آلامه ' ولا ينتهي الينا نبأٌ عن منكوبٍ ملهوفٍ حتى نمدّه بما ينفّس عنه الكربة ويفرج الغمّ . وأية فائدة من انسان لا يعين اخاه على بلاياه '

ولا يرقُّ له في رزاياه . وأشقى النـاس مَن يخذل الناس في المِحَن ' لأنهم يخذلونه ويشمتون به اذا توالت عليه الغِيَر، ويجعلونه عبرةً لمن اعتبر . والأُمة التي لا يكون فيهـا جيشٌ جرّار من المتطوّعين لتمريض الموبوئين ' واسعاف البائسين ' وإغاثة المتضايقين ' وإعانة العَجزة الرازحين ' وعيـالة المُقعَدين المفجوعين ' وخدمة المرضى المخذولين ' هي ولا ريب من أتعس الأُمم وأجدرها بالانقراض .

فلنغرس اذاً عواطف المروءة والرقَّة والحنان في قلوب صغارنا وأحداثنا ' حتى يتعلَّموا منذ طراءة سِنّهم ان يرفقوا بالضعيف ' ويحنُّوا على الفقير ' ويعطفوا على العجيّ ويحدبوا على السقيم ' ويعرفوا كيف ينصرون المظلوم ويرقُّون لنفثات المصدور ' وكيف يفرّجون الغمَّ عن المهمـوم ويخفِّفون الألم عن الموجوع ' وكيف يؤسُّون المرزوء ويُعزُّون المفجوع .

ولنا كلُّ الامل بأرباب اليسار في البلاد أن يُلقوا على العامَّة دروساً عمليَّـة يُلقِّنونهم بها مبادىءَ الشفقة والرحمة ' وذلك بأن يتفقَّدوا بأعيُنهم المياتم ودور العجَزة وملاجىء الفقراء ' موزِّعين عليهم الملابس التي خاطتها لهم عقائلهم بأيديهنَّ الندِيَّة . ولا بأس ان يُعيّنوا في السنة يوماً او اكثر يُقيمون لهم فيه المآدب في بيوتهم الحقيرة ' او يدعون بعضهم الى منازلهم أنفسهم لتناول الطعام على أخونتهم وموائدهم . فان الأشراف في البلدان المتمصِّرة يجرون على هذه الخطَّة الحميدة ' ولا يستنكفون من أن يؤَاكلوا المُعدِمين ' ويُجالسوا المُدقِعين ' ويُنادموا المُتربين ' وهم يحسبونهم اخواناً لهم وعالةً عليهم ' ويسرُّهم ان ينهضوا بهذا المفترض البشري المقدس ' وتطيب نفوسهم وتنشرح صدورهم ' وتنبسط قلوبهم ' وتقرُّ عيونهم ، يوم يُطربون هذه الطبقة التَّعِسة ، التي ليس بكثير على أرباب السعة في البلاد ان يُذيقوها لذَّة الحياة مرَّةً في العام، في حين انهم يترفَّهون ويتلذَّذون ويترفون ويتنعَّمون مراراً في اليوم ' ولا يحرمون نفوسهم شيئاً من اطايب الدنيا وملاذّها ومباهجها وزخارفها ' حتى كأنها خُلِقت لهم وخُلِقوا لها . واسعدُ الناس احَنُّهم على الفئة المتألِّمة واكثرهم إشفاقاً على مَن هم في حاجة الى الرحمة والشفقة ' واشقى الناس اقساهم قلباً واغلظهم كبداً ' وأنباهم عن الفقير عيناً وانفرُهم من الفجيع صدراً .

الاقتصاد

هو امتن اس رسخت عليه قواعد الفلاح واليُسر ، وآمن مرفأ لاذت به الحكماء فراراً من عواصف البؤس والعُسر ، وأضيَق دائرة انحصر فيها العقلاء فكانت لهم من اوسع منافذ الفرج ، وافسح مدارج الثراء ، بل هو الحد الاوسط الذي لا يقف عنده الا المجرَّبون ، ولا يجحدهُ الا المحنَّكون ، بل المزية الجميلة التي تقي صاحبها تبعات الاسراف والتقتير ، وتضمن له الراحة والسكينة ، وتُنيله باسباب السعد والهناء ، بل السور المنيع الذي لا تقحمه جيوش الفاقة ، ولا تخترقه نوائب الدهر

والاقتصاد فن يشتمل مثل سائر الفنون على أُصول مبنيَّة على طول التجربة والاختبار ، ومنطبقة على اصول الحكمة والسداد ، ولا بدّ لمن كان له كَلَف بالدعة والسَّعة في دنياه ان يرعاها بمزيد التدقيق والعناية . وقد افرد لهـا العلماء مجلَّدات ضخمة اشبعوا فيها الكلام على جميع انواع الاقتصاد ، وافاضوا في ذكر الاسباب التي تصون الانسانية من غوائل الاسراف ، واوضحوا المناهج التي تؤدي المرء الى ما يرمي اليه من الغنى واليسار حتى احاطوا بجميع اطراف هـذا الموضوع ، ولم يدعوا زيادة لمستزيد . وكنا نود ان نلخِص للقراء شيئاً مما كتبوه بهـذا الشأن توسيعاً لنطاق مداركهم الاقتصادية ، ولكن المقام اضيق من ان يستوعبه ، فارجأنا تفصيله الى وقت آخر اذ ينفسح لنا المجال لايراده على التتابع في مقالات متوالية . اما الان فاننا نجتزىء على ذكر فوائد الاقتصاد حثّاً للنفوس على اتباع مسالكه القويمة حتى لا تفوتها ثمراته اللذيذة وعواقبهُ الحلوة .

لا يخفى ان النفس مهما كانت عليه من القناعة لا تزال تائقة الى اطايب الحياة وملاذّها وزخارفها ومباهجها ، ولا تبرح طامحةً الى العز والمجد نازعةً الى الظهور بمظهر الكبراء ، والنزول في منازل العظماء . ولذلك لا تفتأ تتقاضى الانسان ما يُفيزها بجميع أمانيها ويُظفرها بكل اهوائها . فاذا انقاد الى مطاليبها الفضوليَّة ، واندفع الى قضاء رغائبها جرَّت عليه الويل والخراب ، وعرَّضته لبلايا الاسراف التي تشذّ

عن الاحصاء حتى تتقوّض مبـاني سعده ، وتُسَدّ ابواب فرجه ، وتتداعى اسوار عزّه وراحته . والاغبياء الجهّال هم الذين يطلقون لنفوسهم الأَعنَّة في ميدان الاهواء ، فلا يحسبون لدوائر الدهر حساباً . واما الحكماء المستبصرون فانهم يُقيّدونها بسلاسل الاعتدال تحرُّزًا من التهوُّر ، ويذهبون بهـا في مسالك الاقتصاد فرارًا من اضرار التبذير .

وحسب الاقتصاد فضلًا أنه يدفع القسم الافر من هموم الحياة ويخفّف عن صاحبه اثقال المعيشة بحيث لا يخشى ضيقاً ، ولا يخاف أزَمة . لانه يُعلّمه كيف يدّخر الذخائر ويُعدُّ العُدَد لوقت الشدة ، وكيف يُمسك نفسه عن الانطلاق في ميـدان التنعُّم والتأنُّق ، حتى اذا قصَرها على الضروريات ' وردَعها عن بذل الاموال في غير الحاجات ' كان بمأمن من العوز والفقر وتهيَّأ له ان يعيش عزيزًا سعيدًا لا يتذلَّل لغني ولا يلتجيء الى لئيم .

كيف لا وان المقتصد لا يتعدّى طاقته في المأكل والملبس ولا يبدّد امواله على موائد المقامرة والمسكرات ' ولا يبذلهـا في الوجوه المحظورة ' ولا في طرق التفنُّن في المعاش ' ولا يتشبَّه في ملاهيه بمن كان اوسع منه حالاً ' واوفر مالاً واعلى مقاماً ' وانما يقف عند حده مقتصرًا من النفقات على ما تسمح به حاله بدون توسّع وترفُّه .

ولعلّ بعض الغافلين لا يبالون ببعض دُريهمات يصرفونها في غير ضرورة زعمـاً منهم أنها لا تزيدهم غناء ولا بؤساً اذا حرصوا عليهـا او بذّروها . فلو تأمّلوا في المجموع الذي تنتهي اليه ، وهو جدير بالالتفات والاعتبار ' لعلموا انهم على ضلال مبين . فكم من فقير افضى به الاقتصاد الى اعلى مراتب الثروة ' وكم من موسر غفل عن تقلُّبات الدهر وحدثانه فبدّد باسرافه كل ما جمعه بعرق جبينه . وكم من متوسّط الحال اعتدل في نفقات معاشه حتى اجتمع لديه من المال ما أعانه على تعليم بنيه في المدارس الكبرى ، حيث انصبُّوا على اقتبـاس المعارف والآداب والفنون الرائعة فبرّزوا بها وفاقوا أَقرانهم الأغنياء ' واحرزوا فيما بعد مقاماً ادبيًّا رفيعاً ' وكانوا سبباً في إعلاء شأن اسرتهم ' والسموّ بها الى ذروة النباهة . وقلِّب نظرك في صفحات التاريخ ترَ عددًا غير قليل ممن سمَت بهم معارفهم من حضيض الذل والشقاء ' الى صهَوات

العز والسعد ، واغلبهم من المخترعين والمكتشفين والمصنّفين والمؤلفين الذين نبغوا في قومهم ونالوا شهرة عريضة ، وادّوا للانسانية خدماً جسيمة لا تزال هي لهذا العهد تتمتع بجلائل منافعها . فلو ان اباءهم ممن لا يقدرون قدر العلم لتوسّعوا في نفقاتهم الى حدٍ أعجزهم عن إنارة اذهان بنيهم بالمعارف حتى حرموا البشرية ما جنته من ثمرات ذكائهم واجتهادهم .

فيا حبذا أن يقتدي بهم رجال بلادنا الذين هم على اوسط او ادنى حال ، فانهم وان عجزوا عن ادخال بنيهم في المعاهد الكبرى لا يصعب عليهم مع الاعتدال في نفقاتهم ان يعلّموهم في المكاتب الصغرى ، حيث يتلقّون من العلوم ما يصدّ عنهم على الاقلّ مضارّ الجهالة . وكفى بذلك خيراً لهم ولبلادهم .

ان فن الاقتصاد مع عظم اهميته وكثرة فوائده نكاد لا نرى في هذه البلاد مَن يهتمّ بامره ، او يحفل بالسلوك على منهاجه ، او يُعنى بمطالعة كتبه وتدريسها لاسرته حتى لقد ينفق ارباب المنازل اموالهم على غير رويّة وتقدير ، فلا يعلمون ماذا يصرفون ، وما ينبغي ان ينقطعوا عنه الى ما هو اكثر مناسبةً لحالهم . فنحن ننصح لمثل هؤلاء ان يضعوا في جيبهم دفتراً يرقمون فيه كل ما يصرفونه ، ويُفردوا في المساء وقتاً من اوقات فراغهم يبحثون فيه عن الاشياء التي ابتاعوها حتى اذا كانوا في غنى عن بعضها تجنّبوا شراءه في المستقبل . وهكذا فلا يمرّ عليهم وقت وجيز حتى يعدلوا عن النفقات الفضولية الى الضرورية ويدّخروا لهم من الاموال ما يتكفّل بغبطتهم ورفاهية عيشهم مدى الحياة .

وافضلُ وسيلة الى تعديل النفقة الاشتراكُ في الشركات الاقتصادية ، فان اربابها سهّلوا مداخلها على جميع الطبقات حتى لا يُحرم احد فوائدها . وقد وضعوا لها قوانين تضمن للمشتركين الثبات في خطّتهم المعتدلة . فقد فرضوا مثلاً على كل من يتأخر عن تأدية ما عليه للشركة في حينه ان يدفع لها مبلغاً من المال قصاصاً له على تخلّفه في الدفع ، فان المشتركين اذا لم يكونوا على سعة اضطروا الى الإعراض عن النفقات الفضولية تخلّصاً من ذلك العقاب ، واذا كانوا من اصحاب الثروة كان الاشتراك امتن حاجز بينهم وبين الاسراف ، لأَنهم لو لم يدفعوا للشركة المبلغ الذي عليهم لكانوا

بذّروه بدون فائدة وذهب ضياعاً .

ولاجل زيادة الاحتياط والتحفظ ننصح للآباء كلما رُزقوا ولداً ان يختصّوه بسهم او اكثر من اسهم هذه الشركات ، فان المبلغ الذي يدفعونه عنه بدلاً من هذا السهم يكادون لا يشعرون به اذ يؤدّونه اقساطاً ، فضلاً عن كونه من ثمرات اقتصادهم ، فلا يبلغ ولدهم سنّ الرشد حتى يجتمع له عند الشركة مبلغ كافٍ لتعليمه فيعلّمونه بدون عناء وتقتير . اما اذا لم يتمسكوا بهذه الاسباب الاحتياطية فانهم يبدّدون ما يفضل عن نفقات معيشتهم على غير طائل حتى اذا كبر اولادهم قصرت يدهم عن تحمُّل نفقات تعليمهم ، فيتركونهم في عداد الجهلاء ويسحقونهم تحت انياب العسر والشقاء ، وهنا البلاء الاعظم والضرر الاكبر .

وغيرُ خافٍ ان في بلادنا عادات جمة نتخطى بها حدود الاقتصاد كالمبالغ الباهظة التي نصرفها في الاعراس على الولائم الانيقة والمرطّبات والتبغ والشموع والكحول على اختلاف انواعها ، والتي نبذلها على اطلاق الرصاص كلما عنّ لنا اطلاقه ، والتي نُنفقها على الرياش والاثاث وسائر مرفّهات الحياة ، كالاقبال على شراء الفاكهة الجديدة باغلى الاثمان ، والارتداء بالالبسة الحريرية الفاخرة ، ودفع اثوابنا العاديّة الى الخياطات ، وكاستخدام عدة غلمان او فتيات في منزلنا ، في حين ان حاجاتنا لا تستلزم اكثر من خادم او اثنين اذا مدّت ربة البيت يدها الى بعض الاشغال ، ولكن اغلب السيدات حتى المتوسّطات الحال يتقاعدنَ عن كل عمل توهُّماً ان ذلك يحطّ من قدرهنّ او يدلّ على بخلهنّ . ولذلك يعوّلنَ في جميع امورهنّ على الخدم والخادمات حتى يتفرّغنَ هنّ للمحادثات والزيارات ، وربما استنكفنَ من خدمة صغارهنّ وتدبير ادارة منزلهنّ بل ربما قتلنَ الاوقات متلاهياتٍ عن واجباتهن بما نُمسك القلم عن التصريح به خجلاً وحياءً . ولا يذهب عن البصائر ما ينجم من الاضرار الادبية والمادية عن تفويض الادارة والشؤون المنزلية الى اناس اجانب لا يُنتظَر منهم ان يصرفوا العناية التي تصرفها الامّهات نحو تهذيب بنيهنّ ، واحسانِ تدبير بيوتهنّ مهما كان مبلغهم من الاخلاص والنشاط والغيرة . زد على ذلك ان المزايا التي تستدعيها هذه المهمّة تفوت في الغالب هذه الطبقة الجاهلة . وبهذا القدر كفاية لمن كان في قلبه حنان على بنيه

وحرص على سعادتهم ٠

ولتعلم الامَّهات انهنّ احوج الى الاقتصاد من ازواجهنَّ ، لأَن عليهنَّ مدار الادارة المنزلية التي تستلزم من العناية والدراية والفطنــة ما لا تجهله الوالدات الحكيمات ٠ فليحترزنَ من التأنُّق في الملبس ومجاوزة حدودهنَّ فيه حتى يشددنَ على بعولهنَّ الخناق٠ وليعدلنَ عن الازياء التي تقتضي نفقات يعجز ازواجهن عن بذلها' حتى يبرهنَّ على ان العرق الذي يتصبَّب من جبينهم في سبيل الارتزاق هو مقدَّس عندهنَّ ،لا يحلّ اهراقه الا لمنفعة او حاجة بيتية لا غنى عنها ٠ فاذا سلكنَ هذه الطريقة القويمة صلحت احوالنا وذهبنا في ساحات الفلاح الى امد بعيد ، والا تبلَّغت بنــا علةُ الاسراف وزادتنا شقاءً على شقاء ٠

وأَحرِ بالنساء الموسرات ان يكنَّ في ذلك أُسوة فعَّالة لمن دونهنَّ حتى اذا اقلعنَ عن هذه العادة السيئة اشتغلن بما فيه نفع لهنَّ ولبلادهنّ ، وذلك على حدّ ماهو جارٍ عند النساء الراقيات اللواتي يجتهدنَ في تزيين نفوسهنّ قبــل تزيين اجسادهنّ حتى اصبح لهنّ في الاندية المدنيَّة أعطر ذكر واجلُّ مقام، وأَتينَ من الاعمال المبرورة ما جعلهنّ في مصاف الفضلاء والمحسنين على البشرية ٠ وهنّ اليوم اكبر عضد واقوى سَند لذوي البؤس والعاهات ، يكسونَ العراة من صنع ايديهنَّ ويُطعمنَ الجياع مما يقتصدنَهُ من نفقاتهنّ' ويُلطِّفن نوائب المنكوبين بما يوفرنَ من الدراهم التي يقطعنَ نفوسهنّ عن بذلها في غير ضرورياتهنَّ ٠

واما الاقتصاد في سائر الامور المنزليَّة فان الاختبار أهدى دليل الى طرائقه' ولا سيما اذا وضعت ربّة المنزل نصب عينيها ان المال الذي تُفنيه سُدى يمكنها لو حرصت عليه ان تؤسّس به لبنيها مستقبلاً سعيداً ٠ فلا تحتقرنَّ الخسارة الطفيفة التي تحصل لها من إيقاد عدة مصابيح، على حين انهـا في حاجة الى اشعال مصباح واحد ، ولا تستخفنَّ بفتات الخبز الذي يبدّدهُ صغارها على المائدة ولا بفضلات الطبخ التي تذهب بدون جدوى ، ولا تتهاوننَّ بمراعاة قاعدة الاعتدال في اصناف المطعم والاقتصاد في التأنق فيها على قدر ما تتحمَّله الحال ٠ فجميع ذلك وغيره من امثاله' وان يكن من الامور التافهة' فاذا رُوعي فيه وجه الاقتصاد يُخفِّف حمل النفقات على قرينها، بحيث يستطيع ان

يبذله في ما يكون أجدى لاسرته ، كأنْ يعلِّمَ بناته العلوم التي ترقي افكارهنّ او يضع اولاده في المدارس المشهورة بدلاً من المدارس الوسطى او يلقِّنهم الفنون الجميلة في احد المعاهد الاوربية كفن الهندسة ، او التصوير ، او الحقوق ، او الطب ، او الزراعة ، او غير ذلك مما يوسّع به دوائر سعدهم وفلاحهم .

فانهجوا ايها الآباء المناهج الاقتصادية في جميع احوال معاشكم تدّخروا لكم ما يُعينكم على نُوَب الزمان وآفاته ويساعدكم على التحصُّن من جيوش الشقاوة ، والتدرّع بما يقيكم سهام العوز والفقر ، وتفتحوا لبنيكم ابواب الغبطة واليسر ، وتُقصوهم عن مهاوي التبذير الذي لا يُعقب الا الاسف ولا يورث غير الخسران والحرمان . ومتى أَلِف جميع افراد الأُمة عادة الاقتصاد ، وساروا على سبله بعناية وتحفُّظ ، بلغوا ابعد مبالغ النجاح ، واستخرجوا لهم من معدنه اثمن الكنوز . وكفى بالأُمة الافرنسية المعتدلة في نفقاتها اوضح بيّنة للاقتناع بمنافع هذا الفن ، فانها لم تصل الى اقصى حدود الثراء والسعة الا عن طريق الاعتدال في نفقاتها ، وهي الآن من اغنى الشعوب واكثرها اقتصادًا واوفرها مالاً .

الاسراف

ما من امرئٍ رُزِقَ نصيباً من الحكمة واختبر صروف الدهر وتقلُّباته ، وجرّب اخلاق الناس وعرف الصعوبات التي يعانيها المرء في جمع الاموال ، الّا لزم جانب الاقتصاد في نفقاته ، فلا يصرف الأَموال الا عند الضرورة او في الوجوه المحمودة ، خوفاً من ان تقصر يده عنها لدى مسيس الحاجة اليها ، فيبيت اذا نابته محنة على أسوإ حال ، ويُصبح بين مخالب النوائب مستسلماً للجزع واليأس ، لا يصادف اذا استصرخ نصيرًا ، ولا يرى اذا استنجد مجيرًا ، اذ كان على حالة كان يُمكنه لولا إسرافه ان يحيا معها بهناء ، ويعيش بأمن من كل شدّة ، فأذنب الى نفسه ذنباً جسيماً لا يستأهل معه

الشفقة والالتفات ، وكان عليه ، لو كان من العقلاء ، ان يدّخر له ذخراً يقيه بلايا الزمان كما تفعل الحكماء ، فتغافل عن ذلك اطاعةً لنفسه الميَّالة الى الملاهي ، فتجاوز الحدود ، وخطئ خطأً لا ينفع معه الندم ولا يُعقبه الا الحرمان . وأية حالة اتعس من هذه الحالة ، أم أية مصيبةٍ اعظم من ان يفتقر المرء الى غـيره في سدّ ضرورياته وقضاء حاجات معيشته ، بعد ان كان في غنًى عن الاستعطاف وفي سعةٍ عن ذلّ الطلب والسؤَال . وأيُّ عار اقبح من ان ينكب الرجل عياله ويُعرّضهم للمهانة والفاقة ويُقلّبهم على مواقد الشقاء . وأيُّ شرٍّ اكبر من ان يحرم بنيه فوائد العلم ومنافع التهذيب اشباعاً لشهواته ، واتّباعاً لأهواء نفسه النهِمة الطمَّاعة ، فلاريب انه لايعرف مقدار هذا الذنب الا مَن شعر بنتائج الجهل ، ودرى بعواقب سوء التربية ، وشاهد العذاب الذي يقاسيه الهابطون من رابية الرخاء الى وهدة البؤس والعوز ، ونظر الى البلايا التي تنتاب المسرفين وأُسرهم ، وابصر القلاقل والهموم التي تلازم منازلهم وتشغل افكارهم .

ومن المحال ان يكون المرء على حظٍّ من العقل والدين وهو يرضى لنفسه ان تتلطَّخ بهذه الخِلّة الشنعاء التي تهدّ اركان المجتمع وتزرع الضغائن وتُفسد الاخلاق وتجعلها شَرِسةً لا تُطاق ، وتحمل على ارتكاب الدنايا والمنكرات ، وتُقعد عن الواجبات ، وتُفقد الراحة والسكينة ، وتُعدِم كل لذّة ، وتَحطّ من قدر صاحبها ، وتكبّله بقيود الذل ، وتجعل فؤاده اقسى من الصخر . أما العقل فانه يحظر على الانسان ان ينزل الضرر بنفسه ويُلقيها في هاوية الفقر والعُدْم ويجعلها غرضاً للمذمة والاستخفاف ، بل يأمره ان يحوطها كل الحياطة ويتذرَّع بجميع الوسائل التي تصون مقامه وتحفظ كرامته ، وتضمن راحته وتَقي سمعته العطِرة ، وتتكفَّل لشيخوخته بالرغد ونعومة البال . فاذا خالف حكم عقله كان ممن استعبدهم الهوى حتى بعثهم على خنق نفوسهم ، وايُّ ضلال اعظم من هذا الضلال ، بل أية عماية شرٌّ من هذه العماية . واما الدين فانه ينهي المرء عن ان يُوقع الضرر بغيره ولا سيما اذا كان من اسرته التي يتحتَّم عليه الجدّ في انجاحها وتوفير دواعي سعدها . فاذا بدَّد امواله يُسيء اليها ويكدّر صفاء عيشها ، ويُلهب في فؤادها نيران الاسى واللّهف ، ويسدّ في وجهها

ابواب الفرج ، ويضيق دائرة آمالها ويكون مع الدهر عوناً عليها . وأية قساوة اشدّ من ان يعامل الرجل عياله هذه المعاملة العنيفة ، التي ينفر منها كل مَن في قلبه اثر للرأفة والحنان .

وما تكون منزلة هذا المسرف عند اهله اذا ابصروه يهدم اركان سعدهم ، ويحرق بالهموم قلوبهم ، ويرميهم الى ساحات التجارب والعذاب . وما يكون موقعه في صدورهم اذا تحقَّقوا انه ذئب خاطف يفترس ثروتهم ، وعدوٌّ مبغضٌ ينغِّص عيشهم ويسجّس افكارهم ، وكيف يمكنهم ان يعاشروه او يحادثوه وهو اخوَنُ لهم من الدهر واقسى عليهم فؤاداً من الوحش الضاري ، ام كيف يُطيقون ان يخدموه ويمرّضوه وقد غفل عنهم في آونة اليسر ، وجعلهم اهدافاً لاشدّ بلايا العسر ، وكيف يسعهم ان يُؤاكلوه وهم كلما نظروا اليه انهملت من عيونهم العَبرات ، واذا كلّموه تتابعت من صدورهم الزفرات ، واذا ذكروه ذمُّوا اخلاقه السيئة وقبَّحوا افعاله الذميمة ، وربما خجلوا من ذكره ونفروا من صحبته وتقزَّزوا من رؤيته ، وَهل من مصيرٍ اسوأ من هذا المصير . ألا فامدد نظرك الى أُسرة نشأت على مهد النعمة والدلال وحفَّت بمواكب الترف واليسار ، وكانت على اوفى نصيبٍ من الثروة ، لا يقلق لها بال ولا يواثبها همٌّ ولا يعلق بنفسها شجَن ، تطوي ايامها بالانس والطرب ، وتبسم لها السعادة باسطةً امامها اجمل الآمال ، ويُحدِّثها المستقبل بأغزر موارد الهناء ، وأَعذب مناهل السعة والغناء ، ولها في العيون اسمى منزلة وفي الصدور اعلى مرتبة . ثم سوَّلت النفس لربّها او زعيمها ان يتطرَّف في نفقاته ويتمادى في تبذير امواله ، فكان يُسرفها تارةً في سُبل اهوائه وطوراً على موائد المقامرة واحياناً في وجوه تتبرأ منها الحكمة ويأباها الشرف ، حتى اصبح صفر اليدين فارغ الجيب ، يحفُّ حولَهُ بنوه الصغار وقد مضَّهم الجوع واجهدتهم الفاقة ، وليس لديه ما يدفع تضوُّرهم . وهل من أُسرة اتعس من أُسرة هذا الوالد المسرف ، الذي نغَّص عيشه وعيش اهله بإسرافه الفاحش ، حتى ندم على اضاعة امواله في تلك الطرق الذميمة . وكيف تكون حاله اذا وجَّه نظره الى مستقبلهم ورأى الدهر مكشِّراً لهم عن انيابه ، والشقاء فاتحاً مهواته ليقذفهم فيها ، والذلّ ضارباً خيامه في منزلهم ، والدنيا مكفهرَّة الجوّ في عيونهم . افما يتفتَّت فؤاده

لهفاً وأسفاً ويذوب صدره همًّا وغمًّا ، حتى يقضي بين الحسرات والتأوُّهات ، لاحياً يوماً زلَّت فيه قدمه من ذروة الاعتدال الى وهدة الاسراف ، ومن رابية العزّ الى وادي الهوان . فلو كان من المعتدلين في نفقاته لما تورّط هذا التورُّط وانتهى الى هذا المنقلب الرائع .

فليعتبر المسرفون اذا كانوا من اهل الاعتبار ، وليتَّعظ جميع الآباء بتبعات التبذير ، والحكيمُ مَن يجعل نفقته على قدر طاقته ، ويدّخر له ولبنيه ما يستعينون به على النوائب ، لئلَّا يصيبهم من فجائع الإسراف ما يجعلهم اردع عبرة وازجر موعظة .

التقتير

ما من شائبة ادلّ على الخرق وأجلَب للهم وأدعى الى المذمَّة والمهانة كأَنْ يُقتِّر المرء على نفسه او على عياله ، فان التقتير من خلال النفوس الوضيعة اللئيمة التي تأصّلَ فيها البخل وسهَّل عليها مقاساة المشقَّات والضيقات ، حرصاً على المال الذي اتخذته الهاً معبوداً ، وكلفاً بالدنيا التي اعتبرتها داراً خالدة حتى تمسَّكت بها تمسُّكاً صدَّها عن التمتُّع بخيراتها بل كفَّها عن سد حاجاتها . وطبيعيٌّ ان المرء انما يبذل مجهوده في حشد الاموال ليستعين بها على توفير دواعي سعده وهنائه وصدّ هجمات البؤس والشقاء عنه وعن عياله . فاذا كان عاقلًا لا يحرم نفسه مطاليبها العادلة ولا يمنعها ان تنفق في سبيل راحتها وتعزيزها كل ما يسمح به الشرع ويرخّص فيه العقل مما تستلزمه الحال ويستوجبه المقام ، علماً منه ان الدنيا انما خُلِقت للانسان حتى يستثمرها ويستخدمها في مصالحه ومنافع ابناء جنسه . فاذا ضنَّ على نفسه بمالٍ يُنفقه في تلك الوجوه المحمودة فقد ظلمها وبخسها حقَّها وحصرها في دائرة ضيِّقة لا ينال معها املًا ولا يُدرك بغية ، فيقضي العمر في الشدائد واللَّوعات والقلاقل والهموم ويُعاني من لواذع الذمّ ومُخجلات الذلّ ما لا يتحمَّله إلَّا اللئام الأدنياء النفوس . وما اشبهَ

المقتِّر بمَن كنز كنزًا ولم يدعهُ الحرص يمس شيئاً مما فيه ' فيكون حكمهُ مع عدم الانتفاع به حكمَ المعدِمِ البائس الذي يُقلِّب نظره في نفائس الدنيا ومباهجها واطايبها ويدهُ قاصرة عن تناولها والتمتُّع بها ، فيأسف على حرمانه اياها ، ويودّ لو لم يقع عليها بصرهُ فيكون انعم بالاً واقنع حالاً . ولا ريب ان اصحاب البؤس هم اسعد حظاً واعلى منزلةً وأسكن قلباً من المقتّرين الموسرين ' لخلوِ خزائنهم من الاموال التي تستدعي شديد التعهُّد والرعاية حذرًا من ان تقع عليها ايدي اللصوص ، زِد على ذلك ان الناس ترقُّ للبائسين وتنظر اليهم بلاحظة الحنـان اذا رأت عليهم اثواباً رثَّة او أبصرتهم في شظف من العيش . وأما الاغنياء الذين سلكوا مسلك التقتير فان الابصار نطاق عليهم ، تستخفّ بهم كلّما شاهدتهم في ملابس لاتوافق مقامهم ، والعقلاء يزدرون بهم ويلومونهم كلّما بلغهم شيءٌ عن بخلهم .

وقلّما يكون الرجل على سلامــة في عقله وصحّة في دينه وهو ينخرطُ في سلك اشحّاء النفوس الذين يؤذون نفوسهم حرصاً على الدينار ، ويتعرَّضون للمخاطر والعلل والعنـاء والعذاب ضنًّا بالدراهم ان يُنفقوها في الطرق التي تريحهم وتُسعدهم . فاذا دهمهم داءٌ تململوا على فراش الأَوجاع ، ولم تَجُد نفوسهم الشحيحة ببعض دراهم لشراء عقاقير او استدعاء طبيب يُعينهم على الشفاء ، فيذهبون فريسة التقتـير ويُخلِّفون اموالهم لمن بعدهم غنيمةً باردة . واذا سمعوا بنيهم يُعولون من الجوع والفاقة سدُّوا آذانهم قساوةً واغضوا عيونهم فظاظةً ، واذا طلبوا منهم شيئاً من الملابس بخلوا به عليهم ولا يبالون بما يلحقهم من الخزي والعار ، ولا يحتفلون بما يسمعونه من عبارات التنديد والطعن ، ولا بما يصيرون اليه من غضاضة القدر . واذا كانوا يشحُّون على بنيهم بما يُمسك رمقهم ويستر عراهم أَفيسخون بالنفقات الطائلة على تعليمهم . وما يكون نصيب هؤلاء الاولاد من الشقاء بعد ان يُحرموا الجلوس الى موائد العلم والتهذيب ، وما تكون منزلة والدهم عندهم ، بعد اذ رأوا منه هذا التقتير وتلك القسوة ، وما عساها ان تكون معاملتهم له اذا وقع يوماً في بلية او ساورتهُ محنة ، وما يكون مبلغ أسفهم اذا شبُّوا على الغباوة وقابلوا نفوسهم العمياء بنفوس ابناء وطنهم البصيرة . ومما يؤيّده الاختبار ان الاولاد اذا ضيَّق عليهم آباؤهم وهم صغار يصبحون من اكبر

المبذّرين عندما يستولون على اموال آبائهم ، فلا يلبثون ان يبددوا ما ورثوه بدون اكتراث ، حتى اذا فرغت ايديهم منه لعنوا والديهم الذين قتّروا عليهم في حياتهم تقتيرًا حبّب اليهم بعد وفاتهم التبذير والاسراف . واذا كان المقترون ينتهون الى هذا الحدّ من التضييق على أسرهم واقاربهم ، فهل يُرجى منهم للاجانب نفع، وهل يؤمل منهم ان يعملوا شيئاً مفيداً لبلادهم وللمجتمع . ومتى تعرّى المرء من اهله ولم ينفع ابناء وطنه نبذوه من مجالسهم وسلقوه بقوارص لسانهم ، حتى يعيش وحيدًا ذليلًا مهاناً ، لا نصير له في النوائب ولا ظهير في الكوارث . وهذا هو الموت الاحمر والشقاء بعينهِ .

على أن التقتير لا تقف بلاياه عند هذا الأَمد ، بل تتخطّاه الى أمدٍ ابعد خيرٌ للانسان ان يُدفن في الرمس من ان ينتهي اليه . ولا بأس من ان نوسّع دائرة الموضوع توسيعاً ربما حصل عنه ما نرجوه من الفوائد لمن ابتُلوا بهذه الشائبة الشّوهاء . ألا فليعلم الآباء أنهم بتقتيرهم على بنيهم يجعلونهم لصوصاً ، وبتضييقهم على نسائهم وفتياتهم يحملوهنّ على التبذّل والتهتّك والتهوُّر والاستهتار ، حتى يُصبحنَ من العواهر السواقط . وأية جريمة افظع من ان يُلجئ المرء اهله الى اللصوصية والفجور لشحّهِ عليهم ومُعاسرتهِ لهم ، ولو كان هذا الغنيُّ الاحمق قد راعى جانب الحكمة وسار على نهج الاقتصاد في نفقاته على عياله ، لكفى نفسه موُونة العار ، ووقى عائلتــه تلك الغوائل الجسيمة التي هي اعظم من ان يصبر عليها كلُّ مَن فيــه بقيّةٌ من الإباء والشرف ، وذرّةٌ من العقل والإحساس . أوَما كان الأَولى بهذا الوالد اللئيم الأَحمق ان يصون عرضه وسمعة أُسرته ببعض دُرَيهمات يُنفقها عليها حتى لا يضطرّها الى التلصُّص وخلع العذار . أوَما كان الاصلح لذلك الغنيّ الشحيح ان يتمتّع هو واهله بما اذّخره من الاموال ، بدلاً من ان يحبسهم ويحبس نفسه في حياته عنه ، حتى يرثوه بعد وفاته ويُبذّروه بدون مبالاة . ثم هم لا يترحمون عليه ولا يذكرونه بخير ، وربما فرحوا بمماته وشمتوا به واغرقوا في ذمّهِ كما كانوا في حياته يقبّحون عليه بخله وينتظرون الساعة التي يرحل فيها عنهم .

• ان التقتير لمن اشنع الخلال ، يُنزل بالمرء ما لا يُحصى من المضارّ ، ويَغلُّ يده ،

ويمنع نفسه عن الانتفاع بما يملكه ، ويُفقده الراحة والسكينة ، ويذهب بحلاوة عيشه ويحطّ من قدره ، ويولّد في صدره الخوف ويقطع عنه كل موارد الانس والبهجة . وما هو إلّا سليل الجهل والظلم والقساوة واللؤم . ومن ثمراته العار والفضيحة والعذاب والذلّ وإماتة الذكر . فننصح لكل من كان موصوماً به ان يقلعه من نفسه ، حرصاً على حياته ان تفتك بها جيوشُ الرزايا والمكاره ، وإشفاقاً على اهله ان يُقاسوا من اصناف العذاب ما لا يتّسع معه مجال الصبر . والعاقلُ من وقف عند النصيحة واتّعظ بالعِبَر .

المدنية العصرية

كل من فيه بقيّة من الغيرة الوطنيّة لا يتمالك عن ان يقف وقفة الآسف المتلهّف ازاء الانقلاب العظيم الذي طرأ على العادات والأخلاق في هذه الربوع التي قدّستها اقدام الأنبياء ، حتى لو نشرَ الله مَن طوتهم الرموس من اجدادنا الآباة الافاضل وعاينوا ما اصبحنا عليه من الزَيغان عن المراشد والانحراف عن الصراط القويم ، وما صرنا اليه من الإمعان في الأضاليل ، والإيغال في مجاهل التهتُّك والاستهتار ، لتنفّسوا الصُّعَداء وأنُّوا انين الثكالى وتفجّعوا تفجُّع الأيامى ، وآثروا ان يعودوا الى ظلمات اجداثهم على ان يحيوا بين اعقابٍ نصبوا للمال انصاباً يعبدونها وجعلوا للشهوات اصناماً يسجدون لها ، واعرضوا عن مبدعهم الأزلي وتجنّدوا للخنّاس الرجيم يتلقّون عنه الوساوس والترّهات والمبادىء السافلة ، ويُروّجون سِلَعَهُ الخلّابة بين قوم عُرفوا بنفوسهم السليمة وسرائرهم النقيّة .

فاين نحن من اولئك الآباء الانقياء الحكماء الذين عاشوا في حمى العفّة اضوعَ من زنابق الحقل عَرفاً . وبعد أن ارّجوا الآفاق برياً فضائلهم الفوّاحة وانفاس احاديثهم الذكيّة ماتوا على فراش النزاهة تندبهم الأنفة وترثيهم الحميّة ، وخلّفوا

من التذكارات الثمينة والآثار الرائعة ما ينطق بفضلهم ابدَ الدهر ، وبقي أخلافهم من بعدهم يتباهون بالتمدُّن العصري الذي نسجت ثوبَه البرّاق يدُ الخلاعة والضلالة حتى صار يخلب العيون بسحته اللمّاعة وطلائه الخـدّاع ، ولكنه يُذيب القلوب ويُدمي الابصار بما ينطوي عليه من المخابث والخبائث ، وما يجرُّه وراءه من اذيال العار وما يورث صاحبـه من الأذى والخسار . وإننا لنعجب للشبيبة كيف تتهافت على رداءٍ يروق مظهراً ويسوء مخبراً موثرةً إياه على ثوب الآباء القديم ذلك الثوب الذي سديتهُ الحشمة ، ولحمتهُ العفاف ، وحاشيته الأنفة والمروءة .

أجل كنا فيما سلف ، قبـل دخول المدنية العصرية الى بلادنا ، نرى الآداب الصحيحة متجلّية في اخلاقنا وعاداتنا وباديةً في احاديثنا وهيآتنا ، وساطعة من نظراتنا وحركاتنا ومتلألئة في ملابسنا وازيائنا ومتألّقة في مجالسنا وحفلاتنا ، بحيث كانت الأرجاء تتأرّج من ريّا رصانتنا ، والاقطار تتضوّع بشذا رزانتنا ، والعيون ترمقنا بالتكريم ، والألسنة تتحدث عنا بالاعجاب والتعظيم ، ناقلةً عنا اجمل المأثورات واشرف التذكارات . وكان لنا في القلوب ارفع المنازل واكرم المراتب ، لما كنا عليه من عفة اللسان ، ونزاهة الطويّة ، وسمو القصد ، وعزة النفس ، والترفُّع عن الدنايا ، واباءة الضيم ، والصدق في المعاملة ، الى غير ذلك من الحلى الرائعة ، والخصال الباهرة التي كانت تُلازم في الغالب الأكواخ وتطوف حول الحقول ، وتـنزل في النفوس الساذجة وتستقرّ في صدور القرويين ، حيث تجد لها تربة مخصبة ومغرساً صالحاً للنشوء والنماء ، لخلوّها من اشواك الفساد والطمع والاحتيال . فلما اشرقت في سمائنا شمس التمدن الحديث أفلَت تلك الصفات الزاهية الزاهرة ، وخبَت نجومها من الالباب حتى انقلبنا شرّ منقلب وصار بعضنا الى اسوإ مصير ، فاصبحت ديارنا محطاً للملَق والرثاء والخبث ، ومعدناً للمصانعة الخداعـة والمجاملة الخلّابة وشرَكاً للإغواء ، واحبولة لإفساد الاخلاق والإغراء ، بل لجة تضيع فيها جواهر شرفنا وكنوز أنفتنا ، ومهواة تذهب في اغوارها ينابيع ثروتنا ، بل صخرة تصدم تقدُّمنا وتسحق حريتنا ، وعاصفة تقلع اصول ادابنا ، وفاساً تقطع عروق ديانتنا واستقامتنا ، ووثاق يقيّـد اقدامنا وايدينا ، وحاكم غشوم يستعبد خواطرنا ويعبث براحتنا ، ويقلق ضمائرنا

ويسيطر على قلوبنا برضانا.

فاين تلك الفِطَر السليمة والطباع الكريمة والنفوس الأَبية والافئدة القوية الرشيدة، واين اولئك الشيوخ اصحاب الخبرة والحكمة والنخوة الذين كان يزين محافلهم الوقار ويجري على السنتهم الصدق، وتتمثَّل في حديثهم الغيرة وتقترن أعمالهم بالضبط والإحكام، وتسير امامهم المهابة اينما ساروا كأنها تيَّار يصدُّ الشبَّان الجهَّال عن ارتكاب المعاصي واجتراح المخازي. واين اولئك الحكماء الذين كانوا يُحمِلون المجتمعات بمحادثاتهم الادبية ونصائحهم الناجعة ويُعطِرون الأندية بنفحات شمائلهم، ويُحيون في قلوب الاحداث عواطف الحمية والبسالة والشمم، بما يَقصُّونه عليهم من الروايات الحماسيَّة والأَنباء المنشِّطة التي ترقّي اذهانهم وتُولِّد فيهم ميلًا الى المعالي والعز وشوقاً الى التحلّي بالكمالات البشرية.

واين اولئك الأطبَّاء الاجتماعيون الذين كانوا يُعالجون العلل الادبية المتفشِّية في الوطن ليجعلوه سليم البناء، نقيًّا من جراثيم الخلاعة والفساد، مُنزَّهاً عن مناقع اللآمة والدناءة، بعيداً عن مَهاوي الكفر مُترفِّعاً عن مهابط الذل. واين تلك الوالدات الصافيات السليقة الزاهيات الخلال، اللواتي لم يكن لهن شغلٌ عن تربية بنيهنَّ وإدارة منازلهنَّ وإتقان اعمالهنَّ، وكنَّ اذا فرغنَ من الاشغال البيتية يعمدنَ الى الحياكة او الخياطة او التطريز، وما اشبهها من الامور النافعة التي تُقصيهنَّ عن الملاهي والوساوس وهواجس السوء، وهنَّ مع ذلك ساهرات على اولادهنَّ يُراقبنَ حركات بناتهنَّ مراقبةً تضمن لهنَّ التصوُّن والتحرُّز من سموم الأهواء والوقوع في مكايد الخالعين لعذار الحياء. وأين تلك الأَوانس العفيفات ذوات الخدر والحجاب، اللواتي كان يُضرَب بتحصُّنهنَّ المثل، وكان العفاف متجسِّماً فيهنَّ ومتمثِّلًا في لحظاتهنَّ، فقد اصبح بعضهنَّ اليوم مضغةً في افواه الاوغاد وقنيصةً في اشراك السفلة. ولا ريب ان الذي ذهب بماء وجوهنَّ وجرَّهنَّ للتهتُّك والاستهتار انما هو التفريط في تأديبهنَّ وارخاء العنان لهنَّ في الاختلاط بعشراء السوء، ومطالعة الروايات الغراميَّة، وتهادي احاديث الصبابة، ورسائل الشوق والولاء، وحضور المراقص والمتنزَّهات والمشاهد المفسدة للآداب المشوِّهة للأَخلاق حتى هوينَ في اعمق وهدة من العار

والشقاء . فلو لبثنَ وراء الحجاب ، لا على المشارف والمنافذ ، لبقينَ على قدرهنَّ كاللآلىء اليتيمة في اصدافها وخففنَ عن البلاد تلك الأَوقار الفادحة التي أثقلت عاتقها خِزياً وملأَت آفاقها هواناً .

كان اجدادنا اذا عادوا من الحقول الى منازلهم مساءً لا يُحدّثون بنيهم الا الأحاديث التي تُنمي فيهم روح الحماسة والورع والمروءة والإباء ، فاذا تناولوا وإيّاهم طعام العشاء أحيوا سهراتهم في المذاكرات المفيدة والمسامرات المهذّبة للنفس المقوّمة للطبع ، وختموا نهارهم بما يُبيّض وجه ليلهم . اما اليوم فان شبّاننا المتحضّرين يطوون لياليهم في المطارحات الهياميّة ، والمنادمات الغزليّة ، والمباحثات المجونيـة ، وربما قضوها بين تمزيق أعراض وتلويث سمعات ، ومعاقرة بنت الحان ، وسماع غناء القيان ، اوفي دُور التمثيل الخلاعي حيث تُعرض الأشباح القَذِعة والصور البذيئة التي تُفسد الآداب ، وتخدِّر الضمائر وتهيّج الخواطر وتُثير الاهواء ، وتخنق العفاف وتُذوي الحياء ، فاذا تهوَّر الليل عادوا الى منازلهم وناموا على أسِرَّتهم الوثيرة بعيون قريرة ، كأَنهم لم يأتوا امرًا إدًّا يُقلق البال ، ولم يجترحوا منكرًا يجرُّ وراءه الأهوال .

كان الشاب في ذلك العهد اذا تردَّد في امتثال اوامر والديه يشعر في باطنه كأنه ارتكب احدى الفظائع ، فلا يلبث ان يعود اليهما ويترامى على اقدامهما يستغفرهما ذنبه . امّا اليوم فانه يعقّهما على غير مبالاة ويزدري بهما بكل جسارة ، وربما أَهانهما واغلظ معاملتهما وحدَتَهُ القِحة التي ليس بعدها قحة الى ان يضربهما في شيخوختهما ، غيرَ حذِرٍ من سخطهما الذي يُنزل عليه لعنات السماء ويحرمه بركات الارض .

كان العامل في تلك الايام الميمونة ينصح العمل ويُخلص الخدمة ، ناهضاً بما عليه من الواجبات بكل امانة ونشاط ، غيرَ مضيعٍ شيئاً من اوقات شغله المقدَّسة ، لاعتقاده أن هذه الاوقات ليست له بل لمولاه الذي استخدمه على ان يستقلّ بثمرات عمله في جعالةٍ يؤديها له . وكان اذا قصر في الخدمة اقلّ تقصير ، او اضاع شطرًا من وقته سدًى ، او لم يُحكم عمله ولم يتأنَّ فيه حتى يختلّ ، يلذعه ضميرُه بنخسه الحادّ مبكّتاً اياه على اخذه مالاً حراماً لا حقّ له فيه ، وحينئذٍ يُضطرّ إما ان يردّ لمولاه

المـال كأنه مسلوبٌ او مغصوب ، او يعوّضه منه بمضاعفة عمله والجدّ فيه والمضاء عليه. واما اليوم فان العَمَلة يُسرفون الجانب الأعظم من ساعات عملهم ولا يكترثون ، وربما تعلّلوا ان مواليهم هم من اليسر بحيث لا يُؤثّر فيهم مثل هذه الخسارة الطفيفة ، او أنهم لا يدفعون لهم اجرة توازي عناءهم وتعادل مهارتهم ، وقد فات هؤلاء العَمَلة أنهم بقبولهم هذه الاجرة طوعاً على غير اكراه تعيَّن عليهم أن يُحضوا العمل ويُحسنوه كأنهم يعملون لأنفسهم.

كانت النساء في ذلك العهد المبارك يلزمنَ جانب الاحتشام في ملابسهنّ وازيائهن واحاديثهنّ ، اعتبارَ أن المرأة يجمل بهـا أينما كانت أن تنشر اريج الطهر والاباء ، وتتقنّع بقناع الحياء حتى يكون لها حرمةٌ في القلوب. وكُنّ اذا اخللن أقلّ إخلال بالحشمة سواء كان في ازيائهنّ او في حركاتهنّ او في حـديثهنّ يخجلنَ ايَّ خجل ويعتبرنَ نفوسهنَّ كأنهنَّ جنينَ اكبر جناية. اما اليوم فلم يبقَ في الكُسى والأَزياء اقل فرق بين العقائل المُثريات والنساء الفقيرات البطِرات ، وبين السيدات الشريفات والخادمات الخفيفات الطائشات ، بل ربّما رأيتَ التصوُّن بأبهى مظاهره بين النبيلات الصميات ، والتهتُّك بأقبح هيآته بين الوضيعات اللئيمات.

كان الآباء من قبل لا يفسحون لبنيهم في مطالعة ما فيه اقلّ خطر على آدابهم واخلاقهم من الكتب الآسِنة والروايات الخبيثة العفِنة ، وكانوا يحظرون عليهم أن تطأ اقدامهم ساحات الملاهي والمجتمعات المضرّة ، وأن يحضروا المناظر التي تسمّ دمهم وتخنق الفضيلة في صدورهم ، وكانوا يمنعونهم من ملابسة قُرَناء السوء حتى يقوهم المعاثر. واما اليوم فان الفتَيات والأَوانس يصرفون اوقات الفراغ في تصفُّح الروايات المضِلّة والأَسفار الوبيئة ، ويشهدون المحافل الخلاعيَّة ، وآباؤهم متغاضون عنهم حتى كأنهم مرتاحون الى ما يعملون راضون عما يقرأون. وخلاصةُ الكلام أن الروح قد انقلب في هذا العصر عصر المفاسد ، ولا تزال الضمائر مع ذلك مطمئنَّة ايَّ اطمئنان ازاء تلك الفظائع التي تقشعرّ منها الابدان ، فيا للمصير الهائل والمنقلب المخيف..

على اننا كيفما قلّبنا الأبصار في هيآتنا الاجتماعية ومدنيَّتنا العصرية ، يبدو لنا من تحت ظواهرها الغرّارة كثيرٌ من الشوائب والمفاسد ، مما لم يكن له اثر في وطننا

على عهد اجدادنا الحكماء الأعفّاء. وكنا نودّ لو نبقى على خشونة جاهليّتنا ولا نفقد شيئاً من كنوزنا الادبيّة، ومحاسننا الفطريّة، واخلاقنا الحميدة، وعاداتنا السديدة، لأنه أيُّ نفع لنا من مدنيّة يعجبنا رواؤها الكذّاب وغشاؤها الخلّاب، ويُشجينا لُبابها المرّ وقلبها المدخول، وأية فائدة جنيناها من مُلابستنا لمن لابسناهم من سفلة الأعاجم معرضين عن كِرامهم، وكثيرٌ ما هُم، أوَيقوى احدنا، مهما بلغ من ذلاقة اللسان وقوّة البرهان، أن يُقنعنا بان اجدادنا لم يكونوا مع جهلهم المُطبِق اسعد منا حالاً واحسن مآلاً واهنأ عيشاً وارفع مقاماً. فلا كانت مدنيّةٌ التهتّكُ من ثمراتها المُرّة، والتطرّفُ من نتائجها الوخيمة، ولا كان علمٌ يُحبِّب الينا الرذيلة ويُنفِرنا من الفضيلة، ولا كان مالٌ يُعرّضنا لأجسم الاخطار ويُلبسنا ثوب الهوان ويَسِمنا بميسم العار.

ان المدنيّة العصرية برونقها الفتّان لأشبهُ شيءٍ بجُثّة نتِنة عليها كفنٌ قشيب انيق، فاذا كشفته عنها غضضتَ طرفك وزويتَ صدرك وسددتَ انفك، وادبرت عنها هرباً من خُبث رائحتها وسماجة هيئتها. ولا اخالك تعود اليها بعد أن تركت في فؤادك هذه التأثيرات المنفِّرة. وكأني بالعقلاء الذين احكمتهم التجارب حتى عرفوا من الأيام حلوها ومرّها، ينظرون الى مدنيّتنا الخدّاعة كما ينظرون الى المقاذر والمناتن، ويتأسّفون أشدّ التأسّف على ما فقدناه من تلك الكنوز الثمينة التي كانت لآبائنا اعظم ثروة، بها يُغالون ويُطاولون حتى الأُمم العريقة في الحضارة المستبحرة في المعارف المتبسِّطة في الفنون والاختراعات، ولم نعرف نحن قيمتها ولذلك اعتضنا عنها مدنيّةً مُبرقَشة اغترّت ابصارنا ببريقها الغرّار، فهويناها كما يهوى الشابّ الغرّ الفتاة المشوّهة المموّهة. ومع ذلك فلم نشعر بعدُ بما أنزلت على بلادنا من الصواعق القتّالة، وما جرّته علينا من المِحن الهائلة والفجائع القاسية، ولم نُفِق من سكرتنا التي كانت ولا تزال تلعب بعقولنا السريعة الانخداع، ولم ننتبه لآفاتها الجسيمة ومغبّاتها الوخيمة حتى كأنّ على بصائرنا وابصارنا من الغرور غشاوات فوق غشاوات. وكيف يُبصر المكافيفُ النور أم كيف يرى الغُواة العُماة فجر الحقائق الوضّاح

ومن مضارّ هذه المدنيّة الغرّارة أنها، فضلاً عن استئصالها من صدور شبّاننا

العفَّة وذهابها بجياء عقائلنا وفتياتنا ، لم تُبقِ في قلوبنا هيبةً للشيوخ ، ولا احتراماً للآباء ، ولا مكانةً للرؤساء ، ولا كرامةً لأصحاب الفضل . وتغلّب على طباعنا الفساد وسرى الى نيّاتنا سوء الظنون ، ودبّت في سرائرنا المخابث وثارت في ضلوعنا الأضغان ، ورخصت في عيوننا الارواح وكثرت حوادث الانتحار ، وظهرت علائم الدمار وأنذرَنا الدهر بالغوائل الموبقات والكوارث المُجحفات،حتى امسينا على شفير التعَس والبوار ، نُغذّي نفوسنا بالمكر وعقولنا بالغوايات ودخائلنا بالمفاسد وضمائرنا بالمطامع، ونُطعِم ألسنتنا الغشّ والبهتان ، فتدسّ السموم وتنفث الاراجيف وتقذف المطاعن وتضرم نيران الفتن ، وتولّد الحزازات والمشاحنات والمنَازعات . فتفاقمت الشرور ، وتضاعفت الجنايات ، وضاعت الثقة ، واضطرب الأمن ، وانفصمت عُرى الوئام ، ونشبت الثورات . وأيُّ فؤاد لا يتفتّت كمداً ولا يذوب لهفاً على هذا المآل الوبيل والانحطاط المُخجل والتأخّر المذلّل . وأيُّ امرىءٍ فيه مسكةٌ من العقل لايقبّح علينا هذه المعايب التي أُشرِبتْها نفوسُنا بعد مُخالطتنا لمن مال عن سواء السبيل من أولئك القوم الضُلّال ، الذين لاتجارة لهم في الدنياسوى نشر المبادىء الساقطة وترويج سِلَع الاهواء طمعاً بالمال الذي يستحلّون معهُ كل المخازي ، ويستصغرون افظع المنكرات وأهول المعاصي . وكان علينا ، لو كنا من المستبصرين ، ان ندع ماعندهم من الشوائب ونأخذ عنهم محاسنهم العديدة وحلاهم الجميلة ، ونضمّهُ الى ما لدينا من المناقب الفريدة التي ورثناها عن اجدادنا الحكماء . فلو فعلنا لألّفنا من المدنيّة الغربية النقيَّة مدنية شرقية لا غُبار عليها ولا مغمز فيها ، وكنا من ابعد الأمم مدًى في الكمالات البشرية ، وأرسخها قدماً في الآداب النادرة والفضائل الباهرة ، واشرفها اخلاقاً وأسماها مبادىءَ وسلائقَ ، واطيبها سرائر وأسلمها ضمائر ، وأكلفها بالمعالي واحرصها على نباهة الذكر ورفعة القدر . ولكننا ضللنا في التشبُّه والاقتداء فكان ضلالُنا وبالاً علينا وعلى ذرارينا من بعدنا .

ولا يسعنا ان نقف عند هذا الحدّ من الإجمال في هذا الموضوع الشاسع المجال . وإلّا أخللنا بأقدس الفروض ، وقصّرنا تقصيراً يربأُ بنا عنه ما نكنّهُ من الاخلاص لأُمتنا العزيزة والحرص على حسن سمعتها . ومتى سردنا للقرّاء ماعند أولئك الاعاجم

من حسناتٍ أعرضنا عنها وسيّآت أقبلنا عليهــا ، ثم بسطنا لهم ما دفنّاه من محاسننا وأبقيناه من مساوئنا ، ظهر خطأنا وشعرنا بغرورنا واسفنــا على سوء اختيارنا حتى تفشّى فينا من الأدواء والآفات ما يُعجز أمهر الاطبّاء ويُعيي احكم الحكماء .

أمّا محاسنهم التي يُغبَّطون عليها فأهمُّها ما ورد في مقالتنا التي عنوانها « اركان النجاح » فهناك يُدقِّقون في ما يعملون وفي ما يقولون تدقيقاً لا مزيد عليه لمستزيد ، ويتروَّون فيــه ويتأنّون حتى يأتي آية في الاحكام والإبداع . وهم حِراصٌ اشدّ الحرص على وقتهم الثمين فلا يُضيعون منه دقيقة واحدة . ويعرفون كيف يُروِّجون ثمارهم العقلية والأدبيّة كما يُروّجون غلالهم الطبيعية ومصنوعاتهم اليدوية . ولهم على شرف اوطانهم غيرة لا تُجارى وحميَّة لا تُبارى ، حتى لقــد يهرقون دماءهم في سبيل الدفاع عنها ولا يبالون ، ويبذلون اموالهم وأرواحهم في جنب تعزيزها وإعلاء شأنها ولا يشفقون . ومهما تنازعوا وتشاحنوا وتحزّبوا وتفرّقوا فانهم يكونون على العدوّ حزمةً واحدة اذا انزل ببلادهم شرّاً أو مسّ ذيل شرفها ، أو عرّض بها او تحامل على احد عظمائها الذين طوتهم الرموس ولو كانوا من غــير احزابهم . ويتنافسون في المعالي والمفاخر ، ويتسابقون في كل مضمار ، ولا اثر عندهم للحسد بل يباري احدهم زميله في إتقان مهنته ، وبهذه المنافسات يُفلحون . كذا فلتكن الوطنية وكذا فلتكن الشعوب . .

ومن مزاياهم الفريدة انهم يراعون في نفقاتهم الاقتصاد المبنيّ على الحكمة وحسن الادارة ، والمنزّه عن البخل الذميم والتقتير المضرّ . الّا أنهم يبذلون الاموال بكل سخاء وأريحية في وجوه البرّ وطرُق الإصلاح . ومــا أبرعهم في مناصرة المشاريع الخيرية وتعزيز هيآتهم الاجتماعية . ترى السيّدات هناك حتى الموسرات يقضينَ اوقات فراغهنّ في خياطة ملابس للفقراء العجزة وذوي العاهات ، يتبرّعنَ بها عليهم بطريقة سرّية لا يشعر بها إلّا الذين يهتمون بشؤونهم ويقومون بمعاشهم . واكثر الملاجئ والمياتم والمستشفيات والمستوصفات والمصحّات يُنفق عليهــا ذوو المهزّات والاريحيّات من فضلات ما يقتصدونه ، فيكفون حكوماتهم مؤونة الإنفاق عليها ويخفِّفون عن هذه الطبقة المُعسرةِ وطأة البلاء وعبء الشقاء .

ولهم حنكة غريبة في تأليف الشركات وترغيب قومهم على اختلاف طبقاتهم في شراء اسهمها . واكثرُ رساميلهـا من اموال العُمَّال الذين يدَّخرون كل يوم من جعائلهم مبلغاً زهيدًا يضعونه في المصارف الاقتصادية بفائدة طفيفة ' فلا تمرُّ عليهم سنوات حتى يربو مالهم ويصبحون في يُسر وسعة . والأمة الفرنسوية هي في طليعة الامم ثروةً وتموُّلاً من حيث مجموعها لا آحادها ، والفضل في هذه الثروة للاقتصاد والحكمة في توفير المال وإنمائه بالمُنشآت الكبيرة التي يُقدمون عليها بكل جرأة وثقة وطمأنينة . وكثيرًا ما ينتقل سهمُ الشركات عندهم بوجهِ الإرث من جيل الى جيل ' وما ذلك الا لرسوخ ثقتهم بعضهم ببعض . .

ومن مناقبهم الجديرة بالتأسي والاقتداء أنهم يسهرون على مصالحهم اشدّ السهر ' فيراقبون ادارات شؤونهم بكل اهتمام حتى لا يقع فيها ادنى اختلال ' ويتصفَّحون اعمالهم ويُدقِقون فيها ابلغ تدقيق تفادياً من السهو والخطإ . وللترتيب عندهم المقام الأول ، بحيث لا ترى اقلّ ارتباك او بلبلة في جميع أُمورهم ، ولكَ أن تتحقَّق ذلك من الخطط الهندسيّة التي تشاهدها في مُدنهم وشوارعهم ومعابدهم وطرقهم ، حتى لقد يهدمون الوفاً من المنازل بدون أدنى شفقة مراعاةً للفنّ الهندسي واحتفاظاً بالنظام .

وأمَّا ذوقُهم السليم في محاضرهم ومجتمعاتهم وأحاديثهم وحركاتهم فهو اكبر من أن يوصف . والفرنسيس هم من أشهر الشعوب في الكياسة والاناقة والمرونة والسلاسة والملاطفة والمجاملة ، ولذلك لا يطيب لملوك الاموال ، في العالَمين القديم والحديث ، الَّا ان يقضوا كل سنة شهرًا او شهرين في باريس عروس الدنيا الفتّانة بل مرآة القبّة الزرقاء على هذه الخضراء ، ومجتمع المحاسن الطبيعيّة والفنيّة والادبية واليدوية .

ومن مزاياهم الخطيرة التي غُرست في نفوسهم ، بعد انطلاقهم في ميدان الحرية والاستقلال الفكري ' وبعد تنشئتهم على المبادئ الديمقراطية وانحلالهم من أكبال الاوروتقراطيّة ، أنهم لاينامون على ضيم ولايطيقون الذلّ والعسف ، ولا قدرَ عندهم الَّا لدساتيرهم القوية وشرائعهم العادلة ، فاذا اتى القابضون على أَعنَّة شؤُونهم حتى ملوكهم ، أمرًا لاينطبق على الصواب ، او حكموا حكماً يخالف الانصاف ، أو

زاغوا عن طريق الرشاد ، قبّحوا عليهم ما انكروه فيهم وربما عيّروهم فيه وِجاهاً ، وكانت صحفهم الجريئة الحرّة في طليعتهم ، ترشق من جعَبها سهام التنديدوالانتقاد. وبهذا التحوُّط يسلمون من تهوُّرات رؤَسائهم وأحكامهم الاستبدادية ، ومظالمهم وغضاضاتهم وشوائبهم ، وينجون من مزالقهم وغفلاتهم وبوادر السنتهم . وكيف يتجرأُ الحاكم ، والشعبُ واقف له بالمرصاد ،ان ينزل بأحدٍ سوءًا ، أو يُبرم حكماً يميل به عن جادّة الحق والرشاد ، أو يأتي امراً يلحق ببلاده اقلّ أذى . وكم من عرشٍ تقوّضت اركانه لمظلمةٍ اقترفها ربُّه ، وكم من كرسيّ حُطِمت قوائمه تحت الجالس عليه لرشوةٍ تلطخ بها أو خيانةٍ اجترحها . ولا ريب ان المتسلِّطين على الشعوب اذا رأوا فيهم الجرأة والحرية والشمم والانتباه والمراقبة والاتحاد تهيَّبوا أيَّ تهيُّب وتحرَّزوا كل التحرُّز ، واذا ابصروا فيهم الجبن والاغضاء على الضيم وتشتُّت الكلمة احتكموا فيهم ما شاؤُوا بدون ادنى حذر .

واماَّ سيِّئاتهم التي سرت الينا عدواها عن طريق الملابسة والمعاشرة او عن طريق الاقتداء الاعمى والتشبُّه الذميم فأكثر من ان يستوعبها هذا المقال ' ونحن نقتصر هنا على ايراد بعضها تنبيها للخواطر الساهية والعيون الغافلة .

وأولُ ما نتناوله من تلك العيوب اندفاعُهم في ميدان التهتُّك اندفاعاً قوياً حتى اصبحوا معه الى البهيمية اقرب منهم الى البشرية . وهذه باريس التي هي مرآة الحضارة ومقياس الذوق ، بل جنّة الكرة الارضية ، قد تفنَّن فيها الغُواة في أساليب الخلاعة تفنُّنَ العبقريّين من هذه الأُمة النجيبة في ضروب الاختراع . حتى لا تكاد تلج ردهة من ردَهات التمثيل الشبَحيّ والنُّطقِيّ في تلك القاعدة الخلّابة حتى تنبو عينُك عن المشاهد المستقذرة ، التي تُذكي في الصدور أجيج الشهوات ' وتُميت من النفوس أرقّ العاطفات ، وحتى تمجّ أُذنك ما يقع فيها من الكلمات البذيئة والعبارات السفيهة الجامعة لكل ماخطّته يدُ الفُحش في مُعجم الفحش ، ومايفوه به غلمان الازقّة وعُبَّاد الاهواء الاوغاد . واذا أجلتَ النظر في بعض كتبهم السافلة ورواياتهم الساقطة تحسب نفسك كأنك في مِرحاض او في جبّانة . وقد قذفوا الى بلادنا من هذه السِلع الفاسدة ما تهافت شُبّاننا العُماة على شرائه حتى اضاعوا آدابهم ، وفقدوا حياءَهم ،

وخسروا عفافهم ، ولا يزالون مع ذلك عاكفين على تلك الموارد الوبيئة كأنها من اعذب الموارد ، وهم لو كانوا من المستبصرين لأيقنوا ان جميع الآفات التي نزلت ببلادنا ، وكل الملِمّات التي اصابتها وسحقت عظامها ، انما انقضّت علينا من ذلك الجوّ الوبيء .

اما الشائبة الثانية التي اخذناها عنهم فهي الوَلُوع بالأزياء ' حتى اصبح اكبر المُوسرين في بلادنا يئنُّون من المبالغ الباهظة التي يُنفقونها على ملابس عقائلهم وزِينهنّ التي تجاوزنَ فيها كل حدّ ' بحيث اوشكت ثروة البلاد ان تغور في تلك الفوهات الواسعة بل المهاوي العميقة . وان الشبّان المخنّثين ليسوا باقلّ هياماً بالتبرُّج من سيداتنا المتبهرجات، مما جرّأ الجنس اللطيف على ان يتمادى في غيّه ويُفرط في تزّينهِ . والله اعلم بما يكون من مصيرنا اذا دامت الحال على هذ المنوال . . .

واما الشائبة الثالثة التي سرت جرثومتُها القتّالة من تلك الربوع الى بلادنا وفتكت باجسامنا فتكها الهائل فهي المضاربة والمقامرة . فكم من بيت كانت السعادة ساطعة الأشعَّة في سمائه والثروة مخيّمة في فِنائه ' قد دُكّت جدارنهُ وتداعت اركانه لنزول ربّهِ او ربّته الى ميدان المضاربة وانكبابهما على موائد المقامرة . ونحن نعرف أُسَراً عديدة كان يُغبّطها كبارُ الناس على ما هي عليه من اليسر والسعة ' فأصبحت تُغبِّط اصغر الناس على حسن حالهم بالنسبة الى الحال المحزنة التي صارت اليها بعد تبذير اموالها في اسواق المضاربات وفي المقامر المتلفات . . .

هذا وقد بقي غير شوائب ليست بأقل اهمية من التي ذكرناها كالبراز والانتحار والاستهتار وما الى ذلك مما يضيق عنه نطاق هذه المقالة . فلنقف الآن عند هذا الحدّ ولعلّ في ما اوردناه ما ينقع الغلّة ويحث ابناء الوطن على الاعتبار والاستبصار ' ويُوقفهم على الخطإِ الجسيم الذي ارتكبوه بخلعهم ثوب آدابهم الشرقي الرائع وتردّيهم بالرداء الغربيّ الذي تبدو عليه مسحة من الرونق الخدّاع والبهاء الكذّاب ، وفي حواشيه وطيّاته مغامز ومفاسد لا تخفى على الحكيم البصير . ولذلك عرّضوا نفوسهم وبلادهم لنبال التعيير والامتهان ، وباتوا على شفير الفاقة والإفلاس . ولقد كثر لسوء الحظ عدد المتشبّهين في اولئك القوم من كلا الجنسين في هذه البلاد ، ولا سيما حيث

نشر التمدُّن بساطه وضرب العمران خيامهُ وشدَّ العلم اطنابهُ وبنى اليُسر قبـابهُ ، وربما سرى هذا الداء العضال في الدساكر والمزارع وتسرَّبت جراثيمه في الأرياف والأرباض بل في الأَخبئة والأَكواخ ، ولذلك لم يبقَ من سبيـل الى الاستهجان والتقبيح والقدح والتعيير ، فكلُّنا في المصيبة سواء .

فيا ايها الزعماء العقلاء والرؤساء الحكماء عطفاً على هذه الأمة التي تتوالى عليها النكبات من كل حدبٍ وصوبٍ ، ورفقاً ببلاد تنقضُّ على بنيها الصواعق من كل أفق وجوّ ، فلقد بلغ السيلُ الزُّبى وطمى طوفان الشقاء حتى غشّى الزُّبى ، فاذا لم تتداركوا وطنكم زاد خراباً على خراب وضيقاً على ضيق ، وتعذَّر على أمهر الأُساة ان يُبرئوه من دائه العَياء ، وعجز أحكم الحكماء عن ان يُنعشوه من عثرة البلاء .

وكنا نودّ لو يتَّسع لنا النطاق لاستيفاء مضارّ المدنيَّة الحديثة واستقصاء مفاسدها وآفاتها ، ردعاً للنفوس الكَلِفة بطلاوة الجديد عن ان يستورطوا في مخابثها ويتمرَّغوا في حمآت قبائحها ويُغربوا في ميدانهـا ويتوغَّلوا في مذاهبها . ولكننا اجترأنا الآن بهذا القدر اليسير ولعلّه كافٍ للتبصرة والتذكير . وسنعود الى تفصيل هذا المُجمل في مقالات مترادفة متناسقة نُشبع فيها الكلام على كل ما انتقل الينـا من المساوىء وأَلفناهُ من العادات الذميمة وتطبَّعنا به من الطباع اللئيمة ، بعد تهافُتنا على تلك المراتع وإقبالنا على تلك المناهل والمشارع ، حتى اذا شعرنا بوباءتهـا واطَّلعنا على وبالتها ووخامتها اقلعنا عنها وانقذنا البلاد من غوائلها ودواهيها ، ومسحنا عن جَبَهاتنا عارها وكفينا نفوسنا مخازيها ..

الانقياد الاعمى

ان هذه الآفة من أعرَق الآفات في ربوعنا اللبنانيَّة واجسمها ضررًا ، وأدلّها على ضُعف الارادة وقصر النظر ، وتقييد الحريَّـة وتسخير الضمير ، وأحراها بالذلّ والغضاضة والامتهان ، لأنها تُعرب عن خساسة في النفس وسفالة في الأخلاق ، وتُفصح عن توغُّل في ميـدان الجهالة والغباوة ، وتنبىء عن إغراق في الاستسلام

وإعراقٍ في الرقّ والعبوديّة .

واننا لنعجب من رجل أنفهُ في السماء ورأسهُ لا يُفيق من سكرة الخُيَلاء كيف يُسلِّم الى زعيمه زمامهُ كما يُسلِّم الفرس الى فارسه عنانهُ ، وهو مع ذلك يمشي مشيَة الطاووس ويتثنَّى تثنِّيَ الأغصان ، فكأنه يعدّ من المفاخر ان ينضوي الى وجيه ، او يتطوَّع لخدمة كبير ، واقفاً نفسه على تنفيذ مقاصدهِ ، حتى اذا ظفر مولاهُ ببغيتهِ تركهُ وشأنَهُ ، وهنا الشماتة والعار . .

وحسبُك ان تقِف ساعةً في ساحة الشهداء يومَ انتخاب الاعضاء للمجالس البلديّة او النيابية حتى ترى كيف يكون الانقياد الأَعمى والتطوُّع المدهش والاسترقاق المخزي . هناك تتزاحم الاقدام وتحتكُّ المناكب وتتسابق السيَّارات والعجلات مشحونةً بالصيَّادين المكَرة الدُّهاة والقنَّاصين الماهرين ، والى جوانبهم الطرائد التي اصطادوها والأسماك التي عَلِقت في شباكهم .

هناك تُبصر ما يُدمي العيون ويُقزز النفوس : اناساً يشترون الضمائر بالدنانير ، ويغرُّون الخواطر بالأصفر البرَّاق . هناك ترى الدَّلالين الختَّالين ، والعبيد المُستسلمين ، ومن حواليهم زعماء الأحزاب ورجالهم يموجون ويمورون عصاباتٍ مترقّبين سوانح الفُرص لاستهواء مندوبي الشعب ، وهم بين طَروبٍ جذلان تتلألأ على اسارير جَبهته اشعَّة الأَمل بالفوز وتلوح على محيَّاهُ امائر الغلَبة والانتصار ، وجَزُوعٍ فشِل يائس كاسف البال كلوح الوجه ، يتطاير شرَرُ الغضب من عينيه ، وتتقد جذوةُ الحقد فوق شفتيه ، وهو مع ذلك لا يزال يُشدِّد قواهُ الخائرة ويشحذ عزيمته النابية لعلَّهُ يفوز بأمنيَّتِهِ .

فما الذي حمل تلك الزارفات التي تتموَّج وتضطرب في الشوارع كأنها قطعةٌ من غاب على ان تغادر ربوعها الهادئة الأمينة ، وتُقبل على ساحات المدنية الفسيحة حتى تزيدها جلبةً على جلَبة ، وضوضاء على ضوضاء . وما الذي بعث المرشّحين نفوسهم للعضويّة النيابية على ان يجولوا تلك الجولات في ميدان السياسة ويكرُّوا تلك الكرَّات العدائية على اقرانهم المُزاحمين لهم ، وما الذي حدا المتجمهرين الى موالاة الاجتماعات وتجاذب الأحاديث وقطع العهود وتغليظ اليمين . ومـا الذي دعاهم الى تأليف

الاحزاب وجمع الأَشتات وضمّ القوى ، بل ايّ شيء يُريدون بهذه المعركة العنيفة والى ايّة غاية يرمون .

فاذا كانت مصلحة الوطن هي التي أنطقتهم بما نطقوا ، وأنهضتهم لما له نهضوا فللّهِ درّهُم ودرُّ الغرض الذي اجتمعوا له ، لان منصب النيابة من اجلّ المناصب وأوسعها مجالاً لخدمة الأمة واكثرها تمحيصاً للرجال واجلاها للقِيَم والأقدار ، ومتى كان المرء على اوفى قسط من المعارف والمدارك واعظم جانب من الخبرة والدهاء وجودة النظر لحرامٌ عليه ان يعتزل كرسي النيابة ويحرم امّتهُ ثمرات غيرته وحكمتهِ وذكائهِ . واما اذا كانت مصلحتهم الذاتية هي التي استنزلتهم الى الميدان فما كان أحراهم ألّا يخيطوا لنفوسهم هذا الثوب الغليظ من الخيانة والهوان .

وانه ليؤلمنا ايَّ إيلام أن ينقاد الشعب الى هؤلاء السادات انقياداً اعمى ويُعينهم على نيل بُغيتهم ويُمهِّد لهم السبيل الى الفوز بمنصب لم يُخلق لهم ولم يُخلقوا له ، وكان على زعماء الأمة وعقلائها ان يعقدوا الاجتماعات ويتبادلوا الآراء ، ويوالوا المفاوضات حتى يردعوا العامّة عن الاستنامة الى جميع الذين تتبرّأ منهم الوطنية حتى يحولوا بينهم وبين المنصب النيابيّ الشريف .

ونحن لا ننكر ان عُشّاق المناصب يشذّون عن الاحصاء في البلاد العريقة في المدنية ، واكثرُهم من اعيان أممهم ومن صُيّابة الشرف وأقطاب العلم والسياسة فيها ، ولكنّهم لا يقصدون بترشيح نفوسهم لمثل هذه المناصب السامية الا أن يخدموا بلادهم بكل ما أُوتوه من المواهب الفريدة والمناقب الحميدة ، لا أن يبيعوها في سوق النخاسة ويميلوا عليها كلما رأوا في الميل منفعةً لهم . .

ولنعُد الآن الى اولئك المتحزّبين الذين يخوضون الميدان السياسي ويجاهدون ذلك الجهاد الحماسي رغبةً في ان يُحرز زعيمُهم النصر ويفوز بما تطمح اليه نفسه ، أتراهم يعرفون ثقل المهمّة الملقاة على عواتقهم ، أوَيخطر في بالهم ان الموقف الذي هم فيه من أهيَب المواقف واحقِّها بالاهتمام ، أوَ يشعرون بخطورة تَبِعتِهم وعِظم مسؤوليّتهم امام الله والوطن والشعب الذي عهد اليهم ان يُمثِّلوه في انتخاب خير الرجال لخير المناصب ، أوَيفتكرون أن العيون ترصدهم من كل جانب لترىأَهم من المخلصين

ام من الخـائنين ، وأن النفوس نِطاقٌ عليهم ' والأعناق مشرئبَّة اليهم ، والقلوب ترفُّ فوق رؤوسهم ناظرة بنافد الصبر الى ساعة الاقتراع ونتيجته . أوَ يجهلون أن التاريخ فاتحٌ صفحاته الخالدة ليُسطِّر فيها آثار أمانتهم او خيانتهم ، وأن الأُمة التي استأمنتهم على ان يَمحضوها الخدمة ترعاهم بعين يقظى حتى اذا برُّوا في قولهم وانجزوا ماعاهدوها عليه نقشت مبرَّتهم على حبَّة فؤادها ، وإلّا استنزلت عليهم مساخط السماء ولعناتها . أوَ يرفعون ابصارهم في تلك الساعة الرهيبة الى العرش العلوي حتى يتهيَّبوا الموقف ويتحاشوا عن اتِّباع الهوى وينفروا من الانقياد العبديّ ويترفَّعوا عن الخسائس . أوَ ينظرون اذ ذاك الى ما يجول في خواطرهم ويتمثَّل في ضمائرهم من الحقائق ' فلا ينطقوا الا بما يوحيه اليهم الوجدان وتُمليه عليهم المصلحة الوطنية . فلو كانوا يفعلون ذلك لما رأينا من اكثرهم ما يُضحك ويُبكي مما يُلقي على الوطن أثقل عبء من العار ، ويؤول الى الخراب والبوار ، وكان مجلسنا النيـابيّ من أجمَع المجالس للرجال الأُمناء النزهاء ' وكان المفوَّض البلدي حافلًا بالأعضاء الصادقين الاوفياء

ولقد مررنا مرَّة في ساحة الشهداء وشهدنا المعركة الانتخابية ، وسمعنا بأُذنَينا ما آثرنا معه الصَّمَم ورأينا بمقلتنا ما حبَّب الينـا العمى . . رجالٌ أُميُّون لا حظَّ لهم من العلم والسياسة ولا نصيب من الخبرة والكياسة ، ولا إلمام بالواجبات الوطنية ، ولا هُم على شيء من الاخلاق الأبية والشمائل الشريفة ، واقفون في تلك الرَّحبة الفسيحة كأنهم تماثيل جامدة او جلاميد ناطقة ، فسألناهم عن السبب الذي يسوقهم الى ترشيح فلان لمنصب النيابة ، فكان بعضهم يقول : إن يدًا قوية تضطرني ان انحاز اليه ، « ولعلَّ تلك اليد هي الاصفر البرَّاق » وقال آخر : إنَّ له عليَّ ايادي بيضاء ' وهذه هي الساعة التي يُمكنني ان أُكافئه فيها . وقال غيره : إنه اقرب اليَّ في الجوار من سواه ' فضلًا عن كونه من مِلَّتي ومن مذهبي . وقال غيره : هو من حزبنا ومن اشدّ الاعداء لمن يُضمر لنا البغضاء ويجاهرنا بالعداء . الى غير ذلك من التعليلات الواهنة التي تبرهن على أن أُولئك المندوبين الذين سيُلقون القُرعة لم يفقهوا خطورة المهمَّـة التي انتدبتهم لها الأُمة .

ولقد كنَّا نُمهِّد لهذه الفئة العذر لو وقفت عندهذا الحدّ ' ولكنها تلطَّخت في دنايا

تغضّ دونها عيون الشرف والنزاهة والشمم ، وتأباها الوطنية الأبية والحمية القومية . كيف لا وقد كنتَ هنالك كأنك في سوق رائجة تُعرَض فيها الضمائر ويُباع الوطن وتُداس الغيرة والاستقامة ، وما اكثر البائعين والمُبتاعين . كنت ترى ميزاناً منصوباً في احدى كفّتيه المصلحةُ العمومية ، وفي الاخرى الذهب الوهّاج الذي كانت ترجح كفّته على تلك رَجحانَ الجَبَل على الحمَل . كنت ترى الامانة متسلّبةً مرتدية بثياب الحداد ، والخيانة تخطر رافعةً لواءها على رؤوس الأشهاد . كنت ترى الدُّهاة المكرة ينفخون في ابواب التعصُّب ناصبين حبائلهم ليصطادوا بها تلك النفوس العمياء . فما كان اقبحه منظرًا وأخزاه مشهدًا يُفتّت الاكباد ويصدع الالباب ، ويجرح الضمائر الحرّة والصدور النزيهة .

أجل لقد شبّت يومئذٍ بين الاحزاب حرب سياسية ضَروس اين منهـا حرب البسوس ، وذكّرتنا بحرب الوردتَين التي هزّت الخافقين . ولكن ليس في هذه الحرب السافلة من سلاح سوى مكرٍ مُستباح ، ولم يكن الظفرُ فيها الّا لأبذَل المرشّحين مالاً واكثرهم احتيالاً . وكنت تسمع في ذلك الفضـاء صُياحاً كاد يشقّ حجاب السماء ، حتى تظلّم خاطر الليل الهادئ من الضجيج ، وتألّم من بريق الدنانير الذي كان يمزّق ثوبه المخمليّ ويُفقده روعته وهيبته . ولعلّه خجل كل الخجل من الافعال الدنيئة التي أتاها الخائنون تحت جنحه ، وقد بدت لكل ذي عيـن كأنها وقعت والشمسُ في كبدها .

فأيُّ جُرم أَهوَل من أن يبيع المرء وطنه ببضعة دنانير ، وأية خيانة أفظَع من أن يُعرّض أُمته للتعيير والتقريع ، وأية جناية اكبر من أن يُضحّي بشرفه وشرف قومه على مذابح السفالة والطمع ، وأن يعصي خالقه ويخالف حكم ضميره تشيُّعاً لأَميرهِ ، وأية خلّة اقبح من ان يصعـد عشّاق المناصب وخُطّاب المجد على سلالم الرشوة والخـداع ومراقي التذلّل والتزلُّف ، وأيُّ عار أجسم من أن تنحني رؤوس أولئك السادة الصِيد أمام هؤلاء العبيد ، هارقينَ ماء وجوههم على أعتاب الحُكّام ، غير مبالين بما يجرّون وراءهم من أذيال الخزي ، ولا عابئين بما يُخلّفونه في صدور العقلاء من قبيح الأثر وفي بلادهم من سوء السمعة . وهل توازي اللذّة التي يذوقونها عند جلوسهم

على المقعد النيابيّ ما يسمعونه من كل فم، ويتصفَّحونه في كل جريدة من انهم ارتقو الى تلك الذروة على اكتاف الأَذناب، بعد أَن أعموا بصائرهم ببَدَرات الذهب، واطمعو أَبصارهم بالبرق الخُلَّب، وبعد إذ داووهم بحُقَن تُخدِر الضمائر وتُسكِن الخواطر. ألا قاتلَ الله المناصب ما أغرَّها للهائمين بالمراتب، ونزَّهنا عن مساوئ تُسوِد صفحات تاريخنا وتغضّ من اقدارنا عند اصحاب الأَنفة والنزاهة والعفاف.

على اننا لا نستغرب الجهدَ الذي أفرغه المرشَّحون استهواء للمندوبين واستمالةً للزُّعماء واستعطافاً للمتسلّطين، وانما نأنف من الذرائع التي تذرَّع بها بعضهم ادراكاً لغايته ونَيلاً لبُغيته. ولم نكن نعهد للرشوة من اثر في مثل هذه الترشيحات النيابيَّة والبلدية الا من ربع قرن، وقد لعبت اهمّ ادوارها في السنين الاخيرة. ولعلَّ الضغط من اصحاب الوجاهة والمكانة والسيادة على النفوس الضعيفة، هو الذي استدرجها الى التلطُّخ بما تلطَّخت به، فاصبح المرشَّح، الذي تُعارِضه السلطة وتحول دون أُمنيَّته، مضطرًّا الى تأليف حزبٍ له ينضمُّ تحت لوائه بما ينفحه به من الدنانير الغرَّارة، وما من شيء أصيَدُ لقلوب السفلة من المال، فانهم يؤثرونه على رضى الزعماء والوجهاء والعظماء والرؤساء، بل على نفوسهم وضمائرهم ووطنهم وأُمتهم. فتداركاً لهذا الخلل وفرارًا من هذا الداء الوبيل، نستهمّ الحكومة ان تُشرك الشعب كلَّه في الاقتراع حتى يألف الحرية والاستقلال، ولا يتلوَّث بالخسائس والمخازي التي تفسد سُمعته. لانه مهما تدفَّقت ثروة المرشَّح وتناهى كرمه يعجز عن ان يستميل اليه بماله أُلوفاً في أُلوف من ابناء ولايته، وانما يسهل عليه ان يستدرج بنقوده مئة اومئتين من المندوبين كما هي الحال في ايامنا هذه. ولو كانت الأَموال التي تُبذل في هذه السبيل تذهب من خزانة المرشَّح لهانت البلية، ولكنه لايلبث ان يمتصَّ دم الشعب بطرق جائرة وحيلٍ مستغربة ودهاء مدهش، حتى يضمّ الى ما أنفقه في تلك السبيل اكداساً من المال، وهذا على ما نرجّح من ادعى الدواعي الى التهافت على المناصب. فعسى ان يُقلع اعيانُنا واغنياؤنا عن هذا المورد الذي لا يخلو احياناً من المرائر والمكاره، وعسى ان ينشأَ ابناؤنا على الاستقلال الفكريّ، والترفُّع عن الدنايا، وإيثار المصلحة العمومية على كل مصلحة، حتى نرفع عن ظهر الأُمة أوقارًا ثقيلة رزحت تحتها وكادت تسحقها.

المداهنة

من أخبث الأدواء الاجتماعية وأجراها على الالسنة وابعدها انتشارًا أن يُخالف المرء حكم ضميره في حديثه ومقاله . ولا يخفى ما في ذلك من المكر واللوم ، لان صاحب هذه النقيصة لا يرى له ذريعة يستميل بها القلوب اليه الّا ما ينسجه من عبارات الملَق والمدالسة ، فينثر على عشيرهِ أزاهر الثناء على مزيّة لا يظنّها فيه ، حتى اذا تنشّى ريّاها بطيبة خاطر زاده اطراءً الى ان يُسكر فؤاده بسُلافة المدح الكاذب ، فيشغله عن اصلاح نفسه بما يُسمعه إيّاه من كلمات التقريظ ،حتى لقد يتوهّم القبيح فيه حُسناً والنقصَ كمالاً ، فيقع في لجّة الصلَف والزهو ويتطوّح تطوّحاً يُعقب الحرمان والفَشل ويورث الملامة واللهف .

ولقد تفشّت هذه الشائبة في بلادنا حتى يكاد لا يخلو منها طبع ولا يتحاماها لسان . وانما سوّل للنفوس العَلَق بها توهّمُها أننا في عصر لا يجمل بنا فيه أن نُبرز جميع مكنونات صدورنا خوفاً من ان تصيب موقعاً سيّئاً في قلب السامع ، فيتكدّر صفاء طبعه ويتقلّص ظل أُنسه . ومن المعلوم انه اذا سارت في الرأس سورة الخيلاء راجت عند المتعجرفين سلعة المداهنة ، وآثروها على لهجة الصدق والنصح ، وراعوا لصاحبها جميلاً كبيرًا كلّما اثنى على مأثرة لم يأتوها او عزا اليهم فضيلة لم يتجمّلوا بها ، او كبّر في عيونهم عملاً لا يستحقّ عند العقلاء ذكرًا ، او لطّف عليهم ذنباً اقترفوه فمهّد له عندهم عذرًا، الى ما هنالك مما يسدل على البصائر غشاوةً من الاغترار ويُثير في الاذهان غمامةً من الغواية والضلال .

على ان المداهنة لا يكون لها نصيبٌ من الهزة والارتياح عند اصحاب العقول الراجحة والرأي الصائب ، اذ يخرقون بمداركهم النافذة سرائر المداهنين ويُبصرون بلواحظهم الحادّة ما لهم في صدورهم من المنزلة . حتى اذا مدحوهم بما ليس فيهم ، او رفعوهم الى مرتبة هم ادنى منها، لقموهم حجرًا او أشعروهم على الأقلّ انهم ارفعُ من ان يُخدعوا، وابعَدُ من ان تقطعهم المداهنات عن تهذيب نفوسهم وتقويم اخلاقهم ،

بل أَجلّ من ان تتموّه لهم الحقائق واسمى من ان يتعاطوا خمرة يمجّها ذوقهم السليم . ولذلك يخجلون من ان يُطنَب في مدحهم ويُبالغ في وصفهم ، ويُخجِلون مَن داهَنَهم باطّراح ما نسبه اليهم وهو مخالف لظنِّه فيهم وظنهم في انفسهم . وهيهات ان يعود ارباب هذه التجارة الى عرض سلعهم على من نبذها لهم نبذ النواة ، وانما يبسطونها امام الجهلاء ويُهدونها اليهم طُرفةً ثمينة تصادف عندهم مقاماً رفيعاً وتستوجب مزيد شكرهم وجليل حمدهم . ولا ريب ان المدالسين اذا آنسوا على بضاعتهم اقبالاً ازدادوا بها اتّجاراً ورغبوا في عرضها طمعاً في ان يخطبوا مودّة من يتملقونَ له ويتزلّفون منه ، وربما لم يكن لصداقته عندهم شأنٌ يحملهم على ان يتودّدوا له ويصانعوه ، وانما غرضهم ان يزدروا به ويستخفوا بعقله الذي يستفزّهُ الثناء الأبلغ حتى يُعميه الغرور . فاذا غادروا مجلسه انبأوا اصدقاءهم بسرعة مهزته للاطراء وشدّة اغتراره به ، وسهولة اصطياده بشباك المداهنة والدهاء .

وايُّ عار اعظم من ان يسخر النـاس بالمرء وهو يتوهم أنهم يُكرّمونه ويُجلّونه ، وأن يُلبسوه ثوب الضعة والمهانة وهو يظنّه من حلل الملوك ومطارف الأمراء . وايُّ عيب افضح من ان يُخلعَ على نفسه رداءٌ تسبغ على جسمه اذيالهُ وأن يتزيّا بزيّ ليس عند الناس ولا عند نفسه معروفاً به . ومن العجب ان يرضى بان يُعزى اليه ما لا يعرفه هو في نفسه ، فكأنّ هُيامهُ بالثناء يحمله على قبول ما استُعير له ، وربما اهتزّ به طرباً بل ربما نسب الى محدِّثه العداء اذا لم يسمعه أبلغ عبـارات الاطراء ، او لم يكرّرها عليه كلما التقى به حتى كأنها حلية من حلاه او سمة من سماته .

وبديهيٌّ ان المداهنة تشين كل امرىءٍ وتحطّ من مقامه عند ارباب الأنفة والصدق ، لانها من مولّدات الكذب والغش والخيـانة . ويقبحُ بكل رجل ان يتلطّخ بها ولا سيما اذا كان من علّية قومه ، او ممن يترتب عليهم الاصلاح والنصح . فاذا داهن الرئيس مرؤوسيه والاب ولده والمولى خادمه اتّسعت ثُلمة عيوبهم وازدادوا تهافتاً على المنكرات وتمادياً في الشر . وما من شيء أضرّ بالانسان من ان يكتم عنه اصحابُه ما فيه من الشوائب ، فان النفس قلّما تشعر بنقائصها لشدة ميلها

الى المدح ، ولذلك تراها كثيرة الانخداع ، فاذا لم يكن لها ناصح يُعثِرها ويُوقفها على عيوبها رضيت بحالها من النقص ، ولا يخفى ما في ذلك من سوء النتائج .

على ان الضرر يكون اشدّ وابلغ اذا كان حول الرئيس او الحاكم قومٌ دأْبُهم المداهنة والملَق والاطراء ، فانهم بمداهناتهم يخونون زعيمهم ويُعرِّضونه للملامة والذم، اذ يُقصون عن بصيرته نور الحقائق حتى يستمسك بالبطل ويزداد تصلُّباً برأيه واعجاباً بنفسه وثقة بصلاحه وكماله ، فيظلم من حيث لا يقصد الظلم ويُفسد من حيث لا يريد الافساد ، ويسلك في سياسته مسلكاً معوجّاً يُنفِر منه القلوب حتى يصير بغيضاً الى مرؤوسيه محتقراً لديهم ، وهنا الطامّة الكبرى . فلو كانت بطانة الرئيس مُخلصة له امينةً في حقه لأَوقفتهُ على كُنه الأُمور واطلعته على عيوب نفسه ، رعايةً لسنَّة الوفاء . ولا بدّ اذا كان من العقلاء من ان يُحِل نصائحهم محلَّها من الاعتبار ويعمل بموجبها . واما اذا كان من المعجَبين بنفوسهم فانه لا يُعير كلام الناصحين أُذناً واعية ، بل يفعل بحسب ما تزيّن له النفس ، والنفسُ أمَّارة بالسوء وكثيرة الاغترار، وحينئذٍ فلا يقع اللوم الا عليه .

ونحن لا ننكر ان المهابة تتملّك عادةً المقرَّبين من الرؤساء وتمنعهم عن ان يُخلِصوا لرؤسائهم القولَ حرصاً على مناصبهم ان تزعزعها الحريّة في الكلام ويهدمها النصح. فلأن يعتزل المرء منصبه قياماً بواجب الامانة أولى من ان يبقى فيه بالمكر والرثاء والبهتان .

ولا ريب ان الصحافة لا يُغتفر ذنبها اذا تلوَّثت بأدران المداهنة وعمدت الى التمويه والتملُّق ، فانها أُستاذ الشعب ودليلهُ ومصباح هداه . فاذا كتمت عنه عيوبه وحسَّنت لديه عاداته السيئة بقي على جهله وضلاله . واية خيانة افظع من خيانة شعب برمّته،لا يؤثّر فيه شيء تأثيرَ الصحافة . ولا عذر لأحدنافيما اذا تقاعد عن النطق بالحقيقة مهما ناله من الخسائر المادية ، فان اصلاح عيب في الأمة افضلُ من جواهر الارض وكنوزها . هدانا الله جميعاً سواء السبيل ووفّقنا الى خدمة البلاد بصدق وامانة واخلاص .

الترلف الذميم

فشَت هذه العلّة المخجلة في البلاد حتى لم تسلم من جراثيمها طبقة من الطبقات ، ولا خلقٌ من الاخلاق ، ولا سيما طلّاب المناصب فانها متأصّلة فيهم حتى نكاد لا نرى لهم دواءً ناجعاً ولا علاجاً شافياً ، واذا اهتدينا الى معالجتهم فهم لا يُحبّون أن يتداووا خوفاً من أن تفارق العلّة ابدانهم فيكونوا بفراقها اكثر اعتلالاً منهم ببقائها ' وهنا الشرّ الاكبر ..

يُريد عُشّاقُ المناصب ان يستووا على كرسي السيادة إمّا تلذُّذاً بسكرة السؤدد ونشوة العزّ ، أو تسبُّباً الى الانتقام من عدوٍّ يطلبون قهره ويبتغون عسفَهُ ، او طمعاً في المنافع الماديّة والمكاسب الدنيوية التي يُصيبونها من وظائفهم اومن وجوهٍ محظورة عليهم . وأكثرُهم يسعى اليها بالترلُّف والتذلُّل والاستعطاف والاسترحام وما شاكل من ضروب الهوان ، حتى اذا قيِّض له يُمنُ الطالع ان يظفر بأُمنيَّته جرَّ أذيال الخيلاء وسبح في جوّ التيه والعُجب ، حتى كأنَّه افتتح حصناً منيعاً أو شيَّد لوطنه من المجد صرحاً شامخاً .

فلو كانت المناصب لا تُسند إلّا الى ارباب الجدارة والعفاف لما كان من سبيل الى طلبها بطرق مُخزية ، ولما بطر الفائزون بها هـذا البطَر المضحك . ولو كانت الحكومة نزيهة والرئيس حزوماً مهيباً منصفاً لما جَرُؤَ احد على الارتشاء والإِيثـار والاستبداد بعباد الله والتلاعب بحقوقهم والعبَث بدعاويهم . فاتقوا الله يارجال القضاء .

ان الترلُّف خَلّة شنعاء لا يألفها الأَنوف الأَبيّ ، لانه يترفّع عن الاستكانة والصغارة وتأبى نفسه الحرّة ان يسعى الى الحظوة عند الحكّام عن طريق التملُّق والمصانعة ، وهو أَجلُّ من ان يكون عبدًا رقيقاً طمعاً في منصب اورغبةً في نيل رتبة اوادراك مطلب ، بل يؤثر ان يستمرّ بين قومه نَسِيًّا خاملًا وهو حرٌّ نزيه شريف ، على ان يقبض على نواصي المجد ويجلس على عرش السلطة بالخنوع والتخاشع . اما الرجـل اللئيم فلا يُهمُّه ان يَخرّ على اقدام ذوي السؤدد ، ويعفّر الجبين عند اعتاب اصحاب

الكلمة النافذة للفوز برغائبه ، فاذا نال منصباً بطر وشمخ بانفه وطغى وبغى شأنَ الوضيع الخسيس اذا ظفر بنعمة وهو غير اهل لها' فلايبرح يتبختر ويختال حتى يفقدها

والمترلِف لا يكون حرَّ الضمير ولا أميناً ولا صادقاً ولا نصيحاً، لأنه يلجأ في الغالب الى المداجاة والمواربة والمدح الكاذب والملق ، حتى يتسنّى له ان يتقرّب ممن يتوقَّع منه فضلًا او مقاماً ، فاذا رأى عيباً في خلال مولاه صوَّره في عينيه كمالاً ، واذا ساءَ خلقٌ من اخلاقه أوهمهُ أنه من محاسن الطباع ومكارمها ، واذا اتى فعلًا ذمياً مثَّله له مكرمةً رائعة ومأثرةً باهرة ، واذا اقترف زلَّة عدَّها له من المناقب الفريدة والخصال الممتازة ، فضلًا عما يُلفِق له من الاحاديث ويُزخرف من الاقاويل، وينقل له من التخرُّصات على مَن يُبطن لهم العداء ويضمر البغضاء' قصدَ ان يبتَّ اسباب الولاء فيما بينه وبينهم ، حتى اذا صفا له الجوّ بإبعادهم عنه شفى غليله وبلغ مدى امانيه ، وهنا الخيانة بعينها' والعياذ بالله من اهلها السفِلة الساقطين

ويا حبذا لو وقف المترلِفون عند هذا القدر من المكر والمخاتلة ، ولكنهم كثيراً ما يتعدَّونه الى خيانة أُمَّتهم ووطنهم بضروب يتنزَّه القلم عن ايرادها ، وهي في عرفهم من اساليب الدهاء والسياسة ، وما اقبحَ السياسة اذا ادَّت الى الغدر بالاوطان ونقض الذمام . ولعمرُ الحق اننا لا نعجب من هذه الفئة الخدَّاعة ان تملك نفوسها الدناءَة ويغريها الطمعُ في المناصب حتى تقترف هذا المنكر الفظيع' مثلما نعجب ممن يُعيرونها آذاناً واعية ويحملون كلامها محمل الاخلاص . وكيف يمكن ان يكون المداهنون من الصادقين المخلصين لمن يحاولون التزلُّف منهم ، مع انهم لا يخلصون الحبَّ لبلادهم التي احيتهم بنسيمها البليل ومائها النمير .

ان التزلّف لا يكون مع المقدرة والجدارة، ولا يقترن بالنزاهة وحسن القصد ، وانما يهيم به العاجز الضعيف الذي لا يرى له وجهاً للتقدُّم والارتقاء الا من ابوابه الواسعة ومذاهبه الفسيحة ، ويتوخَّاه ذو الطويَّة الملتوية والسريرة الخبيثة ، لان صاحب الاهليَّة المعروف ببسطة معارفه' وسعة مداركه' ولطف تدبيره' واستقامة سيرته' انما تبحث عنه المناصب والمعالي وتجري وراءه مواكب المجد والعزّ' بحيث لا يفتقر الى خطبتها بالتزلُّف والتودُّد والتذلُّل والتخشع ، كما يفعل القاصرون الجهَّال . ومن

المحال ان يحاول المرء مقاماً تقصر عنه طاقتهُ وهو يقصد به خدمة المصلحة العـامة ، ولكنهُ يُريد مصلحة نفسه وهيهات ان يدركها مع هذا العجز ، واذا انتفع فانما يكون انتفاعه الى زمن يسير . وحسبهُ ما يصادف من المهـانة والازدراء لتردّيه بثوب ضفت عليه اذياله . واذا سكتت عنه الأَلسنة حيناً ولم تسلقه بقوارصها اللاذعة فالقلوب لا تسكت عنه بل تسقطه الى أَحطّ الدركات ، على حين ان غـيره من ارباب المعرفة الواسعة نازلٌ من الالباب في اعلى مراتب الكرامة ، ولو لم يكن له منصبٌ يرفعه في عيون الاغبياء .

فالى المترلِّفين الذين يبيعون نفوسهم وضمائرهم في سوق النذالة نسوق النصيحة حتى يعيشوا اعزَّاء النفوس' ويكونوا بين اهل وطنهم من أُباة الضيم وشُمّ الأُنوف . واذا راقهم الترلُّف فليكن بالاعمال القويمة والمآثر المشكورة والمساعي المحمودة التي يخدمون بها بلادهم والانسانيَّة معاً . وما اشهى يوماً نرى الحكَّام في هذه الربوع يترلَّفون من علمائنا وفقهائنا واعياننا حتى يقبلوا المناصب التي يعرضونها عليهم . فحينئذٍ تكون البلاد قد بلغت الشوط الاقصى من التقدُّم والاستقلال . وحبذا أن يكون هذا اليوم قريبَ العهد حتى يحقّ لنا ان نقول مع من قال : أَطلق يا رب نفس عبدك بسلام .

التهور والاستهتار

المتهوّرِون هم من اسوإِ الناس حالاً وانكدهم عيشاً ، والمستهتِرون من أَزيَغهم بصيرةً وأَكلِّهم نظرًا واصلبهم وجهاً واخلعهم عذارًا . واين هم من البهيم الذي لا عقل له ، فانهم اكثر تعرُّضاً منه للأَخطار والأَسواء . يَرون الشرّ ازاء عيونهم ولا يتَّقونه ، ويتصدَّون للموبقات ولا يبـالون ، ويزُجون بنفوسهم في أتُون الاهواء ويخوضون غمرات القبائح ويخبطون في حنادس الاضاليل وهم حيارى عَمِهون . واما البهيم فانه بقوة الغريزة المركَّب عليها يشعر بما يضرّه فيتحاماه' وتقع عينه على شَفا

هاويةٍ فيتلافاه . ولذلك ترى الناس مهما كانوا عليه من الرقة والحنان لا يرثون للمتهوّرِ ولا يحدبون على المستهتر . وربما مرّ جلف بحيوان يسلقه احد الساقة القساة بسياطه الحديدية ، فيشفق عليه كل الإشفاق ، ثمّ هو لا يعطف ادنى عطف على من يقتحم المهالك ويعتسف المخاطر ويلقي نفسه بين اشواك الشهوات . .

فما اشبه المتهوّر بطفل غبيّ قاصر يرى النار امامه مندلعاً لسانها متطايراً شرارها فيقتحمها حتى تلذعه فيملأ البيت عويلاً ونحيباً إلى ان يخفّ اليه مَن يرقّ له ويخفف عذابه وألمه . والطفلُ من حيث قصوره وجهله معذورٌ بتعرّضه لما يؤذيه ، واما البالغ المدرك فاذا تهوّر فما الى معذرتهِ من سبيل ، واذا استهتر فما له من نصير ولا شفيع ، اذ يُقدم على المعاطب والهوى قائدهُ ويرمي بنفسه في المتالف ومعهُ عقلُهُ او بعضُ عقله . ولهذا السبب لا يهرع احد الى نجدته اذا ارتطم ، ولا يحنو عليه حانٍ متى ارتبك ، بل يشمت به العدو كلما هوى في مغواة ، ويخذله حتى الصديق ولو رآه في اعمق مهاوي الضيق .

ومعلومٌ ان المبدع الازليّ السامي قد مَنَّ على الانسان بعقل يميّزه عن العجماوات ويرفعه على سائر الكائنات ، فجاءت الشهوة تُكدّر مرآة نفسه الصافية النقيّة ، فأسبلت على محيّاها من الغبار سدلاً كثيفاً حجب عنها نور الحقائق حتى ركبت مطيّة الأهواء وامعنت في مجاهل الغيّ ، فاسترقّتها الملكات السافلة واستعبدتها العادات الذميمة وعصفت عليها الشهوات من جميع الجنبات ، فلعبت بارادتهـا الخائرة كما تلعبِ الريح العَصُوف بالسفن الخفيفة الواهنة . فاذا لم يقوَ المرء على كبح نفسه الجَمُوح ولم يلجم ارادته الشّموس ولم يقمع هواه الثائر في صدره ، بات بين يدي الرذائل والأهواء اذلّ من العبد المكبّل واطوَع من البعير الذّلول المشكّل ، وامسى في قبضة المِحَن أخوَرَ من العصفور بين مناسِر النسور . وإنك لترى ممسوساً قد خُولط في عقله وذهب الجنون برشده حتى بات يَهذي هذياناً كأنه في بُحران ، فلا تتمالك عن ان تتلهّف لبلواه وتتفجع لمحنته . وتُبصرُ الغُواة يركبون مراكب الشطط ويعضون على وجوههم حتى تصرعهم الاهواء شرَّ مصرع وتطرحهم في اسفل وهدة ، ومع ذلك فلا يخفق لهم فؤادك ولا يلتاع صدرك ، بل ربمـا اندفعت في تثريبهم

وتقريعهم ، ثم انقلبت عنهم متعظاً بسوء مآلهم وهول مصيرهم .

وهل من احد احقّ بسهام العذل والتأنيب ، وأحرى بان تُغمض دونه لاحظةُ الرحمة من هؤلاء الضالّين الغاوين الذين جنوا على نفوسهم الجناية اثر الجناية ، يومَ اخذوا يتهوّرون ويستهترون ، وقد غفلت عيونهم عمّا يُخبيء لهم الدهر في جعبة صروفه من النبال النافذات . فلو لم يُغلقوا آذانهم .ويُوصدوا قلوبهم دون نصائح الناصحين ، ولم يقابلوا بالازدراء عظات الحكماء الراشدين حتى تهتّكوا واسرفوا في المعاصي إسراف الحمقى ، وتمرّغوا في كل حمأة ، لما هوَوا في تلك المهاوي المخجلة والمصارع المذلِّة ، وما صاروا عبّاداً لأصنام الشهوات يُقدِّمون لها كل يوم بل كل ساعة انفَس ما يملكون ، ألا وهو العقل والحرية والدين والضمير والوجدان فضلاً عن الصحة والشرف والصيت والجاه والعرض والمال .

على اننا كيفما اجلنا رائد الطرف في هذه الاصقاع واينما سرَّحنا بصائرنا في منازلنا ومحافلنا وملاهينا ومقاهينا ، لا تقع عيوننا الا على ما يُقذيها ويُدميها من المشاهد المخزيات والآثار المشجيات ، مما يدلّ على ان الاستهتار ضاربٌ اطنابه والتهوُّر موثقٌ في الصدور اسبابه . وحسبُكَ ان تؤمَّ في هُدء من الليل احدى المقامر التي يختلف اليها عشاق المياسر ، حيث يجلس الى الموائد الخضراء الموسرون فضلاً عن الموسرات ، حتى ترى الأموال كيف تُبذَّر والاجسام كيف تُصهر والقلوب كيف تُجرح والأجفان كيف تُقرَّح . هُناك تُعاين الوجوه الذابلة الذاوية اشدّ صفرةً من الزعفران والعيون القانئة اشدّ حمرةً من الارجوان . هناك تقرأ على الجبهات سطور الامل واليأس والبِشر والكآبة والفوز والفشل ، وتُبصر على الحدَقات شرار الغضب ونيران الندم واللَّهَف ، وتلمح على الشفاه تارةً البسمات الكذَّابة وطوراً الومَضات الخلّابة . ويجولُ المكر في حلقات المتقامرين جولاتِهِ الخدَّاعة ، والظفرُ لمن يكون اشدَّهم احتيالاً واوفرهم دهاءً واكتمهم سرّاً واسترهم شعوراً . وهل من رجل في الدنيا أتعَسُ من المقامر حظّاً وأسوأُ مآلاً ، يُحيي لياليه في الميسر من الغَسق الى الشفَق حيث يُسرف اموالاً ادَّخرها بشقّ النفس ، او اورثهُ اياها آباؤه بعد جهدٍ جهيد وعناء مديد ، فيحرمها أفلاذ كبده وحشاشات مهجته ، حتى لقد يطوون مراحل الحياة على مجامر

البؤس والفاقة ، ويشبُّون فقراء وُضعاء ليس لديهم مهنة فيرتزقوا منها ، ولم يقتبسوا علماً فيُعينهم على معاشهم ، ولم يُبقِ لهم ابوهم المِتلاف رأس مال فيتاجروا به . وربَّما كان بين لفيف هذه الأسرة فتيات جمعنَ بين الحُسنيين : حسن النفس وحسن الجسد ، غير ان فقر والدهنَّ وسمعته الخبيثة كانا من احجز الحواجز بينهنَّ وبين الزواج . وتأمَّل كيف تكون حال فتاة في بيت ابويها ولا سيما اذا صارت عَواناً او بارت بَوارَ السِّلَع .

افما كان الأَصلح لهذا المقامر أن يطوي لياليه بين اعضاء أسرته معتنياً بما يُصلح احوالهم اعتناء الاب البَرّ الرفيق والوالِد الحكيم الشفيق . او َما كان الأَجمل به أن يُنفق ما خسره من المال طريفاً كان او تليداً في ما يُريح نفسه ويُسعد اهله ، بدلاً من ان ينفقه في سُبُل اورثت جسمه العِلل ، وفؤاده الحسرات ، وصدره الزفرات ، وعينيه أسخَن العبرات ، وبدلاً من ان يُعرِّض أُسرته لتصاريف الدهر وغِيَرِه الساحقة حتى ترعزعت اركان سعدها واضطربت اسباب راحتها وكدُرت موارد بهجتها . فكم من ليلةٍ قضتها قرينته الفاضلة ومن حوليها صغارُها يسألونهـا عن والدهم أينَ يُحيي سهراتهِ ، فكان جوابُها لهم دمعاتٍ تترقرق في عينيها ثمَّ تَسيل احرَّ من الجمر على وجنتيها ، وتنهُّداتٍ محرقة تُصعدها من صدرها الكليم مع انفاسها المتقطِّعة الملتهبة . وكيف لا تخنقها الغصَّات ، ولا تُذيبهـا التلهُّفات ، وهي غرقى في بحر الهم والغمّ يرشقها زوجها من تلك الغرفة الجهنَّمية بالسهم بعد السهم . ألا تبّاً لهذا الأب الجهول الذي يُعرِّض ثروته للتلَف وأسرته للعطَب ، وسحقاً لليد التي ساقتهُ لأول مرَّة الى لجَّة الشقاء وهاوية الافلاس . فلو كان قد امتنع عن ان يصحب المقامرين الى بيوت الميسر يومَ أَلحُّوا عليه بان يصحبهم اليها ، لما الفت قدماه الاختلاف الى هـذا الملهى الذي هو ولا ريب مدفن الاموال ومتلفة الاجسام والأعراض ، وكفى أُسرته التعسة تلك الفجائع الهائلات والبوائق المجحفات . .

فحَبَّذا ان يتفكَّر عُشَّاق الميسر في عواقبه الوبيلة حتى لا يتعرَّضوا ولا يُعرِّضوا أُسرهم لنكباته التي يغور في لجتها الصبر ، ومُلِمَّاتهِ التي أَقلُّها أنها تُعقب الذل والعسر ، لئلَّا يكونوا عبرةً لمن اعتبر . والعاقلُ يتحرَّز من أن يكون موعظةً لسواه ويُجلّ

نفسه عن ان يُقدم على امر فيه هلكته ' او يألف عادةً موذيةً يتعذَّر عليه الانعتاق منها حتى تتملّكه . والحكمةُ كلُّ الحكمة في ان يقف المرء في وجه نفسه موقفَ العزم ' كلّما زيّنت له الإقدام على عملٍ تكون فيه العقبى وخيمةً عليه لئلا يستطرقه ويتعسّر عليه فيما بعد النكوص عنه .

واكثرُ الناس تهوُّرًا واستهتارًا الذين لا يحترسون الاحتراس الواقي يومَ يُباشرون امرًا مغبّتهُ وبيلة عليهم . فاذا فعلوه مرةً عاودوه أُخرى حتى يشقّ عليهم تركهُ ، ولو تمثّلت لأبصارهم مضارّه الجسام . وذلك على حد ما يقع لبعض الفتيان الأغرار قبل مخالطتهم للعشراء السُفهاء ' فانهم اذا رأوا فتاة خفِرة امتدَّ سِلكُ الحياء الى ابصارهم فيغضّونها حشمةً وتصوّنًا ، ولكنهم اذا ابتُلوا بعشرة بعض المتهتّكين المستهترين لا يلبثون ان يتلقّنوا عنهم احاديث الفحشاء ، ثم يتدرّجون في ميدان القِحة والتهتُّك حتى يبلغوا اقصى غاياته . واللهُ اعلم بما يكون من امرهم ' وكيف يكون منقلبهم في هذا الميدان المحفوف بالأخطار والهلكات .

هذا ولولا ضيق المقام لأطلقنا اليراع في هذا الموضوع المهمّ حتى نتناوله من جميع اطرافه ' ولكننا نقف الآن عند هذا الحد ' ولعلَّ الذي اوردناهُ من الأمثال على مضارّ التهوُّر والاستهتار كافٍ لأُولي الاتّعاظ والاعتبار . فليقيسوا عليه ما لم نذكره مما لا يخفى على بصائر الألبّاء . . .

آفات المناصب

كلٌّ يرى من نفسه ميلًا الى السؤدد والرفعة والوجاهة ، وهذا امر طبيعيٌّ ناشئٌ عن حبّ الشهرة والكلَف بالمجد والهيام بعلوّ المقام وخلود الذكر . فاذا اشتدَّ ذلك الميل في قلب امرئ صرف كل قواه الى إحراز الغايات البعيدة في مضمار العلاء ' فلا يسكن له بال حتى يفوز بآماله ، ولا يبالي بما يقاسيه في سبيل ذلك من العناء والكدّ . واذا كان على جانب عظيم من الهمة لا تُقعِده وعورةُ الطريق عن

متابعة مسيره ، بل يذلِّل العقبات ويمهِّد المصاعب ، ويزداد مضاء ونشاطاً كلَّما شقَّت عليه المطالب وتعسَّرت الرغائب .

ولا جرم ان النفوس الأبيَّة المعروفة بالعزائم الماضيـة هي التي تتنازع اطراف المعالي ومطارف السؤدد ، لان فيها من الأَنفة ما يُنزِّهها عن مهابط الهوان ومهاوي الخمول ، ويرفعها الى روابي العزّ والكرامة ، بخلاف النفوس الوضيعة فانهـا تقنع بأدنى الحظوظ عجزاً وصغارةً . واذا كانت القناعة عن ضعف وقعود همة فان صاحبها لا يستوجب الا المذمَّة ، لانه لو تهيَّأ له ان يتبوَّأ مرتبة علياء او يفوز بنصيب من الثروة بدون جدّ وكدحٍ لعدَّ ذلك من الغنائم ، وكان فرحهُ بالحصول عليه فرحَ من صادف كنزاً بدون نصَب . فيلزم عمَّا تقدم أن الطموح الى المنازل العالية اذا وقف بصاحبه عند حدّ النزاهة والعدالة كان من الأمور المحمودة ، لان حبَّ المجد هو الذي يستحثُّ الهمم على المشروعات الجليلة والأَعمال الخطيرة ، ولولاه لما وطَّن الهمام نفسه على تقحُّم المصاعب وتهجُّم المكاره والمهالك ، ولما طاب له أن يطوي ايامه ويُحيي لياليه في ترويض النفس وصقل الذهن وتهذيب الطبع واكتساب العادات الحميدة ، ولما لذَّ له ان يخوض غبار المعارك ويقتحم لجج المعاطب والمخاطر ، ولما راقه ان يقتل العمر بين صرير الاقلام ومداد المحابر ، ولما سهُل عليه ان يحمِّل نفسه فوق طاقتها بحثاً عن اكتشاف حديث او وضعاً لمؤلَّف نفيس يخلِّد في الدنيا أُحدوثته ويعلي بين الأَنام شأنه

ومعلومٌ ان الأمم الراقية لم تدع طريقاً من طرق العلياء الا سالكتهُ ، ولم تترك من العزّ شأواً الا وقد انتهت اليه ، ولذلك نرى فيما بينهم مَن ارتفع بمعارفه وآدابه ، وسياسته وتجارته ، واختراعاته واكتشافاته ، وشجاعته ووطنيَّته . وقلّما نرى بيننا مَن اقتدى بهم في المدارج التي انتهجوهـا للارتقاء الى ذرى الرفعة والكرامة . فأين علماؤنا اصحاب الاستنباطات الباهرة ، واين ساستُنا ارباب الدهاء والحصافة ، وأين تُجّارنا الذين يتاجرون بمنسوجات معاملنا ، واين قُوّادنا البواسل الذين يتهالكون في الدفاع عن الوطن ، واين مُحسنونا الذين شيَّدوا الأَندية الخيرية وغمروها بمكارمهم وتبرُّعاتهم ، واين شركاتنا الدائبة في انشاء المشاريع الوطنية التي تحيي البلاد وتوسع

نطاق عمرانها ، واين حكّامنا الذين يعتنون باسعاد الشعب وإنهاضه من هاوية الذل والشقاء . فجميع ذلك تكاد لاتقع عليه عينٌ في بلاد فسيحة الارجاء كثيرة السكّان . وانما نرى أغلبنا يأتمّ مراتب المجد عن طريق المناصب في الحكومة . وحبّذا لو كان في مناصب بلادنا مجد ، وانما هي عبارة عن سرابٍ يخدع مظهره ويسوء مخبرُه . ألا ترى طالب المنصب عندنا كيف يسعى اليه بالتزلُّف والتذلُّل ، واذا ظفر به كان عبداً للحاكم بحيث لا يتجرأ على أن يصدع بالحق اذا كان مولاه من أنصار البطل ، ولا يتجاسر على ان يُنصف بين المترافعين خشيةً ان يُسيء بانصافه الى بعض الأحظياء المتطرّفين فيتحاملوا عليه ويُعنَوا بخلعه عن منصبه . وأيُّ مجد يناله الاسير والرقيق ، واي عزّ يدركه المقيَّد بارادة غيره ، واي شرف لمن يعيش ذليلاً وضيعاً ، وأيّة راحة لمن يبيت خائفاً ويُصبح مضطرباً مهموماً . فالى متى يتلاهى وجهاؤنا بهذه القشور ، وحتّام يتزاحم كبراؤنا على المناصب ويعتبرونها من اسباب سعدهم وعظمتهم وهنائهم ، والى متى لا نرى في الشعب نهضة الى الارتزاق عن غير طريق الاستخدام .

ولا يخفى ان مناصب القضاء والادارة انما أُنشئت في الدنيا للقيام بمصالح الجمهور ودفع المظالم والذود عن المحارم وتوطيد دعائم الأمن ، حتى لا يبقى في وجه الشعوب سدودٌ تحول بينهم وبين التبحُّر في مذاهب العمران وميادين المدنيّة . ولذلك ترى الامم الناهضة لا تعهد في مناصبها الّا الى رجال يصلحون لها ، واذا آنست من احدهم ميلاً الى منصب لا يجدر هو به قاومته بجامع قواها حتى لا يلحق أذيّة بعباد الله . أمّا نحن فليس عندنا لهذا الامر الجلَل شأنٌ ، ولذلك ترى البلبلة في ادارتنا والتأخّر في احوالنا . والصحفُ الصادقة الوطنيّة تئنُّ من هذه الاثقال وتبثّ اولياء الامر الشكوى اثر الشكوى ، وتُهيب بالشعب للمطالبة بحقوقه ، وهو غريق في لجة الخمول لا يُرعي سمعاً ولا يُعير التفاتاً

ولقد مرّ على بلادنا ماينيف على نصف قرن ولم نرَ للنجح فيها بريقاً ، بل تداعت جدران عزّنا ونفدت خزائن اموالنا ، وبارت اراضينا وتلاشت زراعتنا ، وأُهملت صناعتنا ، وقلّ نسلُنا وانحطّت آدابنا وأخلاقنا ، وتقوّضت اركان أُلفتنا وتفرّق شملُنا . وعلى الجملة فاننا تحوّلنا من مهاد الراحة واليسر الى حضيض القلق والهوان ،

وهوَينا من ذروة الشرف الى دركات الصغارة والضعة ، حتى اصبحنا حديثاً سائراً وعظة زاجرة تتهدَّدنا عوامل الانقراض من كل جانب. فما الذي آل بنا الى هذا المنقلب السيّئ ، أصواعق دكَّت منازلنا أم زلازل خسفت اراضينا ، أم قحط نزل ببقاعنا ام أوبئة تفشَّت في قُطرنا . لا لعمري وانما تهافتنا على المناصب هو الذي جرَّ علينا هذه المحن وتلك الرزايا .

ينشأُ الغنيُّ في بلادنا على أسِرَّة النعمة والدلال ، فلا يُقوَّم له طبع ولا يُصلَح فيه عيب ، ولا يُقوَّم له ميل ، وانما يربى على هواه ، فلا يشبّ حتى يُصبح فؤاده عشّاً للشوائب والمفاسد ومغرساً للملكات الذميمة . واذا وضعه ابواه في المدارس يقضي فيها عدَّة سنوات لا يقتبس في خلالها من المعارف الَّا ما يَزيده بطَراً وخُيَلاء . وقلّما ينصبُّ الموسرون على التحصيل ، لانهم يعتمدون في الغالب على ثروتهم ، فيخرجون من تلك الربوع العلمية وهم أخلاء من الادب وأعطال من حلى التهذيب ومحاسن العلوم والفنون. ولايرَون لهم ذريعةً الى ادراك المعالي الا بان يتقلّدوا اعنّة الادارة والقضاء ، ولذلك يبذلون في هذا السبيل قصارى المجهود ، ولا يدعون طريقاً تُبلغهم مرادهم الا يقتحمونها . وأغلبُ الطرق التي يسلكونها ادراكاً لمقاصدهم التزلّف والمدالسة والتذلُّل والاستعطاف ، الى ما هنالك مما يكسبهم الذلّ والهوان بدلاً من العزّ والوجاهة .

وما ادراك ما يَنزل من الاضرار بالبلاد اذا تقلّد مناصبها من امثال هؤلاء الرجال . ألا فليخافوا الله فيما يُلحقون بعباده من الاسواء ، وليتَّقوا يوماً يناقشهم فيه الحساب . ولعلّك تقول : كيف تنسب خراب البلاد الى عُشّاق المناصب وهم عدد نزر بالقياس الى سائر الشعب . فنحن ندفع هذا الاعتراض ببراهين شتّى لا تُدحَض ولا يستهين بها الا المكابرون . فقل لي رعاك الله ، ما الذي فرّق كلمتنا وغرس الضغائن في صدورنا ، ونشر الفِتَن في ربوعنا ، وعرّض وطننا لنوائب كادت تطحنه وبلايا اوشكت ان تهوي به في اعمق لجج العار والبوار . أليس تزاحم كبرائنا على مقاعد المجد ومجالس العلاء . فأيّة قرية لا تلعب بها يدُ التفريق ولا تعصف بين اهليها زوابع التحزُّب والتعصُّب . أم اي قضاءٍ لايقوم ولايقعد انحيازاً الى زيدٍ وكيداً لعمرو

وتعصُّباً على بكر ، بل ايُّ رجلٍ لا يحمل لواء التشيُّع مُعرضاً عن الاهتمام بمصالح اهله خدمةً لزعيم يسير هو تحت لوائه. ومتى تنابذت القلوب وتضاغنت الصدور ، فأنذِر البلاد بالخراب العاجل .

وبديهيٌّ ان حركة الاعمال تتوقَّف على الاموال ، فاذا لم يكن في البلاد رجال من ذوي الثراء تأخَّرت التجارة والصناعة والزراعة التي هي من اغزر موارد العمران وآل مصير الشعب الى السوء والانحطاط . ونحن وان كنا لا نخلو من الاغنياء الَّا ان اغنياءنا هم في حكم الفقراء ، لان دنانيرهم مكدَّسة في خزائنهم ، لا يُنفقونها في الوجوه العائدة بالنفع على الجمهور ، وانما يستخدمونها لتنفيذ مآربهم وادراك مقاصدهم . وكثيرًا مايتخذونها سبيلًا الى العروج في مصاعد العلاء ، بل كثيرًا ما يصرفونها في كَبْت بعضهم بعضاً على خلاف مانراه في الأُمم النجيبة الراقية. وبسبب نضوب ينابيع الارتزاق عندنا كثرت المهاجرة التي اورثتنا من المضارّ الجسيمة ما لا يقع تحت احصاء . فلوكانت هذه الفئة الغنية تُطفئ من صدرها عشق المناصب وتنكبّ على المشاريع المنجِحة للبلاد ، لانتفعت ونفعت الفئة العاملة ، وصدتها عن التقاتل لأغراضٍ شائنة ليس من ورائها الا الخسران والخذلان. فأملُنا في اغنيائنا العقلاء ان يُحلُّوا كلامنا هذا محلّ النصح والاخلاص ويعملوا بمقتضاه . فاذا فعلوا حقّ لنا ان نباهي بهم في كل محضر ، ونلهج بذكرهم الطيّب في جميع الاندية . وليكونوا على ثقة انهم يكونون اذ ذاك ارفع مقاماً واعلى مجدًا ، لان المجد الحقيقي هو المجد الخالد الناشئ عن حسن الاحدوثة وجميل الفَعال والخِلاق. الهمهم الله وإيَّانا ما يؤول الى خير الوطن والأُمة اللبنانية الكريمة .

العجب بالنفس

احاط العلماء علماً بالمضار الفادحة التي تصيب المعجَبين بانفسهم المدَّعين بما ليس فيهم حتى قالوا عنهم انهم اعداء نفوسهم ' فجاء هذا القول المأثور آية في البلاغة وقطرة من قطرات الحكمة اذ جمع غوائل العجب بأبلغ معنى واوجز تعبير . ولا ريب ان العداة ' مهما ساموك من المكاره ونصبوا لك من الاشراك ' لا يبلغون منك ما تبلغه انت من نفسك اذا كنت من اهل الدعوى ، فاذا حملوا على سمعتك حملة منكرة لا تصادف افتراءاتهم عند العقلاء آذاناً واعية ' لما بينك وبينهم من العِداء حتى كأنما يكتبون على صفحات الماء ' واذا حاولوا ان يوسعوك ضيماً استنصرت عليهم بما يَقيك اذاهم ، واما اذا كنت مُعجَباً بنفسك فإنك تجني عليها من حيث لا تدري ، تُعرّضها للمهانة وانت تظن انك تستنزل عليها التكريم ، وتهوي بها الى دركات الخمول وأنت تتوهَّم انك تسمو بها الى اوج الشهرة والمجد . ولا بدع في ذلك فان الصُّلَفاء المستكبرين يسبحون في فضاء الوهم والغرور فلا ترسو قدمهم على قمم الحقائق ، ولا تنفذ بصائرهم حُجب مساوئهم ، وربما صوّرها لهم الاعجاب محاسن ، وأراهم حسنات غيرهم سيئات . حتى لقد يزعمون ، على شدة فاقتهم الادبية والعلمية ، أنهم من نوابغ عصرهم ونوادر زمانهم . فاذا تكلَّموا تخيَّل لهم أن الحكمة تتدفَّق من أَسَلات لسانهم ، واذا كتبوا وهموا ان البلاغة تسجد ليراعهم والسحر يقطر من نفثات بيانهم ، واذا خطبوا خُيِّل اليهم ان الاسماع اصداف للآلئ اقوالهم ، والاضاليل اهداف للوامع برهانهم ، الى ما هنالك من الاوهام التي تتصبَّب من مخيلتهم جارفةً معها ما لهم من الكرامة في الالباب ، فيستيقظون وهم فوق طوفان من المثالب تتدافع على متنه المخازي من كل جانب .

وبديهيٌّ ان العُجب لا يرى له على الغالب مرتعاً خصيباً الا في العقول القاصرة ، ولا يجد جوّاً فسيحاً الا في قلوب الاغرار الذين جاد عليهم العلم بشيء من العرفان فظنوا اذهانهم منبسطاً لأنواره ومتحفاً لآثاره ، حتى تغطرسوا وبسطوا اجنحتهم على ارباب التحقيق . ولا جرم ان ذلك من نتائج الجهل الفاضح الذي لا يعتدُّ معه

النظر الى سماء الحقائق ، ولولاه لعرف كلٌّ حدَّه وشعر بقصوره ولم يتجاوز طوره

وربما سرى العُجب في عروق الكتَّاب المتأدبين فكان سداً منيعاً دون تعمّقهم في المعارف . فلو لم يعلقوا في حبالته لنبغوا في العلوم نبوغاً باهراً ، ولكنهم قبل ان يُرووا ظمأهم من مناهلها الصافية اخذتهم نشوة الخيلاء بما ترشَّفوه من كؤوس المداهنين ، حتى توهموا انهم قبضوا على نواصي العلم واحاطوا باطرافه . ولاتعجبنَّ من ذلك فان اصحاب الدعوى والصلف ، بما يتراكب في اذهانهم من أَبخرة الكِبْر لايرون احداً ابعد مدى في العلم منهم ، وان الحدَّ الذي انتهوا اليه هو الحد الاقصى ، ولذلك يتقاعدون عن الاستفادة والاستزادة حتى يتقدّمهم في المدارك مَن كان دونهم فطنةً وذكاء

ولا تسل عما يحوق بذوي العُجب من ضروب الهوان والخسران ، فانهم فضلًا عن تقهقرهم في المعارف وتقصيرهم في جميع الفنون يَستهدفون للتثريب والتقريع ويُثيرون عليهم سخط الجمهور ، ويغرسون الضغائن والحزازات في الصدور حتى يعيشون بلا نصير ولا ظهير . ولا تستغرب ان تضرب التعييرات من حولهم نطاقاً ، فان نفوسهم الصلفة مجتمَع المقابح والعيوب' وألسنتهم عقارب لدَّاغة ورؤوسهم مثار للخيلاء ، فلا يحترمون مَن يستوجب الاحترام ، بل يمتهنون ما يأتيه غيرهم ترفُّعاً واستصغاراً ، ولا يريدون الَّا ان يحتبسوا العظمة ويحتكروا الإطراء ويختصُّوا نفوسهم بالجلالة . وليت شعري كيف يقوى اربابُ الأَنفة على تحمُّل هذا العبْ الثقيل ، بل كيف يطيق اهل المعرفة الراسخة ان يسحب عليهم ذيل الكبرياء مَن هم عند هذه الدركة من الشطط والغباوة .

ولهذا السبب حرَّز الحكماء من مخاطر العُجب وانذروا المجتمَع بعواقبه القتَّالة حذراً من ان يسمّ قلب العمران وينزع جذور التآلف . ولاشكّ انه من اضرّ الشوائب بالانسانية واهدمها لمباني المدنية واسدّها لأَبواب التنجح ، ولذلك لم نتماسك عن ان نطيل نفَس الكلام على مضارّه الباهظة ، حتى اذا تحطَّم هذا الحاجز المتين ' الحائل دون تقدُّمنا جرينا في ميدان الفلاح ابعد الاشواط .

وأبهظُ خسارة ينزلها العُجب بالاحداث انه يُقعدهم عن الترقي في مدارج العلوم والآداب' ويثنيهم عن تثقيف اخلاقهم وترويض نفوسهم ، اذ يمثِّل لهم انهم اصبحوا

من التأدب والتروُّض بحيث لم يبقَ لهم حاجة للاستزادة من المحاسن ومكارم الاخلاق، وأمسوا من المعارف على حظٍّ وافٍ يغنيهم عن الاستفادة بشروح أُستاذهم ' ولذلك يصبحون صعبي المقادة مترفّعين عن الانتصاح والاستيضاح ، متقاعدين عن الاقتباس والتحصيل فيُحرمون فوائد شتّى . ولا يزالون يتدرّجون في صلابة الرأي الى ان تهبط نفوسهم الى غور النقص والغواية . فاذا فطَّنهم احدالى غلطٍ ارتكبوه ، اوحذّرهم من عيبٍ امتزج بنفسهم ظنُّوه تحاملاً منه وباتوا على مركب الضلالة ' يتعثرون في مغامزهم ، موثرين التقلّب في غيّهم على ان يرجعوا الى مُرشد يُنهجهم في المسائل العويصة سوابلَ الهدى والسداد ، وذلك مخافة ان يشعر الناس بقصور نظرهم اذا استعانوا بغيرهم . وهناك سلسلة من المعايب يُطوّقها اعناقَهم الصلفُ والدعوى .

واما الكبار فلا تسل عن مخاسرهم اذا لعبت بنفوسهم حُمَيّا الادعاء ، فانهم ينقطعون عن الاستشارة والاستنصاح ويستبدُّون بادارة شؤونهم ويستصوبون كلَّ ما يُجرونه من الاعمال ، فاذا انتقدهم احد لغمزٍ فيهم حملوا انتقاده العادل على محمل الحسد والمقت وأبطنوا له الضغينة والعداء ، ولا يروقهم الا ما يُنشئونه ولو تزاحمت فيه الشوائب والمظانّ ، ولا يلذّ لهم الا اطراء افعالهم والاعجاب باقوالهم ، واذاوقع في مسمعهم ثناء على فاضل لمأثرة اتاها او تنويهٌ بعالِمٍ لمقالةٍ نمّقها ووشّاها مجّت آذانهم عبارات التقريظ ونسبوها الى الغلوّ والمداهنة ، ولم يألوا جهداً في تحقيرما اكبَرَهُ المنصفون وتصغير ما أعظمَه المحقِّقون ' ولا يزالون في سكرة الاعجاب وهم متشاغلون عن إصلاح طباعهم المختلة وابراء اذواقهم المعتلّة الى ان يذوقوا من غفلتهم مايكدّر صفاء الحياة .

على ان العُجب وان كان غايةً في القبح في جميع الطبقات فهو في الرؤساء اقبح صورةً واسوأ عاقبة ' لانهم يشغلون مقاماً تدور على قطبه مصالح الجمهور . فاذا ادّعى الرئيس العصمة حتى استقلّ باشغاله وانفرد باعماله، ولم يستصبح بآراء العقلاء ولم يقف عند نصائح الحكماء ' فلا تسل عن مواقع الخلل في ادارته وموضع النقص في احكامه ' ولا تأخذك الدهشة اذا رأيت إعراضاً من قومه عنه ' ولا تعجب للانتقادات العنيفة أن تتساقط على افعاله واجراءاته ' اذ انه لا يقنع لناصح ' ولا

يستمع الى مُشير ، ولا يلتفت الى مخلص ينبّهه الى غفلاته ، ولا يميل بسمعه الى مرشد يدلّه على عثراته ، حتى لقد يشطّ فيما يُجريه ، ويضلّ فيما يرتئيه ، ويزيغ فيما يُبرمه وينقضه ، ويتيه فيما يُقرّره ويدحضه ، وهو مع ذلك يتطاول على مرؤوسيه ويستبدّ بشؤونهم ويستخفّ بمصالحهم ، فلا يضبط لهم امرًا ، ولا يُحكم لهم شأنًا ، ولا يُقوِم لهم معوَجًّا حتى ترى البلبلة فاشيةً في تصرّفاته منتشرةً في أعماله واشغاله ، وحتى تراهُ على حال لا يُحقَّق معها املٌ ولا ينجع فيها علاج ، فيقضي العمر سقيم الرأي قرين الخلل حليف الاضطراب اليف المهانة ، ويودِّع الحياة وهو خجِلٌ من صفحاتها السوداء . وقانا الله شرّ العُجب ، واوقف كلًّا منا عند حدّ نفسه ، فان في معرفة الحدود برهانًا على فضل العقل والكمال ، وفي تعدّيها دليلًا على الحمق والسخف والضلال

الاستئثار او الغلوّ في حب النفس

هو الداء الوبيل الذي يلازم الانسان من مهده الى رمسه ، فاذا استحكم من فؤاده افسده وأعماه وشغَلَهُ عن ابناء جنسه . بل هو الفرس الجموح الذي يقود راكبهُ الى مهاوي الضلال والغواية . بل الحاجز الكثيف بين العقل والهدى والرابطُ الوثيق بين القلب والهوى ، والعدوّ الاشدّ للحقيقة والصواب والصدق والاخلاص . بل هو منبت الرثاء ، ومطلع الجور ومعدن الطمع والشره . بل الحاكم الظالم الذي تظلّمت البشرية من زيغ أحكامه ، ورزحت المدنية تحت بواهظ أثقاله . ولا بدع فان المستأثر تتلاعب في صدره الاهواء وتترامى به من نقيصة الى نقيصة ومن دنيئة الى دنيئة ، حتى يصبح عشًّا للرذائل ومغرسًا للمخابث والمفاسد ، وحتى يرتكب من المنكرات ما يجعله في ساقة الأَوغاد ، وتهبّ في قلبه عواصف الخبث والدناءة فتستأصل منه العواطف الشريفة والنزعات العالية بحيث يصبح اسير مطامعه رقيق ميوله ، تناديه المروءة فيصمّ أُذنيه عن اجابة ندائها وتتصدّى له النفوس المنكوبة فيتعامى عنها قسوةً وعنفًا . ولذلك تراه وحيدًا في المِحَن لا يرقّ احد لبلواه ولا يؤاسيه في بؤساه .

وحسبهُ من الخسران أن الناس لا يعقدون عليه املًا ولا يرتجون منه خيرًا ، ولا يقبلون منه نصحاً ولا يُحسنون به ظنّاً . لانه اذا وعد أخلف واذا سعى فلنفسه ، واذا ائتُمِنَ غدر واذا استُشير خدع ، واذا عاهد نكث واذا نالته نعمة كفر بها . وكلٌّ من هذه المعايب حريٌّ بتنفير القلوب عنه والإعراض عن صحبته . وما تكونُ حال امرىء يتجافى عنه معارفه ويخذله اصحابه وينقبض عنه اهل وطنه ، فهو كالعضو النَتِن لا يفيد الانسانية ولا يستفيد ، فلأَن يُبتَر من جسمها أصلَحُ له ولها

ومهما اتَّسعت حالُهُ فلا يطمئنّ له جانب ولا ينطبق جفنه على لذة الكرى ، لان هواه المتوقِد في جنانه لا يزال يُحيي فيه المطامع ، ويُثير النزعات الكامنة احرازًا لما تُحدّثه به النفس ، وهيهات أن يفوز بما يتحرّاه من جَسيمات المطالب ، وهو عند هذا الحد من الخساسة والحرص والحسد والاستئثار . وهَبْ أنه استوفى حظه من مباهج الحياة واطايبها ، فلا يسكن شرهه ولا يُروى ظمأُه ، لأَنهُ يريد أن يسابق جميع الاقران في كل ميدان مع انه من اعجز الفرسان ، فاذا تخلّف عنهم لزِمه الهمُّ وشبّ في صدره الغمّ ، حتى ينبو عن مضجعه جنبه ولا تذوق مقلتاه طعم الرقاد

ولا تسَلْ عن المحظورات التي يجترحها المستأثر وصولاً لما يتوخّاه من الرغائب ، فانه لا يستنكف من الكذب والبُهتان ولا يخجل من مواطن الذل والهوان ، ولا يستحي من الخيانة والمكر ولا يخشى مغبات الافساد والنميمة ، ولا يُهمّه ان يخبث ذكره ويسقط قدره ، وانما يطيب له ان يظفر بجميع امانيه ولو عانى من ضروب العار والمهانة والخسف ما يضيق به الصدر .

وبديهيٌّ ان الاستئثار اكثرُ ما يُستقبح في اولياء الامر الذين في يدهم زمام العباد . فاذا تمكّن من نفوسهم اقعدهم عن الاشتغال بمصلحة الجمهور ، وصرف كل قواهم الى خدمة مصالحهم انفسهم . وحينئذٍ لا يتمالكون عن ان يستنزفوا ثروة البلاد بالطرق المحظورة لينفقوها في الوجوه التي تناسب اهواءهم وتعود الى تعزيز مقامهم ورفعة شؤونهم . وما كان احراهم بان يراعوا جانب الحق ويصغوا الى صوت الضمير الذي يحثّهم على تقديس الحقوق وتنزيه كراسي القضاء والسيادة عن الاستئثار والاستبداد ، وكلاهما من اقبح المساوىء واشنع الشوائب ، ولا ريب ان الزعيم اذا قصّرَ عنايته

على خيره الخاص وضع بينه وبين مرؤوسيه سدًّا قوياً ، فينفرون منه ويحقدون عليه ويخذلونه اذا استنصر بهم ، وربما تألبوا عليه متى امكنتهم الفرصة منه وثلّوا عرشه تحت قدميه . وهل من رجل اتعس حالاً من رئيس يظهر لمرؤوسيه بمظهر العدو ، ولا يطيب له الا تذليلهم ولا يلذ له الا تقهقرهم . ومتى بلغ سوء الظن بالرؤساء الى هذا الحد كانوا افتك من الأوبئة البطّاشة .

على ان رذيلة الاستئثار لا تحلّ في قوم الا اهلكته ، ولا تُقيم في مجتمع الا قوّضت دعائمه . فاذا رأيت في بطانة الرجل انقساماً وحقدًا وحسدًا واغتياباً فلا تشكّ ان حبّ النفس المفرط هو الذي بدّد الأُلفة من بينهم وانزل في محلها الوحشة والجفاء والنفرة . واذا وجدت التعصب ناشراً في أمّة اعلامه وابصرت ان الوطنيّة ليس لها عند اهلها شأن فاحكم ان الاستئثار متغلّب على نفوسهم يفترس منها المحبة والائتلاف والمبادئ الشريفة والعواطف السامية . واذا نظرت الى معهد لا يُخرّج للبلاد شبّاناً يعززونه بمعارفهم الواسعة وآدابهم الرائعة فتيقّن ان مديري ذلك المعهد قد آثروا المكاسب الدنيوية على التربية السديدة والتعاليم الصحيحة . واذا وقع بصرُك على لجنة تداعت جدرانها بعد ان كانت موطدة الاركان ، وتشتّت شملها بعد ان كان على اقوم نظام ، فثِق أن محبة الذات هي التي انتجت ذلك التشعُّب وفككت تلك السلسلة . واذا عاينت مجلساً تدب فيه عقارب الاغتياب والخبث والرثاء فلا يخالجنّ ضميرك ريبٌ في ان هذه المحبة الممقوتة قد دبّت في عروق اربابه فسمّت دماءهم ومزّقت وحدتهم وافسدت نيّاتهم . واذا رأيت قوماً فرّق فيما بينهم اختلاف المذاهب، وهم اخوان في الوطنيّة، فقل ان الاستئثار الذميم هو الذي غرس في صدورهم ذلك الروح الخبيث وبثّ في اذهانهم تلك الافكار السافلة . وقصارى الكلام انه حيث يكون الاستئثار لا تكون غيرة ولا مروءة ولا حميّة ولا شرف ولا انصاف ولا اتحاد ولا قوة . ومتى خلَت الديار من هذه المزايا التي هي من اقوى دعائم العمران والتقدم، فأنذر اهاليها بالخراب والبوار عاجلًا او آجلًا . وقى الله البلاد شر هذه النقيصة الذميمة ومهّد لها عقبات التجرد والنخوة والتهالك في سبيل المصلحة العامة حتى لا تتخلّف عن سائر البلدان النشيطة في مضمار العزّ والمجد .

AMERICAN UNIVERSITY LIBRARY CAIRO

مضار المسكرات

أَلِفَ سوادُ الناس في هذه البلاد معاقرة المسكرات حتى اصبحت فيهم ملكة لا يرون عنها مَحيداً ، واكثرُهم يشغلهم الالتذاذ بها عن التبصُّر بغوائلها الفتَّاكة، فلا ينتبهون لمضارّها الا بعد تبريحها بهم وتغلُّبها على ارادتهم السقيمة الضعيفة

ومن المعلوم ان الذين يُدمنون شرب المسكرات انما يتناولون منها في اول الامر كمية قليلة، ربما احدثت في نفوسهم على قلّتها انقباضاً واشمئزازاً، اذ لم تألفها بعد اجسادهم ، ثم يتدرَّجون في الاستزادة منها حتى اذا لعبت سورتها في رؤوسهم ودبّ دبيبُها في عروقهم ارتاحوا الى معاقرتها ارتياحاً يجعلهم بعد مدة من السكّيرين الشرهين والمعاقرين المفرطين . ومنهم من يقتصر منها على قدح يتناوله قبل الاكل تنبيهاً لشهوة الطعام وتفكيهاً للنفس ، غير ان هذه الفئة قلّما تأمن تجاوز حد الاعتدال في الشرب، فيؤول بها الامر الى ما لا تحمد عقباه .

وبديهيٌّ ان السكّير لو عرف ماتُنزله به المسكرات من المحن قبل الاقدام على شربها ، لنفرت منها نفسه كما تنفر من السمّ الذُّعاف . كيف لا وهي تُوهن جسده ، وتُضعف بصره ، وتطفئ شعلة ذهنه ، وتجعله شرس الطبـاع خائر العزيمة فاتر الهمة ، بل تُفسد في الجملة دينه ودنياه ، وتعرّض أُسرته لاشدّ النوازل وافتك الآفات . واذا كنت في ريب من ذلك فانظر اليه وهو على مائدة الشراب متلجلجَ اللسان محمرَّ العينين ميَّادَ الرأس يكاد يُغشى عليه ، وكثيراً ما يتقيأ ما شربه حتى تتقزَّز العين من مرآه ، فاذا حُمل الى بيته أَوسع أُسرته سباباً وشتماً وتجديفاً، وربما انهال عليها بالضرب ، فتأملوا في سوء حاله وحال أُسرته الشقية به

على ان السكّير يكون في الغالب قصير الحياة، يُدركه العجز في كهولته . وهو معرَّض لعلل موبقة أهمُّها تصلُّب الشرايين وما يتفرَّع عنه من الامراض القلبيـة والرئويَّة . ولو لم يكن للمسكرات غير هذه الاضرار لكان التحرُّز من شربها فرضاً على من فيه مسكة من العقل ، ولكنها تتطرَّق مضارُّها الى النفس والاخـلاق

فتُعمي البصيرة وتُفسد حكمها ، وتضرب سدًّا بينها وبين المدركات ، وتتناول الذاكرة فتمحو من صفحاتها محفوظاتها السالفة وتذكاراتها الغابرة ، وتُعجزها عن اذخار ما تريد اذّخاره من المعقولات والمنقولات . ثم انها تجعل في الطباع خشونة وشكاسة ، فيغضب السكّير ويعربد من لا شيء ، ويُسمعك من احاديث البطولة والحماسة ما يُضحك الثكلى ، وكثيرًا ما يسلق ندماءه بقوارص كلامه ولواذع لسانه ، ولاسيما اذا خالفوه في رأيه . ومما يزيد في بلائه أن ضرر هذه العادة غير مقصور على السكّير وحده بل ينتقل الى ذرّيّته ، فينشأ اولاده وحفدتُه بُلَهاء العقول مهازيل الاجسام ، سيّئي الاخلاق ، ضُعفاء الارادة والحافظة ، مناخيب جبناء ، من اهل الاهواء ، مُعرَّضين للسلّ الرئوي ، ويكونون في الغالب سكّيرين لان السكّير لا يلد الا سكّيرًا كما انه لا يُنجب وان كان نجيبًا .

قلنا وبعد ان رأيت ما رأيت من عواقب المسكرات الوخيمة فلا تعجب اذا اتفق الدين والشرع على تحريم معاقرتها والافراط من شربها ، اذ تقوّض اركان المجتمع وتفصم عرى الوئام بين اعضاء الأُسرة ، وتُفسد الاخلاق ، وتُذيب الاجسام ، وتضعف الاذهان ، وتُتلف النسل ، وتُثير بركان الشهوات ، وتحمل على ارتكاب المعاصي والمنكرات . وهل من داء ادوأ من هذا الداء الدوي ، وهل من جناية افظع من جناية الآباء اذا ادمنوا شرب المسكرات وانزلوا بنفوسهم ونفوس بنيهم كل هذه البلايا . الا فليتَّقوا الله في فلذات اكبادهم ، والا كانوا اقسى من الضواري واصلب من الجلامد . وما اشدّ ما يكون عقابهم يوم يناقشون الحساب امام منبر القضاء . وما يكون مقامهم عند ابنائهم يوم يَعلم هؤلاء ان العلل التي حلّت بهم انما ورثوها من والديهم السكارى . .

باب الشعر

الملاحة الجوية

فَتحُوا السماءَ وطاردوا العقبانا   وجرَوا على متن الهوا فُرسانا
والجوُّ ودَّع عزَّهُ وهناءهُ   مذ صيَّروهُ لخيلهم مَيدانا
والريحُ قد سلِست مقادتُها لهم   حتى غدت مثل الذَّلُول لِيانا
لله درُّهمُ اذا ما أطلقوا   للمركبات السابحات عِنانا
فَتخالها عند الهبوط صواعقاً   واذا تعالت خِلتها بِيزانا
تَحكي الطيور بشكلها لكنها   أمضى جناحاً بل اشدُّ جَنانا
لو حاولَ النسر الفتيُّ لَحاقها   لارتدَّ خوَّارَ القُوى عَيَّانا
أوَ لستَ تحسبها وقد طاروا بها   كالبرق آناً والسهام أوانا
امَّا جَناحاها فلا تطويهما   حتى يكونا للهوا مِيزانا
فاذا ارتقت قُبب السحاب وحَلَّقت   وقف العقابُ إزاءها ولهانا
ما كان أبدع مشهداً عاينتُهُ   يسبي القلوب ويَفتنُ الأَذهانا
شَاهدت «فدرين»(١) الجريَّ محلِّقاً   كالنسر يسبح في السما جَذلانا
من فوق مركبةٍ يحرِّكها كما   يهوى فتخفق تحته خَفقانا
لما دنا وقت الرحيل سَمِعت من   أحشائها ما يبعث الأَشجانا
زفَراتِ مصدورٍ تُصدِّعه النَّوى   فَتشبُّ في اضلاعه نِيرانا
حتى اذا حمِيَت مراجلُها جرت   كالليث يزأرُ في الفلا غضبانا
قالوا بساطُ الريح وهمٌ كاذبٌ   فاذا بهم قد شاهدوهُ عِيانا
مَن كان يحلم أنَّ أطباق السما   سَتضمُّ في رَحَباتها سُكَّانا
مَن كان يحسب ان مضمار الهوا   سَيصيرُ يوماً بالورى غصَّانا

---

(١) هو اول طيار حلّق في سماء بيروت

فالأرضُ لم تُشبع مطامعَ اهلها … فَبنَوا لهم في جوّهِم اوطانا
إخفض جناحك ايها النّسر الذي … مَلك الرقيع ببأسهِ أزمانا
قد كنت تزعم انّ ملكك خالدٌ … لا يُحرزُ الانسانُ فيه مكانا
فاذا به والمركباتُ سوابحٌ … في الجوّ تحملُ فوقها الرُكبانا
لا تأخذنَّك حيرةٌ مما جرى … فالله خوّل آدمَ السُلطانا
أين المفرُّ من الأنام فإنهم … خرقوا السماءَ وسَخَّروا الأكوانا
ما كنتَ تخشى في حماك مُزاحماً … حتى رأيت بجوّك الإنسانا
فلقد مضت يا نسرُ دولتُك التي … هدمت لها ايدي الورى الأركانا
ومضى زمانٌ كنت فيه مُمنّعاً … تطوي الرقيعَ وتنثني نَشوانا
ياشرقُ ما لك خاملاً والغربُ في … أوج النباهة ينشرُ العمرانا
أفلا تراهم يُحدثون غرائباً … يَقِفُ اللبيبُ أمامها حيرانا
من كل مُعجزةٍ نَكاد نَعدُّها … سِحراً ونحسَبُ ربّها شيطانا
لا ، ليس من سحر هُناكَ وانما … تَلِد العلومُ المعجزَ الفتّانا
سقياً لصدركِ يا فرنسا إنهُ … يسقي الصدورَ من العلوم لِبانا
ايُّ اكتشافٍ لم تكوني أمَّهُ … او لم تريدي صنعهُ إتقانا

وطني المفدى

سوادُ العينِ يا وطني فِداكا … وقلبي لا يَوَدُّ سوى عُلاكا
نشأتُ على هواكَ فتىً وفيّاً … ومــا عَوّدتَني إلّا وفاكا
فكم عزّزتَني ورفعتَ شأني … وكم أجهدتَ في مَددي قِواكا
وكم أنزلتَ من وحيٍ جميلٍ … على فِكري المُحلّقِ في سماكا
أيا وطنَ الأسودِ فدَتْك نفسي … وخيرُ الناس مَن ماتوا فِداكا
رضعتُ مع الحليب هواكَ صِرفاً … فعزّزني وشرّفني هــواكا

سأبذلُ مُهجتي ودمي وقلبي فِدى شرفٍ تسلسلَ في دِماكا
وأرعى عهدَ حُبّك كلَّ عمري وأبقى في الضريح على ولاكا
فما لي في سِواكَ حمىً منيعٌ وهل يَحمي بنيك سوى حِماكا
لقد أبقيتَ لي شرفي مَصُوناً وليس يذُودُ عن شرفي سواكا
اذا ما انتابني داءٌ عُضالٌ شفاني الأرزُ ينفحُ في رُباكا
وكيف يُلِمُّ بي داءٌ وبيلٌ وقد نَشِق الفؤادُ شذا ثراكا
لأنتَ حديقتي ونعيمُ روحي وحسبي نعمةً أني أراكا
سأنشرُ في الورى ذكراك حتى يفوحَ بكلّ ناحيةٍ شذاكا
وأجعلُ في الفؤاد هواك دِيناً وأجري طِبق ما يهوى عُلاكا
لأنت سقيتني علماً زُلالاً وأنت أنرتَني بسَنا هُداكا
وأنت جعلتَني في كل خطبٍ حُساماً في يديك على عِداكا
فصرتُ فتاكَ في كل الدواهي وحسبي عِزّةً أني فتاكا
أكُرُّ على العِدى لَيثاً هصُوراً اذا ما حاولوا يوماً أذاكا
ولي قلبٌ جريءٌ لا يُبالي ببذل الروح إن خطبٌ دهاكا
وكيف أخافُ غاراتِ الاعادي وفوقي باتَ خفّاقاً لِواكا
جعلتُكَ بعد ربّي خيرَ ربٍّ وما ضلَّ الأُلى عبَدوا بهاكا
ولم يُخطئْ بنوكَ وهم سكارى بحبّك بعد أن نَشِقوا هواكا
ستُدركُ مهجتي غُررَ الاماني متى أدركتَ في العليا مَداكا
وأرشفُ في الحياة ألذَّ كأسٍ متى استوفيتَ حظّكَ من هَناكا
فكم أنجبتَ من مولًى خطيرٍ بنى للمجد صرحاً في ذُراكا
وكم أنبتَّ من بطلٍ كميٍّ أنالكَ ما تعذّر من مُناكا
وكم نشّأتَ من حُرٍّ أبيٍّ كساكَ من المفاخر ما كساكا
عليكَ وقفتُ يا وطني حياتي وما أشهى المنيّةَ في رضاكا
اذا ما متُّ فاحفر لي ضريحاً حِيالَ الأرز تؤنسني صَباكا
ولا تجعل لجسمي يومَ دفني سوى كفَنٍ تُطرّزهُ يداكا

اللغة العربية على منبر الخطابة

كَتَبَ اللهُ لي البقاءَ مديدا ‏ ‏ ‏ واللغاتُ الحسان تهوى الخلودا
ما جفاني من نشأتي قطُّ وُلدي ‏ ‏ ‏ بل كسَوني من العلاء بُرودا
أيُّ نحرٍ بين اللغات كنحري ‏ ‏ ‏ قَلَّدته يدُ القريضِ عُقودا
أيُّ صدرٍ يحوي الكنوز كصدري ‏ ‏ ‏ ويُريكَ الجمان فيه نضيدا
في الفيافي نشأتُ لكنَّ بُردي ‏ ‏ ‏ راقَ وشياً ولا يزالُ جديدا
شُعرائي قد أخرسوا بالقوافي ‏ ‏ ‏ كلَّ شادٍ يُسكِتُ الغِرّيدا
حَلَّقوا في العلى نُسوراً وصادوا ‏ ‏ ‏ ما رأوهُ من المعاني فريدا
ولكم رنَّح المنابرَ فخراً ‏ ‏ ‏ خُطبائي وارقصوا الجلمودا
فتصفَّح أَسفارهم إنَّ فيها ‏ ‏ ‏ حِكماً تجعلُ الضَّلول رشيدا
كلُّ ندبٍ يخوض بحر بَياني ‏ ‏ ‏ لا يُحلّي بغير دُرّي الجيدا
واذا ما تلا تراجم قومي ‏ ‏ ‏ أبصرَ الأسد والاباة الصِيدا
ورأى الذوقَ في الفلا حضَرياً ‏ ‏ ‏ ورأى اللُّطف كيف يأوي البيدا
قد طويتُ الزمان عصراً فعصراً ‏ ‏ ‏ ومَلأت الزمان عزّاً وجودا
وتفرَّدت بالبلاغة حتى ‏ ‏ ‏ رفعَ العُجمُ في الرُّبى لي بُنودا
عجزَ الناسُ عن لحاقِ غُباري ‏ ‏ ‏ وتجاوزت في السِباق الحدودا
انَّ حفظ الذمام قد بات عندي ‏ ‏ ‏ سُنَّةً لا أُطيقُ عنها مَحيدا
أيُّ عهدٍ قطعتُهُ كان منه ‏ ‏ ‏ حولَ عُنقي القيودُ تعلو القُيودا
واذا ما وعدتُ انجزت وعدي ‏ ‏ ‏ وكثيرون ينكثون العهودا
انَّ نفسي تطيب إن يقضِ يوماً ‏ ‏ ‏ في سبيل الوفا وحيدي شهيدا
والمعالي، وقد بلغتُ مداها ‏ ‏ ‏ هيَ كانت على كمالي شُهودا
نخوةٌ في حماسةٍ في إباءٍ ‏ ‏ ‏ لا ترى في الحِلى لهنَّ نديدا
وجِواري للخائفين ملاذٌ ‏ ‏ ‏ يجعلُ المحتمي به صنديدا

كيف أخشى العدى وحوليَ سورٌ من قلوبٍ بها أفلُّ الحديدا
كيف اخشى غاراتِ ريب الليالي وامامي لبنان يُدمي الأسودا
كيف اخشى ذُبولَ روضي وعندي منهلٌ طابَ مصدرًا وورودا
معهدٌ قد لقيتُ في جانبيهِ عَطفَ أمٍ على الوليدِ وحيدا
يُرضعُ النَّشءَ من ثديَّ حليباً فيشبُّ الفتى حُساماً حديدا
يا بني العُربِ عزّزُوني فتحيوا وأذيعوا في الأرض ذكري الحميدا
وانشروا في الملا مآثر قومي وتحدَّوا بالمكرمات الجدُودا
كانت العُربُ في الخيام ملوكاً أتكونونَ في القصورِ عبيدا
كانت العُربُ ارحبَ الناس صدرًا ولدى الضَّيم اصلبَ الناس عُودا
لا يرونَ الوفاقَ الا نعيماً ويرونَ الشِقاقَ خطباً شديدا
فانبذوا منكمُ التنافر حتى تجعلوا العزَّ في البلاد وطيدا
وتباروا في ما يُفيدُ فلاحاً وابذُلوا في العلوم جهدًا جهيدا
انما الشَّرقُ في الجهالة عبدٌ فارفعوهُ بالعلم حتى يسودا

الهزار الصداح

مرحباً بالهزار يشدو طَرُوبا فوق غصن الدّلال يَسبي القلوبا
نغماتٌ تجلو الهمومَ عن الصدرِ وتنفي عن الفؤَاد الكُروبا
ما غِناءُ الهَزار الّا مُدامٌ يتمشّى بين العُروق دَبيبا
إنَّما الطفلُ بُلبلٌ يتغنَّى في حِماهُ فيُخرسُ العندليبا
إنَّما الطفلُ زهرةٌ تملأُ العينَ جمالاً وتُفعمُ النفسَ طِيبا
انما الطفل كوكبٌ يُلبس الرَّبعَ رِداءً من البهاء قشيبا
حبَّذا الطفلُ يومَ يمرحُ ريماً بين سِرب الظِّبا ويعدو وَثُوبا

حبَّذا الطفلُ يومَ يغدو طَلوبا　　للمعالي وللعلوم كَسُوبا
حبَّذا الطفلُ يوم يُضحي فتيًّا　　وله عزمةٌ تُذلُّ الصَّعوبا
حبَّذا الطفل وهو كهل رصينٌ　　وله الرأيُ كالشِّهاب ثَقوبا
حبذا الطفل وهو شيخٌ وَقورٌ　　وله فكرةٌ تريه الغُيوبا
إيهِ يا بلبلَ الرِّياض ترنَّمْ　　إنَّ مِن حولك السميعَ المجيبا
ولك الصدرُ حين تصدحُ غصنٌ　　فتنقَّل على الصدور حبيبا
وتفكَّه بحبّ أمٍّ رؤوم　　ترتجي أن تراك نجلًا نجيبا
وارشُفِ اللُّطف من أبيك زُلالاً　　وارعَ منهُ مرعى الحنانِ خصيبا
وتدلَّلْ ما شئتَ فالقلبُ يُسبى　　بدلالٍ يكونُ سِحرًا مُذيبا
أنت أُنسٌ لوالدَيك وسلوى　　حبَّذا الأُنس بالبنين نصيبا
فخريفُ الحياة يغدو ربيعاً　　حين تغدو لدَنَ القوام رطيبا
ملكٌ انتَ في السَّرير وديعٌ　　في هواك الغريبُ يحكي النسيبا
فاذا ما سكتَّ تسبي نُهانا　　واذا ما نطقتَ تُعيي الخطيبا
رُبَّ ثغرٍ رصَّعتَهُ بابتسامٍ　　كان مجرًى للكهرباء عجيبا
رُبَّ دمعٍ نثرتَهُ كاللآلي　　كان كالنار في الصدور شُبوبا
ومُناغاتك اللطيفةُ تشفي　　من سقامٍ يُعيي الطبيبَ الأريبا
أنتَ لا تدري ما الحياةُ وما أسـ　　ـرارها حينما تُغنّي طَرُوبا
كم رأيناك في الحِمى تتغنَّى　　وسمِعنا بعد الغناء نحيبا
هل تراءت لمقلتَيك الأماني　　زاخراتٍ فخُضتَهنَّ لَعوبا
أم تعاميت عن صروف الليالي　　فتوهَّمتَها سَراباً كَذُوبا
أَم رأيتَ الخطوبَ وهي جبالٌ　　فوق هامِ الورى فخفتَ الخطوبا
أم رأيت الحياة كالشمس تبدو　　وتُداني عند المساء الغُروبا
أَم عرفتَ الدنيا بدار اغترابٍ　　فكرهتَ المُقام فيها غريبا
أَم رأيت الدماء تجري بحارًا　　مُذ غدا المرء في الملاحم ذيبا
فأَبيتَ الحياة بين الضواري　　مع طُغاةٍ يأبون إلَّا الحروبا

كلُّهم يدَّعي التمدُّنَ صِرفاً   وهو للحرب لا يزالُ رَكُوبا
ايُّ حربٍ كهذه الحرب شؤماً   لم تَرَ المُرد قبلها قطُّ شِيبا
لا تخفْ أَيها الصغيرُ الرزايا   إن تحاميتَ في الحياة العُيوبا
ما شقاء الحياة إلّا من المرْ   ءِ اذا عاش في الأنام مَعيبا
كلُّ مَن يألف المخابث يُمسي   في سِباق العُلى جَزوعاً هَيوبا
والذي يُحدث المجازر يلقى   أبداً ربَّه عليه غَضوبا
سالِم الناسَ واعتزل كل شرٍّ   يبقَ غيثُ الهنا عليك سَكوبا
واصنع الخير ما حييتَ وجانب   كلَّ امرءٍ يُلقي عليك الذُّنوبا
فالذي يزرع البلاء بقومٍ   آمِن السِّرب يحصُد التأديبا
يحسبُ الناسُ أنهُ في نعيمٍ   وهو يُصلى طيَّ الضلوع اللهيبا
والذي يصرف الزمانَ شريفاً   فهو في الأرض كوكبٌ لن يغيبا
هوَ حيٌّ بالذكر والذكرُ يبقى   في فؤاد التاريخ مسكاً وطيبا
ها أبوكَ المفضال يحيا جليلاً   مُحرزاً في الورى المقامَ المَهيبا
أَنزلتْهُ القلوبُ فيها اميراً   مُذ دعاه النَّدى فلبَّى مُجيبا
فتشبَّهْ بفضله تحيَ رَغداً   وترَ السعدَ في يديك ربيبا
وتمتَّع بعَطف أُمّك وانعَم   بحُنُوّ يُنسيك حتى الحليبا
أيها الطفلُ كُن فتًى عبقرياً   واحيَ في قُطرك العزيزِ حسيبا
واملأَنَّ التاريخ مجداً وفخراً   وانشُرنَّ الآثار فيه طُيوبا
مثلَك النابغون في الارض كانوا   فعسى أن تكون اسمى نصيبا
جئت بِكراً لوالدَيك فذاقا   من ملذّات ذي الحياة ضُروبا
وغداً تُصبحُ الأديب المرجّى   عند قومٍ يُؤَلِّهون الأديبا

اليوبيل الذهبي

للاب لويس شيخو اليسوعي

كَلَّ اليراعُ وما كللتَ فقِفْ بهِ   وانظر الى الذكر الذي احرزتَهُ
ذكرٌ يخلّده الذي صنَّفتَه   وجمعتَه وضبطتَه وشرحتَهُ
أفما لعضبِك في حياتك راحةٌ   يوماً فينسى كلَّ ما حمَّلتَهُ
أوَما لروحك من فراغٍ ساعةٌ   من بعد ما جاهدتَ ما جاهدتَهُ
حتى ترى انَّ البلاد مُقِرَّةٌ   أبدًا بفضلٍ طالما عمَّمتَهُ
ايُّ امرئٍ في قُطرنا لم يلتقط   مما نثرتَ من اليراع وصُغتَهُ
لغةٌ حملتَ لواءَها منذُ الصِبا   ونشرتَهُ في الخافقين وصُنتَهُ
ترنو اليك وانت تنظُمُ عِقدها   فتَقِرُّ مقلتُها بما نظَّمتَهُ
كم زاد رونقُها بما نسَّقتَهُ   وزها محيَّاها بما نقَّحتَهُ
ولكم علا بين اللغات مقامُها   لمَّا تحلّت بالذي رصَّعتَهُ
ما «المشرقُ» الوهَّاجُ الّا كوكبٌ   ملأ البلاد هدًى بما أودعتَهُ
ما «المَشرقُ» الصدَّاح إلّا بُلبلٌ   سَكِرَت بهِ الآذانُ مذ أنطقتَهُ
تصبُو اليهِ نفوسُنا كَلَفًا بما   حبَّرتَهُ فيه وما أبدعتَهُ
أنشأتَ للأَعراب أنفسَ متحفٍ   ممَّا اكتشفتَ لهم وما استنبطتَهُ
لولاكَ ظلَّت تحت أَطباق الثرى   آثارُهم فاهنأْ بما استخرجتَهُ
لك في الصدور مَهابةٌ قامت على   عرشٍ بجيشِ المَكرُماتِ خفرتَهُ
فالتفَّ تحت لِواك أشرفُ موكبٍ   ومشى وراءَك فيلَقٌ درَّبتَهُ
وعزيمةٍ ذاب الحديدُ ولم تذُب   وبدا لها الصَّعبُ الجَمُوحُ فرُضتَهُ
أرهفتَها في كلّ خطبٍ مُعضلٍ   فنَضا عليكَ حُسامَهُ فشطرتَهُ
إنَّ الحميَّة في فؤادك شيَّدَت   منذُ الفتوَّة مَعقِلًا عزَّزتَهُ

وحميتَــهُ من كلّ طارئةٍ ولم تدعِ الغُواةَ تدُكّ ما حصّنتَهُ
خمسين عاماً قد طويتَ مُحلِّقاً كالنّسر تهزأُ بالذي عاركتَهُ
وشِعارُك الحقُّ المبينُ يصونُهُ قلَمٌ على الحقّ المبين وقفتَهُ
عضبٌ نبَت كلُّ الصوارم دونَهُ لم ينثلمْ حــدّاهُ مذ جرّدتَهُ
وشحذتَ بالحُجَج القواطع غربَهُ فانسلّ جيشُ البُطل حين شحذتَهُ
لا تُغمِدِ السيفَ الذي ثلَمَ الظُّبى ورفعتَنا فوق الرُّبى ورفعتَــهُ
لو كان يلقى ذو النبوغ جزاءَهُ وينــالُ في دنياهُ ما قد نلتَهُ
لَأُعيدَ للشرقيّ غابرُ عزّهِ وأراكَ من آياتِــهِ ما شئتَهُ
أو كان يُنصَب في الحياة لمحسنٍ أثرٌ على ما شاد ممّا شِدتَهُ
نصبوا لك التّمثالَ فوق منارةٍ شمّاءَ من مجموع ما أنشأتَهُ

تحية « غورو » القائد الكبير

أيُّها القائد الكبيرُ الخطيرُ أنت للسيف من صِباك سميرُ
أقسم السيفُ أن يكون اميرًا إن نضاهُ على عِداهُ الأميرُ
سِر بجوّ العلى الى حيث تهوى فالمعالي تسيرُ حيث تسيرُ
ولك القلبُ أينما كنت برجٌ ولك الصّدرُ مِنبرٌ وسريرُ
كنتَ في الحرب آية البأس حتى هابكَ القِرنُ وهو ليثٌ هصورُ
فسحقتَ الجيوشَ تِلوَ جيوشٍ وغدت تحتك الرّواسي تمورُ
وحُصونٍ في رمسَ قامت جِبالاً شاهقاتٍ تهابُهُنّ النّسورُ
ما حمتها صحائفٌ من حديدٍ بل حمتها من الجنود الصُّدورُ
قلبُ غورو ، والموتُ عذبٌ لديه يومَ يدعو الى الجهاد النفيرُ
حمّس الجند في المعارك حتى باتَ كلٌّ الى المنون يطيرُ
ما بناهُ الألمان في نصف قرنٍ زعزعتهُ من أُسِهِ كفُّ غورو

هيَ خطَّت والنصر طوعٌ لما خطَّت وربُّ النصر العزيزُ القدير
مَن عليه عوَّلتَ في كلّ خطبٍ   مستجيرًا بـه ونعمَ المجير
ايها البوش لا تنوحوا فهذي   شيمةُ الدهر والحظوظُ تدور
قد سكرتم عُجباً وتهتم دلالاً   فانظروا اليومَ كيف كان المصير
كنتمُ سادةً فصرتم عبيـدًا   وعِقابُ الشعب العتيّ النِيرُ
يومَ طارت يمينُ غورو ترنّحتم سرورًا وهل يليق السرور
كان ذا منكم غرورًا وما يعلق الا بالأغبياء الغرور
انَّ يمناه ان تطِر يبقَ فيـه   قلبُ ليثٍ على الليوث يُغير
أوَ ما فيه همّةٌ لا تسامى   اوَ ما فيـه عزمةٌ لا تخور
كانتِ الحرب بالسلاح فأمست   حربَ فنٍّ يفوز فيها الخبير
جئت غورو لبنان والأَمنُ فيه   ضائعٌ والبـلاء طامٍ غزير
جئت لبنان والمجازرُ فيـه   زاخراتٌ كأنهنَّ بحـور
جئت لبنانَ والعيونُ دوامٍ   وفؤادُ الفقير فيـه كسير
فتدارك حشاشةً في بنيـه   قبلَ أن ينزل البلاء الكبير
إنَّ جيراننا استطالوا علينـا   فصبرنا ولم يَرُعنـا الزئيرُ
وربضنا حولَ العرين أُسودًا   ووقفنا والقلبُ فينا يفورُ
كيف نُغضي على الهوان وفينا   كلُّ حُرٍّ به العدى تستجير
نحن قومٌ الى الضَّياغمِ نُعزى   لم يَهُلنا شرُّ العِدى المُستطير
نحنُ لولا حُبُّ السلامِ لَطِرنا   مثلما كنـَّا للحروبِ نطير
نحن لولا هيامُنـا بفرنسا   لجهِلنا ومـا علينا نكير
إنَّ في صَدرنا نُفوساً كبارًا   كلُّ خطبٍ في مُقلتيها صغير
فاذّخرنا لحادثاتِ الليـالي   فابنُ لُبنانَ في الوغى مشهور
يا ابا الحزمِ عالجِ الدَّاءَ فينا   إنَّ داءَ الشِّقاقِ داءٌ مُبير
فرّقَ التُركُ بيننـا من قُرونٍ   فغدَونا والغِلُّ فينـا يَثور
إنَّ عينَ السماءِ ترعاكَ يقظى   وقلوبَ الأعوانِ حولكَ سورُ

من المهد الى اللحد

على صفحاتِ العمر خطَّت يدُ الدهر عِظاتٍ لِذي الذِكرى تُسطَّرُ بالتِّبرِ
عرَفتُ بها سرَّ الحياة وكُنهها وما تحتوي الدُّنيا من الحلوِ والمرِّ
فما العمرُ الا مرحلاتٌ نجوزُها على الشوكِ أحياناً وحيناً على الزَّهر
تَشيدُ لنا الأحلامُ بُرجَ سعادةٍ فتنسفهُ الايامُ بالنُّوَبِ الحُمر

(الطفل)

ومهدٍ به نامَ الصغيرُ مقمَّطاً كأني به العصفورُ يرقُدُ في الوَكر
يُريد حراكاً والقِماطُ يَصُدُّهُ فيلبَثُ مغلولَ اليدين على قسر
تُترجمُ عن لوعاتهِ عبَراتُـهُ فتنثرُها عيناهُ درًّا على النَّحر
اذا هزَّ صوتُ الطفل مهجة أُمهِ فبرقُ الهوى ما بين قلبيهما يجري
تُناغيهِ نشوى من ملامح وجههِ فيُصغي الى أنغامِها باسمَ الثغر
وتُنشدُهُ شعرَ الهوى فيُعيدهُ بلهجتهِ العجماء سحرًا على سحر
بمرآهُ يغدو السُّهدُ أشهى من الكرى اليها وجنحُ الليلِ ازهى من الفجر
تراه بمرآة الغرام كأنـه أَخو البدرِ او ابهى ضِياءً من البدر
وطورًا تخالُ الدهرَ ينضو حُسامَهُ على غصنهِ الميَّاس في زهرة العمر
فيثقُبُ سُوسُ الهمِّ جذعَ فؤادها ويَقذف من حوليهِ موجاً من الذُّعر
ألا إنَّ عيشَ الأُمِّ مرٌّ مَذاقُهُ وعيشَ ابنها في المهد ضربٌ من الأسر

(الصبي)

ويومٍ به طابت عن الناس مهجتي فلم ارَ للسَّلوى سبيلًا سوى القَفر
خرجتُ وفي صدري الهمومُ كأنها رواسٍ ومَن يقصِي الرواسيَ عن صدري
فمذ اشرفت عيني على زهرة الرُّبى وقد كلَّلتها بالجُمانِ يدُ القطر
رأيتُ جيوشَ البِشر شدَّت على الأسى فلم تُبقِ للأتراح في الصَّدر من إثر
هنالك نهرٌ تعقدُ الريحُ فوقَهُ زُرودَ لُجينٍ او سلاسلَ من درّ

على ضَفَّتيهِ الدَّوحُ مدَّ ظِلالَهُ   لهُ نفحاتٌ أَينَ منها شذا العِطر
إذا بفراشٍ مرَّ يعدو وراءَه   صبيٌّ ذكت في خدهِ جُذوَةُ الحرّ
فلم يرَ غيرَ الدَّوحِ من ملجإٍ له   فلاذَ بهِ حرّانَ من شِدَّةِ الفرّ
وقد وقعت عينُ الفتى بعدَ ساعةٍ   على بيت نملٍ حول كُدسٍ من البُرِّ
فدمَّرهُ ظُلماً وشتَّت شملَهُ   وأتلفَ ما فيهِ من النَّمل والذُّخر
فقلتُ بنفسي هذهِ صورةُ الذي   يُذيقُ الورى كأساً أمرَّ من الصَّبر
متى أَلِفَ الأَحداثُ ان يُنزلوا الاذى   بأَعجز خلقِ الله شبُّوا على الغدر

(الشاب)

نظرتُ الى اهل الشَّبيبةِ نظرةً   تجلَّت بها شمسُ الحقائق في فكري
لهم عزَّةٌ قعساءُ تأبى صغارةً   وهمَّتُهم من دونها هِمَّةُ النسر
يغوصون في بحر المفاخر جهدَهُم   ليستخرجوا الدُّرَّ الثمين من القعر
أُسودٌ أُباةُ الضَّيم في ساحة الوغى   لهم عَزَماتٌ لا تكِلُّ عن الصَّخر
وأَوطانُهم لا يُستباحُ ذمارُها   يُحامونَ عنها بالمُثقَّفةِ السُّمرِ
رعى الله أشبال العرين وأسده   وصانهمُ من عصبة الختل والمكر
وحيَّا مَغاوير الحروب تحيَّةً   تُردِّدها في غابها أُسدُ الخِدر
همُ عُدَّةُ الأوطان يحمونَ عزَّها   ببأسٍ على حدِ الظُّبى ابدًا يجري

(الكهل)

ولا نالتِ الحُلَّى الكهولَ فإنهم   ليجنون زهر الرُّشد من فَنَنِ الخُبر
لهم همَّةُ الفتيان لكنَّ قلبهم   بصيرٌ بأخلاق الورى سابِرُ الدهر
فلا تستفزُّ المطرباتُ قلوبَهم   وليسوا أوانَ اللهوِ كالخودِ في الخِدر
فهم بين حدَّي خفَّةٍ ورزانةٍ   فما هُمْ بأطوادٍ ولا شاربي خمر
اذا رُزِقَ الكهلُ البنينَ غذاهمُ   بآدابهِ الحسنى وأخلاقهِ الغُرّ
يُلقِّنُهم في المهد حبَّ بلادهم   ويجعلُهُم من معشر السُّوء في حِجر
ويحجُزُ عن أسماعهم كلَّ لفظةٍ   تؤَدِّي بهم يوماً الى هُوَّةِ الوِزر
ويحجُبُ عن ابصارهم كلَّ مشهدٍ   يُثبِّتُ في الأذهانِ جُرثومةَ الشَّرّ

اذا اعوجَّ غصنٌ فيهم هبَّ مُسرعاً … يُثقِّفُهُ غضاً فينجو من الكسر
وإن بدَرت منهم بوادرُ حدَّةٍ … يؤدِّبهم باللحظِ لا الضَّرب والهُجْر
فلحظتُهُ أمضى من السَّيف عندهم … وهيبتُهُ تُغني عن العُنفِ والزَّجر
وإن صنعوا صُنعاً جميلًا جزاهمُ … جزاءً يُحلِّي عندهم عملَ البِرِّ
يُديرُ عليهم من رحيقِ حنانه … كؤُوساً تُنسِّيهم مُعتَّقةَ الخمر
وأشرفُ ما يأتيه في جنبِ خيرِهم … إزاحةُ سِترِ الجهلِ عن ساحةِ الصدر
فيُنفقُ في هذي السَّبيل نُضارَهُ … ولا ريبَ أنَّ العلمَ خيرٌ من الدُّرِّ

(الشيخ)

وشيخٍ جليلٍ كلَّلَ الشَّيبُ رأسهُ … كتكليل غُصنِ الروضِ بالنَّور والزَّهر
إذا فلَّتِ الأيامُ غربَ مضائهِ … فآراؤُهُ تُغنيكَ عن طلعةِ الزُّهر
وإن جنَّ ليلُ المشكلات تألَّقت … له حكمةٌ أزهى من الشُّهُبِ الغُرِّ
فلا تُخطئُ المرمى سِهامُ ظُنونه … ويَقرأُ ما في صفحة الغيب بالفكر
تحفُّ به في كلّ نادٍ مهابةٌ … كما حُفَّتِ الأبطال بالمجد والنَّصر
ومجلسُهُ منثورةٌ في أديمه … عُقودُ جُمانٍ او شُذورٌ من التِّبر
له مطلعٌ زانتهُ هالةُ حكمةٍ … كأني بها من حولهِ هالةُ البدر
ألا إنَّ رأيَ الشَّيخ انفعُ للورى … من العضبِ في كفِّ الفتى الباسلِ الغِرِّ
فكم نكبةٍ جلَّى الشُّيوخُ غيومَها … ولولاهمُ ضاقت بها حِيلُ القُطر
وكم غمرةٍ خاضوا على إثرِ غمرةٍ … ولم يحفلوا يوماً بمدٍّ ولا جزر
لقد صقَلت كفُّ التجاربِ ذهنهم … وبالصَّقلِ يغدو الذِّهنُ أجلى من الفجر
فباتوا على خُبرٍ بأطوار دهرهم … وعِلمٍ بما فيها من النَّفع والضُّرِّ
اذا كرَّ جيشُ العُمر جرَّد فكرُهم … عليه من الآراءِ صَمصامةً تفري
على أنَّ عمرَ الشَّيخ مُرٌّ ولو غدا … على عرشِ عزٍّ في سما النَّهي والأمر
تراهُ أوانَ القرِّ يهتزُّ رِعدةً … وان حلَّ فصلُ القيظ ذابَ من الحرِّ
ينوحُ على عهدِ الشَّبيبةِ نادباً … قواهُ وقد خانتهُ في مغربِ العمر
فلا غروَ إن يأسفْ على زمن الصِّبا … فقد باتَ مثل القوس محدودبَ الظَّهر

وأبصارهُ كلّت واسنانهُ هوَت ... وفي صدره همٌّ احرُّ من الجمر

يرى حولهُ أنَّ المنايا رواصدٌ ... لِتُنشبَ في احشائه مِخلبَ الغدر

وفي يدِها المنحاتُ تنحِتُ قبرَهُ ... وتحفُرُهُ كفُّ الرَّدى ايمَّا حفر

فليسَ يغيبُ الموت عن عين فكره ... ولا تُصرَفُ الانظارُ عن لُجَّةِ القبر

فتبًّا لدنيا يغمُرُ الناسَ همُّها ... ولذَّاتُها فيها عصيرٌ من الصَّبر

اذا شئتَ ان تحيا حليفَ سعادةٍ ... فأكثِرْ من الحُسنى وأقبِل على البرِّ

فخيرُ الورى مَن زانَ ايَّامَ عُمرهِ ... بما يُبهجُ الألبابَ في موقفِ الحشر

تحية كلية القديس يوسف

في يوبيلها الذهبي

في المَشرِقَين نشرتِ نورَ هُداكِ ... والغربُ عبّاقٌ بطيبِ شذاكِ

يا جنّةَ العلياءِ هل من جنّةٍ ... تُهدي الى العلياءِ مثلَ جَناكِ

روّحتِ صدرَ الدين حتى شاقَهُ ... ما تحملُ النَّسَماتُ من ريّاكِ

من حولكِ الانهارُ يجري ماؤُها ... مُتدافعَ الأمواجِ فوق ثَراكِ

ولقد زكَت فيكِ الغصونُ وصافحت ... قِمَمَ الجبالِ وهامةَ الأفلاكِ

والعلمُ لاحت في البلاد بدورُهُ ... مُذ فاض في جوّ البلاد سَناكِ

كم من فتًى حاز العُلى من بعد ما ... أرواهُ من لبَنِ العُلى ثدياكِ

كم من فتًى نظَم الحُلى في نحره ... لمَّا ملأتِ من الجواهر فاكِ

كم من فتى قد صار سيّدَ قومهِ ... وفؤادُهُ يهفو الى مرآكِ

يُثني عليكِ وقلبُهُ بكِ هائمٌ ... ولسانُهُ لَهِجٌ بنَشرِ حِلاكِ

لكِ مهجةُ الأمّ الرؤوم وطالما ... أنسى حَنانَ الأُمَّهاتِ هواكِ

إن يُكبِرِ الناسُ الوفاءَ فانّهم ... قد قدّسوا عند البلاءِ وفاكِ

فلكم أعنتِ على الزمان وصرفهِ   وبذلتِ في مَدَد الضعيف قُواك
أوَ يُنكر الشرقيُّ ما أوليتِهِ   مما يُخلِّد في الورى ذِكراك
أوَ يجحد الابناء فضلكِ والعدى   شهِدوا بما جادت بهِ كفّاك
كم من يتيمٍ كان عَيْل قومهِ   فغدا إمامَهُمُ بفضل غِذاك
كم جاهلٍ أمسى منارَ بلادهِ   بعد اقتباس العلم في مغناك
رشفَ المعارفَ وهو ريّانُ الحشى   حتى ارتوى من غاديات سماك
كم تائهٍ أمسى على نهْج الهُدى   لمّا تكحّل طرفُهُ بهُداك
كم من غويٍّ ما مضى في غيّهِ   حتى طعنتِ فؤادَهُ بقناك
للحكمة الغرّاء فيكِ منائرٌ   وهّاجةٌ تهدي الى مِيناك
للعلم والآداب فيكِ مشارعٌ   سكرتْ بسلسل مائها أبناك
سقياً لمن ترعاهُ عينُكِ في الدجى   وتقودُه للمفخرات يداك
رمقتْكِ لاحظةُ السماء من الصِبا   ووقت من الزلل الذميم خُطاك
فنهجتِ في دنياكِ أقومَ منهجٍ   وفعلتِ ما يرضى بهِ مولاك
مَن يتبع الحقَّ المبين فانما   يطأُ الغواةَ كما وطِئتِ عِداك
يا غابةَ الآسادِ كم من جحفلٍ   قد سار للهيجاء تحت لِواك
خاضَ المعامعَ بين أطراف الظُبى   تحميه من عُصَبِ الفساد ظُباك
أمنارةَ الابحار هل من مركبٍ   إلّا اهتدى في شرقنا بضياك
فلأنتِ مرفأُنا الأمينُ فإن سطا   جيشُ المعاطب نحتمي بحماك
ولأنت معقِلنا الحريز اذا عدا   يوماً علينا في الوغى اعداك
طاردتِ أدواءَ النفوس فأدبرت   وجنودُها لم تخشَ غير دواك
يُعيي الأساةَ الداءُ إن يُزمِنْ وما   أعياكِ داءٌ عالجتْهُ نُهاك
لم تحفلي بالنازلاتِ صواعقاً   والعاصفاتِ تهبُّ حول فِناك
قد كان قلبُكِ في النوائب جندلاً   أفيستطيع المرجفون أذاك
يا نجمةً زانت محاسنُها العُلى   إنَّ العُلى منذ الصبا تهواك
آثارُكِ الحسناء قد رُقِمت على   ألبابنا تُخزي الذي عاداكِ

لو لم يكن للماقتين غشاوةٌ　　تُعمي العيونَ لأعظموا مسعاك
سيري على منحاكِ تحرسكِ العُلى　　فالرُّشدُ كلُّ الرُّشدِ في منحاك
واطوي من الأعصار ما شاءَ الأُلى　　يرعَونَ بالمُهجاتِ عهدَ ولاك
ابدًا تتوقُ الى لِقاكِ عيونُنـا　　وقلوبُنا تحلو لهـا نجواك
وعلى رضـاكِ دماؤُنا موقوفةٌ　　والموتُ عذبٌ في سبيل رضاك
نفديكِ بالأرواح غاليـةً ولا　　نهوى سوى أن نستميتَ فداك
يوبيلُكِ الذهبيُّ فاض شُعاعُهُ　　في كلِّ قلبٍ شاعرٍ بنداك

تهنئة بوسام

صدركَ الرَّحبُ والمناقبِ فيه　　زاهياتٌ مثل النجوم المضيَّة
قد أرانا منَ البيـان شُعاعاً　　ومن الفضل حُلَّةً سُندُسيه
وسقانا من نثره سلسبيلًا　　ومن النَّظم خَمرةً بابليَّه
إنَّ صدرًا رصَّعتَهُ بالمعالي　　لجـديرٌ بالشَّارة الذهبيه
وفؤادًا ارويتَهُ في صِبـاهُ　　من زُلال المعـارف العصريَّه
لَحريٌّ بأن يكون مَنارًا　　وحقيقٌ بالتَّهنئـات السنيَّه
عرَفتكَ البلادُ من رُبع قرنٍ　　بلبلًا في ربوعهـا الأدبيَّه
مُطرِباً مِسمَعَ العلى بقوافٍ　　غرَّدَت فوق غصنها الشاعريَّه
حولكَ النَّشءُ يشربون نَميرًا　　من مجاري آدابكَ الكوثريَّه
حملوا رايةَ الجهـادِ ونالوا　　قصَبَ السَّبق في مجال الحميَّه
ان تكُن واحدًا فحولَك جيشٌ　　دربَتْهُ اقوالُكَ الحكَميَّه
لُغةُ العُربِ قد حمَيتَ حِماها　　بيراعٍ أمضى منَ المَشرَفيَّه
أينما كنتَ ينشقُ الناسُ عَرفاً　　مِن أزاهيرِ أصغرَيكَ الذكيه

واذا كانتِ النُّفوسُ سَكارى بالتَّهاني تُهدى اليك نقيَّه
فالوِسامُ الخطيرُ يهتزُّ فخراً فوقَ صدرٍ تَزِينُهُ الأريحيَّه
فهنيئاً لكَ الوِسامُ وأولى بالتَّهاني آثارُكَ الوطنيه
كلُّ من يزرعُ الجميلَ كبيراً يحصُدُ الشُّكرَ من قلوبٍ وفيَّه
يا فرَنسا وأنتِ في كلّ عصرٍ آيةُ الله في سما العبقريه
عَلِّمينا كيف النُّبوغ يُجازى فنراه في الأُمَّةِ العربيه

العقد بين المهجتين (١)

عقدَ الإلفانِ عَقْدَ الفرقدَينْ يومَ تمَّ العَقْدُ بين المُهجتَينْ
وحريٌّ بهما بُرجُ العُلى بعد أن حلَّا سماءَ المقلتَينْ
غادةٌ هيفاءُ قد أبدعَها مَن براها آيةً للأدبَينْ (٢)
جَمَعَتْ خَلقاً وخُلقاً سَلِساً وكمالُ الحُسن جمعُ الحِليتَينْ
أشرَبَتْها أُمُّها حبَّ العُلى وأبوها قد سقاها الحِكمتَينْ
حِكمةَ التَّقوى وهل من حكمةٍ مثلُها تُسعِدُها في العالمَينْ
حكمةَ العلم الذي يرفعُها بين أرباب النُّهى في الخافقين
يا ابنَ بيتِ الفضل طِبْ نفساً بما حُزتَهُ من شِيَمٍ لا من لُجَينْ
قد رشفتَ الجودَ من منبعِهِ والعُلى استصفيتَها من معدِنَينْ
وورِثتَ العزَّ عن خيرِ أبٍ وإباءَ النفسِ عن مأسدتَينْ
ليس يُعلي المرءَ في الدنيا سوى حسَبٍ قد ناله بالأَصغرَينْ

---

(١) نظمتُها بلسان صديق لي مهنّئاً فيها الشابّ الاديب الشيخ ميشال الجميّل احد تلامذتي القدماء باقترانهِ بالآنسة المهذَّبة املي كريمة الحكيم النطاسي الدكتور امين الجميّل

(٢) ادب النفس وادب الجسد او ادب الدين والدنيا

كلُّ مجدٍ لم يقُم يوماً على	أُسّ فضلٍ كان واهي الجانبَين
كان لي والدُك البَرُّ أباً	كاد يُنسيني حنانَ الأبوَين
ولأنتَ اليومَ لي أوفى أخٍ	وكفانا أننا كالأخوَين
فاحيَ يا «ميشالُ» في روض الهنا	أبدًا مع «أَمَلي» كالزَّهرتين
إنما لبنانُ يُزهى بكما	مثلما تُزهى السما بالنيِّرَين
قد رأى في صدره زنبقتَين	ورأى في نحره لؤلؤتَين
إنْ تَباهى او تهادى طرباً	بكما ما بين اهل المشرقَين
فالمعالي أرَّختها يدُه	وحِلاه صاغ من جوهرتَين

سنة ١٩٢٥

أفول النجم

في رثاء المرحوم المطران يوسف ابي نجم

أَنجمَ الكمال وبدر السَّدادْ	قليلٌ على القُطر لُبسُ الحِدادْ
أفلتَ فغابت نُجومُ العُلى	وغمّ فنامت أماني البلادْ
عَهِدناكَ أحنى الانام فؤادًا	وأرعاهمُ لذمام الوَداد
وأرثاهمُ للعيون الدوامي	وأشعرهُم بالخطوب الشِداد
فلِمْ بنتَ عنّا فأدميت منّا	القلوبَ فرقّ لهُنَّ الجماد
رحلتَ ونحن أشدُّ افتقارًا	إليك فكيف نُطيقُ البِعاد
فبتنا حيارى حِيالَ الرَّزايا	وبتنا كأنّا نَهيم بواد
ولو كنتَ تُفدى لكُنتَ المُفَدّى	بألفَي هُمام وألفي جَواد
نزلتَ ضريحاً دَجيَّ الحواشي	ولو انصفوا انزلوك الفؤاد
بلى انت في كلِّ قلبٍ مُقيمٌ	وحبُّكَ يبقى ليوم المعاد
سيذكُركَ النّاسُ ذِكرًا يسودُ	كما ذكر يُوسُفَ في مِصرَ ساد

فيوسفُ صدَّ المجاعة حيناً وليسَ لفضلِكَ فينا نفاد
لقد كان ذِكرُكَ مِلءَ البلاد يُشيدُ به كلُّ شادٍ وحاد
وقد كان فضلُك صافي الزُّلال يحوم على وِرده كلُّ صاد
وقد كان رأيُكَ في المشكلات اذا ما دجونَ شعاعَ السداد
فمُذ غِبتَ ذُبنا أسًى والتياعاً ولم تذُقِ العينُ طعمَ الرُّقاد
وكيف تطيق العيون الكرى وفيها من الخَطب شوكُ القتاد
عزيزٌ علينا المُصابُ بنجمٍ مُنيرٍ هوى من سماء الرشاد
عزيزٌ على الدّين أن يُبتلى بحبرٍ خطيرٍ رفيع العِماد
فيا دهرُ كُن آمناً فالّذي تهاب مضاه إلى الله عاد
فتكت بهِ في الدجى غِيلةً كذاك الأُسود اغتيالاً تُصاد
فكيف جرحت قلوب الورى وأوريت للحزن فيها الزّناد
أليسَ من الجور ان تُجتنى السَّنابلُ قبل بلوغ الحِصاد
فما كان أفجعَ خطباً أرانا انـ قِضاض الصواعق في كلّ ناد
سمعنا لهُ في البلاد دويّاً كقصف الرُّعود ببطن الوهاد
سمعنا له في قلوب الاعادي رنين السِّهام ووقعَ الحِداد
اذا الرُّزء أدمى قلوب العدى يكون الفقيدُ فقيدَ العباد

. . . .

ألبنانُ سُحَّ الدُّموعَ غِزاراً وشارِكْ نجومَ الدُّجى في السُّهاد
وأجرِ المناحات في كلّ صوبٍ ولا تخلعنَّ ثيابَ السَّواد
ألبنان شُقَّ الفؤادَ على حكيم به قد بلغت المراد
ألبنان خُطَّ المصابَ الجسيم على القلب بالدَّمع لا بالمداد
بل احفرهُ في الصَّدر واجعل له إطار الأسى من نجيع السَّواد
ألبنان وجداً على والدٍ فقدت به في البلايا العتاد
فمَن للمشاكل إن اعضلت ومن يُصلح الدهر وقت الفساد
ومَن للخطوب اذا استحكمت ومن للقضاء اذا العدل باد

فيا لهفَ قلبي على راحلٍ   فَقدنا به السيف وقت الجِلاد
اذا الصبر عزَّ لمصرعـه   فسُوق الهنا اصبحت في كساد
أهال الاله على رمسهِ   عِهاداً من العفو تلوَ عهاد
وبوَّأه في جِنان العلى   مقاماً عليًّا جزاء الجهاد

نكبة القطرين

في رثاء المرحوم المطران يوسف دريان

مُصابٌ أسال سوادَ المُقَلْ   وأدمى القلوبَ غداةَ نَزَلْ
فما أبصرَت مصرُ من مثلهِ   وقد فُجِعَت في العُصور الأُوَلْ
ألا ودِّعي يا نفوسُ المنى   فقد غار بعد الفقيـد الأملْ
هوى من سماهُ فكان دويٌّ   كما لو هوى في خضمّ جبلْ
لقـد ثكلَتهُ الكنانةُ فذاً   كما ثكلَتهُ جميعُ النِحَلْ
فيـا لهفَ نفسي على راحلٍ   بعيدِ المراد قصيرِ الأجـلْ
فقدناه بحراً ، وفقدُ البحـار   عزيزٌ ، ولم يبقَ إلَّا الوشَلْ
لقد كان أصفى من الفجر ذهناً   وقد ضربوا بذكاهُ المثَلْ
ولو لم يكن كوكباً نيِّراً   لما ألبس الشرقَ أبهى الحُلَلْ
فكيف ثوى في ضريحٍ صغيرٍ   وقد كان دون مداهُ زُحَلْ
وكيف حوى التُّربُ صدراً رحيباً   تضيق بهِ شامخاتُ القِلَلْ
لقد ألِف الرُّشدَ منذ الصبـا   وما عرفت قدماهُ الزَّلَلْ
وقد كان في عصره أوحداً   فريدَ الخصال جليلَ العمَلْ
اذا انتَ عاشرتَهُ خلتـهُ   اخا الليث حيناً وحيناً حمَلْ
يُدير عليكَ الحديثَ سُلافاً   ويُنسيكَ وقت الحديث العسَلْ
عزيمتهُ ما نبا غربُهـا   وهمّتهُ ما اعتراها ملَلْ

قضى العمرَ وهو جريء الجنان ... فما شعرت نفسهُ بالوَجلْ
وقد كان حرّاً الضمير ابيّاً ... نزيهَ الفؤاد بدون دَخَلْ
وقد كان في نفسهِ دولةً ... تَدين له في النضال الدُّوَلْ
وقد كان في رأيهِ جحفلاً ... يفلّ الجيوش بدون أَسَلْ
وخيرُ الورى عالمٌ لا يُبارى ... وأجدرُهم بالثنا مَن بَذَلْ
فهل عرف الرمسُ ايَّ حكيمٍ ... طوى في ثراهُ وايَّ بطلْ
وهل عرفت مصرُ ما نابهـا ... وهل شعرَت بالمصاب الجلَلْ
يحقُّ لها ان تنوح عليه ... بدمعٍ سخينٍ يُذيب المُقَلْ
فمَن للحصـافةِ من بعدهِ ... ومَن ذا يُعالج منّا العِلَلْ
ومَن للجلال ومَن للمعالي ... ومَن للبيان ومَن للجدَلْ
سيرثيه لبناننـا كلّما ... أُصيب فضاقت عليهِ الحِيَلْ
أيوسفُ مَن ذا يُرينا الصواب ... اذا ما تفشّى وباءُ الخَطَلْ
أيوسف من ذا يُعيدُ الرجاءَ ... الينا ومَن ذا يَقينا الفشَلْ
ومَن ذا يسدُّ الفراغ الذي ... تركتَ ومَن ذا يسدّ الخلَل

أنة ملهوف

في رثاء المرحوم خليل باخوس صاحب جريدة الروضة

قضى فجأَةً بين الطروس خليلُ ... فيا قلب دع طرفي عليه يسيلُ
تسابقتما في الوجد حتى كللتُما ... فأَيُّكما في ذا السِّباقِ قتيل
سَوادُكما مذ ذابَ فاض سَوادهُ ... على جسدي حيث الهُمومُ تجول
فأغناهُ عن لُبس الحِداد تلهُّفاً ... على بدرِ فضلٍ قد عَراهُ أُفول
فليس ببدعٍ أن يذوبَ كِلاكما ... وقد حلّ في بطن الضَّريح خليل
نعاه ليَ النّاعي فأكبرتُ نعيَهُ ... وقلت له ان المصابَ ثقيل
اذا أنَّ صدري أنّةً إثر أنّةٍ ... فإنّ انـينَ الموجعين يطول

كأني بروحي وهيَ في غمرة الأسى   يطيب لها بعد الفقيدِ رحيل
فقلت لها يا روحُ صبرًا فإن يكن   « مُصابي جليلًا فالعزاء جميل »
فقالت وكيف الصبرُ والرُّزء هائلٌ   وليس الى مرأى الحبيب سبيل
ثوى صاحبُ النفسِ الكبيرة في الثَّرى   ومـا هوَ إلا في القلوبِ نزيل
مضى وله في كلّ صدرٍ مناحةٌ   وفي كل وجهٍ من نَواه ذُبول
عرفناه حرَّ الفِكر في كلّ موقفٍ   وما كان عن نهجِ السَّداد يحول
واخلاقهُ كانت ارقَّ من الصَّبا   كأني به للمَكرُمات سليل
اذا كان خُلقُ المرءِ عنوان فضلِهِ   فآثارُهُ الحُسنى عليه دليل
لقد كان مطواعاً اصوت ضميره   وكم من إمامٍ مع هواه يميـل
فيا راحلًا عن موطنٍ قد حميتَهُ   بجدّ يراعٍ ما اعتراه فُلول
لقد خضتَ ميدانَ النِّضالِ مُجاهدًا   ورأيك في كلّ الخطوب أصيل
فكيف رحلتَ اليومَ ياصاحبَ الوَفا   وانت علينا بالوداع بخيـل
خلّفتَ في الألباب ألذعَ لوعةٍ   وفي كلّ صدرٍ من نواكَ غليل
سقطتَ بساحاتِ الجهاد من العنا   كما يسقطُ المِغوارُ حين يجول
وفارقتَ إخواناً عليك تلهَّفُوا   وقلبُهُمُ ممّا دهاك عليـل
مشوا كلُّهم من حولِ نعشك خُشَّعاً   وأعيُنُهم شَكرى عليك تسيل
فإن يرثِكَ الخُلّانُ نثرًا فإنني   نظمتُ لآلي الدمع وهيَ سُيُول
عليك بكت يومَ الرحيلِ عقيلةٌ   بكاءَ اليأ ما بكتهُ ثكُول
وغادرتَ أيتاماً عليك تحسَّروا   وباتوا وكلٌّ عن ابيهِ سَؤُول
لقد هالهم ذاك المصابُ فاصبحوا   وفي كلّ قلبٍ لوعةٌ وعويل
عزيزٌ علينا أن يُوارُوكَ في الثَّرى   وليس لنا في الناسِ عنك بديل
عزيزٌ علينا ان نرى «الروضةَ» التي   عليها وقفتَ العُمرَ وهو طويلُ
ينوحُ على غِرّيدها بُلبلُ العلى   ويُذوي مُحيّاها الوسيمَ نُحولُ
إذا ما طواكَ الرمسُ ينشرُكَ الذي   تركتَ من الآثار وهو جليل
وفضلُكَ يبقى في القلوب مُخلَّدًا   وذكرُكَ حيٌّ والزمانُ كفيلُ

وحشة الداء

أَنشب الداءُ مِخلبَيهِ بقلبي   وأَمَضُّ الأَدواءِ داءُ الفؤادِ
وَيحَ طرفي فأيَّ ذنبٍ جناهُ   فيقاسي السُّهادَ تِلوَ السُّهادِ
ناوأتني الأيَّامُ حتى دهتني   بخطوبٍ تفتُّ قلبَ الجمادِ
مَن مُجيري مِن وحشتي ومُعيذي   مِن سقامٍ بهِ أضعتُ رشادي
فكأنَّ النهارَ ليلٌ بهيمٌ   أو كأني في ظلمة الألحاد
كلُّ نورٍ في مقلتيَّ ظلامٌ   كلُّ أُنسٍ عليَّ صعبُ المقاد
عِيلَ صبري وأيُّ صبرٍ لمضنى   زادهُ الهمُّ وهو اخبثُ زاد
فاذا الجوُّ بالغمام تغشَّى   صحتُ يا جوُّ لا تعذِّبْ فؤادي
لعِبتْ بي الغمومُ حتى كأنّي   كُرَةٌ في يدِ الدَّواهي الشِداد
وكأني بمقلتي وهي حَيرى   في لُجاج الدُّجى الشديد السواد
كلّما ساورَ الكرى مِحجريها   شرَّدَتهُ بلابلُ السُّهّاد
كم ليالٍ طويتُها وفؤادي   فوق جمر الغضا وشوك القتاد
أرقبُ النجمَ وهو مثلي مغشّىً   بغمامٍ ارسى من الأطواد
لا انيسٌ به أداوي كُلومي   لا سميرٌ يُروي فؤادي الصادي
كنتُ في عُزلتي كأني بسجنٍ   او كأني أهيم في كلّ واد
ما صفا لي في علّتي قطُّ عيشٌ   وَحرمتُ الجفونَ طعم الرُّقاد
كيف تقوى على الهجود عيوني   والمنايا تطوف حول مهادي
لم يَرُعني طيفُ الرّدى نصبَ عيني   كفراقي للحافظين ودادي
ضربَ الدهر بيننا فافترقنا   مدّةً خلتُها من الآباد
حالَ بُعدُ الديار دون التلاقي   واطِّرادُ الأنواء ايَّ اطِّراد
تابَعَ الجوُّ غيثَهُ نحو شهرٍ   فتشكَّت حتى النفوسُ الصوادي
وذعرنا من الرعود غضاباً   ومللنا المقام في كلّ ناد

يا رعى اللهُ مَن رعى عهدَ حبي ... مِن كرامِ الزُّوَّار والعُوَّاد
قد أعانوا على الشفاءِ فؤادي ... وهُمُ منهُ في مقام السواد
لو جفوني كما جفاني سواهم ... لرأيتُ الجحيم تحت وسادي
إنَّ بُعدَ الاحباب افجعُ خطبٍ ... والعليلَ المهجور اشقى العباد
فإذا ما نضرتُ بعد ذبولي ... فنُضوري من جَوْد تلك الغَوادي
واذا ما حييتُ كانت حياتي ... من طبيبي المدوَّر المِجواد
كان لي في السقام أمهرَ آسٍ ... وبُعَيدَ السقام اقوى عماد
فجزاهُ الإلهُ خير جزاءٍ ... وأنال الخُلّان كلَّ مُراد

وقفة بين عامين

بينَ عامٍ مضى وعامٍ جديدِ ... مَوعظاتٌ تبدو لعين الرشيد
يصرفُ الغِرُّ عمرَهُ في الملاهي ... وهو في قيد غَيّهِ كالعبيد
وأَمَرُّ الأيام ما كان فيها ... قدَمُ المرءِ في أذلِّ القيود
خلِّ عنكَ الهوى وعِش عيشَ حرٍّ ... تحيَ بالذكر بين اهل الخلود
ايُّ ذكر يبقى لمن عاش ميتاً ... وطواهُ الخمولُ قبل اللُّحود
إنما العاقلُ الذي يتباهى ... بالخلالِ الحسانِ لا بالنقود
وبنو العزم فخرُهم بحِلاهم ... لا بمجدٍ يَروُونهُ عن جدود
إصنعِ الخيرَ ما استطعتَ فلا خيرَ بمن كان قلبُهُ كالحديد
وتعطَّف على اخي البؤس حتى ... يتأَسّى عن حظِّهِ المنكود
كلُّ يومٍ يُقضَى بصُنعٍ جميلٍ ... فهوَ أبهى من عِقد دُرٍّ نضيد
والّذي يزرعُ العوارفَ يجني ... في اوانِ الحصادِ خيرَ الحصيد
تتوالى الأعوامُ والناسُ صُمٌّ ... عن خطوبٍ دويُّها كالرُّعود
كلّما أوعدَ الزمانُ بنيهِ ... بملمّاته ازدروا بالوعيد
عبدوا المال وهو ربٌّ كذوبٌ ... يجعلُ القلبَ كالشريدِ الطريد

اي نفع يجديهم يوم يغدو ... عابد المال بين اهل الوقود
يا عبيد الاهواء لا تتمادوا ... في الهوى واتقوا تعدي الحدود
ان من يعصي من براه يقاسي ... ما يقاسي الشريد بعد الشرود
والذي يغمط الجميل كنود ... وأخس الأخلاق خلق الكنود
اي خير ما استنزلته البرايا ... من سماء الرحمن رب الجود
انما جاد بالوجود علينا ... أي بر يفوق بر الوجود
هوذا العام فاتحاً سفر فضل ... فأملأوه من كل مسعى حميد
هاله ما رآه في كل قطر ... من زحام على النقود شديد
فعسى الله أن يمن علينا ... بسلام بعد الحروب مديد
فقلوب الورى الى السلم ظمأى ... وهي تصبو الى وئام اكيد
تلك آمالنا عسى أن نراها ... مثمرات في عامنا ذا الجديد

اصلاح الغلط

وجه	سطر	الخطأ	الصواب
٣	١٠	صنعيك	صنيعك
٤	٥	ما	مما
٤٢	٣	وجوه	في وجوه
〃	١٩	محاذرة	حذراً من
٦١	٢٥	غدر	قدر
٨٨	٢٥	والنابغين	والمبرزين
١٠٥	٣	التشوش اداراتنا	التشوش الانتظام في اداراتنا
١٢٥	٣	والاعجاب	والاعجاز
١٦٢	٨	يزنه	يزنه
١٦٧	٣	يتوفروا	تتوفر
٢٢٩	١٢	تحسيه	تحسينه
٢٤٠	٥	ينحن	ينحن
٢٤٠	٩	بخدمتهم	نجدتهم

فهرس الكتاب

وجه

١ العصاميّ خير من العظاميّ
٥ التسامح والمخالقة
٨ الأَنفة والإِباء
١٥ سرعة التصديق
١٩ عِبَر الدهر
٢٢ تنازع البقاء
٢٦ الهوى يعمي والغرض يُصمّ
٢٨ الاحلام الذهبيَّة
٣١ النخاسة العلنيَّة
٣٧ النخاسة السريَّة
٤٩ منافع الروايات ومضارّها
٥٤ اركان النجاح
٥٠ الثقة بالنفس
٦٤ الثقة بالغير
٧٤ الضبط والتدقيق
٨٥ التنشيط وإِثارة الهمم
٩٨ التيقُّظ والتحفُّظ
١٠٥ التروّي والتأني
١١٠ الاعتدال
١١٧ المنافسة

وجه

١٢١ الترتيب
١٢٨ حسن الادارة وسداد التدبير
١٣٣ الثبات والإِدمان
١٣٧ الإِقدام والإِحجام
١٤٠ الإِحكام والإِبداع
١٤٩ تصفُّح الاعمال والاقوال
١٥٣ الامانة
١٦٣ الاعتماد على النفس
١٦٩ المروءة
١٧٥ الوطن نعيم ارضيّ
١٨٠ الغيرة الوطنيَّة
١٨٢ الجرأَة الادبية
١٨٧ الانتقاد
١٩٠ آداب الانتقاد
١٩٤ الوقت اثمن من الذهب
٢٠٣ العزم والحزم
٢٠٦ العفو والحلم
٢١٠ منافع الاتحاد
٢١٤ عرفان الجميل
٢١٨ الصحة

وجه		وجه	
٢٢٠	المدرسة منبت الرجال العظام	٢٩٢	مضارّ المسكرات
٢٢٤	المهنة	٢٩٤	باب الشعر
٢٢٧	اقسام المهنة والحكمة في اختيارها	« « «	الملاحة الجوية
٢٣٠	الزراعة حياة الامم	٢٩٥	وطني المفدّى
٢٣٣	شرف المخراث	٢٩٧	اللغة العربية على منبر الخطابة
٢٣٦	الشفقة البشرية	٢٩٨	الهزار الصدّاح
٢٤٤	الاقتصاد	٣٠١	يوبيل الأب شيخو الذهبي
٢٤٩	الاسراف	٣٠٣	تحيَّة غورو
٢٥٢	التقتير	٣٠٤	من المهد الى اللحد
٢٥٥	المدنية العصرية	٣٠٧	تحيَّة كليَّة القديس يوسف
٢٦٦	الانقياد الاعمى	٣٠٩	تهنئة بوسام
٢٧٢	المداهنة	٣١٠	العقد بين المهجتين
٢٧٥	التزلُّف الذميم	٣١١	افول النجم
٢٧٧	التهوُّر والاستهتار	٣١٣	نكبة القطرين
٢٨١	آفات المناصب	٣١٤	أنَّة ملهوف
٢٨٥	العجب بالنفس	٣١٦	وحشة الداء
٢٨٩	الاستئثار والغلوّ في حب النفس	٣١٧	وقفة بين عامين

OCT 1987

- 1 OCT 1987

AC
106
B8x
1927

The American University in cairo
Library
November 02, 1993
0 0 0 0 0 2 9 2 1 9 7